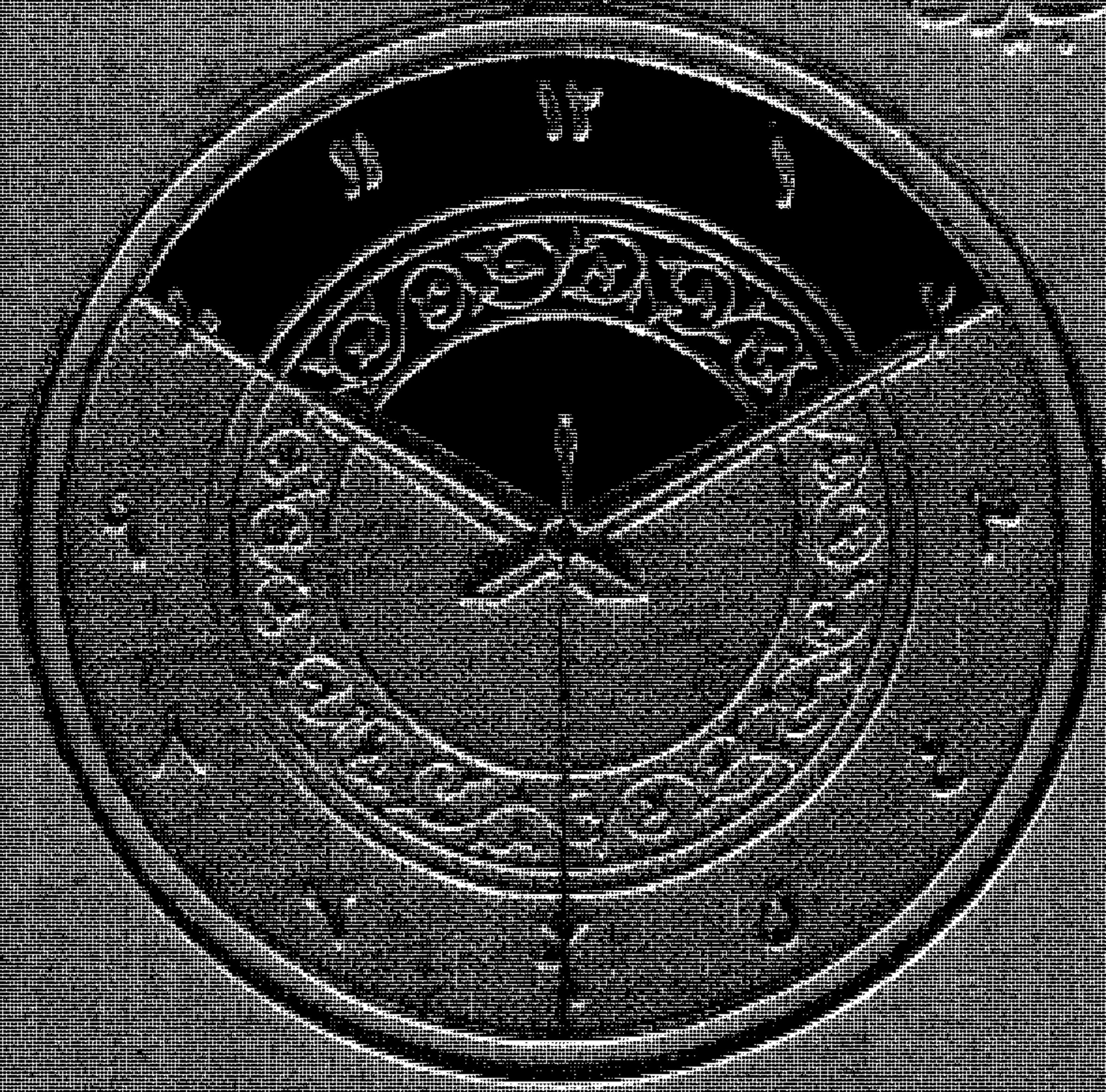


مكتبة جامعة القاهرة

مكتبة جامعة القاهرة

مكتبة جامعة القاهرة

مكتبة جامعة القاهرة



دار الكتب والوثائق القومية

مكتبة جامعة القاهرة

Bibliotheca Alexandrina



6093728

جاك بيرك

أستاذ في كوليغ ديي فزلسن
مدير في معهد الدراسات العليا

١ - العربية
٢ - الإسلام في عصره
٣ - تاريخ العرب

العرب

من الأمت إلى الفد

نقله عن الفرنسية
الدكتور علي سعد

دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة
بيروت - لبنان

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر ،
دار الكتاب اللبناني
ومكتبة المطبعة
بيروت - لبنان
ص.ب ٤١٧٦ - برقية (كتاسبان)
تليفون ٢٥٧٤٧٠ - ٢٣٧٥٣٧
TELEX No 22865 K.T.L
LE BEIRUT

١٤٠٢ هـ

١٩٨٢ م

المقدمة

قد يبدو أن المدلول المعطى هنا لاسم العرب يشكو من علتين : التجاوز والتقصير . ففيه تجاوز عندما يشتمل ، رغم فوارق الأصل واللون والمصير ، على جميع الذين يريدون انفسهم أو يحسون انفسهم عرباً ، اعني انهم عرب في هذه المناسبة او تلك ، على هذا الصعيد او ذاك من حياتهم .

لماذا اذن استبعدت اهل المغرب ؟ ذلك ان المغرب الذي انتمي اليه بما هو أوثق من روابط ابحاثي ، مدين لعبقريته الحشنة وتشنجات آلامه بطرافته التي آمل ان يوضحها كتاب مقبل .

وعلة كتابي هذا ايضاً - التقصير من حيث انه يتم خاصة بالاراضي العريقة التي ترسم ، من الاقصر الى البصرة ، قوساً دائرياً مركزه الصحراء ويستهدف سهمه فرنسا .

ولكن ما يبرر ذلك هو ان البلدان العربية التي سوف يتردد الحديث عنها ، هنا ، اكثر ما يكون الحديث ، لبنان والعراق والجمهورية العربية المتحدة هي تلك التي شرع فيها ببناء المستقبل وبتصوره . وانني ، كذلك ، اعرف هذه البلدان اكثر من غيرها ، معرفة من زارها وتردد اليها ، وأحبها ، ولانها تبعث في نفسي ، خلف كل واقعة وكل اسم ذكرى تلك المشارف من حياتي المعاشة التي لا غنى للتحليل عنها .

وبالطبع ، اكون ، بذلك ، قد تخليت عن المآثر الكلاسيكية للتبحر العلمي الداعي للانقطاع والاعتزال . ولكن بالمقابل ، اكون قد أتمت قياس حقل الدراسة بمقاييس النهج . وفي الواقع ، فقد شئت ألا استند إلا على التسجيل الشخصي او على المصادر المحلية ، اي على ما هو مباشر ومجرب . وكذلك على ما ورد في حوار ، بحيث ان اكثر البرقائع المتقطعة او الآراء الواردة رأساً من مقلع الأهواء الذي تولدت فيه والذي لا ينبغي تجريدنا منه مثلما لا يسعنا ان نسلخ تاريخ الشرق عن مناظره المرئية .

وهكذا ، فان الدقة او الامانة التي كنت اطمح اليها تشتمل ليس فقط على فجوات في المدى المعني وانما اخطارها الخاصة بها . ففي سعبي وواء الموضوعية ، لصق الوقائع والافكار ، كان حتماً عليّ ألا ألحظ الا النسبة بين شخصين : الشرق العربي ، مثلما حُده بصورة كيفية ، والغرب الذي يستدعي تحديده ، هو ايضاً ، بعض التحفظات .

فهذا الغرب ، هو ذلك الذي اختبره تاريخ العرب المعاصر ، منذ قرن ونيّف . في الاساس : الصدام الفرنسي الانجليزي عند منطلق الشوط ، والتنافس بين الكتل الكبرى ، عند نهايته . انه الغرب حامل الماكينات ولغة التخاطب ، واعمال اللصوصية والوعي . انه ذلك الذي يبني ويهدم ، والذي يشد الناس بجاذبيته ويحملهم على كرهه في آن واحد . وقد كانت روسيا القيصرية حامية الارثوذكس ، تشارك في هذا الدور ، مثلما تشارك فيه اليوم روسيا السوفياتية ، بطة سياسة ، ان كانت تتنافس مع سياسة دول الاطلسي لا تقل عنها تحدرأ من ينابيع الحضارة الفنية ذاتها :

وبما لا شك فيه ان على التاريخ الوقائعي ، وحتى على التاريخ الاجتماعي ان يرسم قواعد محسوسة للتمييز بين هؤلاء الفرقاء . فالاتحاد السوفياتي لم يعد فقط ، حتى في نظر الحياذ الايجابي ، قوة للتعاادل مع الاندفاع الاميركي ، وأحد

الثقلين في لعبة التوازن الشبيهة بتلك التي عرف الباب العالي كيف يلعبها زمناً طويلاً ، بين الدول الكبرى . فخلف اللاعبين السياسيين الكبار تنتصب اليوم مفاهيم للعالم واساليب في السلوك العملي تغزو الشعوب من داخل ، بالرغم من الدبلوماسية التقليدية ، او دون علمها . واخيراً ، فان افريقيا السوداء من جهة ، وبشرية باندونج من جهة اخرى ، وهذا النور الصيني المتوهج في اقصى الشرق ، كل ذلك يحرك عند العرب من الرجاء على قدر ما يحرك من دقة الفهم .

ولكن بحثاً مثل بحثنا هذا ، في التفاته الى الحركة الداخلية ، يستطيع ان يقتصر على القوى التي اندججت في كيان الشرق العربي والتي تسهم ، من داخله ، في لاحداث تطور تفسخي لا ينفرد فيه الحدث إلا بكل بطء . وعلى كل حال فان الذي يمي علي" اختياري هو المعيار الجيم لحوار العرب مع الخارج ، هذا الحوار الذي يمس القلب ، ويطغو على وجه الرأي ، والذي يجند ، مع ذلك ، الواقع المتصل بالاعماق .

وما كان لهذا التفسير ان يأخذ سبيله الى ضوء النهار لولا انه ينعم بتفسيرات لويس ماسينيون . وأنا اترك لشيخنا الألمي مهمة التعرف ، في هذا التفسير على ما يتبع خطاه او على ما يناقضه . او على ما يتبعه ويناقضه في الوقت نفسه وفي الحالات الثلاث ، كبير هو الدين الذي بطوق به عنقي .

وعلى سعيد اكثر اتصافاً بالطابع العملي ، يتجه عرفاني بالجمل الى جميع الذين اتاحوا لي ، لا ان ازور الشرق ، وانما ان اعيش فيه ، واحياناً ان اعيشه . الى منظمة الاونيسكو التي يعود اليها الفضل في قدرتي على الاقامة طويلاً ، في قلب الدلتا ، كخبير في التربة الاساسية ، والى الوزير ثروت عكاشة الذي افسح لي ، بعد حوادث بور سعيد المؤلمة ، سبيل العودة الى لقاء مصر السرمدية . والى السيد دي بوربون بوسيه Mr. de Bourbon Busset مدير العلاقات الثقافية في الكمي دورسيه آنذاك ، والذي كلفني بأن اؤسس في الجبل اللبناني معهداً

لتدريس اللغة العربية الحديثة . والى الضيافة المؤثرة التي لقبناها من قرية بكفيا ومن الجامعة اللبنانية . والى الدكتور عكراوي ، عميد بجامعة بغداد وقتذاك ، والذي اوصى بي ، في بلاده ، في فترة عصيبة . والى الاستاذ ظافر القاسمي الذي منعني صداقة دمشق . والى أسرة المهدي التي استقبلتني في الخرطوم استقبالا رائعا .

ومظاهر العطف هذه ، وكثير غيرها ، سمعت لي بان أقضي مع العرب اكثر اوقاتي واجملها ، منذ عام ١٩٥٣ وبان اقيم علاقات صداقة يمكن العثور على الاشارات اليها متناثرة في هذه الصفحات . وبالطبع ، لم يكن بالوسع تسمية كل هذه الصداقات . ولأقلها ببساطة : انني ما كنت لاجرؤ ابدأ على وصف تطور هذه المجتمعات لولا المطارحات العديدة والمراجعات المقارنة ، والمشاركات والاعتراضات والتشجيعات التي اغدقها علي زملائي ومعاوني وطلابي ورفاقي المشرقون .

والى زوجتي ، لوسي بيرك ، التي ترافقتني (في رحلتي) الى مشرق لم يعد صحراويا وانما عامراً بالآمال ، انا مدين بهذه الرسوم التي تعيش فيها هذه او تلك من الذكريات .

وفي باريس ، لم يكن بالقليل نصيب عدم الرضى الخصب والبحث الممنهج ابدأ بالهواء داخل الشعبة السادسة من معهد الدراسات العليا وحول اساتذته ، والاقامة الدافئة بجوار مارسيل باتايون Marcel Bataillon وفرناند بروديل Fernand Braudel والمطارحات الظريفة مع ويجيس بلاشير Régis Blachère لم يكن بالقليل نصيب كل هذه العوامل التي اکتفي بذكرها في خدمة تصيم عملي وانجازها . وقد راجعت مساعدتي م . ن . ديفو M. N. Devaux مصادري ، بصورة مجدبة ، ووضعت فهرس الكلمات والتعابير العربية .

ومهما بلغ من اهمية السند الذي حظيت به ، فان تبعتي تظل كاملة . وعلى هذا

الوجه انا اطالب بها حول المجاثي وحول احكامي . ولكنني لا اخلو من الفلتق .
اذ ان ست سنوات او سبعا من ملازمة الشرق العربي ، بالرغم من اتسامها بطابع
الاستمرار والمشاركة ، لا تكفي لباحة الحق بفتح شرفات للرؤية بمثل هذه
الرحابة . فقد كان اقرب للحرص ان لا اعرض تحقيقي إلا بصورة تفاصيل
مفككة هي وحدها المشروعة في نظر الكثيرين . وبذلك كان بوسعي ان اقدم ،
بصورة مضمونة اكثر ، ملاحظات وتفسيرات جزئية ، ولكن أصلاً ، ما كان
لهذه الطريقة ان تكون الفضلى فالجانب التفصيلي لا يولد إلا من الكل . او بالاحرى
لا يلقي واحدهما الضوء إلا من تقابلها . ومن بعد ، ففي محاولتي ، التي اعترف بانها
سابقة لا وانها هل كان ينبغي ، في سبيل ادراك الكينونة التاريخية للعرب ، ان
اهمل بالذات ما كان ، في زخم اندفاعهم نحو التوحيد ، يعبر عن الحنين للمطلق
الشامل ، فيفرض على الدراسة نفسها الاحاطة بالكلية الشاملة ؟ لم يسعني ، اذن ،
إلا ان اكيف الطريقة ، وحتى العرض ، لاجعلهما على قدر « واقع » جوهرى
الى هذا الحد .

صحيح ان حكماً من هذا النوع ، لكي يصبح مركزياً في تحقيقي لا يجرؤ ان
يتقدم الى القارئ بالاطمئنان الجازم ذاته في جميع أجزائه . فالرؤية للعالم التي لا
ازال ألقها حتى اليوم عند العديدين من العرب ، والتي يبدو لي ان تطورها هو
المسؤول ، حتى في التفاصيل ، عن التبدلات الحاضرة في مجتمعاتهم ، هذه الرؤية
انا ألمح اصولها ودعاتها حتى في العصور السحيقة في قدمها ، ولكن ، ان هي إلا
نظرية يتطلب التثبت منها استكشاف ميادين معروفة بصورة غير كافية : الفلسفة
الاسلامية ، الجاهلية ، الشرق القديم وعالم ما حول المتوسط القديم . استكشاف
لم يكن يدخل ، بالطبع ، لا في اهدافي ولا في حيز امكانياتي . وانني اترك الكلمة ، في
هذا الشأن للاختصاصيين في هذه الميادين .

وبالمقابل ، أن تكون هذه الرؤية للعالم معطاة في الواقع المشاهد ، وان

يكون بالامكان حتى تتبع تغيراتها، مع ظروف هذه التغيرات وآثارها التاريخية في الحقبة الحاضرة، هذا هو بالذات ما اطرحه عن طيب خاطر للمناقشة على العارفين والمعنيين بهذه الشؤون .

وبما يقلل من ترددي في اقتراح « تفسير » اجمالي ، انني اعتقد نفسي متمشياً ، بتصرفي هذا ، مع الوظيفة الجديدة لدراساتنا في هذا الموضوع فالاستشراق تجاوز المرحلة التي كان بوسعها ان يظهر فيها بمظهر المساعد المنقذ او الرائد العليم للتوسع الاقتصادي او السياسي . لقد اصبح من واجبه اليوم ، في اندماجه مع التطورات التي يسعى لفهمها ، ان يخدم هذه التطورات بالتحليل والمقارنة . ومن الممكن ان يضاف الى هذا ، فيما يخص حالتي ، امتياز ومسؤولية : ان أحس نفسي ، او أكاد ، واحداً من ابناء هذه النخبة المثقفة (الائتلاجنسيا) التي يزيد في جعلها عزيزة على قلوبنا انها تجدد احياناً كثيرة في استعمالها لغتنا ، وفي الكثير من اندفاعاتها ايضاً وأكثر بكثير ايضاً في الامنيات الخيِّبة ، لسوء الحظ ، ما يحملها على التطلع نحو فرنسا .

هذا لا يعني ان بلادي هي دائماً ، في نظر الشرق ، هذا الشيء الذي ، بالنسبة اليه ، ينبغي ان تتحقق المقارنة او المعارضة . على كل حال ، بلادنا لم تكن ابداً هذا الشيء بصورة كاملة . فالى جانب مناطق هذا العالم التي لم تمسها افكارنا البتة او لم تمسها إلا بصورة ضعيفة ، بسبب بعدها او بسبب المزاحمة الاستعمارية ، تقوم وتتسع مناطق اخرى ، يود الزري الاميركي ان يحمل فيها اعباء نصيب الغرب . ولو ذهبنا الى ما هو اصح واعمق من هذا التقسيم الذي لا يعدو ان يكون تقسيم مناطق نفوذ ، فهو ، حكماً ، تقسيم سطحي ومؤذي اكثر الاحيان ، لوجدنا ان الروح العربية لا تزال تحتفظ ، حتى اليوم ، بمرجع ذاتي لها ، او تنشئ من جديد استقلالاً ذاتياً في الاحساس والتعبير لا يصح ابداً لأي نظام خارجي ، اية كانت قدرته على الاغناء ، ان ينازعها عليه .

وهل في هذا ، سبب كافٍ لحمل الباحث الاجنبي على الادلاء بنظريته ، لمجرد

انه ، منذ الوهلة الاولى ، موضع الشبهة ومضطر لاتخاذ آلاف صنوف الحيلة بخافة ان يجرح في الصميم بعض الحساسيات البالغة ؟ على العكس ، ان فائدة إسهامه تكبر مع العفوية التي يستعيد بها العرب .

ولئن كنت أجروء ، اذن ، على ان اضع امامهم تاريخهم المعاصر بصورة نظام ، فعلى امل ان أخضعه لحكم هذا التاريخ . وكلما أثار انفعال النقاد من داخل ، كلما كان أثره في السير باولئك الذين يدعي خدمتهم قدماً نحو دراسة انفسهم . واذا كان ينقصه ، دون ريب ، صدوره عن اجنبي ، فهو ، بالمقابل ، ينعم بأفضلية الابتعاد . فحظوظه بالنجاح او الفشل ليست ، في نهاية المطاف ، إلا حظوظ استشراف جديد ، لا نفمي وملتزم ، في آن واحد .

وهل لزام علينا ، بعد أن دافعنا عن المحاولة ، ان ندافع عن الاداء والتعبير ؟ فالمثل الشرقي يقول : « بامكاننا ان نكذب على الحضم ، ولكن لا يمكننا ان نكذب على الصديق » . فلا سمح الله ، يا اصدقائي العرب ، ان اوهن بموافقة غير مشروطة العطف الذي ينتزع منه صعودكم المتجدد في مراقبي تاريخ الناس والاشياء . فما تفعلونه ، او بالحري ، ما انتم عليه يحمل من القيمة ما يكفي ليجعلكم جديرين بصراحة المؤرخ . فأنتم تتركبون من الاخطاء ، وان فيكم لجوانب ضعف . مثلنا تماماً .

فليكن في ذلك ما يجعلنا اكثر أخوة لبعضنا البعض .

دمشق ١٠ تشرين الثاني سنة ١٩٥٩

الفصل الأول

القطيعة مع الإنسان التقليدي

إذا كان الشرق موطن « الكلمة » ، فهو موطن الانسان الذي يتلقى الكلمة ويكثرها . وليس من مكان آخر يقيم فيه الانسان الاجتماعي علاقات اوسع او فجائية اكثر . فهنا الماضي ، وبؤس الحاضر ، ونداء الحواس والمطلق ، والتعريفات الاقوى والاندفاع الاعنف ، كل هذه المظاهر تتبدى فيه مجتمعة ، متضادة ، او متساوقة ، مغلصة او حكايات تمثل لحسن النية ، والتأليف بينها يجمع كل التناقض ويشرح الشتات ، متضمناً الخير او الدمار حسب الحالات . وهذا هو أحد الملامح الشخصية حقاً للشرق العربي . ففيه يلتقي الخالد والمؤقت ، السامي والرخيص ، والنهم العاصف للوجود والوفاء للجوهر ، ويتعد في اشارة ، في عبارة ، في مشهد . لذلك يشر فيه المباشر بالاصيل ، ففيه يتحقق البرهان على كلا المفهوم الصوفي والمفهوم التاريخي للأحداث ، اذ ان رمزاً ما يجند فيه في آن واحد ، أخلاقية متسامية والاندفاع الحاضر للجماعة . ومن هنا يحدث أن الأعمال الأكثر غريزية مثل الأعمال الأكثر اعداداً وتصميماً ، وان النفعية واللانفعية تكتشف فيه جميعاً شواهد مثالية وتنتسب الى اقوال مأثورة او وجوه كبيرة . وهكذا ، في فترات الصراع والشك ، يهرب الابتذال ، ولكن النبل يتعرض للشبهة ، والحياة بأجمعها تتأرجع بين التبشير بالدعوة والزحف في الواقع . وهي تجد داءها وثوراتها في شمول كلي ذي ضمات عناق غير مرتقبة .

ولن يكون لعباً على الالفاظ مفرطاً التقريب بين لفظي « التواصل »*
« والتسلسل »* . ان رمزاً ما ، في الشرق العربي ، هو ، قبل كل شيء ، اعلان
عن الكلي والمستمر .

القديم * وهذا الاستمرار وهذه الكلية تتمرّد على نفسها .
او الاساسي « ربيع يتضوّر »* ، هكذا يضع أديب سوري
عنواناً لاحدى قصصه (١) الربيع الشرقي القديم
يأمل البقاء على وفائه باطراح موروثاته . موروثاته الذاتية وموروثات الآخرين .
فقد خضع لكلا التراثين ، مترابطين ، في الفترة الاستعمارية . فكانا يبدوان له تارة في
صورة مصائر من صنع يديه هو بالذات ، وتارة في صورة هيئات فرضها الاجنبي .
واليوم هو يريد ان يعيد عمل كل شيء . هو يحاول ثورته الخاصة حول الحتمية
والحرية . وهو ، بذلك ، يجتاز احدى المراحل الدقيقة التي عاشتها مجتمعاتنا
قبله . فهي ايضاً قد فرضت على نفسها ، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ،
ضرورة تجديد ذاتي . وقد طوت ماضيها في « كفته الارجواني » . وقد
ارادت لنفسها الصيرورة . وعبر « الاساسي » « والحرج » ، دعت اشتراكية
الطوباويين بجرارة للتأليف والتوفيق النهائيين .

وعند العرب ، يمكن « للقديم »* ، هدف الهجمات العنيفة من قبل انصار
« الجديد »* ، ان يصبح اسماً آخر « للاساسي » . والاتباعيون يميزون ، مع
ف . بونجان F. Bonjean بين التقليد الحي والتقليد المهترى . فلنحدد القديم*
على انه القفا المهترى ، لشيء يمكن تسميته النمط المثالي العريق . شيء كان كبيراً ،
ويشعر به الكثيرون منا كامنأ في قرارة السلوك العربي ، كما يربيه الكثيرون من

« سوف تستعمل هذه الشارة للتدليل على كل لفظة ترد في النص الاصلي ، بشكلها العربي
- المترجم -

(١) فؤاد الشايب : « تاريخ جرح » - دمشق ١٩٤٤

العرب في قرارة ذاتهم . ومن هنا كانت الجاذبية الغريبة التي يسلطونها علينا . وهي ليست وقفاً على انصار التقاليد ، ولا على العارفين بالجمالية ، من طراز لورنس ، بالرغم من ان الكثيرين يتجهون نحو الاستشراق من طريق أحد هذين السبيلين . وآخرون ، وهم الذين أفضلهم ، يجبون من العرب صرختهم هذه المدوية بالحرية ، وحرارة اللمبة للتربع من جديد في صميم العصر . ويرى لويس ماسينيون عندهم أحد مواطن المطلق . وبالفعل ، في كل محاولاتهم الحاضرة يتضاد المطلق مع التاريخ ويشارك في صنعه . وفي آن واحد ، هو ينكره ويرسخ له . ونحن نلاقي من جديد ، هنا ، هذه الصفة الرمزية للشرق ، المرتبطة بالتشابك الوثيق بين الأحداث والقيم ، وبانتصاب الجديد بازاء القديم ، وبالتسوية بينهما^(١)

وهذه الحمسية ، اما أن تستمر في حالة الملكية الشائعة ؛ وإما ان تتناثر الى متضادات . فالنزاع ، في الشرق ، مظهر من مظاهر انفجار الرمز . انه يفسره ويحققه فيما هو ينتهك حرمة . والجيل العربي فيما بين الحربين ما كان ليشرع ، بضراوة ، « الجديد » في وجه « القديم »* لو لم يكن يشعر في قرارة نفسه باختلافهما وبالتالي بغموض الازدواجية في ذاته هو .

لقد تناول العرب قديمهم بكثير من سوء ، او على الأقل القديم الذي خلفته أربعة قرون من السلطنة . وقد كان في ذلك اعتراف باستمراره لماض ذي ضمانات لا محدودة . ولكن هذا القديم ، الذي يحمل ، في نهاية الأمر ، وزر أنه « استعق » الاستعمار ، وأنه تحالف معه الى حد ما ، قد استهدف للقيمة المتراكمة المتحدرة

(١) ان هذا الوضع المتقابل للماضي والحاضر ، للثورة والاصالة هو الذي خفي على دراسة تتعلق مع ذلك بالطابع المنظم مثل دراسة دانيال ليرنر Daniel Lerner « زوال المجتمع التقليدي » ١٩٥٨ - جلنكو ، وبذلك شوهت جهود منهجية بالغة العناية . وعلى العكس ، فان هذا التركيب المتغير الخاص المميز قد أحس به الكثيرون من الشرقيين . مثلاً عزت النص « مجلة المعلم العربي » ، دمشق نيسان ١٩٥٠ ص ٥٢٧ ، وهي اطروحة عن سوريا لم تنشر (١٩٥١) ص ٢٧٣ : « مجلة الاذاعة السورية » العدد ٧٢ في ١٩ - ٩ - ١٩٥٦

من رد الفعل المزدوج لهذه الشعوب، ليس فقط ضد الذين اخضعوها ، ولكن
ايضاً ضد أولئك الذين خضعوا من بين صفوفها . وان تأملاً أكثر تصميماً
وقصافية ، سوف يتبع إعادة النظر بحكم الاداة هذا ، الى حد ما . فان من السهل ،
اليوم ، فضح تواطؤ (القيسين على) الاسلام الموروث مع القوى الأجنبية ،
ولكنهم حاربوا بشجاعة في المرحلة الاولى . والشعر الحاضر ، بتهافته على
الاوزان المنسرحة واللاعقلانية ، يُدين ، عن صواب ، بلاغيي القرن التاسع
عشر . ولكن هل يسهه ان يتباهى بالخطوة عند جمهور أوسع من الجمهور الذي
يصغي للشعراء التقليديين ؟ وأخيراً فان من الأكيد ان الاشكال السياسية
المستوردة لم تحتل في النفوس ، ان لم يكن في الاقوال ، مكان العادات القديمة .
وأى غرابة في هذا الابقاء ؟ فالتقاليد مهما بلغ من تهونها ، لا تتخلى ابداً عن
ذاتها . و « البعث » او « التجديد » يتعذر منها بقدر ما يرفضها . وفي نهاية
المطاف الى أيهما يجب ان نعزو النجاح : الى الروح الحديثة التي تحمل تبعة معارك
التحرر ، أم الى استمرار الأفكار القديمة التي تستثير الثورة وتغذيها ؟ من الصعب
اعطاء الجواب . وعلى كل ، فكثيرون هم الشرقيون الذين يطرحون السؤال
على انفسهم .

ومهما كان الامر ، يمكن التخمين أن بقية بحثنا لا تدعو الى إعادة اعتبار
للقديم تناقض نفسها . ولكن الى جلاء الملامح التي تعطي الكثير من المواقف
والانماط ، التي توهم اليوم بتهمة العتق ، قوة احتمالها المذهلة ودون ريب ،
ايضاً ، قوة ماثرتها . وعلى كل حال معناها .

الكلاسيكية

الدمشقية

وفي أي موضع آخر غير دمشق (٣)
هذه المدينة الزاخرة بالمعاني ، يسعنا ان نجد
تداخلاً أكبر بين القديم* والجديد* . فلتسلق

جبل قاسيون ، ولتأمل تحت اقدامنا المدينة محومة ، حاذقة ومتجددة أبداً .
لقد تحطت الرسم المستطيل الذي عرف عنها في القرون الوسطى . فقد أطلقت
نحو الجنوب حياً مديداً من احياء الضاحية : انه حي الميدان الذي يوجه الحجاج
نحو مكة المكرمة . وهي تمد صاقاً صغيرة اخرى نحو الجبل المرصود ، قاسيون ،
من حيث تأملها ، ومن حيث يسعنا ان نحبي بعضاً من مشاهد الامكنة التي
يطل منها على التاريخ والتأمل الانسانيين . ونحت اقدامنا ، يقوم قبر المتصوف
الاندلسي : محي الدين بن العربي . وخلفنا مدفن أهل الكهف النيام السبعة ،
باشاراته السبع للقبلة (٤) . وتمتد المدينة ايضاً نحو الشمال الغربي حيث تتلقى
جادة فخمة الزائر القادم من بيروت . ولكن هاتين الزيادتين تعودان الى ما
بعد الحرب العالمية الأولى . فلنهماهما . فنحن نبغي ان نحمل انفسنا الى العام
١٩٠٠ لجمع مواقف ووقائع تنقل القديم بصورة مضمونة اكثر .

فلنتخيل مدينة الجليل الذي ترد عليه رجال « الثورة »* ، وهم اذ ذاك فتیان

٣ (هذا التحليل مدين كثيراً لادب دمشقي اصيل : الشروح القيمة التي ضمنها محمد كرد علي
كتابه : خطط الشام : الجزء الخامس والسادس (١٩٢٥ - ١٩٢٨) ، ومذكرات من
امثال مذكرات فخري البارودي - دمشق - ١٩٥١ - جزءان - ومجموعات خطب من
امثال خطب لطفي الحفسار : « ذكريات » ، دمشق - ١٩٥٤ - جزءان ، خطب شكري
القرنولي « مجموع الخطب » دمشق ١٩٥٧ .

واخيراً تحليل جميل صليبا الذي يفرد مكاناً كبيراً للشعراء : « الاتجاهات الفكرية في بلاد
الشام » القاهرة (١٩٥٧) . ومن بين الآثار الوصفية الاوربية ، لنذكر أثر جرترودييل
gertrude Bell كواحد من اكثرها غنى بالحساسية .

٤ (لويس ماسنيون : « مجلة الدراسات الاسلامية » . المجلد الثاني والعشرون ، ١٩٥٤ ،
ص ٨٧ وما يلي .

يافعون ، فأضحوا اليوم في كهولتهم آباء وجدوداً ، يتعرضون ، بدورهم ، لهجمات القوى الجديدة . وتبدو دمشق ، المزنة بمحاث الغوطة ، كالواحة (٥) . وبالأصح كمخزن للحبوب وكمركز لبستان لا حد له . وكسوق للتخزين والتحويل . وتعتبر مهارة الحرفي عن المنظر - بمعناه الفيزيائي . وتحمل الزيوت وورقات « القمر الدين » بعيداً الى العالم الاسلامي اطاب الغوطة . وفي عام ١٨٩٠ ، كانوا يعدون ٣٠٠٠ نول للحياكة تشغل ٢٠٠٠٠ عامل . وكانت هذه الانوال تصنع الأنسجة التي أذاعت شهرة دمشق : حرائر وقطنيات ، وصايات الديما (٦) ، هذا القماش الشعبي المقلم الذي كان منتشرأ في كل المشرق ، وكان يمتد حتى الأناضول ومقدونية يقاوم مزاحمة المنتجات الألمانية . ولا تزال دمشق تعيش من تسمير فوائد ادخارها . وتبدي فتتها البورجوازية نشاطاً تجارياً كبيراً . وتمتد علاقات اعمالها على مدى الامبراطورية العثمانية . وتقدم دمشق ايضاً قاعدة انطلاق على طريق مكة . وفي مزيج يميز من التقوى والمساومة والترف والملاذات ، تتزود منها جموع غفيرة بلوازمها لقضاء الفريضة السنوية . فهي تبحث عن غذاء الروح وغذاء الجسد ، في الوقت الواحد . والمسجد الأموي وأضرحة أولياء لا عدت لهم تكفل ببركات الماضي جلبة الحاضر وتؤمن المدينة وتسم بميسمها الوثام بين الناس والاشياء ، بين الجوهر والحياة .

وفي الوقت نفسه ، عرفت الفترة العديد من مظاهر التدي والتفسخ . فمنذ قرون طويلة ، تناثرت وحدة المدينة الى أحياء (٧) . وهذا الامر لا يتعلق بشكل من أشكال النشوء وانما من أشكال الانقسام . فانطواء كل مجموعة

(٥) انظر نسخة منشورة فيما يلي عن صورة انجليزية محفورة تعود الى القرن التاسع عشر .
(٦) ادمون بليبيل : « تقويم بكفيا » ١٩٣٥ ص ١٩٥ وما يلي . وهو يعرض تاريخ الصناعات الحرفية ، انطلاقاً من بكفيا ، هذا المركز الحرفي الجبلي .
(٧) انظر ، حول هذه النقطة ، التحليل النهائي لسوقاجيه : « مجلة الدراسات الاسلامية » .
١٩٥٤ ص ٤٢٢ وما يلي .

على نفسها يحملها على تمجيد مصالحتها وفضائلها وفقاً لقانون شرف مشيخي قد استوحى الكثير من النموذج البدوي . وهذا الاخير يفرض نفسه على المدينة الكبيرة بتقاليد هذه الشعيرة وبتقله الجغرافي . وان حركة تحضير بطيئة ولكن مستمرة تطال البدوي الذي تدفعه عاطفته خاصة نحو حي « الميدان » . وهذه الحركة تتسلل اكثر فأكثر إلخاحاً ، من الدائرة المحيطة حتى القلب ، وتغزو الاحياء البورجوازية نفسها . فعليه ، تقاوم هذه الاحياء كل ما يستطيع ان يمسخ طبيعتها بتعاليلها وشحها . وفي عهد الادارة العثمانية اصبحت الاعفاءات وتنظيمات المدينة ، بعد أن طردت من نطاق المؤسسات ، لا يتاح لها ان تبقى حية إلا في الوقائع وفي الأخلاق . وبالطبع ، كانت تقف ، بازاء الحكم المطلق ، بوادر تمرد او امتناع عن العمل . وصفحات اخبار المدينة كانت تصف كل ستم المراحل الممتدة بين هذا الوجه والآخر من تلك البوادر . وكان الدهاء الدمشقي ينتصر على الجلد العثماني ولكن كان هناك شعور ، في تلك الفترة بالذات ، بان اللعبة لا تقدم اي شيء خلاق . فخلف الدعوة الاصلاحية التي حملت لواءها جماعة تركيا الفتاة ، وضد هذه الدعوة بدأت تطل دعوة عربية للاصلاح والشعور بعدم الرضى الذي كان خاصاً بالسوريين كان يجد مرتكزاته في تقاليد اكااديمية هائلة . ولكنه كان يجهد نفسه ، للمرة الاولى ، لمباشاة التطور . وقد بدأت تهب روح العمل في لجان ، « روح التكتل » . وفي بعض المقاهي شرع خطباء ناربيون ، موعودون بسلوك طريق طويلة ، من امثال لطفي الحفار ، باذكاء ما يسمى اليوم الروح القومية العربية . فهم كانوا يشعرون كما بلذع السياط ، ببشاعات الحاضر التي يعزونها الى نقائص الماضي . واندفاعاً مع ظاهرة بورجوازية مهيمنة ، سيطرت على كل الحركة القومية فيما بين الحربين ، كانوا يمزجون حرارة الاندفاع الأكثر تمعجلاً ، وروح المناورة والمداراة الأنخب بالحس الابداعي ، مع الوفاء للقيم الطبقية والبلدية المحلية . ومن هنا أهمية كتب ، تركها البعض منهم ، من امثال فخري البارودي وكرد علي ، كما انحنوا على المدينة العميقة بحبهم الحاقد .

وهم يدينون قبل كل شيء الجمود التقليدي في العقيدة الدينية . فقد كان الدين يلعب دوراً ساحقاً في عهد شبابهم (٨) . وكانت السنة من عمرهم تتألف من دورات من الحياة الدنيوية تنقضي هادئة ، كئيبة ، مغلقة ولكن تتخللها ، بمناسبة الاعياد العديدة لحظات من الحماس الاجتماعي والهوس المتأجج : احتفالات عيد « الفطر »* ، والعودة من الحج ، و « النذور »* وحلقات الذكر في زوايا الطرق الصوفية يضاف الى ذلك الطقوس التي ترافق الحياة العائلية . ومنها مثلاً طقوس الوفيات : الزيارات التي لا تنتهي ، والجمهير التي تهرع الى بيت « عميد الأسرة »* وهو يكاد يكون رئيس عشيرة . وبمناسبة الزفاف ، يحتفل بما يشبه طقوس المأساة او بالاحرى طقوس المأساة الرباعية المشاهد عند الاغريق . وكلما كانت الأسرة رفيعة النسب ، طال البحث عن العروس او العريس الملائم : مدة سنة على الاقل لمن يحترم نفسه . فالأهل والجيران في هرج ومرج مستمرين وينهمكون بالتكافل ، في زيارات واستقبالات وتحقيقات وتأليف وفود ومواكب . والقيمة التي تدخل في الحساب لا تتعلق ، بالطبع ، بالشخص وصفاته ، وانما ترتكز ، على علاقات المصاهرة بين العائلتين ، انها طريقة اخرى لتوثيق وخذة أهل المدينة ، بصورة مؤقتة .

ويقولون ان الجمال لم يبدأ بالظهور كقيمة للتبادل في الزواج إلا منذ سنة ١٩٣٠ (٩) . ولا شك في ان المتقدمين في السن قد اعتراهم الانفعال ازاء هذه الظاهرة واعتبروها عملاً مخلاً بالآداب وبإدارة تدل على الفساد في الزمن الاخير . وعلى العكس فان شبان العصر بدأوا يزلزلون النظام الذي كان يعطي الأولوية للاعتبارات الاجتماعية والدينية . اذ ان هذه البيئة الظرفية والممنهجة كانت تضيق الخناق وتكبح توثبه . وكانت الغلبة للنفاق والجهل . وكان على الضعيف ، لكي

(٨) كرد علي : المصدر السابق ذكره - الجزء السادس ص ٢٨٤ وما يلي .

(٩) فخري البارودي - المصدر الذي سبق ذكره - الجزء الاول ، ص ٦٤ . وبالطبع ، تختم هذه الملاحظة بعض التناقض . ففي القرن السابع عشر ، كان « الشيخ علوان » بغضب لهذه البدع الجديدة . (انظر مجلة المجمع العلمي - دمشق - المجلد الثاني والثلاثون ١٩٥٧)

يستطيع البقاء ، ان يتوود للأقوياء . وكان التزلف يقود إخطوات الاولى للفتى الاربستوقراطي . وكانت تربيته الاولى تخضع لحياة بيتية جاهلة ومداهنة . صحيح انه كان يشارك ، في صباح ، بالمعارك التي كانت تدور بين الاطفال من حي الى حي . ولكن هذا الادراك المبكر للكبرياء لم يكن ليعوض عن « نواقص » مؤسسة الطفولة . والتربية التي كانت تُبث في المعاهد التقليدية (والتي نعمت ببداية اصلاح بفضل مدحت باشا) ظلت ضيقة ومتشدة . وما كان الابن ليجرؤ على التحدث الى أبيه مباشرة . وعندما كان يبغى منه شيئاً كان يلجأ لتوسيط صديق للأسرة . وصاحب المذكرات الذي استعير منه الكثير الكثير من هذه التفاصيل ، لا يذكر ابداً انه حظي بقبلة او بضمه الا مرة واحدة تلقاها وهو فيما بين اليقظة والنوم .

ولم تكن هناك حلقات للثقافة او للرياضة . ولم يكن لليافع ان يوتاد غير المقاهي التي ظلت باغليبتها من الطراز القديم . وكانت الانباء عن العالم ضئيلة الى حد ان صورة ليفيكتور هيجو علفت ذات يوم ، في مقهى ديمتري على مساحة المرجة ، فظنها اكثر الزبائن صورة لرئيس باعة المرطبات الباريسية . وما كانت الفرجة على اشباح الظل وهزليات الراجوز لترفع بصورة مؤكدة مستوى هذه الوجوه للتسلية . واحياناً كان « الحكواتي » يروي ، فيما يشبه المباراة الشعبية الكبيرة ، قصص تفريية بني هلال او الملك الظاهر بيوس ، الملهة لانفعالات رحبة ، (وكانت هذه القصص) الغذاء لمناقبية فروسية وغزلية فحجرت ، اسوء الحظ ، منذ قرون ، واصبحت عديمة الاتصال مع الواقع ، وخارج هذه الوجوه الشعبية للهو ، لم يكن للناس من متنفس غير « التياترو » حيث كانت قدوي الموسيقى المصرية ، وغير معاشرة المنبيات ، وفيهن الكثير من اليهوديات ، وبعضهن يبلغن شهرة جد مشوهة .

وحياة بمثل هذا الانفلاق لم تكن لتجد مخرجاً الا في الدراسة العلمية العليا . ولم يكن من مجال لتأمل هذه العلوم إلا من خلال فرجات التقاليد الضيقة .

وبلاغة المناظر تظل على نتمتها . ويوم الجمعة يكتبني « خطيب » المسجد بالقاه
خطبة هي دائماً ذاتها . وفن الخطابة العامة لا يتفجر الا مع ثورة جماعة «تركيا الفتاة»
اذ لا يحجم البعض من افراد تلك الجماعة عن التوجه لمخاطبة جماهير الاحياء . وكان
ذلك يقتضيه ، احياناً ، جهداً شاقاً . فاخلاقية الحي ، في تأرجحها بين الاحترام
لوجهه والخوف من المتبجح المدعي ، لا تعتق دفعة واحدة النظرات العامة
الجديدة . والعلماء يستمدون من هذا التناغم في اصوات جماهير المدينة نفوذهم
الذي لا يرتبط بالحصب الفكري . وكثيرون كانوا ، بفضل ترويض الذاكرة
والتركيز الذهني الذين لا تعرفها أزمنتنا ، يبلغون حكمة تنفي كل اضطراب
غير مجدٍ وتستبعد حتى الكلام . وكان الاحترام يلجئهم للصمت . وقد تحدث
مؤرخ معاصر عن واحد منهم قائلاً بصورة كلها مقزى :

« ورغم تبهره * العميق بالعلوم وامرار العربية ، لم يكتب أي اثر يذكر في
الادب او اللغة . فقد كان ، كغيره من علماء عصره ، يعتبر ان العلم كنز مخزون
في صفحات الكتب القديمة . وعلى العلماء ان يكتشفوا هذه الكنوز بالبحث
والدرس ، فالعلم ليس الا محاولة لفهم ما خلفه القدماء (١١) . . . »

وعندما ألقى الشيخ رشيد رضا خطابه الاصلاحى سنة ١٩٠٨ ، حاضراً
المؤمنين على التمسك بأصول السيرة النبوية الموثوقة ، قاطعه شيخ آخر ، هو
صالح الشريف التونسي ، ليدافع عن طقوس العبادات الخاصة بالطرق الدينية
وعن اهمية وساطة الاولياء . فكانت فضيحة كبرى . واعتقل الخطيب المشاغب .
ولكن رئيس الشرطة اضطر لتسليمه الى الجماهير التي خرجت في مظاهرة
كبيرة . ولم ينج هو بنفسه الا بفضل تدخل احد قبضيات حي قنوات وما نقول
ذلك الا لنبين الى أي حد كان ابطال التعلق بمخلفات الماضي يستمدون من قوة

(١١) سامي الكيالي : « الحركة الادبية في حلب » (وبالواقع ، يتعلق الامر بهذه المدينة)
ص ١٦٢ وما يلي (بمناسبة الحديث عن قاضي القضاة بشير الغزي (١٨٥٧ - ١٩٢١) .
ولكن كثيراً من الوجوه المماثلة تبدو في دمشق .

الشعور في المدينة .

ووسط من هذا النوع ، مها بدا خانقاً بالنسبة لبعض ابنائه يخفي ، بالفعل طاقات راسخة . وبما أن كل شيء داخله يتحدر من توازنات قامت على هم العصور ، فان كل عنصر من عناصر المجموع ، عندما يؤخذ على حدة ، يقاوم التجديد . والمسارب الأكثر تعارضاً تتظم وتوازن فيما بينها . ومن بعد فالداعي للإصلاح يوازن المتبع للتقاليد ، وفقاً للعبة تدور منذ عصور ، سبق لابن تسيبة أن اشترك فيها ، في أيامه . وقد يتبادل مدبرو اللعبة المتخاصمون لواذع السفرية فيما بينهم ، ولكنهم يتبادلون المعونة . واستغلال الفقير من قبل الغني لا يثير النقمة الا بصورة عرضية . وكل المدينة ، رغم تمزقها بين الاحقاد الداخلية ، تقف كتلة متراسة للدفاع عن احد اعيانها ضد تعسف الحكومة . والأناس الطيبون لا يهتمون الا بواقعهم اليومي . ولكنه واقع يومي تمصره الآخرة ، من كل صوب ، لو صح القول . وكانت تحمل الهواء النقي الى تلك الحياة المغلقة النوافذ والبيته ، المبارزات (في لعبة السيف والترس) وألعاب الفروسية والنزهات الخلوية (السيران *) التي كانت تعود الى تقاليد منظمة ترعاها وتصونها لدى المشتركين لجان خاصة . وهذا النظام الذي كان محكماً بصورة استبدادية قد بلغ أوجه في بعض الانماط الكبرى للانافة في المدينة . فهذا البورجوازي يقضي شطراً كبيراً من سهراته في جناح مستكن (gonàq *) أعد لهذا الغرض ، في بستانه ، في نجوة عن الاتصال الحميم ببيته ، اذا امكنا القول . وهو يستقبل فيه شلة اصدقائه الذين تربط جلهم اواصر النسب او العمر او الاذواق . وكانوا يتلذذون هناك بارتشاف القهوة . وتدور احاديثهم حول الصيد ، ولعب الشطرنج وتربية الحمام . وكذلك حول اخبار الساعة التي لم تكن ، وأسماء العائلات والذكريات المعادة المكرورة ترصعها ، الا تقصياً للمجتمع في الحدث .

كان ذلك المجتمع يجد غايته في ذاته . انه كان يستمتع بذاته . وكان يمارس كونه ما علمته قرون طويلة ان يكون . فكان يستمد قوته وجاذبيته من كليته

ومن وفاقه مع اطار مهيب وتاريخ قادر على ان يتكرر مرات لا حدها .
وحتى يؤسه المتولد من التبعية ، والروح التجارية والنفاق الديني ، غير مستطيع
ان يحمل على نسيان نبله . على كل حال ، كان هذا المجتمع نجس في احشائه
خمائر التحول . والحوادث المذهلة التي سوف تهز الشرق انطلاقاً من ثورة تركيا
الفتاة سوف تززع توازن النزعة المحافظة لصالح النزعة التجديدية . ولكن
استمرار ما هو مفروق في القدم ، في مدينة مثل هذه ، هو من القوة والرسوخ
بجيت أن التوازن القديم لا ينهار بكامله ، حتى ذلك الحين . والروح الجماعية التي
تضم اهل المدينة والطابع الانساني لدمشق لا يبدآن بفقدان غايتها الا منذ
حركة التحرر التي نشأت عن التصادم مع الوقائع والافكار القادمة من بعيد .
وحتى في يومنا هذا ، وبالرغم من كل الثورات التي اندلعت على نطاق المدينة
والبلاد ، يستمر البقاء المتصل . واللجوء العنيد الى عزة العصر الذهبي والى
حميات المستقبل ، وتلاقي حسن القول مع طيب المأكل ، والجمع بين قضاء فرائض
الصلاة وارضاء الشهوات ، كل ذلك يختلط ويتواطأ على خلق اسلوب . ولكن
هذا الاسلوب يُكنى (بل ماذا اقول ؟) يربي في ذاته قوى التفجر . فهو في
اصراره على ان يؤكد ذاته ، يحاول ان يكذب نفسه . ومن هنا هذا التاريخ
لذي يبهر الانفاس لفرط ما يزخر بالاندفاعات وبالانطلاقات من جديد ،
والذي كان من شأنه ان يحمّل الفرد الوطني على الأسى لو لم يكن موضع
اعتزازه .

ونحن نفهم ان يظهر اسلوب من هذا النوع مقاومة لكل من يبغى محوه .
وذلك لا يعني أنه ينفر من التجديد . على العكس تماماً . فهو بالذات يعني تناوب
الجدل او التأليف الملتبس بين الماضي والجديد . وحوار مثل هذا الحوار قائم
على عمليات موازنة ومقاصة دقيقة يمكن ان يسمى كلاسيكية . ودمشق هي
الموطن الأسمى لاستهلاك العروبة . ولكنها تجدد ، في النزعة الاتباعية (الاكاديمية)

الفدية والضريبة عن هذا التفوق . اذ ان دمشق هي أقل العواصم زومانسية
فليس من قبيل الصدف ان تنصب امام الانواع الجديدة من الحساسية والتعبير ،
لانهاية اللغة* ودقائق رفضها (حق الفيتو) . واللغة هنا ، اكثر تهذيباً وحرارة
منها في أي مكان آخر . فهل في هذا الامر ما يفسر ان لا يجد فن الرواية ، هنا ،
إلا القليل من الاتباع ، وهو النوع الادبي الذي يمثل العصر الحديث بالقوة التي
نعرف ، بينما هو يزدهر في القاهرة ، وان لا تكون دمشق عاصمة الادب العربي
الحديث وهي عاصمة اللغة العربية ؟ فكأن وجهاً ما من السلوك ، ونظاماً ما ،
(وهما هنا مندبجان ، ومكتفيان بذاتهما ، هنا ، اكثر بما في أي مكان آخر ،
يقاومان احسن مقاومة ، بوجه كل ما لا يعدو ، من كثير من الجوانب . أت
يكون اضطراباً يفرضه الخارج ، او على الاقل يبدو كذلك قبل ان يعتمد
بصورة عميقة ، وبشرع لواء وطنياً . .)

البدوي الابدي وهذا الدمج ، يجد بحثنا احد امثله
النموذجية في دمشق ، ويجده مرتبطاً بعمق
مع العروبة* . صحيح ان ارتباطه بتعقيد مدينة كبيرة ، وبثقافة دينية وعلمية
من شأنه ان يحمل على انكار ميسمه الطبيعي . ولا ننسى ان الدمج والكيافة
يثيران انتباهنا ايضاً في اماكن اخرى من العالم العربي حيث تنعدم مثل هذه
الصلة الارتباطية .

كان احد الاشراف السودانيين يصف لي الحياة التي كان يجيها جده في زاوية
ثابتة من دنجلة في اواسط القرن التاسع عشر . فهو لم يكن يقتدي إلا بالالبان .
وكان يوزع على اتباعه حصيلة صيده . وكان يتبع نظاماً صارماً من الطقوس . فقد
كان له اربع زوجات . وكلهن بنات زعماء . ولم يكن يقرب المرأة الا مرة في
الشهر . ومن المرجح انه بلغ المائة والخمسين عاماً من عمره . وقد التقى محدثي ،

وهو بعد صبي " يافع " في ايام المهدي الكبير ، باحدى الزوجات . وبما انه لم تكن تربطه بها اية اواصر دم ، فقد جرؤ ان يسألها اذا كانت راضية من هذا الاعتدال ، عند جده ، في القيام بواجباته الزوجية . فأجابته الجدة بصراحة رائعة : « يا بني ان كل ضمة من ضماته كانت تساوي العشرين من ضماتكم » .

وبالوسع الوقوع على ملامح من هذا النوع في « البادية »* شرط ان نضع جانبا الاعتدال لان حيوية دافقة تلهب البدوي . وكثيرون من اشخاص كتاب « الثورة في البادية » من امثال الشريف شاكر والمعجوز نوري الشعلان ، يمثلون هذا الطراز الملكي ، طويلاً بعد انقضاء الشعر الجاهلي . ولئن كانت النزعة الجمالية وحتى السياسة الانجليزية تتصيد هذا الطراز ، فان هذا « الوقوع » سوف تكون نتائجه باهظة بالنسبة للعرب . وهو لا ينفي ما يمكن ان يكون في مغامرة ١٩١٦ من صحيح ولاهب . فالطراز الذي يبدو هناك ، في منعطفات احدى دسائس الائتلاف سرفيس ، وشوانية اكسفورد ، هو البطل الجاهلي ، البدوي التائه والمتأكل ، « طفيلي الجمل » (١٢) ، اذا شئنا ، في حال انعدام الافضل ، ولكن الانسان يعيد تكوين احد الوجوه الانسانية الأكبر اثاره للانفعال بكرمه ، رغم ارتكازه على الجشع وبشاعته ، رغم انها غير مستقرة ، وبوفائه ، رغم اتصاله بالدهاء .

هذا الانسان يختلف عن انسان الثورة الصناعية بنحشوته . فهو لا يريق وجدانه* ، ونعني به ، اذا شئنا ، رعشته مع الوجود ، في نثر العواطف ، ابدأ . انه يقتصر على اشارات واغاني ملتبهة بالأهواء وجافة ، صاخبة ومتحفظة في آن واحد . انه ، لصق الارض ، يتفجر ويلتجم ، في الوقت نفسه . شأنه شأن السجادة التي يسطونها لك ، في مهب الريح ، فوق ارض الصحراء . فانت تحس تحتها بنحلات الاعشاب المسحقة وبدف الثرى وتوئاته . ولكن هذا الفوران

(١٢) التعبير هو لويليريس Weulersse او لدرجتي Doughty

الغاضب لا يبلغ الا سطحاً زوق في صورة تاريخ . فكأننا امام نافورة نابمة بعيدة من الاغوار ، فتكبح وتتغلى عن ذاتها حالما تتصل بضوء النهار حيث تحترق وتتساقط اشكالاً وألواناً . وهذا التخلي هو ايضاً كلاسيكية . وبذلك يختلف البدوي عن البربري . ففي نظامه ، يصبح الانسان ، بكل ما فيه من وجدان وحياة جنسية وطراز معيشة ، والتصاق بالبيئة الاجتماعية والطبيعية ، بجميع ذلك يصبح الانسان رسماً قوضيحياً .

فما القول ، حينما يصبح شاعراً ، اي عندما يبلغ قمة النظام فيرتفع الى مواقف لم تكف ، حتى يومنا هذا ، عن فرض جاذبية نداءاتها ، داخل الاسلام وخارجه ؟ فلنأخذ مثلاً الحاج زاير ، وهو يعتبر اكبر شاعر شعبي في العراق . وقصائده التي لم تجمع الا مؤخراً ، تدوي على كل الشفاه منذ جيل . وفي بيئة كانت تلهبها العقيدة الشيعية ، حدث له ، بعد وفاته ، ان ظهر في المنام . وحينما كانوا يسألونه عن رضوى الامام الحسين كان ينطوي وراء صمته محافظة على « السر » . وفي حالته ، كان الامر يتعلق بالسر الشعري . وكان التوافق المؤثر بين الايمان الجماعي ومغامرة حياته الخاصة ، ودوي اشعاره يحقق حتى النهاية اندماجاً يدل على المكان والزمان . وكان الالهام يهبط عليه ، وهو بين اخوانه ، في نهاية احدى الجلسات التي يتفجعون فيها على نكبة علي . والذي يجرسه حينذاك هو ، كما يقول واضع سيرته ؛ « الحب والولاء » * ! ونضيف الى ذلك : الاجماع . وبالطبع ، كان يرتجل . وكان يلقي مقاطع صوفية بالدفق ذاته الذي كان يوجه فيه النداءات الانيقة الى فتاة عابرة . وها هو احد المجندين في نهاية العهد التركي ، فيرسل الى حامية قطر . وهناك ، ينفس عن حزنه بتنهدات بلغ من تناسقها وعمقها ان جعلت رفاقه يتحلقون حوله وحملت القيادة على الاسفاق عليه وحرفه الى منزله . وها هو يعود للسفر سنة ١٩١٤ . وكان ذلك مناسبة لتنظيم اغاني حول مواضيع بطولية . ولسوء الحظ ، يهاجم الانجليز البصرة ،

فيتقدم العلماء الصفوف على راس معركة الدفاع ضد اعداء الدين . ويضطر الشاعر ، بعد استنكاره انسحاب الاتراك ، الى الاختباء في الكوفة ثم يعود للظهور في بغداد . ويرى في جامع حيدر تجميع الشعب حيث يدعوهم أحد « السادة » الى الحرب المقدسة . وكان في ذلك اكثر مما يكفي لاثارة الحج زاير . فقد كان « يتهمج من هياج الناس »* فيرتجل مرة اخرى ، عواطف نبيية في اطار نبيل . ولكن صورة شاعرنا لا تقتصر على هذه الملامح المثالية . فهو يشعر برغبات يصفها واضع السيرة بكثير من التسامح . فعند عودته من قطر . وهو يعيش بعض الوقت في وئام مع الفتى اليافع « الهادي » . وقد مات هذا الصديق غيلة . فحامت الشكوك حول الشاعر قتهه ، بانه القاتل . وكان ذلك ايضاً مناسبة لوضع اشعار جميلة . فيقارنه واضع السيرة بشاعر آخر* انهى هو ايضاً بصورة انيقة جريمة قتل مزدوجة ، ارتكبها بحق صديقه وحبيبه ، عندما فاجأها في حديث ودي . فقتلها وأحرقها وصنع من رمادها كأسين كان يشرب منهما بالتناوب ، مغنياً عواطف حنينه .

وعلى المسافة الكبيرة التي نقفها ، هنا ، من الاخلاقية الدينية ، يمكن قياس ما يلزم من المهابة للشعر البدوي حتى يطالب بصورة فعالة ، انطلاقاً من هذه الاخلاقية ، بقانون طبيعي ، آدمي ، اذا صح التعبير ، حيث تستمد الاندفاعات الغريزية والرغبات ، ومشاعر الجشع وطلب الثأر خلاصها من ذاتها . ومن هنا الى اللااخلاقية ، لم تبق الا خطوة . وقد تم اجتيازها بجذل . ومن طريق معاكسة ، يصل بودليير وريمبو ، اليوم الى العرب في خط النهج البدوي^(١٤) ونورد ذلك للإشارة الى قيمة التحريض* التي لا تزال حية في موضوع استطاع ان يتشابهك مع موضوع الاسلام ، وفي حالة الحاج زاير ، بلغ منه ان شارك في الانفعالات

* - لعل المؤلف يشير الى قصة الشاعر ديك الجن الحمصي .

(١٤) في نظري ، تشكل « بوهيمية » الشاعر الفلسطيني - التل - على ما يبدو - الحلقة الوسطى . فكلمة « النوري » ، او الفجري ، مطلق كمرادفة لمباوة بدوي .

الدينية شرط ان تكون مأسائية . ولكنه في ذاته لا علاقة له البتة بالدين وبالطبع ، يقف الشعر الشعبي ، حيناً آخر ، على سفوح اكثر اعتدالاً . وهو خاصة ، يجرد المغامرة من سحرها ، في الوقت ذاته الذي يتغلى فيه عن الامداه الفسيحة . انه يتخطى ، بصورة تتناقض مع المنطق ، كل المسافة التي تفصل الراعي عن الفلاح . ودون ان يتنازل عن اي شيء من مثله العليا ، هو يعطيها مضموناً مختلفاً ويكاد يكون معاكساً . والطابع الفلاحي يطبع الشعر بحكمة الامثال (١٥) . هذا هو الحال في لبنان ، والعراق ، ومصر خاصة حيث بسود تناسب دقيق بين وحي القرية وثقافة الازهر . وقد بلغ من ذلك ان الجامعة المفرقة في القدم اصبحت تظهر نفسها موثلاً للأدب الريلي . ومع ذلك ، انا لن ألع على هذه المواضع التي اكتسبت ، في عملية انقاذ ، حقها بالتربيع في التدريس الجامعي ، وفي العمل الحكومي ، في مصر اليوم . يكفيني ان طراز الانسان الذي يتجلى هنا ، وربما هنا اكثر منه في اي مكان آخر ، لصق السطح من الجبل ، وممزجاً كلياً بالجهد المتواضع وبالمباهج الساذجة التي يمنحها العمل ، هذا الطراز يبدي كسبية لم تفت في عضدها حتى الآن ، لا ثقافة المدن ، سواء حركتها نزعة المحافظة على تقاليد التقوى او النزعة التجديدية الغربية ، ولا قسوة الحياة الاقتصادية المتنامية .

الهليلي الجهني هذا الطراز ، من حقي ان انتبه

بالاسلامي . ومع ذلك هو يتسلسل من خلقية شرقية او عربية سابقة للاسلام . ولكنه تلاحم مع الاسلام بحيث يصعب فصله عنه . وينبغي اللجوء كثيراً الى التلخيص ليتمكن تمييز هذا الاحتضار الضيق للانسان والكون ، تحت غطاء الثقافة والاخلاقية الاسلامية ، او بالأحرى ضد هما . أكيد ان الايمان « بالسمو » ، على الرغم من قدمه الفطري ، لا يستطيع القبول بالطبيعة قبولاً كاملاً . فعلموه اللاهوتية واللغوية ، والقانونية التي تغذيها العقلانية

(١٥) انا اختصر ، هنا ، حول هذه النقطة التي ألمحت اليها في كتابات اخرى والتي بدأت لتصبح معروفة اكثر .

الارسطوطالية، تضع على طرفي نقيض الذات والموضوع، والخير والشر والواضح والمبهم . وقد اتخذت هذه العلوم صبغة قوية من المدينة ، من شأنها ان تشوه بقدر ما تهذب . والانسان « المهذب » يتعلم كيف يضر ، واحياناً كيف يكبح ، ايجاءات الحكمة القديمة ، في الحين ذاته الذي يتذوقها فيه . وبالمقابل ، فان الصوفية تؤكد ذاتها كعودة الى الانسان الشامل ، بخلاف حركة التدين الشرعية وهي تصحح ارسطو بتعاليم أفلوطين . وبعد عشرة قرون من الصراع بين القاعدة الانفصالية ، « الفرقان »* والمثل الاعلى الوجودي القديم ، تطالب النزعة التجديدية ، بصورة مشاعية وباسم « السنة »* بعودة الايمان الى ينابيعه ، وبالمصالحة الايجابية مع كون يمشي قدماً .

ومن هنا ، بالطبع ، كانت عمليات تمزق وتشتت . ولكن من يدري اذا لم يكن اللجوء الى الجماهير ، والتذوق الجديد لفرن عفوي ، واعادة الاعتبار للطابع الشعبي ، واخيراً الاندفاع نحو الديمقراطية ، اذا لم يكن كل ذلك يستمد ، في النهايات الحالية ، قوته من الحنين الوجودي ابي ينزع نحو بعث التناسق ، بواسطة الثورة . من الممكن ادراك ذلك . فبوسع النزعة التجديدية ان تنمرد على النزعة التقليدية « التقليد »* وهي تقوم بذلك ، جزئياً ، باسم التقاليد . وما كان الصراع باعثاً على الانفعال ، الى هذا الحد ، لو لم يكن ، في كثير من جوانبه ، صراعاً ضد الملاك ، اي صراعاً ضد الذات . ويبلغ من صحة ذلك انه ، في سبيل الاهتداء الى بعض ملامح الموقف القديم ، يكفي ان نفك الطلاسم ، في سير ابناء الجيل الحاضر ، مما تم عنه من قوى ماضٍ دائم الحياة والحضور . وهنا نلمس احدي الخصائص غير المنتظرة « للتجديد »* : انه يتضمن ، من جوانب عديدة ، معنى الاعادة . فالثورة هي بالنسبة للكثير من الشرقيين ، العودة الى السابق ، وسبقى الحال هكذا طالما ان تجديداً حاسماً في الافكار والاشياء لم يجرّد النظام القديم من قدرته على التطور باعادة توازنه .

ونقطة الانقسام هذه تقع بصورة تختلف باختلاف هذه المجتمعات عندما تتغير علاقتها مع العالم الخارجي ، تغيراً في الاتجاه وفي الطاقة . وفي الواقع ، لا يبلغ العربي الحياة الحديثة ، معنوياً ومادياً ، الا بفضل ازمة يجد مكافأته عليها في توثيق سيطرته على الواقع . فمدينته ، كما لا تزال نلاحظ في القرن العشرين ، كانت قريبة من الطبيعة لدرجة انها كانت تمنع عليها ان تسيطر على الطبيعة . وعلى عكس المدنية الآلية ، كانت تفشل في امتلاك الطبيعة ، لانها كانت تتلاحم مع الطبيعة . وهذا الامتياز او سوء الحظ هذا ينفجران في كل لحظة في المواقف التي وصفتها ، وخاصة في الشعر الذي خلدها ، والذي لا يزال الانسان الحديث يحب « طراوته »* ما لم يكن يفضل البحث عنها في اغاني « الاميين » الذين يزخر اسمهم نفسه بالدلالات (١٦) .

فسحر القرب والصلة المباشرة الذي كان هيجل يعزوه الى الاغريق والذي ، بوساطته ، « يهبط الفكر الى ذاته » ، كما كان يقول ، كانت الحياة التقليدية تشارك فيه . وهذه البساطة الرائعة التي كان يتحلى بها الاغريق منذ بداية اللعبة ، بانسجامهم الجمالي مع الكون ، تشكل ايضاً ، لاسباب أخرى ، وبصور اخرى ، سرّ العديد من وجوه الكون الاسلامية . فتمثال اغريقي من العهد القديم ، يبدو قادماً بمفرده من تحت الازميل ، لامقتلعاً من الطبيعة التي تحمقها ولا من الانسان الذي يعبد . وكذلك في الاسلام ولكن بصيغ اخرى ، كانت الحياة التقليدية يُستلذ مذاقها ، كاملة ، متحررة من الخطيئة الاولى ، متناسقة مع نفسها ، ومباركة من الله . وقد كانت في تساهلها ازاء الغرائز ، لا تشجب منها الا ما يحمل المنوع او الحرام* . مثل الميسر والربا والزنى . ومن هنا كان انها تملك

(١٦) لقب اطلق على النبي (صلعم) فترجم بما يعني « غير المتعلم » او « العفوي » (الظر معناه : « الذي لم يتناوله تبليغ الرسالة » او الذي لم يكن يعلم شيئاً مما اوحى الله اليه به .) وبإساءة فهم الكلمة ، جعلت اللغة العربية الحديثة من كلمة « الأمي » مرادفة لغير المتعلم « بينما هي تعني ، دون شك ، : « الطبيعي » « والمندمج » ولم لا تعني المنتسب الى الام ؟

مثل الحياة الهلينية مرآة فقدناه. فكأنما الفن التشكيلي الأغريقي من جانب ،
والسلوك الإسلامي من الجانب الآخر هما نجاحان متوازنان للإنسان المباشر .

ولكن على دراسة غمطية للإسلام ، تعالجه في نزاعاته الحاضرة وتناسقاته
الماضية ، ان تحمل على التدخل شخصاً ثالثاً يجلس الى جانبه في حوار بين الشرق
والغرب ، حوار لم يعد فلسفياً فحسب وإنما تاريخياً . وعندما يثور العرب على
ماضيهم ، يشكل العصر الاستعماري الموضوع ، وفي الوقت ذاته المحرك لهذه
الثورة . وتأكيدهم لذاتهم بجرارة وانفعال لا يسعه ، من عدة وجوه ، ان ينفصل
عن الغرب . وبغضهم لماضيهم هو أيضاً ، كما رأينا ، ترميم للماضي بقدر ما ينزع
للإصالة . « نهضة » ، « بعث » وحتى « سلفية » ، كل هذه الكلمات التي
تصف محاولات ذات محتوى وحظ من النجاح متفاوتين تشترك فيما بينها بطموحها
الى إعادة التكوين . فلو سلمنا بدعوة العرب لرفض ماضيهم ، فيما يعملون على
إعادة تكوينه لاستعدنا أيضاً ، عندهم ، على الطرف الآخر من العصور مساجلتهم
مع أوربا وهي تكاد تكون جزءاً لا يتجزأ من كياناتهم بمقدار ما هي مساجلتهم
الداخلية مع بعثهم .

وملاحظة مثل هذه ، انا لا أرى فيها اي عامل للتهدئة ، بل على العكس تماماً
(لاننا اصبحنا مدعويين من اغوار الزمن لمشاهدة حلبة الصراع ، أعني التبادل) ،
ملاحظة مثل هذه تستمد قيمها الراهنة من وجود البحر الأبيض المتوسط . ولا
يتعلق الامر هنا فحسب بمنطقة جغرافية يبدو انها فرضت على المجتمعات التي تقوم
على ضفافها نوعاً من التناوب التكويني بين الضفة الجنوبية والضفة الشمالية .
والامر لا يتعلق حتى بكثرة مشترك اغترف منه العرب تاريخياً بوساطة المترجمين
الاسكندرانيين والسريان . وإنما هو يتعلق بموضع اساسي محدود في المكان
والزمان : اللانقسام بين الشرق والغرب الذي ظهر عصر ما قبل سقراط . اذ لا
شك ان هناك كثيراً من المواطنين والفترات التي التقى فيها الطرفان وخضع كل

منهما للتحول وللاستيعاء من الآخر . ولكن ، في نظري ، ليس من موضع آخر يقع فيه الضوء على مساجلة العرب معنا ومع انفسهم بصورة افضل مما في تأمل المواقف بازاء العالم ، كما تبدى عند اغريقي قديم ، « سبتاق » الى الكثير من أفكارنا الحالية (١٧) . وان تفسيراً ، تاريخياً وفلسفياً على السواء ، يقودنا الى ان نستعير طريق هيراقليطس (١٨) ، بدلاً من طريق ابراهيم (١٩) ، لنفهم العربي التقليدي ، بصورة أعمق .

فاذا قيل ان الوفاء للمتسامي ، الذي هو اسامي في الرسالة السامية ، انما يجمعه العرب مع الكلية ، وكادت ان اقول مع حلولية السلوك (٢٠) ، لتبينت وحدة الدلالة بين ما يسمونه فضيلتي «الصبر»* او «الرضى»* ومقابلتها الاغريقي: هو مولوجيا Homologia وهارمونيا Harmonia (٢١) فاللغة العربية ، كاللغة

(١٧) انظر الاطرحة ، غير المنشورة التي وضعها مؤرخاً ك. أكسيلوس K. Axelos (١٨) الذي اثار بصورة محملة بالمعاني ، تأملات « شرقي » كبير آخر ، هو شري اورويندر Shiri Auro bindo في كتابه : «هيراقليطس» ، ليون ، منشورات بول ديرين P. Derain . ١٩٥١ .

(١٩) « المذهب الابراهيمي » فتحه بالتأكيد ، للمستشرقين ، اعلم نافذة وضعت بتصرفهم على العروبة والاسلام . انظر النص الرائع الذي كتبه لويس ماسينيون حول : صلوات ابراهيم الثالث . في مجلة « الله الحي » ١٩٤٩ ، عدد رقم ١٣ ص ١٥ - ٢٨

(٢٠) انا التقي ، حول هذه الفكرة ، وتقريباً حول هذه العبارة ، مع ر . ارنالديس R. Arnaldez ، رغم انه يعطيها اتجاهاً متبايناً بعض الشيء . انظر خاصة تفريقه بين كلمتي « أمر » العربية ولوجوس Logos اليونانية ، ص ٦٠ من اطروحته حول ابن حزم .

(٢١) هيدجر : ماهي الفلسفة ؟ باريس ١٩٥٧ ، الترجمة الثانية ، ص ٢٤ انظر بابايوانو Papaioannou « الطبيعة والتاريخ في المفهوم الاغريقي للكون » ، مجلة Diogè ne ، ١٩٥٩ ، عدد رقم ٢٥ ، ص ١ وما يلي . وهناك ، دون ريب ، مجال للتأمل حول عبارة «سوي»* التي تعادل المفرد Harmonieux (T. Bure Khardt) او عبارة Accompli (R. Blachère) لثمت الشخص الذي تجلى لمريم (القرآن الكريم ، السورة تاسعة عشرة لايتان ١٧ و ١٨) .

الافريقية ، تلتصق بالطبيعة ، على الرغم مما يقوله علم الدين فيها . وهي تتابع ، مع الاسلام ، اتصالها ، بهذه الطبيعة في الوقت ذاته الذي تقر فيه بقدره الله الكلية . وهذا الجمع بين عدة مجالات للاختبار بوسعها ان تبدو لنا متضادة سوف يثير ، دون شك ، التفكير عند فلاسفة الاسلام ، والقلق عند متصوفيه . ولكنه سوف يؤدي ، عملياً ، هذا الدور حتى يومنا هذا . فلا الانحطاط ولا التبعية لم يجردا (الاسلام) من امتياز الحياة الكلية . ومثل هيراقليطس ، كان بإمكانه ان يقول ، لو لم يكن في ذلك التشبه تجديف شنيع بالنسبة اليه : « ان مزاج الانسان يتحد مع النصيب الالهي فيه » ، او ايضاً : « اذا لم يكن الكائن الا دخاناً ، لا يبقى للانسان الا ان يكون حاسة شم » ، لفرط التوقد في قوافيق الانسان مع الكون : ليس فقط على مستوى التعبير الفلسفي المكثف ، او الحدس الصوفي ، وانما ايضاً على مستوى السلوك .

والمجتمع الاسلامي التقليدي يتبدى مثل كرة مترواحة يتجاوب فيها العقل والسمو ، وعالم تكتنزه الحواس ، ونوع من هناء الأحياء ، مكتفين بهذا القدر من التعداد ، وتتصادى هذه العناصر في نظام كان بوسع اشراقية ابن سينا ، او « الروح المشتت » عند ابن رشد ان يشير اليه بنعومة ، ولكنه يأتي عليه البرهان ايضاً في الحياة اليومية وهذا اللون العربي من الحياة اليومية ، نحن لا نزال نحس به ، مهما اصبحتنا غرباء عنه في طريقة عامة الشعب بتحريك الايدي عند الحديث ، مثلما نحس به في ترصن العقلاء . وفي نظام مماثل ، او بالاحرى تبعاً لمواقف مماثلة ، لا يعود الشيء الراهن الا رمزاً ، ولكن للفكرة طعماً مادياً . فلا الذهني ، ولا الجسدي يطلقان القيم المبدلة للاشكال . ورغم التأكيد المستديم للسمو الالهي ، ينعقد عالم من التضامن ، والثواب ، والتبادل الحار بين الموضوع والشخص ، ومن التحالف بين كل شيء مع كل شيء .

ولكن هذه الحكمة لا تتكشف لنا اليوم الا في صورة انقاص ، في نهاية

عصور انحطاط طويلة ، وفي مرارات النضال . وقد عملت بيئة أجدبت بسبب
العبودية السيامية ، والاستقرار الاقتصادي وتعليم فلسفي رجعي (علم الكلام) ،
ودمار العصور ، ودروس الغرب ، كل ذلك عمل ، بحركة تبدل بسيط ، على
تحويل الالتصاق بالكوث الى « قدرية »* ، والجلال الى جمود ، « والشمول »
الى ادعاء فارغ . « والتقليد »* كان ايضاً ذلك الشيء . وان ما يتكشف للمفكر
العربي وما يملؤه بالأسى ، عشية النهضة او الثورة ، هو الانقلاب الساخر في معاني
ماضيه الكبير ، والقرف من الامتياز . والعربي المتشبه بالتقاليد لا يزال
هيلينياً^(٢٢) ولكن من نوع فقد توافقه مع العالم ، وأصبح هدفاً للتحدي من
قبل تاريخ الآخرين ، ولا يحظى الا بالمهام المذلة . وبكلام آخر لقد أعيد تغطيسه
في الطين . لقد اصبح هيلينياً جهنمياً .

الفتنة الجديدة
لقد تفجر عالمه الذي كان يجد تعبيره في
حكمة معينة وفي فن معين وفي اشارات معينة رجبينا
يعاصر الانفجار . فلنراجع اعداداً قديمة من مجلة « الهلال » الصادرة في عام ١٩١٠
مثلاً ،^(٢٣) ومهما بلغ من رغبتها في الظهور بالمظهر الثوري ، بالنسبة الى الاغراض

.....
٢٢ (الهيلينية العربية تشكل موضوعاً أساسياً في افكار طه حسين وتوفيق الحكيم الخ... ،
ولكن تتخذ معنى يختلف عن المعنى الذي نعطيه هنا .

٢٣ (« الهلال » القاهرة المجلدان التاسع عشر والعشرون (١٩١٠ - ١٩١١)
ويمكن العثور فيها على دراسة وثائقية عن اليمن ، وعلى مقال شبه رسمي مكرس لدراسة « بعث
الادب العربي بأمر من الحكومة المصرية » (ص ٢٢٠ وما يلي) . وفيها تذييل بمناسبة « عودة
الى بيروت » ، ودراسة عن طرابلس الغرب والسوسية وقصيدة شوقي في الهلال الاحمر ،
ومذكرات رحلة الى رودس واخيراً رواية غرامية صوفية : « فتاة القيروان » وهي تقريباً
الاطلالة الادبية الصرفة الوحيدة في هذه المجلة التي سوف يكون دورها ، فيما بعد ، أن تجسد
النزعة الادبية في الشرق ، حتى في مواقفها المتطرفة (انظر اطروحة محمود فقار غير المنشورة) .
وحول الحركة الفكرية في تلك الحقبة ، تبدو « مجلة العالم الاسلامي » (المجلد الثاني عشر)
ملينة بالمعلومات ، بصورة مخصصة .

التقليدية تظهر لنا هذه الاعداد ، عندما نقارنها باعداد حديثة من المجلة البيروتية « الآداب » مدى التوغل الهائل الذي بلغه سير الحساسية والتعبير العربيين . لقد تم الطلاق بين التفكير والشيء المعاش . والوجدان ، الذي اصبح اكثر فاكثر تطلباً وتعرضاً للعذاب والذي يقدم نفسه تحت اسماء عديدة : « وعي » * و « شعور » * ، قد فقد الحس الكوفي . صحيح أنه قد وبع بالمقابل ، وفي الوقت ذاته ، الطبيعة والتاريخ . وانه لانتقال مشرر ولكنه مؤلم ! وان الاجماع الاسلامي الاول قد تصدع بالنزاع حول الخلافة الذي سمي « الفتنة » * . وفي الوقت الحاضر ، هي الحكمة التقليدية التي تصدعها ضرورة التكيف مع عالم الآخرين . والفسحة تتسع بين العناصر التي كان تعانقها بشكل الوحدة القديمة . والاحساس بهذا الفراغ هو ، لغوياً ، « القلق » * العربي في العصر الحديث ، (٢٤) هذا القلق الذي يسيطر اليوم على الادب وعلى الفعل . فاللحظة الحاضرة هي تلك التي يتحتم فيها على الانسان التقليدي ان يتغلى عن ذاته ، من وجوه كثيرة ، ليستطيع ان يتكيف مع الآخرين وليعود للمصالحة مع عالم أعادت الآلة بناؤه باسم سببيات قاهرة . وهو لا يستطيع ان يعيدتنظيم كيانه ، بعض الشيء ، الا بالعودة عن تلاحمه . ومن هنا كان اضطرابه . انه لا يستطيع الوصول الى السيطرة على نفسه الا بانزاع ذاته من الآخرين ، ولكن ايضاً بطلاقه مع ذاته .

فكيف يمكن احتمال هذا التمزق ؟ بدفق معجز من الارادة الجماعية . هذا هو ما يسميه العرب « ثورة » * بعد ان سموه « نهضة » * . وانعد الى هذه الكلمة . وبما ان الاستشهاد بالقديم لا يغيب ابداً ، فان ما يبغونه هو الاستعادة

(٢٤) انظر ما كتبته تحت هذا العنوان في « مجلة الدراسات الاسلامية » ، ١٩٥٨ ، وأسعد رزوق في : « الاستعارة في الشعر المعاصر » مجلة « آفاق » ، بيروت ١٩٥٨ ص ٥٣ يحصي في الشعر العربي الحديث ما يقارب الخمسين من المفردات التي تتكرر دون ملل للتعبير عن هذا القلق .

اكثر منه الخلق . والتبعية الطويلة التي خضعوا لها طيلة القرون الاخيرة تعمق
اكثر جانب « العودة » في ما لم يكن ، او يقتضي ألا يكون ، الا سيرا الى
الأمم . والآث ، فهم يتصرفون تحت وطأة العالم الصناعي . فاذا احتفظوا
بمخبرهم للنظام القديم ، رغم تحولهم الذي يفردو جذوياً اكثر فاكثر ، واذا
كانت الحكمة التي اورثها الاسلام تبدر لهم ، اليوم ، فردوساً مفقوداً ،
يكون كل شيء قد جرى كما لو كان مجتمعهم الذي تحرر ، حتى الآن ، من
خطيئة أبينا الأول ، قد تلقى من الغرب هذه الصدمة ذات الانعكاسات التي لا
تحد . فيكون الاستعمار والرأسمالية التوسعية قد لعبا في العالم الشرقي الدور
الذي لعبته ، عندنا ، الخطيئة الاولى !

وهذه الخطيئة التي يعاني العرب من آثارها ، هم مدينون بها الى الآخريين .
وهذا هو سبب الاحقاد الراسخة ، وهو الذي يجعل جاذبية الأجنبي تترج ،
عندهم ، بالنفور . لكنهم يرون بوضوح ان عليهم ، في سبيل تصحيح اخطاء
التاريخ ان يتوغلوا بصورة أعمق في التاريخ . ولكن هل بوسعهم ان يقوموا
بذلك دون ان يضيعوا انفسهم ؟ ومن هنا محاولتهم بان يوازنوا بين التكيف
مع الآخريين وتأكيده الذات . وهم باقون في المعركة ، وسيظلون ، ليس
بفضل تجنيد القوى المادية وانما بفضل ستراتيجيه الرمزي . صحيح ان هذه الرموز
مستعارة اكثر فاكثر من التاريخ الدولي : الاستقلال والديموقراطية ، وانهم
يغتدون في الشرق من الماديات الأكثر اخضراراً ، بسبب اللجوء المتزايد الى
الطاقات الشعبية . هذه المجتمعات تبحث عن قوتها ، اكثر ما تبحث ، في توترهم
البطولي او في اجماع « الامة » . وحتى مشاريعهم التخطيطية تبدر ، من
جوانب عديدة وكأنها تنقل الى القطاع الاقتصادي مركزية دينية قديمة .

ولكن هذا التصرف بالذات قد أبعدنا الى الماضي تصريف آخر اكثر حدة .
فبين المثل الاعلى والفعالية ، بين السماء والارض ، تتطور هذه الشعوب اكثر

فاكثر نحو الاتجاه الثاني . وكثير منها باشرت سيرها نحو اعادة صنع نفسها بصورة كاملة . ولكي تقف والآخرين على صف ، هي ترفض سلطان « الدلالة » لتكتسب سلطان « الشيء » . وبذلك هي تسمى للهرب من الرموز التي يقتضينا اولاً فهم هذه الشعوب بوساطتها ، وبالرغم من وجودها (٢٥) وهذا الشكل ، يتبخر اليوم الكثير من وجوه الالتباس ، عند العرب ، وتم عملية اعادة تنظيم بين الاطراف المتخصصة والمتشاركة في حياتهم . وهذه العملية تصيب افعالهم وعواطفهم واورضاعهم واشخاصهم . ويسيطر على هذه الحركة العامة ايقاع ما . ورغم انها تستعصي على كل وضوح مرتبط بالتسلسل الزمني ، فانها لا تخلو من التكشف عن بعض المراحل .

فانطلاقاً من حالة تقليدية - تساوق مع العالم ، عدم التجزؤ الكامل - سلخت الحاجة ، المفروضة اولاً ، ثم المقبولة ارادياً ، عن العرب سيطرتهم على الطبيعة ومبادرتهم للتاريخ (٢٦) . وهذه المرحلة تتجلى سياسياً بالنضالات في سبيل الاستقلال ، واجتماعياً بطفرة الجماعة المتعولة ، ومادياً بالتصنيع (٢٧) ، وجمالياً بتجديد الحساسية (٢٨) واخيراً - في مرحلة ثالثة - أدى التفكير الذي يتخذ اكثر فاكثر الطابع النقدي والبروز المتزايد لمفاهيم وقوى كانت ، حتى الان ، تلجمها القواعد الداخلية وسلطة الخارج على السواء ، أدى كل ذلك الى انفجار مشا كل جديدة ، حالما تم اجتياز عتبة الاستقلال .

(٢٥) انظر فيما يلي الفصل الثاني .

(٢٦) انظر فيما يلي الفصل الثالث .

(٢٧) انظر للفصول الوسطى من هذا الكتاب .

(٢٨) انظر الفصل العاشر وما يلي .

الفصل الثاني

مَا يَنْغَيِّرُ وَمَا لَا يَنْغَيِّرُ مِنَ الْعَوَامِلِ

في الصيف الماضي ، في بغداد ، توجهت الى أرض عراق قائمة بين مقبرة ومستشفى . وقد دلتني بعض الصبية على جدار مستطيل من اللبْن ، يقوم قريباً من نخلة غبراء ، وتعلوه قبة يقطع سطحها سلك تليفوني . وحول المكان مقبرة للسيارات . هياكل متشعبة ، قطع حديد مشرعة ، بشاعة مريالية منيرة . كل ذلك كان يشكل الصور الترينية لمقام الحلاج « شهيد الاسلام » . ربما كان هذا الترددي نخادعاً : ففي هذه الايام بالذات ، صدرت مقالة في احدي صحف بغداد يحمل فيها العلامة بهجت الأثري على ذلك الذي جرؤ ، قبل بضعة قرون ، على اعلان ذاته شيئاً واحداً والكائن الأمثل عندما صرخ : « انا الحق » . فاهمال الموضوع لم يكن ، اذن ، ليقبه من ارثوذكسية ذات أحقاد مديدة . وحول الضريح كان الطمي المترسب من الحضارة الآلية والتي تقوم في ذلك الموضوع مهجورة من قبل قيمها الذاتية بقدر ما تجردت ذكرى الحلاج من كل ثوب مادي ، كان الطمي الآتي يعرض بهرجاً وتعقيداً وضيقاً . وكان الشرق القديم ، في دلالاته تلك المنبعثة من ذكرى أحد اوليائه ، يعترف بنكران ذاته ، وبجنينه الى ذاته . وفي الوقت نفسه بانضمامه الى العالم الصناعي . وتحت شكل هو ، والحق يقال ، متطرف ومنهار : القفا وما يشبه الكاريكاتور لما يجهد الزخم الحقيقي للحياة الحديثة ان يحققه ، في هذه البلاد او في بلدان عربية . ومع ذلك كان يوم ١٤

تموز يعد ، في كل مكان حولنا . وكانت مواضيع ومعارك الحياة الحاضرة
تتحف ، على هذه الصورة ، الى ارض الحلاج المصعوقة ، كما لو على موجة اخيرة .

الحوار بين الشرق والغرب ايضاً

وهنا ندرك كل ما لا يمكن
الاستعاضة عنه من زمان ومكان : وبالذات

ذاك الذي تثير به الانفعال فيك الدراسة التاريخية للعرب . وطرافتهم المبهمة
تخضع وتحمل الود لغزوة العالم في كوكب هو في طريقه الى التجمع . وتطوق
العرب فيه ، من كل الجهات ، الافكار والاشياء . ومن هنا هذا الصراع ، عندهم ،
بين شخصيتهم وتوحيد العالم .

وكثيرون هم الذين تلهوا ، فيما بين الحربين ، في أن يطرحوا المشكلة وفقاً
لتصنيف جغرافي . مقرون بحكم مؤداه ان الشرق هو مملكة الروح والغرب بمملكة
المادة والسببيات القاهرة . وكذلك وفقاً لتراتب سيكولوجي ، يضع بعض
طبقات الروح في خدمة الفكر . وطبقات اخرى في خدمة المادة . ولنتذكر ،
في هذا الصدد ، ما كتبه أناس مثل توفيق الحكيم واحمد امين وطه حسين .
ويستمر الحوار ، اذ ان جميل صليبا ، عميد كلية التربية في دمشق ، يخصص لهذه
المسألة عدة صفحات في احدى النشرات حول التيارات الفكرية في بلاد
الشام (١).

وقد قال الاستاذ محمد مبارك ، في خطاب ألقاه يوم الجلسة التأسيسية

(١) جميل صليبا : الاتجاهات الفكرية في بلاد الشام ، القاهرة ، ١٩٥٨ ص ١٧١ وما يلي .
وهذه المقولة العاكسة (Antithèse) أعيدت مراراً وتكراراً من قبل المداحين الشرقيين
المجدين للشرق . انظر ، حول هذه القضية . الملاحظات القاسية التي ابداهامون جرينيوم
« محاولات لتفسير الذات في الاسلام الحديث » ، المجلد الاول والثاني من مجموعة : « اقتراب
نحو تفاهم جماعي » نيويورك ١٩٤٧ ، وخاصة بمناسبة الحديث عن حسين هيكل .

للجمهورية العربية المتحدة : « ان المدنية الغربية يعوزها النور * الذي يستطيع اضاءة مشكلة الانسانية امامها ، والذهنية الغربية قد برهنت عن عجزها الاساسي الذاتي* وعن انايتها وتخلفها الخلقى . فهي لم تستطع ان تلعب دور القيادة الروحية في العالم . وبالعكس فان هذه المهمة ، وهذه الكرامة تعودان للشرق . فبا لتصنيف هو ، والحق يقال ، من باب الانشاء الادبي ! أما جميل صليبا فهو من التطلع بالفلسفة بحيث يمتنع عليه الوقوف عند هذا التصنيف . فهو لا يجد مشقة في اكتشاف تيار كبير من المثالية في الغرب . والحق يقال ، ليس من مجتمع مثالي ولا من مجتمع مادي بالمعنى الذي يعطيه علم الاجتماع لهذين المفردين . فكل هذه المجتمعات هي ، في آن واحد ، مثالية ومادية ، وان في أشكال وبنسب خاصة بكل منها . ومع ذلك ، فان عمليات التقطيع والتصنيف هذه تحمل في اقلام الشرقيين قيمة الشهادة والحياة ، التي سلم بها ، على كل حال ، الكثيرون من ابناء مجتمعنا .

وعلى التحليل الأكثر تحدياً ان يقر بذلك . فقد بقيت ، في الشرق ، رواسب من نمط عتيق . وقد نقبت فيها مدرسة حديثة بكاملها فوجدت فيها ، او حسبت أنها وجدت ، استمرار رسالة . وقد اكتشفت في الاسلام ، وربما اكثر في الاسلام العربي ، تقاليد اقل انقراضاً مما في اماكن اخرى ، وان كانت مغطاة بطمي العصور وتحاربها المدنية الغربية . وقد كان جبرار دي زفال يتقرى في مشاهد مصر جزءاً خفياً من ذاته ونداء أسرة بادت من دهور سحيقة « أسرة متواضعة وسماوية ، كانت عيونها ، كما كان يقول ، تبحث عن عيني بعطف ودود » (٢) وجينون Guénon ، قد اعتنق الاسلام ، عام ١٩١٢ ، لا الهندوسية . وقد اتصل على سبيل التناهد ، بمشائخ من المذهب السني . مثلاً بالشيخ عيش ،

(٢) « اوريليا » ، مقدمة جوزي كورمي ، ص ٢٦ . انظر رسالة تيرفال الى تيوفيل جوتييه كما نقلتها مجلة « برج سان جال » في المديين ١٣ و ١٤ ، عام ١٩٥٨ ص ٥١ واختيار اسم « هليوبوليس » من قبل ارنست يونغر Ernest Yungner ليس من قبيل الصدفة .

كبير علماء المذهب المالكي بالقاهرة ، الذي ساعد رساماً سويدياً على اعتناق الاسلام . وانه لوجه غريب هو هاجيلي هذا Hageli الذي اصبح ، في الاسلام ، الاخ عبد الهادي ! وقد جعل من نفسه ، في اوربا ، منذ جيل ، احد اوائل الذين نقلوا ابن العربي ... (٣) وعليش كان يعلن نفسه المعلم الاكبر للطريقة الشاذلية في مصر . فما الذي انتقل من تعاليمه الى الكتاب الذي كرسه جينون ، عام ١٩٢٤ ، للتضاد بين الشرق والغرب ؟ وفي ذلك الوقت كانت مجلة « دفاتر الشهر » تقوم بتحقيق حول ما تضعه تحت عنوان : نداء الشرق . ولا شك في ان طلبة عرباً كانوا يقيمون في باريس في ذلك الوقت ، قد تأثروا بهذه المناقشات وربما ايضاً بكتاب جينون الذي صدر ، عام ١٩٢٧ حول « ازمة العالم الحديث » . ونحن نجد فيه بعضاً من الموضوعات الاكثر تخريباً بالنسبة للمدنية الصناعية . ومن هذه الافكار ، كما من رؤية سبنجلر للتاريخ المشعونة بالكوارث ، كما من التيار اليساري المعادي للاستعمار ، تم ، عندئذ ، عملية تأليف متناقضة ينبغي لنا ان نربط بها بعضاً من الافكار الشرقية التي سادت فيما بين الحربين . وقد وصف فرنسوا بونجان Francois Bonjean ، عام ١٩٢٧ ، جينون وهو يتحدث في حالونه : « انني لا ازال اراه ، طويلاً ، نحيلاً متدققاً بالطيبة ، وهو يواجه محاوريه . ومنظر هذا العربي وهو يدافع بعناد عن تراث الشرق ضد اولئك الشرقيين المتكلمين لم يكن يخلو من الطرافة والعظمة (٤) »

فلنحترم تكلف المستعدين الشرقيين ، وربما شيئاً من السخرية عندهم . اذا انا الآن سنباشر الاستماع الى شهادات اخرى منهم ، . واغلبها لم يعد ينظر الى الحوار بطريقة جينون . وعلينا ، نحن ، ان نستبقي من تحليل جينون ما يتضمنه من دقة موضوعية حول الجانب القديم النمط من الشرق ، وكذلك ما ينتج

٣) وتجدر الاشارة ايضاً الى المستشرق الايطالي جان ساباتو Sabato ضمن هذا الفريق .

٤) ب . شاكورناك P. Chacornac ، « حياة رينه جينون البسيطة » ، المنشورات التلميدية ، ١٩٥٨ ، ص ٨٥ ، ويفضح ب نافيل P. Naville ، عام ١٩٢٦ امساء استعمال

« الترهة الشرق » التي يرتكبها السرياليون انفسهم

فيه من وعشة روحية . وإمكن اختياره يبدو للنشأطين الشرقيين ، مثلما يبدو لنا ، مشوباً بنزعة التعلق بالماضي ، ولنقلها بصورة حاسمة ، بالاتباعية (او « بالتقليد »*) رغم ان هذه التهمة كانت ، دون ريب ، سوف ترفض باستفطاع شديد من قبل المعلم . فمن الجائز انهم سوف يتهمونه بتقدمه امام شبياتهم الفتية مثلاً أعلى مفرطاً بطابعه النبأتي .

الآية والموضوع

ان ردهات الفاتيكات تبهرنا

بالبدخ المتألق فيما تحويه من اشاء .

ففي كل مكان ، من مجموعاتها - العاجيات ، اللوحات التائيل ، الكرات الارضية - يندفع دفق طاغ من المادة . وهذه المادة قد نفذ اليها فنانون وعظمها مؤمنون ومتصوفون . ولكنها ابدأ في عصيان ضد اللاجسدي . وهي تعصاه بركة . فهنا تتجسد الروح ، وتصبح الحقيقة لباً ، من هذا اللب ذاته الذي فطرت منه المشاهد الطبيعية والوجوه الانسانية . فلنقارن هذه الاشياء بمسجد الصخرة ، في القدس ، بعريه الهائل . وأكثر منه الكعبة التي يشع العالم حولها ، والتي هي مركز الحجر الاسود ، وموطن رفض الشيء . انها مكة : رومة الآية او الدلالة .

وفكرة الآية تحمل المهتم بالعربية الى اللفظة الرائعة : « آية »* (٥) . فالقرآن يورد على لسان الله تعالى : « سنوهم آياتنا في الآفاق »* . فهذه الآية - العلامة او الاشارة او الدلالة - وهي البرهان الجوهرى الذي ينبثق من الصحراء ، تدين المادة . فالمفرد اللاتيني Signum ، « علامة التعرف » ، ومنه « النتوء » و « الشكل المصنوع » يتجسد في تمثال ، بينما « آية » تتجلى فكراً او روحاً في صورة كلمة . . صحيح ان عصورنا المتوسطة كانت هي ايضاً تعطي للمفرد

٥ (لسان العرب .

Signum معاني روحية (٦) ، علامة التعرف على المسيح (اشارة الصليب) ، لغة التخاطب بين بعض الفرق الدينية . مثل دقة الجرس التي تشير الى اوقات القداس ، او المؤذن الذي يدعو الى الصلاة . وعلى هذا ، اصبحنا ندرك ان تكون هذه الاشارات المتعادية كانت تثير ، في فاس او في غرناطة ، بين اصحاب العقيدة الغالبة والأقلية المارقة ، مشاحنات تدهشنا اليوم بعنفها . وعلى كل حال ، فعلى مثل هذه المسافة من الماضي ، نمحي بعض الفوارق التي كانت تفصل ، لثلاثين سنة خلت ، بين اسلام منطو على عقيدته ، وغرب يهدف الى السيطرة على العالم ، مثل البيريك Alberich . وتتجه الفوارق من جديد الى التقلص بين غرب يحاكم نفسه واسلام يسير نحو الحياة الحديثة . وظاهر ، اذن ، ان هذه الفوارق تقتصر على طبيعة تاريخ يحدث تعديلاً في القيم والأشكال . وما تعبر عنه هذه الفوارق من طابع مميز ، وما لا يجيد عن جوهره ، علينا ان نحصره ونفسره ، بدلاً من ان نركز عليه تعريفات تحمل الكثير من سوء الاستعمال .

وللمسيحية رموزها عن الرسل . ويقول روفين Ruffin ان هؤلاء كانوا يريدون ان تسمى هذه القاعدة رمزاً Symbole لأن هذه تعني ، باليونانية ، في آن واحد المبدأ الاساسي - Initium = Principe والاصطلاح - la Convention Collatio والقديس او غسطينوس يوضح هذا المفهوم بالجوء الى تشبيه باشارة تعارف بين التجار (٧) . وبوسعنا القول ايضاً : تعارف بين زفاق ، او متآمرين ، او مبتدئين في تلقي الاسرار . انه مظهر التواطؤ السري ، المظهر الأداتي . والتأويل « التقليدي » « يطرد » ، قدر استطاعته ، المشكل الاجتماعي

(٦) دارمبيرج Daremberg وساجليو Saglio ولفروند Freund وديكانج Du Cange هذا القاموس يثبت سبعة عشر معنى للفرد .

(٧) قاموس الآثار المسيحية القديمة والطقوس الدينية .

Dictionnaire d'archéologie chrétienne et de liturgie

انظر ايضاً فيما يتعلق بالاسلام مقالة مرجليوث في موسوعة الديانة والاخلاق .

Encyclopaedia of Religion and Ethics

حتى ما يختص منه بالطرق الدينية ، او بالكهنوت ، كي يقصر مراجعته على « زخم الاندفاع نحو المقدس » (٨) . ولكن هذا الامر يؤدي الى تشويه معنى الزائدة المتقدمة الاغريقية Sun التي يركز عليها ، بالعكس ، علم الاجتماع الحديث . والمظهر الأداتي P'instrumental يبتدىء بكل قوته في رسالة ميرسيا الياد (٩) Mircia Eliade ففي نظره ، بقدر ما تكون الرموز دينية ، بقدر ما تهرب من التاريخ ، او على الاقل لا تخضع له إلا بنعومة . وبالأحرى ، هي ترتبط بالتزامات الانسان الاولى نحو العالم . وهكذا يبدو انها تنتقل اليها تحت أشكال راهنة - صور او كلمات او اشياء . ويلعب الشرق دوراً أساسياً في عمليات الانتقال هذه .

ولنجأ ، على الطرف الآخر ، الى علماء الاجتماع . وطريقة جريفيتش Gurvitch معروفة ، بصفاتها الإدراكي الذي كان من الممكن ان يصبح بالغ الجود لو لم يمهده دائماً بنوع من الرعدة وما يشبه التكثير بوساطة الحركة . وهو يحدد الرموز كآيات اجتماعية هي غير ملائمة ووسيلة في الوقت نفسه (١٠) وهذه الرموز ترجع الى شمول اوسع ، ثقلاً ونوعاً ، من مادتها الأداتية وحتى من الافراد الذين تخاطبهم . ففي هذا الشمول (الاجتماعي هنا ، ولكن يمكننا نعته بالشمول المتسامي) تستقي الرموز قوتها وقدرتها على اثاره الانفعالي وعلى التحريض . وغناها يرتبط بضرية عدم كفايتها في الاداء بوضوح . فهي تنبئ بصورة أقل امانة مما تنبئ الجملة المتسلسلة . ويستتبع ذلك ان الكلمات تستطيع ، في الرياضة الروحية او في الفن ، ان تتخذ قيمة رمزية تكاد تسير عكس قيمتها

(٨) ر . آلو R. Alléau « طبيعة الرموز » .

(٩) ميرسيا الياد : « الصور والرموز ، محاولة حول الرمزية السحرية - الدينية » - دار جالبار ١٩٥٢

(١٠) ج . جريفيتش : « رسالة علم الاجتماع » ١٩٥٠ ص ٧٥ وما يلي .

الانبائية أعني قيستها في التبادل النفعي (١١)

فعلم تاريخ اللغة ، اذ يميز بين سجلين : سجل المعبر (او العبارة) وسجل المعبر عنه (١٢) ، يسمح بابداء هذه الآراء . فمثلاً ، ان عبارة ما ، عندما نلفظها تتضمن المعبر الصوتي والمحتوي المعبر عنه حيث يجب التمييز بين نصيب الإنباء ونصيب الاثارة . وبين هذين النصيبين ، يرقب المذهب الكلاسيكي (او المنهجي) توازناً حاداً . اما المذهب الشعري الحديث فيهدم هذا التوازن . وقد كان ريمبو يقول : لقد كتبت أسجل ما لا سبيل الى التعبير عنه . لقد كنت أرمي حالات الدوار . بينما يصح تشبيه قصيدة من راسين بثلاث متكافئة الضلعين حيث يتأمن التوازن بين كل العناصر : الموسيقى اللفظية . والطاقة الانبائية العملية ، والقدرة على الاثارة (١٣) . ونحن ، اليوم ، نخضع بحساسيتنا ، اكثر ما نخضع لهذه القدرة الاخيرة . نحن نطلب من الانفعال الجمالي ان يشارك في قيم ليس بينها شيء مشترك غير انها تتجاوز الفردي والعملي والمعقول : موجات كبيرة من الإجماع الاجتماعي ، وانطلاقة نحو المقدس ، وغطسة في اللاوعي . وما يصح على الشعر يصح ايضاً على الفنون الاخرى ، وبصورة تحتمل امتيازات أقل ، هو يصح على فن القول ، والاشارة ، وعلى الاشياء . فكل شيء في داخلنا وحوالنا يسعه ان يأخذ معناه ، حالما ان الشيء

(١١) هذا الجانب العملي من التبادل اللغوي قد التي الضوء عليه خاصة من قبل هنري لوفيفر Henri Lefèvre في بحثه : « الحاجات واللغة » في مجموعة « اجمات واحاديث فلسفية واقتصادية » عدد ٣ ، باريس ١٩٥٨

(١٢) انظر سوسير Saussure : « محاضرات في العلم العام للغات المقارنة » دار بايو Payot ١٩٥٥ ، ص ٩٨ وما يلي .

(١٣) وبكلمات اخرى ، يبقى هذا الامر شعراً بالضبط بقدر ما فيه من هذه العودة الى اللاتجزئة الاولى (التي سبقت الحضارة الانسانية ، اذا شئنا) بين « الوظائف » المتعددة التي يفصل بينها تحليلنا بصورة كيفية ، في اللغة : وبصورة خاطئة ، في نظر هيدجر في كتابه : « رسالة حول النزعة الانسانية » عن دار اوبيه Aubier ص ٧٩

والاشارة والقول تبادل ، قليلاً او كثيراً ، كنهها المتبادل مقابل بلوغ ما هو
أعمق وارحب . والرمز يكتسب قوة تزداد كلما ظهر ان التبادل غير متكافئ .
ومما يمد في جوهر قوته ضالة الاداة ، وعدم توافقها مع اي شيء واعٍ او
عملي ، وأخيراً نوع من التبلور .

وبالضبط ، يتحدد « الرمز »*^(١٤) ، في اللغة العربية ، بمعنى يكاد يتجرد
من الاساس المادي : انه همس ، انه حركة صامتة في الشفاه او في الجفون ،
انه تلميح ، انه نبذة . ووفقاً للاهتام المميز للغة ، تنتهي هذه الكلمة العميقة باتخاذ
الالوان الأكثر تنوعاً ، وايقاعاً ، في نوع من التناوب بين الخير والشر .

فما هي ، مثلاً ، « الرمّازة »* او « الغمازة »* ، والكلمتان تستعملان في
معنى واحد ؟ انها المرآة التي تبت حديثها دون تهجئة ، فلا تستعين بالكلام وانما ،
مثلاً ، ترمش بجفونها دلالة على الدعوة او القبول . وقد تكون المرآة الكيسة ،
تلك التي تجيب بضغطه من الانامل ، او بأية صورة اخرى ، وليكنها ، على كل
حال ، لا تستخدم عملية الكلام ، ناقل التعريجات الصارمة ، والقوى الخطرة .
ولكن تماماً على الطرف المناقض لهذه القيم الانفعالية ، يقوم « الرجل » رمز
الرأي* ، وهو الحكيم ، الذي يحتقر الخطاب ولا يعبر عما في نفسه إلا بصورة
اقوال تلمح ولا تصرح ، وربما بصورة صمت من يعلم ، « صمت الحكمة »* او
بأية صورة اخرى ايضاً ، بوساطة سحنته او مسلكه .

وهناك كلمة اخرى ذات استعمال اكثر شيوعاً اليوم بمعنى « الآرمة » هي
كلمة « شعار »* انها تحير بترف معانيها المصطلح عليها في اللغة القديمة . فاصحاب
القواميس يقيمون ، عن صواب او خطأ ، علاقة بينها وكلمة « شعر »* (بفتح
الشين) وهي تعني ايضاً « التفاف الشجر في الغاب » ، و « الظل » ، او ايضاً
الثوب الأكثر سرية ، « او الثوب الداخلي » ، وبالتالي « الجوهر الخميم

(١٤) انظر « لسان العرب » حول كل هذه الكلمات .

للجسد ، وذلك انسياقاً مع هذه الشطحات الشهوانية التي تميز بصورة فائقة مدنية من هذا النوع . وهناك اشتقاق آخر : العلامة التي تدمغ بها الضحية ، لدرجة انهم كانوا يقولون ، في الجاهلية ، عندما يقتل أحد الملوك : لقد « أشعر » أي « لقد رسم » ، فتلقى الجرح الرمزي ، ضريبة الدم التي ترفعه الى عالم من عمليات الانتهاك المدهشة ، ومن التبعات الأساسية . واخيراً تعني كلمة « شعار » « الراية » و « صرخة الحرب » وهنا تلتقي المعاني التي تقود ، بتعميقها لما يحمله شيء ما من وجوه الاختلاف والتباين مع غيره ، الى الدلالة الرمزية ، اي المعبرة عما هو ارحب وعمما هو اعتمق .

ومن طريق آخر ، تقود اليها مفردات مثل « رسم » و « سمة » . فهي تشير الى العادات في حياة البداوة ورعاية المواشي . فالبدو يشرمون اذان انعامهم او يحدثون جراحاً في اكتافها ليدلوا على انتابها الى هذه القبيلة او تلك وفي هذا الميسم الجسدي جهر بالشخصية . و « الوسيم » * ، اي الانسان الحبيب ، يحمل نسبه في وجهه : الجمال ذا الدلالات ، لو صح القول ، الذي كان قدماء العرب مولعين به .

ولنهمل كلمة « علامة » * التي تحمل من الوعي والتكلف اكثر مما يتلام مع حديثنا ولنعد الى المفرد المهيب الذي ذكرته سابقاً . فان سور القرآن تتابع كحبات المسبحة في ايقاع يبهز الانفاس ، كل جملة فيها تشكل « آية » ، واصحاب القواميس يجعلون من لفظة « آية » نوعاً من التقطيع في الترتيب . ونظام اشارات . وهناك تفسيرات اخرى تلتفت الى الكيان الفردي ؛ معجزة التوحد الذاتي الذي يكمن في كل كائن : وهكذا يمكن القول : « آية رجل » * ، أي شخصية رجل . وهذا الرهط خرج بكامله : « خرجت القوم بأياتهم » * وبهذا المفهوم للكامل والمجمل ، نحن نهتدي الى احد الاشياء القليلة التي يراها علماء الاجتماع واللاهوت ، في اتفاق غريب فيما بينهم حول هذه النقطة ، كامنة في الرمز .

الشرق الرمزي

وهذا الغنى بالالفاظ يحمل دلالة لا

يكذبها الشرق الحديث لا باشخاصه ولا

بأشيائه . وهذه هي بعض الملامح التي جُمعت تقريبا ، على وجه الصدفة ،

للتدليل على ذلك .

ففي تموز ١٩٥٨ ، كان السيد عبد الرحمن ، ابن المهدي السوداني ، يعالج قلبه في جنيف . وفي غرفته المطلية بالدهان الوضيء ، والمتألقة بترف الفراغ الذي تعرف المدينة الصناعية كيف تحيط به المرضى ، كان الشيخ يستريح . وخلفه ، على الشباك ، كان يتدلى سيف ذهبي ، هو سيف فاهر جوردون . وكان « السيد » ينقل هذا الاثر ذا المغزى كلما ترك بلاده . هكذا قال لي . فالرمزية كانت متعمدة ، في هذه الحالة .

ولكن من الاصعب تفسير تلك الراية الحمراء التي تحقق فوق مساجد كربلاء ، كما لو كانت تهدف للتمثيل على الآراء التي تجعل من الدعوات الشيعية مظهراً لثورة الدائمة في الاسلام . ولكن لو ذهبنا الى ما هو اهمق لرأينا انها تتعلق بفن معاني الألوان الذي وضعت له الصوفية الايرانية تفسيرات وحواشي دقيقة . ففقدت كان السمعاني يقول : تسيطر على الانسان سبعة مراكز ، لكل منها لونه : الاخضر الذي يبشر بمحمد وبالذهب الشيعي ، والأسود الذي يبشر بالمسيح (١٥) الخ ...

لم اللجوء الى هذه التأملات الفكرية ؟ ففي المدينة الاسلامية ، يتفجر الرمز من كل مكان . ان تداء المؤذن ، وازدحام المصلين يوم الجمعة وتزويد المدينة بمسجد جامع مركزي ، وبعقابات في الاحياء ، منابر وأضرحة ، كل ذلك يخضع المدينة بكاملها لتخطيط مدني قائم على الاشارة والآية . فلننظر من قرب اكبر .

(١٥) هـ . كربان H. Corbin : « الخيال الخلاق في صوفية ابن العربي » باريس ١٩٥٨

ان قباب الآثار تشير الى قبة الفلك كما تشير قواعدها المربعة الزوايا الى الارض: انها رمزية مناقضة لرمزية الشعوب الهندية - اوروبية . والزخرف العربي هو ايضاً رمز . فبرسومه ومادته ، هو يعطي المعزى اكثر مما يفصح عن المعنى . وفيه يستلهم الفنان التقليدي تشابك الخطوط . وتعانتى الخطوط يقترح على المتفرج لغزاً يفترض حله ، عبر كل المعاني الحرفية ، ما لا يعبر عنه بالكلمات . وحتى حين تستخدم الكتابة العربية في الظروف الاكثر عادية : الرسائل والعقود ؛ فهي توحى اكثر مما تنبئ . وتقسيماً البنائي الى حروف صوتية وحروف صامتة يثير تجاوبات من كل نوع : موسيقية وصوفية على السواء . ولهذا السبب ، لا تعطي اللغة المحكية من اللغة العربية المكتوبة غير هيكل مشوه . او ما يقارب السخرية . ففن الدلالات الحسية الذي تدور عليه اللهجة العامية يناقض فن الدلالات الكينونية الذي تتضمنه اللغة الفصحى ، « اللغة » * ، ومن هنا ، كان شجب العامية من قبل حركات الانبيات القومي التي تحاول ان تستمد من الكلاسيكية ليس تجاوباتها في الدعوة للوحدة العربية ، وانما وسيلة للتأجيج عن طريق تضادها . ونحن نلمس هنا احدى قضايا الساعة المحرقة . فليس من الجمالية الصرف ان يلقى هذا الدور على عاتق الاطار المهيب وعلى وسائل التبادل - بالكتابة والقول - التي تستمد القومية العربية منها اغلب قوة دفعها الجارفة ، على الاقل في كل فترة ما بين الحربين .

فلنكي يتبوا التاريخ الحديث ، اضطر الشرق ان يتحول كله الى رمز .

الشرق في

النظرة الاجالية

هكذا هو لا يزال يبدو وبصدم

حتى اليوم ، رغم تصنيعه المتزايد

واندفاعاته الزمنية المتنامية . وباتفاق من الصدفة متناقض الظاهر ، هذه البشارة

التي بحث عنها ووجدتها فيه الشعراء والمتصوفون ، من السهروردي الى نرفال ،
البشارة بالحقائق القديمة التي تحمل الينا رسالة تقاليدہ وملائمہ وحتى جسده ،
هذه البشارة لا تستطيع ان تغيب عن انتباه حتى اكثر الناس جهلاً
بهذه الشؤون . ووصف المخبر الصحفي يلتقي هنا مع افكار المؤرخ التأليفية ،
ومع تأملات المرید الصوفي .

في كل مشهد من مشاهد مدن الشرق يتفجر عدم التناسب بين نطاق الحياة
ونطاق الاشياء ونوع من التصادم العنيف بين عهود الماضي ومستويات الكائن
في الحاضر . فقد بقيت حياة الاسكندرية القديمة في منعطفات الازقة وعلى
سطيحات المقاهي ، وفي الصباح الزاخر بالعبار واللؤلؤ ، والعشيات العابقة بمشاهد
الفجور في « سيدي بشر » . ويمكنني القول ، ان كثيرين غير الشاعر كافافيس
Kavafis^(١٦) قد أحسوا بذلك . فكل مدن الشرق هي « قلاع الذكريات »
بمعنى انها تمجد الحقير وتدنس الرفيع والمقدس . فكل عملية « تجديد » * تتضمن
مثل هذا التدنيس . وعلى العموم يسيء الناس كثيراً فهم هذا الامر ، في الخارج .
فبغداد ، في ايامنا هذه ، هي مدينة يقوم فيها الماضي شاهداً وعرضة للتشويه .
وتغري جادات عريضة ، مستقيمة الهندسة ، صميم مناهات مبنية من الطين الاسمر ،
محدثة تضاداً صارخاً مع القباب المبنية من القيشاني الازرق ، على الطريقة
الفارسية ، ولكنها تنفق مع هذه الجسور المعدنية الضخمة التي يبنها « كروب »
لحساب السوق المشتركة . ويأخذ بخناذك تناقض آخر حينما تزور المتحف العربي . وهو
يشغل بناء قديماً كان ملحقا بمسجد المرجان الذي يفصله ، اليوم ، عنه شارع
الرشيد . انه بناء من القبيء الرطب والغنى الصامت . وعندما تتنفس قليلاً بين

(١٦) انظر ترجمة مرغريت يورسينار « مقدمة نقدية لقسطنطين كافافي » عن دار جاليلار
١٩٥٩ . وفي المذهب الاسكندراني ، ليس بالامكان فصل كافافيس عن تدييلات لورنس
دوريل Lawrence Durrel المذهلة .

قاعتين ، وتنظر من الشباك ، ترى « بانك ستويت » (شارع البنوك) الذي
توكرت فيه اليوم كل المصارف مثلما كان الصيارفة يتجمعون في الماضي .
وتستطيع عينك ان تحيط على التوالي بفخاريات بدیعة من سامراء مصطفة على
رفوفها، وقريباً منها اعمدة الحديد والاسمنت المسلح التي شيدتها رأسمالية متبجعة .
والانطباع نفسه يشعر به من ينظر الى القاهرة من الجزيرة . فهذه الضفة
تغيرت تماماً منذ سنتين . فقد غطتها حانات شعبية تقوم بدور التراث بالنسبة
للضواحي . وقد زرتها مؤخراً . وكنت ارى امامي صفاً غير منتظم من البيوت
يحد الضفة اليمنى . واساليب البناء من كل طراز تربع فيه في آن واحد ،
شاهدة على تتابع العصور والاذواق . فهناك بعض دور قديمة بناها سراة العهود
الماضية . وهي مغطاة بتخاريم وزخارف تشارك فيما يُعرف ، بالمغرب ، تحت اسم
« طراز جونا » « Style Jonnart » . وهو يقابل ، في مصر ، الطراز الايطالي
الذي كان يسود في النصف الاول من القرن العشرين . وفندق سميراميس نموذج
عنه . ولكن الفنادق الحديثة ، مثل شبرد الجديد وهيلتون ، (١٧) تحرص على
تحاشي كل زخرف مصطنع بقدر ما تتحاشى كل طابع محلي .

والى اليسار يقوم مقر الجامعة العربية . وبناء آخر يسد الافق ، ويقوم الى
اليمن ، من جانب الروضة ، ويشرع عالياً في الاجواء ، كشعار ملتهب كل
ليلة ، اعلاناً هجوماً عن الكوكا كولا . ومع ذلك ، على الضفة ، تماماً بازاء
النادي ، يمكن تمييز مقام احد الأولياء ، يتصل بالنيل . لقد ابتلعه الابنية .
وتشاء الصدفة ان تكون المكاتب التي تحيط به (في رصيف شارع ماستيرو) محتلة
من قبل وكلاء الآلات والاعتدة الضخمة : اجهزة لقياس ضغط القاطرات ،
وتوكيب الفلزات المعدنية .

(١٧) لقد رأيت ، منذ كتابة هذه السطور ، فندق هيلتون بعد المجاز بنائه . وبودي ابداء
تحفظات عديدة حول هذا الصنيع الفخم المتسم بجمالية عربات النوم .

ودون خشبة من الغلو في هذا النوع من المقولة المعاكسة (Antithèse) التي تكون مادة الشرق الحاضر بعينها ، ارد ان اشير ، ايضاً ، الى طرابلس (لبنان) . فمن حديقة زرعت باذنجاناً تنبسط على الضفة اليسرى من مسيل « ابو علي » ، انا اشاهد امامي هضبة هي « القبة » التي تبرز قمته صوراً مضحكة بفرابتها : مشارف جريئة وماذن مثلمة . وتضرب دنيا من يهلوانية الباطون المسلح ، بزهور ، حول آثار اسلام القرون الوسطى . اسلام يتمثل بالمداميك المنحوتة ، وبالأزقة الظلمية ، والشعريات الخشبية الغريبة التي تنطلع النساء من خلال ثوبها .

وخلفي يقع الحي الفرنكي ، المتعلق هضبة حي « ابو سمرا » نحو قلعة سانت جيل الصليبي . والى اليسار ، حول حي « التل » تشع طرابلس الحديثة ، اشعاع الكوكب ، بصورة جادات عريضة ، وليكن ليس بدون ان تقوم الصناعة الناشطة - صناعة الزيت والصابون والحلويات - بالمطالبة بالاتفاق المتجدد بين المدينة وريف الزيتون والبرتقال .

وتلك كذلك هي حال حلب ، التي كان ياقوت يشيد بها ، لوفرة بقولها ، ولغنى السهل الفسيح الذي كان يمتد أبعد من مدى البصر حولها . والقلعة التي ظلت دائماً تدعي الانتماء الى ابراهيم الخليل . تشمخ فوق مربع من ابنية تنتشر حولها مثل مصراعي صدفة . وهذا الانقسام يعود بعيداً الى الماضي . فالى الغرب لا تزال تلوح ، تحت تخطيط الشوارع ، الهندسة . وقد بناها التخطيط العمراني الحديث واستعادها لحسابه ، في ردة غريبة . وفي الشرق يسود التشابك الاسيوي ، تراث القرون الوسطى ، مثل الاسواق الكبيرة . ويبقى العهد التركي حياً ، في بذخ الدور الارستقراطية ذات الرخام المتعدد الالوان والأبهاء الداخلية التي ترطب جوها شلالات مائية مصطنعة تحمل اسماً في غاية الجمال : « مسيل » وتسمى المدينة الحديثة بحركة تصنيع عميقة ، وبجيوتها المتشككة ،

تكون جدرة بماضيا الذي لا يسبر له غور ، من طريق تحديه .

وبالطبع فان ذلك لا يتم دون حدوث اضرار . فالتضاد بين الحقب والبول ، وعدم التناسب بين الذكرى والامال والرداءة ، كل ذلك يجعل من كل شيء في الشرق ، دلالة ومقياساً اكثر مما يجعل منه واقعاً . ولذلك ، لا يزال من الممكن التجول فيه ، في عصرنا هذا ، مثلما كان يتجول جيراو دي نرفال . الا اذا كان المرء يطوف فيه مثل مدير البنك الدولي للتعمير والائمان . ولربما تجري الامور هكذا ، او بما يقارب ذلك قليلاً او كثيراً ، في مجتمعات اخرى . ولكن ليس في مكان آخر ترفع فيه تباينات بمثل هذه الضخامة ، الشيء المعاش والمحسوس الى قيم ذات دلالة ، مماثلة . او تفرض فيه على الواقع الحاضر عمليات مواجهة بمثل هذا الطابع الساحق .

الحنين والرجاء والاحساس بقصر العمر ، هذه هي الابعاد الثلاثة التي تحدد الحياة العربية ، في ايامنا هذه . ولهذا السبب ، فان كل ما يعمل فيها وكل ما يقال : الحركات والاقوال والاشياء نفسها تتخذ فيها ، على التوالي صفات متضادة : حميمية ، جلال ، مأساة ، لو شئنا ؛ وفي المجموع ملهامة . هذا السجل المزدوج من الانفعال والتمثيل يقود المتبحر في دراسة العرب والعربي نفسه الى المفاجآت وسوء التقديرات . والتحليل يخرج من ذلك ، عادة بمواقف وأفكار متناقضة ما لم يدع نفسه ينساق مع احد الموقفين المتعاكسين : إما اللطف المشبه وإما سوء النية المخطيء (١٨) . واما مع الاثنين في آن واحد . وفي الواقع ، هذا الموقف المزدوج ليس الا صورة الجواب ، عند الاخرين ، على ما يحسه العرب بالنسبة الى انفسهم : تفاؤل مشهور ، او تشاؤم مضمّن . او كلا الاثنين في آن واحد . ومن هنا كان ترددهم الذي قلما يفقهه الآخرون .

(١٨) لا نود هنا ، ان اذكر عناوين ...

وحيث يفشل علم النفس في تفسير ظاهرة من هذا النوع ، بغير ايراد المقولات المتعاكسة (Antithèses) : حبك مؤامرات وعنف ، مساومة ووهم ، نبيل وجشع ، يستطيع التحليل الخاص بعلم المعاني ان يكون اكثر طموحاً ، واذا كان دون كيشوت الشرقي (١٩) يدهشك بغمزة من عينه تشر كك في التواطؤ ، بينما يستطيع صانثو ، الدسم الشهوانية ، على طريقة اهل المدين ، ان يموت كبطل لا نفعي (٢٠) ، فلنكن حذرين من التوقف عند عمليات المقابلة هذه بين المتضادات التي غذمتها واستغلتها طويلاً مناورات بارعة من قبل الغير .

والتفسير المؤقت على الاقل ، هو ان العرب في اصمالمهم ، وأطار حياتهم ، والتقلبات التي يضطربون فيها ، يخرجون بفضيلة خاصة بهم من مقارنة الحاضر المرجع بالماضي والمستقبل اللذين لا حد لهما ، كلاهما ، فكل شيء فيهم وبهم وحوهم يتبلور في رموز مؤثرة . ومن ذلك ، سوف قفيد مغامرتهم الحديشة وتعاني في آن واحد .

... الشرق في التاريخ حتى حصول الاستقلال ، اكدت

البلدان العربية نفسها ، بتمرد لها ضد الشيء

بالذات ، الذي كان يساند ، بصورة رئيسية ، التوسع الغربي : أعني : الشؤون الاقتصادية . وقد جعلت تحليلات كلود ليفي ستراوس Claude Lévi - Strauss (٢١)

(١٩) وبعد كل حساب ، فان كيشوت نفسه يمثل هذه المساجلة بين الرمزي والمحسوس التي تدور في بعض الشعوب ، في بعض الفترات ، اكثر مما تدور في غيرها .

(٢٠) ومن هنا الدهشة المضحكة الى حد ما التي تخالج القوى الغربية امام الشدة المقاتلة التي يبديها ، رغم الذهنيات المتلقاة ، اشخاص من المدينة : سواء كانوا بوجوازيين من دمشق او أعضاء برلمان قاهريين . وفي هذه الايام يبدو ان الحارب البدوي هو الذي يجد نفسه موضوعاً ضد التيار لانه يقف ضد التاريخ : فهو لم يعد يتضمن « معنى » لذلك يضل انصاره .

(٢١) الذي سوف يعذرني اذا استقيت الآن ، من اثره البالغ الغنى هذا النموذج الخاص بادارة العمليات .

شيئاً مألوفاً من تقسيم ثلاثي متراتب للتبادل : تبادل النساء وتبادل الكلمات وتبادل الاموال . فنجد نصف قرن ونيف* ، ولكن بصورة اكثر إلحاحاً على مر الايام ، ينافع الاسلام عن نفسه بالتكاثر المدهش في عدد السكان ، وهو نوع من اللجوء الى الحياة البدائية ، التي تغير شيئاً فشيئاً كل السدود ، وبالبعث اللغوي الذي يتيح طواف العواطف الوجدانية من الاطلسي الى الخليج الفارسي . أليس في ذلك ، اذا صح القول ، تمرد المستويين البروليتاريين للتبادل ، على التبادل الاقتصادي ، وهو الامتياز الذي تتفرد به البلدان المتطورة .

وفي الواقع ، فان الشرق ينبغي ، اكثر فأكثر ، الوصول . الى هذا المستوى غير الارستقراطي ، فهو يعلم ، علم من كان الضحية وموضوع النزاع ، ان منافسات الحياة الحاضرة تقوم هناك . ونزعة من هذا النوع ، والنضال الذي تندرج في إطاره ، يغيران اطراف العلاقات المعنية . وينتج عن ذلك ان هذه الاطراف لا تستطيع ان تكون متضادة ، هكذا ، فيما بينها الا بفضل تبسيط خادع لخطوط الصورة . أكيد ان التغيرات التي تمارس وفقاً لها ، وبالنسبة لبعضها البعض ، حيوية لا يمكن لجها ، ونزعة عاطفية يغلب عليها الطابع الخطابي واقتصاد يزداد إلزامية يوماً عن يوم ، ولكن يغذي آمالاً طيبة ، أكيد ان هذه التغيرات تعطي المتبعر بشؤون الشرق قاعدة ارتكاز ملائمة . ومع ذلك ، علينا الانميز في هذه المجتمعات ، إلامؤقتاً ولحاجات البحث : النصيب العائد لكل من القوتين اللتين تضعهما على طرفي نقيض ، تعسفاً ، ولكن بفرض التسهيل ، المقابلات الكلاسيكية بين الروح* والمادة* . فلنتصورها لحظة كما لو كانتا تنبثقان من بورتين متنافستين ، وكما لو كان كل شخص وكل شيء في هذه البلدان يتأثر من تداخلهما . وعلى الأقل ، هذه الرؤية المبسطة تستمد بعض القيمة ليس فقط من فكرة ان العرب يكتوّنون انفسهم بانفسهم ولكن من الحركة التاريخية التي ترج مجتمعهم ، ذا الماضي الباهر ، وذا الذاتية الدينية ، في معركة تكيّف عسيرة مع عالم الآلة . وعند طرفي التناقض : من جهة قوة مادية ، كانت حتى اليوم وقفاً على الغرب ، تبدو للذين

يقاسون وطأتها مجردة من السماحة والشرعية وحتى من التعقل ، ومن جهة أخرى مثالية تثور ضد التعسف ولكنها تطمع بالعودات المادية ، وعلى هذا النحو قُسر الملايين من العرب ، في سنة ١٩٥٦ النزاع حول السويس . وفي الواقع ، فان « العدوان الثلاثي القادر ، تبع تأميم القناة . وهذا التأميم اعلن عقب رفض القروض المطلوبة للسد العالي ، أي في سبيل الارتقاء الى الاقتصادي . اذن هم لم يكونوا يشعرون باسم العدالة فحسب ، وانما في سبيل الولوج الى نظام الخصم نفسه نظام المنجزات المادية الملموسة . وموقف من هذا النوع كان يبدو لهم « واقعياً » بقدر ما يبدو متفقاً مع المقاييس الاخلاقية . ومن هنا قوة جاذبيته التي لا يمكن قصرها على الاندفاعات الطائشة للمثالية المكبوتة .

ومع ذلك ، فان كثيراً من هذه التصرفات السلوكية في الشرق تبدو ، اكثر من مثيلاتها عندنا ، مأخوذة بالعاطفي والأخلاقي . وعلى الرغم من ان النزاعات بين العقيدة والحياة الحديثة فقدت ضراوتها ، فانها لا تزال كامنّة . واحياناً كثيرة نحل محلها توترات من مجال آخر ، مثلاً توتر وطنية تسعى لضم ابناء القومية الواحدة رغم فواصل الحدود السياسية . ففي سنة ١٩٥٦ فسخت سوريا اتفاقية لتصدير القمح من محافظة الجزيرة كتعبير عن نصرتها للقضية الجزائرية : و « العمليات المثلثة » التي تبعت ذلك كلفت الفلاح (السوري) غالياً ، ولكن المثالية السياسية ظلت سليمة معافاة . وبجهد كبير استطاع مطار بيروت ان يحتفظ بشركة الخطوط الفرنسية (آير - فرانس) وهي مصدر مداخيل محسوسة ، وان يحميها من نتائج المقاطعة (١٩٥٧)

ويؤكد أحد الاقتصاديين المصريين ، بوضوح كبير ، ان العناصر المادية للنمو الاقتصادي يجب ان تستبعد اذا كانت لا تتلاءم مع العدالة . وبالطبع ، هذا التشدد يقبل بالتسويات ، عند التطبيق ، بروح موضوعية ، - بسبب الحاجة الى القروض والمعرفة التقنية والتجهيزات - التي لا يزال الخارج يفرض نفسه بوساطتها .

ومن جهة اخرى ، هو يصطدم او يتعاون ، حسب الحالات ، مع قوى غير متعلقة يلجأ اليها ، دون وهم كبير ، ربما ليستمتع حماسة الجماهير التي يحدث لها ايضاً ان تجرّه او تشوّهه . وهذا الامر يعطي سير الشرق طابع مزيج من السذاجة والدهاء ، يدهش المراقب الذي لا يتنبه لذلك ويعود اغلب الاحيات بالفائدة على المنتفع الداخلي او الخارجي .

طرافات عربية

وقواسم مشتركة عالمية

اذن ليس بالوسع عزل ما لا يقبل العزل . والشرق العربي في جهده للاتجاه نحو المجال الاقتصادي والتقنية اللذين يسيران العالم ، يبقى هو ذاته ، وكل باحث او رجل عمل يقترب منه من خارج ، وكل مصلح وطني ، يسعى لاثرة انفعاله من داخل ، يتبين فيه اسلوباً خاصاً .

وعلى كل حال ، ينبغي على التحليل ألا يقتصر على احكام ولا على وصفات مختصرة . وبامتناعه عن أن يجعل من الغرابة ، والخيال ، واللامعقول حصة هذه المجتمعات ، هو يلاحظ ان الكثير من المجتمعات الاخرى يعتلي هو ايضاً ، عن طيب خاطر ، صهوة البُراق : حتى تلك المجتمعات التي اخترعت المذهب الايجابي . وان دراسة اميركية حديثة كانت تحمل هذا العنوان : « الفرنسيون المؤمنون بالخرافات ، (٢٢) وهي تحصي ، عندنا ، السهولة نفسها في تصديق الخرافة التي تدهشنا عند العرب . وهكذا اذن ، تتعلق القضية بتفاوت في الدرجة اكثر مما تتعلق بتفاوت في الطبيعة . ويقتضي اذن ان ننصل ، في النشاطات الحاضرة للشرق ، نصيب المادي والمعقول عن نصيب مثالية ملائمة للعاس مثلاً للخطأ . فإطلاق الصفة يلزمنا أقل مما يلزمنا ان نقيس او ان نحدد النسب . وبكلمة

.....
(٢٢) مجلة : « الاطلسي » حزيران ١٩٥٨ . وهذا ايضاً هو معنى كتاب لوئي Latby الحد البصيرة « فرنسا عند ساعة قبة كنيستها » .

يلزمنا ان نعين « العوامل المتغيرة التي تكون اللعبة وتشوش القانون . وبالفعل ، فان الكثير من هذه العوامل المتغيرة ، المتعلقة بالأمور القديمة لهذه المجتمعات ، تظهر استدامة العوامل غير المتغيرة (٢٣) . Invariants

والحق يقال ، هل يختلف الحال بالنسبة اليها ، الى هذا الحد ؟ فمنذ زمن طويل ، تخلت الابحاث الاقتصادية عن افتراض علاقات بسيطة بين الانسان الاقتصادي Homo oeconomicus والسوق . فقد اكتسبت هذه الابحاث غنى ومرونة . انها لم تعد تؤمن بمجتمعات جافة ، ولا بأراء تزعم وجود ظواهر طبيعية وعادية . انها تحقق التقدم ذاته الذي حققته الجغرافية الاقتصادية التي ترفض كل التكييفات المباشرة للانسان مع بيئته . ولكنها تتحدث عن مبادلات بين المجتمع والطبيعة . وبفضل هذه المدرسة التي ينتمي اليها الكثيرون من الفرنسيين يظهر علم النفس ظهوراً قاهراً في العلم الاقتصادي (٢٤)

ومن الان فصاعداً يغزو علم نفس متنوع ومتشعب ، باطمئنان وثقة ، نطاق اللامعقول ذاته . والحق يقال ، بدأت الحركة منذ زمن طويل . وقد كان فيلريدو باريتو Vilfredo Pareto يقصر أو كان يود ان يقصر الاقتصاد على آلية مفكرة . ولكن علينا ان نذكر انه كتب كتاب « علم اجتماع » ليدرس هذه « الرواسب » و « التفرعات » الشهيرة التي يفترض انها المسؤولة ، الى حد كبير ، عن تصرف الانسان . واللورد كينز ، الذي كان له تأثير كبير على

.....
(٢٣) انا استعير هذه الكلمة مع كل القيم التي تعطيها اياها الدراسة الكبرى التي قام بها لويس ماسينيون عن « وثبة الاسلام » ؛ في الانسيكلوبيديا الفرنسية . المجلد العشرون ١٩٥٩ ، الفصل السابع ص ٢٠ و ٣٥ و ١١

(٢٤) انظر خاصة المقال المتسم بالروح التجديدية ؛ « علم الاقتصاد وعلم الاجتماع » الذي كتبه ا . بياتييه A. Piatier في « مجلة العلوم الاخلاقية والسياسية ١٩٥٩ ص ٥ وما يلي ، والنظرات النافذة التي ألغاها الجغرافي لوانون Le Lannon حول الانسان والاسلوب في زاريتيه بصحيفة لوموند ، عدد ٢٩ - ٣٠ حزيران ١٩٥٨

معاصرنا ، يشير ، هو ايضاً الى ظاهرات الاستعداد الجماعي .
وهو يعزو اليها دوراً رئيسياً في لعبة ما يسميه بالعوامل المتغيرة المستقلة
Variables indépendants^(٢٥) وما القول بتحليل هذه الظاهرات التي
نسميها باستحياء : « ظاهرات النمو » والتي يختصرها الآخرون بكلمة « التخلف » ؟
انه الجانب النفسي ، الجانب الثقافي ، والانساني ، الذي يلعب ، هنا ، الدور
الاساسي . ولا يعني ان أعيد ، بهذه المناسبة ، تحليلات فرنسوا بيرو الحاسمة .
فهي توجه الضربة القاضية الى خرافة التصرف الاقتصادي الذي تقوده قوانين
السوق « المعقولة » ، وقوانين التنافس والربح^(٢٦) . فهذه التصرفات ، « شرقية »
كانت او « غربية » تدخل في الحساب عوامل تتجاوز الحصر . فهي تتأرجح
دائماً بين العملي والرمزي . فكل شيء فيها هو دلالة (أو آية) ، وكل شيء
هو نفع .

ولكن الدالّ والنافع يتعاقبان فيها بصور متنوعة ، حسب الحالات . والتاريخ
الاجتماعي ، بنزوعه الى تقصي الظاهرات المميزة للأشخاص والاشياء والفترات ،
ألا يتهاى ليعيد تكوين هذه النوعية المميزة للعرب التي لا تعبر عنها الابحاث
النفسية والاقتصادية الا بصورة ناقصة ؟

والشرق العربي بأسره ، الخارج من النظام الاستعماري ليدخل في نظام
القوميات ، هو الذي يضع نفسه « خارج السوق » (اي خارج الصفقات) .

٢٥) انظر ، في سييل بحث واضح ، دقيق ، كتاب جيمس James : « تاريخ الفكر
الاقتصادي في القرن العشرين » ، باريس ١٩٥٥ ، الذي استعنت به ، عن طيب خاطر .

٢٦) وبالإضافة الى الصفحات الكلاسيكية التي كتبها فرنسوا بيرو ، انظر جوتفريد
ايزرمان Gottfried Eisermann : « علم الاجتماع والمعرفة والنظرية الاقتصادية » ، في
مجلة « الدفاتر الدولية لعلم الاجتماع » المجلد الثامن عشر ١٩٥٥ ، ص ١٧ ، وهناك مناقشة
ثيرة توضح هذه المفاهيم كتبها ف . بوريكو F. Bourricaud في مقدمة لكتاب تالكوت
بارسونز Talcott Parsons عن داريلون ١٩٥٥ ص ١٢ وما يلي .

فهو قد عانى من مواقف القوة اكثر بكثير مما عانى من المواقف الاقتصادية ،
بمعناها الضيق . وهو ينبغي اليوم ان يتفقت من تأثيرها ، بالأسلوب نفسه . وهو
يحاول ان يستبدل ما سماه فرنسوا بيرو « اقتصاد السيطرة » بما يمكن ان نسميه ،
لو جاز لي القول ، « نزع السيطرة » La dé-dominacion اقتصاد قائم على العودة
للانطلاق ، او ربما على ارتكاز افضل . وعلى ذلك ، نجد الكثير من الشواهد في
الادب الاقتصادي اليومي ، في الفترة الاخيرة : تأميم السويس ، تمصير البنوك ،
الضغط على شركات البترول ، الخ . . . وبهذا المعنى يمكن القول انه ، في عالم
يسير نحو التماثل والنهج الموحد ، يحافظ العرب على سيرهم الخاص . وحتى الان ،
تولد الدلالة الآتية ، عندهم ، الواقعة اكثر مما تسند الواقعة الدلالة . و ارادة
السينونة تغلب على ارادة العمل . هي ، على كل حال ، تسبقها ، ومن هنا كان
المشهد الغريب الذي يتبدى لنا في تحرر يذهب من التأكيد الى التحقيق ، من
الابنية الفوقية الى القاعدة . وهو يؤكد نفسه تحرراً سياسياً اولاً ، ثم يسعى
ايضاح تحرراً اقتصادياً واجتماعياً ، أي ليبر ذاته ، او بعبارة أخرى ، ايشعر
بجدارة حدوثه ! ففي ٢٢ يوليو ١٩٥٨ ، كرس الرئيس عبد الناصر خطاباً
كبيراً لعلاقات مصر مع العالم . والامر الذي له مغزاه الكبير ، هو انه تذرع
بالحالة الطارئة ، وبعدم استعداده للكلام ليبر قصره حديثه على السياسة
الخارجية ، مرجحاً تحليل السياسة الداخلية وخاصة الاقتصادية الى ما بعد . ففي
نظر العالم الاجتماعي ، يشكل هذا الامر قلباً في ترتيب العوامل . ولكن للرأي
العام الشرقي متطلباته . والكاتب اللبناني محمد وهي يلحظ نوع القلب الذي يذمه
على نقيض الغرب . فالغرب ، كما يقول ، يحتفظ بجشعه الواقعي وما كيا فيليته للسياسة
الخارجية ، بينما تتعلق السياسة الداخلية ، عنده ، بالمبادئ الرفيعة . أما بالنسبة
للدول العربية ، فالأمر على العكس تماماً . فالخليفة والاطماع تعبت في الداخل ،

بينما تعلن ، في الخارج مثالية ، سمحاء وإكبتها مخدم (٢٧) ، اغلب الأحيان .
وامتباعاً لذلك ، فان ترتيب عمليات الارتقاء الى الاستقلال السياسي يتم عكساً
لدرجة التهيؤ الداخلي لهذا الاستقلال . فالبلد الذي تحرر أولاً ، من بينها ، هو
المملكة السعودية التي لا تزال أكثرها بعداً عن روح الحياة الحديثة ، ثم العراق
الذي لم تمسه النهضة * ، ثم مصر (٢٨) ، ثم سوريا ولبنان . وهذا الأخير هو
أكثر هذه البلدان تشبهاً بالثقافة الغربية وقلها ابتلاء بالأمية ، وفيه أعلى
مستوى للدخل الفردي ، والطراز الاوروبي للعيش الاكثر بروزاً .

بالتأكيد سوف يكون من الغلو والتناقض ان نتابع بالتفصيل هذه الموازنات
التي كانت ، ذهاباً من اوربا الى الشرق العربي ، تبدو متقابلة بصورة معكوسة
بحيث نصل ، اليوم ، الى ما يمكن تسميته العهد الفيكتوري لعملية التخلص من
الاستعمار . ولكن هناك ، دون ريب ، نصيباً من الحقيقة . وهو يعود الى
الدور البناء والمنفر ، والحاسم في كل حال ، الذي يلعبه الغرب في هذا التاريخ
الذي يصنع اليوم حوله او ضده . ومن هنا ، كان حوار عميق حول الهوية .
ومن هنا ، كان ايهام اساسي : حول مفهوم « القومية » الذي يستعصي كثيراً
على التحديد ، على وجه الضبط . هل هي النزعة الوطنية ؟ ام تجسيد العرق ؟
ام الشعور القومي ؟ اليك تحديد القومية الذي يعطيه الشاعر السوداني ، محي
الدين صابر في المؤتمر الثالث للأدباء العرب (١٩٥٧) :

(٢٧) محمد وهبي : « ازمة التمدن العربي » - بيروت ١٩٥٦ - ص ٩٦

(٢٨) في مقابلة صحفية مع مندوب الاهرام ، بتاريخ ٢ تموز ١٩٥٩ ، يعيد عبد الناصر
الاولية للعامل الاقتصادي بكلمات تتسم بصرامة مذهلة . وهو يذهب الى حد القول ان ثورة
١٩٥٢ سبقت تشكيلها الذاتي الذي يبقى عتماً المجازة . ولا ريب في ان الديمقراطية هي ، في
الغرب ، سياسية قبل ان تكون اقتصادية او اجناعية . وحسب التعبير المعروف ، هي لم تأت
« سائرة على رأسها » ولكن وفقاً لسياق بين من التحضير الاقتصادي . ومع ذلك ، يمكن
التساؤل اذا كانت هذه الاولية للرأس ، اذا امكن القول ، (وتعني بها العاطفة والنظرية
العقائدية) ليست اصيلة في كل توتر ثوري .

« القومية ليست مفهوماً عرقياً ، وإنما نضالاً في سبيل تحقيق القيم المثالية للمدنية الصناعية ، وخاصة ، من بين هذه القيم ، أقربها للعدل في الميادين السياسية والاقتصادية ، والاجتماعية والثقافية . وهي ايضاً مجموعة مصالح حيوية مشتركة ومشاركة في المصير تتحقق عبر العرق العربي وتتجاوزه ، لان هذه المصالح وهذا المصير يظلان مرتبطين بمصالح العالم الحاضر بأجمعه وبمصيره » . (٢٩)

فالقومية* ، اذن ، هي جهد العرب لكي يتوافقوا مع الآخرين دون ان يتخلوا عن امانتهم لذاتهم . ولا يهم ان لا يكون الحوار ، دائماً ، مطروحاً بوضوح ، ولا موضوع الاحساس الجلي . وهذا المطلب المتناقض يعيدنا الى قلب الواقع الذي ندرسه . فعبر المباشر وتناقضاته ، وعبر النصيب من الحقيقة الذي توصلنا اليه هذه التناقضات ، يكشف هذا المطلب كثيراً من الخصائص التي التمسست فيها اقتراباً اولياً من العرب ، في مناظرة مزدوجة ، بين الخاص المميز والعالمي ، وبين التاريخي والمقدس (٣٠) .

(٢٩) محي الدين صابر هو ذو تكوين ثقافي فرسي . ولنذكر بالآثار التالية ، بصفتها شواهد على الهموم نفسها حتى في عناوينها : « في القومية والانسانية » لكamal يوسف الحاج (بيروت ١٩٥٧) ، « العروبة والانسانية » لمحدوهبي (بيروت ١٩٥٩) ، والشاعر الكبير سعيد عقل يطلب ، من الناشئة ، في محاضراته « مشكلة النخبة في الشرق » - (١٩٥٤) - ان تؤمن التناسق بين وطنية الامة ووطنية العالم .

(٣٠) من الصدق السعيدة ان يظهر في بيروت ، في الفترة التي كان فيها هذا الكتاب قيد الطبع ، وبصورة جد متأخرة ، بحيث لا تسمح بأخذه بعين الاعتبار ، الكتاب القيم الذي كتبه قسطنطين زريق : « نحن والتاريخ » . ولا يمكن تصور تلاق أكثر دلالة بين التطور الذي حاول تحليله هنا والاعلان عن موقف الوعي التاريخي الذي يقفه اصحاب العلاقة انفسهم .

الفصل الثالث

الاقرب من الجانب الاقتصادي

يفري شارع الرشيد اسواق بغداد ويبتها بترا . والتخطيط العمراني الحديث ، يضع ، على العموم ، ترتيباً للماضي يغلب عليه شكل الزاوية ، فوق ترتيب مقوس خطوط ، وبمركزة تزاكب . ومع ذلك ، منذ القديم القديم ، كانت الخطوط تتقاطع ، في هذه الاسواق ، تقاطع ضلعي الزاوية المستقيمة ، كما لو كانت

* ترتكز لصول هذا الكتاب المكرسة للاقتصاد ، كاملة ، كما سوف يبدو ، على المصادر المحلية وعلى انطباعات مباشرة . ولن افوت ، ابدأ ، في هذا المجال ، ذكر الابحاث العامة الاولى التي ساعدت على فك عقد هذه المادة المقدمه : ش . عيساوي : « مصر : تحليل اقتصادي واجتماعي » (١٩٥٧) ، و « مصر في اواسط القرن » (١٩٥٩) ، ودورين وارينر Doreen Warrimer : « الارض والفقر في الشرق الاوسط » (١٩٤٨) والاثر الحمي ، والزاهر بالعلوم التي وضعه ج . و . س . لاکوتير J. et S. Lacouture بعنوان : « مصر في تحركها » (١٩٥٦) ومجموعات المحاضرات غير المنشورة التي اعطاها من منبره التدريسي ، البروفسور اندره فيليب Pr. André Philippe ، اثر رحله الى مصر عام ١٩٥٩ ، و اخيراً المستندات المفيدة ، وان كانت متأخرة ، ورسمية ، التي تتضمنها تقارير منظمة الامم المتحدة . وفي هذا الميدان بالذات ، بدأت المصادر العربية تقدم محاولات تأليفية قيمة . وسوف يلاحظ ألتى استمين بها على نطاق واسع . وقد استخدمت باستمرار النشرة الاقتصادية لبنك مصر الوطني والمجلة السورية القيمة : « الاقتصاد والمال في سوريا والبلدان العربية » ، التي سنشير اليها بالرمزين : « ن . إ . ق . » للأولى و « إ . ق . م . س . ب . ح . » للثانية .

النموذج الهليني لم ينفك عن التحكم بمخطط الاسواق ، من اللاذقية الى اهماق المغرب الاقصى . وقد كنت اطوف في هذه المتاهات الهندسية حيث لا تزال نجوم المهارة الحرفية والزخارف المتكلفة الباقية من العصور القديمة ، كما نجوم حول باب زويلة في القاهرة . ولكن التفاهة الصاعدة على كو كبتنا تهدد هذه (النفائس) وتطمسها . أكيد اننا لا نزال نلاحظ ، في مواضع كثيرة من هذه الاسواق ، أضرحة اولئك الذين تعتبرهم العقيدة الشيعية « وكلاء » الامام المهدي الغائب ، وعقلاءها * . وقد رأيت اثنين من هذه الأضرحة حيث كان بعض الرجال والنساء يقومون بالندب والنواح . فدخلت مخزن تاجر يقوم قريباً منهما . ويبدو ان هذا التاجر قد أقام طويلاً في اليابان . وكانت احاديثه لا تقل عن احاديث أي تاجر يعمل في اكثر المراكز التجارية انفتاحاً على العالم . وقد كنت اقارن تجربته ونشاطه واطلاعه البعيد عن السذاجة مع تلك المظاهر من الايمان والألم . فكيف يمكن الانتقال من المزايا الاولى الى الصور الثانية ؟ وكيف يستطيع رجل لا يعرف كيف يجد العزاء عن مقتل علي ، ان يدبر امور اهماله بمثل تلك الفعالية ؟ .

في الماضي ، كانت غالبية الاعمال التجارية ، في هذه الاماكن ، بيد اليهود ، وعند مفادرتهم البلاد ، اصبح من الضروري استبدالهم . وجغرافية هذا الاستبدال تخضع لنواميس غريبة . فاكثر الصاغة جاؤوا من صفوف الصابئة (الحرائين) ، الاسطوريين . والكلدانيون يديرون الفنادق . والشيعيون استعادوا قسماً كبيراً من الاعمال ، وخاصة المصرفية حيث يتلاقون مع ابناء الأقليات الاخرى ، بينما يستولي السنيون على النشاطات المتصلة بالتقاليد والمبادرة الحكومية . وقد تكون هناك فائدة كبيرة في ان ندرس بالتفصيل ، في بغداد ، كما في مدن شرقية اخرى ، تبدلات من هذا النوع . وفي مكان آخر تقدم عملية « تمصير » المجتمعات ، في هذه الايام بالذات ، الاحتمالات المخبرية نفسها .

ففي هذه البلدان ؛ كما عندنا ، الجماعة البشرية هي ، قبل كل شيء ، ما تتعارض فيه مع الجماعات الاخرى : وبما تمسك بنسب ، وبصورة اكيده بأحد الطقوس ، وخاصة بعض مواقف سلوكية ، وكذلك في بعض الحالات ، تقسيم في العمل . وهذه العمليات الابدالية في بغداد ، بتحريكها امام اعيننا بوضوح يقارب وضوح الاختبارات ، خصائص الجماعات ، ذات الجذور العريقة ، في عملية تحويل وتكيف اقتصادي ، تبين أهمية المقارنة التمييزية في تثبيت الشخصيات ، وأهمية العامل الدائم في الحدث المتطور . وهذه الحواطر لا تصح على هذه الرقعة الصغيرة من الشرق وحدها . فالزائر الفرنسي ، باتصاله بهذه الامكنة ، وهؤلاء الكائنات ، كان يشعر ايضاً في نفسه ، كما بالنسبة اليه ، بالفوارق ووجوه الاستدامة ، والرابطة الخفي بين هذه وتلك .

ووفقاً لتصفيات موجزة ، ولكن ضرورية ، تدخل دموع المؤمنين عند أضرحة الائمة ، « وكلاء »* ، الامام الغائب في نطاق التقوى والرمز . وعلى العكس ، فان مسلك تاجرنا هو « واقعي » وعصري . ولكن ، عنده ، كما عندنا ، تخضع قيم واضحة مثل هذا الوضوح لعمليات المقاصة ، وتمتزج ببعضها البعض . وبينه وبيننا كما بين الجماعات ، القائمة داخل مجتمعه الخاص به ، ربما تتباين الفترات والاجهزة وحدها . ومع ذلك ، علينا ان نتطلع الى اعلى والى ابعد ، وان نترك في الوقت الحاضر ، مجال التصرفات الفردية او الطائفية (او الجماعية) لنتناول الشرق العربي في مجموعه . اذ ان عمليات اختيار تاريخية واسعة ، يرتكز ، الكثير منها على التعقل ، تسير هذه التغيرات او التباينات . وبما ان الشرق قد اطال تأمله في ذاته ؛ منذ القديم ، في سبيل ارساء الامس لكيانه ، اي في سبيل تمييز نفسه عن الآخرين ، فان أولى محاولاتنا للاقتراب منه بغية فهمه وادراكه ، سوف تحملنا على توجيه الاسئلة للاخلاقية التي اعطاها لنفسه ، في علاقاته مع المجال الاقتصادي .

القواعد الاخلاقية والاقتصادية

كنا نتعثر على الطريق الغبراء بين بغداد و كربلاء . وكان ، جاري في السيارة ،

قاضياً شيعياً كبيراً يعمل مستشاراً في محكمة التمييز^(١) . وعلى الرغم من ان ثقافته كانت محلية بجملة ، فهو قد اكتسب اتجاهاً للدراسة المقارنة ، اما بفضل اطلاعه على الابحاث القانونية المصرية ، واما عن طريق قراءته لترجمات لاثار فرنسية . وقد تناول الحديث ، بالطبع ، مصير اولئك الفلاحين الذين لا يملكون ارضاً والذين يزرعون ، على ضفاف الاقنية ، « الجداول » المتفرعة من النهر ، هذه الاراضي الريفية التي تحمل ، بصورة غريبة ، اسماً لاتينياً ، رُستق (لعلة يعادل كلمة Rustica ؟)^(٢) . وكان يصرخ حولنا طابع القدم والبلى الطاعني ، والبؤس العريق . وهذه المظاهر كانت توازى النفس بأمداء اشد واعمق ، بسبب الطبيعة الحارة التي كانت تنبع من تلك الزوايا المروية وتنبجس في صورة نوافير حقيقية من نخيل . وكانت كربلاء تلوح امامنا ، بتقواها التقليدية ، المتجلية حول قباب مآذنها الذهبية . فكيف يمكن فسح الاتفاق مع الاشياء العتيقة ، او بالحري كيف يمكن العثور من جديد في قلب شيخوختها على النسغ (المادية) الذي يبعث الازهار المتجدد .

وقد فسر لي رفيقي كيف يجهد الشرع الجعفري ليجدد نفسه كي يواجهه ضرورات الحياة العصرية . مثلاً قضية التأمين : فالحديث عن التأمين يعني الحديث عن الحظر . فهذا العامل « الفرر »* ، وهو واسطة النقل لصنوف الحظر والتحرير في المجال الاخلاقي الصرف . هم يدورون حوله ، ببساطة ، حين يعتبرون ان التأمين ليس كسباً محفوفاً بالاعطار ، وانما تعبيراً مجرداً لمعنى التضامن والتكافل وفي ذلك مفهوم ينطوي على بذخ لا يطاله اي تحرير .

(١) احمد جمال الدين : « الوقف » - بغداد ١٩٥٥ ، « الاستملاك » بغداد ١٩٥٦

(٢) انظر بالمقابل كتاب ج . فوك : J. Fück « العربية » ترجمة دنيو Denizeau باريس ١٩٥٥ ، ص ١٦٨ الذي يرجع ، على ما يبدو ، مصدرأ فاريسياً لهذه الكلمة .

وانظر ايضاً مسألة الاستيلاء . فعندما تصل الدولة الى الاستيلاء على « الملك »* ، هذا الشيء المقدس ، لضرورات المصلحة العامة ، هي ترتكب مخالفة للشريعة . ولكن حيلة شرعية تسمح بالتأكد ان الدولة تتصرف ، في هذه الحالة ، كوكيل عن المالك الشرعي . فليس هنالك طفرة ، وانما ، بالاختصار ، عودة الى « الامة »* لخير المجموع . وحتى الفائدة ، هذا المحرم ، بل ذروة المحرمات ، يميزها (من كلمة « اجازة »*) المشرعون المستنيرون ، بتشبيهه بشراكة التوصية ، لان شراكة التوصية مشروعة ، انما لن تسمى الفائدة باسمها ، « فائدة »* او كما كان القدماء يقولون تندراً ، « سلفاً يجر نفعاً »* وانما « ربحاً »* و « استرباحاً »* . وكل هذا يعود بالخير العميم .

بمثل هذه الطرق ، امكن في كثير من البلدان الاسلامية تجنيد الاوقاف ، او « الحبوس » واعادتها الى دورة التداول الاقتصادي . والمشرع العراقي ، مثل المشرع التونسي والمصري ، اضطر لمواجهة مشكلة الاوقاف الذرية* التي كانت تخرج من التعامل فئات كبيرة من العقارات . ويضيف المستشار ، رفيقي ، ضاحكاً : على كل حال ، ليس من ضرر في استبعاد الوقف ، وهو حيلة* شرعية ، باللجوء الى حيل شرعية اخرى .

أكد ، انني كنت اتحدث الى شخص ذي ذهن نثير . ولا شيء كان يضمن ان يتبعه علماء كربلاء الذين كانوا يزعمون تقديم واجبات الضيافة لنا ، مثلما في ايام الثورة ، في كل النقاط تلك . ولكنه كان يعبر عن الاتجاه الظاهر . فلا يمكن القول ، اذن ، لمن تعارض العقيدة الاتباعية والاتجاه العصري المتحرر يثير امام المسلمين صعوبات مستعصية الحل . انما على صعيد النزاع العقائدي الذي يدخل في اللعبة اعمق الأغوار ، لانه يضع وجهاً لوجه مفهومين مختلفين للعالم ، نرى ان المساجلة قد تغلفت ، في كل مكان ، الى صميم الاخلاق . فليس المجتمع هو الذي يلتزم وانما مواقف يتردد حائراً بينها اكثر بما هو ينقسم على نفسه .

وان من الافكار الشائعة ، عندنا ، والتي نكرر دائماً تردادها مثلما يتكرر

على السنة الشرقيين، تلك التي تضع اتباعيتهم المحافظة واستسلامهم للقضاء والقدر الخ. . على نقيض سلوكنا الشيط. اما ان تكون هذه المفاهيم غير مقصورة على الاساتذة الغربيين ، فاني لا اريد ان اعطي إلا البرهان التالي على ذلك : كتاب الدكتور سعد ماهر حمزة ، وهو اقتصادي مصري يدرس في السودان وعنوان الكتاب الذي صدر حديثاً : « التنمية الاقتصادية والجمود الاجتماعي : تعارض وتناقض » . واذا تصفحنا الكتاب ، نجد انه يقتصر على تحليل الشروط الذهنية التي تميز العالمين حول هذه النقطة . تحيز سلبى ، من الجانب الشرقي ، يمكن ان يعزى الى الافراط بالروحانية . والمؤلف يشعر بصعوبة في التعبير عن آرائه دون المساس بالدين . لذلك فهو يستعمل لغة التلميح والاستعارات . وهو يكرس ، مثلاً ، فصلاً ، « للروحانية » * كعقبة للمواقف الاقتصادية وهو يفضح عند معاصريه عدة روايب من الماضي : روايب ثقافية وسياسية ونفسية .

غير ان ما يعيب هذه الشهادة هو تشاؤمها . ففي كل الملامح التي يفضحها ، يرى الرأي العام الخصائص لماضٍ يجب الغاؤه . وفي الواقع ، تنهار هذه الحقائق ، إذ ان هناك حقائق ، يوماً بعد يوم في مراميتها الاجتماعية والاخلاقية . وهي تشكل ، بالنسبة لمجموعات تنطور وتكبر مع الايام ، الشيء ذاته الذي تثور ضده والذي يتحتم العمل بالرغم منه .

ونتيجة لتطور غريب ، تصبح القاعدة هي الشذوذ ، وتلتجىء الى الاستثناء الاجتماعي او الابتعاد الجغرافي . والسخرية او الفضيحة اللتان يثيرهما ، من هذا الجانب ، عتق النظام اليمني ، والتشدد السعودي ، ودعاية لا تلتفت الا الى الماضي مثل الدعاية التي يقوم بها الاخوان المسلمون ، تدلان على ان المساجلة نفسها لم تعد تركز ، بصورة عامة الى اخلاقية مقررة . ولكنها تحتفظ بمفاعيل نفسية . انها تفعل فعل عمليات اظهار الندامة (ولناخذها بمعناها المادي) التي تتبع جرأة الخطوط ، في رسم ما ، بما تضيفه من رخاوة وليونة .

وبموازاة الازدهار في « الفقه » « الشافعي » و « الاجتهاد » * الجعفري في العراق ، شرعت المظاهر الجديدة للسلوك الاقتصادي تلاقى ، في الشرق العربي ، صيغاً تعبر عنها . وهذه الصيغ التعبيرية قد تكون طيبة اكثر مما يلزم ومتبعة للدروس المحفوظة . ولكنها تثير الاهتمام بقدر ما تعكس جيلاً او جيلين من التعليم المحلي (٣) .

فقد ظهرت العلوم الاقتصادية ، في مصر ، في ترجمة لايروابوليو - Leroy Beaulieu ذروة كلاسيكية اصبحت تبدو ، اليوم ، بالية ! وكانت النظرة الانجلوسكسونية تفرض نفسها ، في الوقت ذاته : واذا بكتاب تود Tood يسيطر زمناً طويلاً ، بالتنافس مع كتاب ليروا - بوليو . وبانتظار ذلك كانت مدرسة الحقوق تزدهر ، تغذيها الكلية الفرنسية ، ثم معهد الدراسات العليا للتجارة ، الذي اصبحت كلية التجارة . وهذه الاخيرة ، كانت تستوحى في الوقت نفسه من الدروس الفرنسية والبريطانية . وفي سنوات ١٩٢٠ ، كانت مبادرات « فريق مصر » * تمجد نظريات قصيرة العمر وتدعو كذلك لتجربة مقدامة . وفي الوقت نفسه ، أخذ العمل العقائدي في تعليم الدكتور احمد محمد ابراهيم يمارس اثره . وقد عمل دوره المكون على اعطاء الاتجاه الفرنسي المكانة الدائمة التي فقدتها قليلاً . فافضل الاقتصاديين ، حالياً ، من امثال علي جرتيلي وعبد المنعم القيسوني ، وسيد مرعي ، هم من ذوي الثقافة الانجليزية . ولكن في الجهود الاخيرة التي يبذلها المجلس الاقتصادي ، او مجلس التخطيط ، مع اسماعيل صبري عبدالله ، مثلاً ، او ابراهيم حلمي عبد الرحمن ، تلقي البحوث المدرسة الفرنسية ترحيباً وانتهاهاً ، وبعض التطبيقات العملية .

والذي يهنا من هذا الامر ، ليس نزاعاً عقيماً بين رجال الجامعات ، ولكن

(٣) ان الوقائع المنوه بها هنا ، مستمدة من بحث القاه الدكتور وهيب مسيحة في المؤتمر الذي عقدته منظمة اليونسكو في دمشق عام ١٩٥٤ حول تعليم العلوم الاجتماعية والعلوم الاقتصادية في التعليم العالي .

ما يسهم، في أبحاث فرنسوا بيرو F. Perroux وشارل بيتلهم Ch. Bettelheim وأ. بياتيه A. Plattier ولو من دروب مختلفة ، في تحليل التخلف في النمو، وما يبطن من عمليات تخريص على بحث مبدع ، طريف : ففي ذلك ، السبيل الوحيد ، أمام الشرقي ، لتعاشي التشدد واليأس في آن واحد ، تشدد يستوحى من عادات عقائدية قديمة ويأس ينتشر ، أكثر الأحيان ، بفضل التحليلات الحنبلية (أي الكثيرة الارتباط بجرفية النصوص والسنة) .

فلا مجال إذن للتعجب إذا رأينا المؤتمر الآسيوي الإفريقي الذي انعقد في القاهرة بين ٨ و ١١ كانون أول ١٩٥٨ يوحى ، رغم التفاوت بين المشتركين فيه ، وبالنسبة إلى غير المشتركين ، بإنشاء منظمة لا تدهشك بطابعها الهجومى أو الدفاعى بقدر ما تدهشك بالانتباه الذى تفرضه نحو قضية الإعلام الراهن (٤) .

فقد تكررت كلمة درس عشرات المرات في هذه التوصيات . وبعد الآن ، أصبح عسيراً أن نعذر من يكرس كتاباً كاملاً ، كما فعل الدكتور حمزه لدرس « التناقضات والتضادات » بين المواقف المتنازعة . فالإيجابى مضطر لأن يربح الجولة ، هناك كما في كل مكان . إنها قضية حياة أو موت . ولكن ما يبقى ، يستحق أن يبقى — وكل بناء إيجابى رهن بهذا البقاء — أنه شخصية تنحصر في أبرزها أولى المهام الملقاة على عاتق الاقتصاديين .

(٤) في نشرة باللغات الإنجليزية والفرنسية والعربية تتضمن توصيات مؤتمر ٨ كانون أول ١٩٥٨ ، واستتباعاً لهذا المؤتمر ، انظر الندوة التي اقيمت في بروكسيل ، برئاسة البروفسور آبل Pr. Abel ، بين ٢٧ و ٢٩ ايار ١٩٥٩ حول : « السوق المشتركة الآسيوية الإفريقية : وانظر أيضاً النشرة « الاوضاع المالية العربية » الصادرة في القاهرة ، عام ١٩٥٨ ، وبمحت مندوب الجامعة العربية ، الدكتور محمد رفعت ، في ندوة بروكسيل .

الحظ

ان انتحاء العالم العربي ، عامة الى

منطقة شبه صحراوية ، رغم الفروقات

المناخية الدقيقة الناتجة عن القرب او البعد بالنسبة للبحر ، الذي يؤثر كعامل معتدل ، او كعامل استوائي ، هذا الانتحاء يترك آثاره على كل تاريخه حتى يومنا الحاضر ، فالأساس العام يوتكز ، على زراعة وتربية حيوانية من الطراز المتسع ، ورغم انها قابلتان لتفاوت نموذجي واسع سعة التفاوت بين الجمال في الصحراء الكبرى او في نجد وزارع الحبوب في السهول السورية وفلاح وادي النيل . اذ في حالة الراعي ، كما في حالة الذي يحرث ارضاً بعلمية (غير مروية) يكون النظام لا سببياً . فان لعبة القوى الطبيعية هي التي تؤمن نمو النباتات والحيوانات ، دون ان يكون بوسع الجهد الانساني ان يدخل فيها تغييرات قابلة للقياس .

وعلى هذا القاع الاساسي الفسيح والخاضع للحظ ، تعرض المدن التقليدية : فاس ودمشق والقاهرة وحلب وبغداد في ثالث متفجر امتياز رخائها التجاري وأبهرتها الثقافية . وفيما هي تشكل عواصم التمسك باخلاقية تبادلية ، هي كذلك مراكز المضاربة والربا . وتحورها الليبرالي يخضع تارة لقواعد الاسلام المتشددة ، وتارة يظهر مهارة فائقة في فن الكسب التجاري ، وفي كلتا الحالتين ، يتحقق الهرب من الحظر .

فالاسلام يخشى الحظ والمخاطرة^(٥) كالتمسك العقوي للأسمال . ففي نظره ، يحمل « النمو » * شوائب خطيرة لا تستطيع غير « الزكاة » * تطهيرها . وعلى كل حال ، هو يبغى حصرها بشدة . ويسيطر في هذه المجتمعات التجارية القديمة ، نوع من التآرجع بين موقفين : موقف قائم على التمسك بالاخلاقية الخنبلية ، وينكر في التجارة كل ما يمكن ان يشتم منه ، من قريب او بعيد ، رائحة التعامل

(٥) انظر خاصة النظرية القديمة التي قدمها فيليكس آرين Felix Arin والتي لا تزال صالحة وكثيرة الايجاء .

لأجل ، حيث يكف التبادل عن كونه مباشراً . اذ ان الصفقة بدون وساطة ، او اذا جاز القول ، الصفقة التي تشبه الالتحام بالسلاح الابيض ، تظل هي المفضة عند اهل « الفقه » .

وفي الجانب الآخر ، يقوم قطب المضاربة . فلعبة الربا الفاحش ، والمضاربة تكسبان من الاتساع ما تخسرانه من المطابقة مع التفسير المتشدد للشرع . ومن هنا ، كانت النزاعات حول الاخلاقية والمناقشات التي لا حد لها في داخل المجتمع ، وربما داخل النفوس ايضاً . أكيد ان النزاعات والمناقشات ، كما رأينا ، قد تجردت من حدها العقائدية ، منذ ان حاول عالم كالشيخ محمد عبده ان يجري عمليات توفيقية ظاهرة الاهمية بين الشريعة الصارمة والضرورات العملية التي لا شك فيها . ولكن لا يمكن ان يقال انه لم يبق من هذه المحاولات شيء البتة في الكثير من المواقف الحديثة . ويقولون ، انه حتى اليوم يوجد حسابات مصرفية لا يطالب اصحاب الودائع ابدأ بفائدة عنها عندما تستحق : الامر الذي لا يسوء صاحب المصرف !

وفي مصر ، كما في سوريا ،^(٦) عانى نظام التأمين صعوبة كبيرة في ترسيخ قدمه ، وان تاريخ هذه المؤسسة يظهر تردداً غريباً وخجلاً ، من جانب الرأسمال المحلي ، في التوظيف بهذه العمليات . وقد وجدت اصلاحات ١٩٥٧ في القاهرة و ١٩٥٩ في دمشق ، ان هذا القطاع لا تزال تديره الشركات الاجنبية . وبالاختصار ، فان المواطن^(٧) لا يعنى بهذا القطاع الا بفضل تدخل الدولة ، وكرهاً عنه .

(٦) حول تاريخ عمليات التأمين ، في مصر ، انظر المجلة الاقتصادية ١٩٥٠ ، القسم الثالث ص ١٦٧ - ١٦٨ وشباط ١٩٥٩ ، والمجلة الاقتصادية السياسية ، القاهرة ، كانون اول ١٩٥٧
(٧) انظر « مجلة الاقتصاد والمال في سوريا والبلدان العربية » عدد تموز ١٩٥٨ وشباط

وحتى محاولات التخطيط الرسمي التي يسلكها ، اليوم الكثير من هذه البلدان ، لا تخلو من امكانية تفسيرها ، كما سنرى ، كمحاولات تتحذر من الانكار التقليدي للمخاطرة .

صحيح ان احد هذه البلدان بقي بطل الليبرالية . انه بطل التوظيفات الضخمة والمغامرة الكبرى . ولكن من أي نوع هذه التوظيفات ، وهذه المغامرة ؟ فلننفض بعض الحالات . تبدأ العملية بالاستعانة برؤوس الاموال الاجنبية . انها تبدأ من قروض كثيفة . ثم شيئاً فشيئاً ، وبنوع من الحذر المبطن ، يشتري الوطنيون المؤسسة . وقد جرت الامور على هذه الصورة بالنسبة الى شركة طيران نشيطة لم تملك الرساميل البنانية اكثرية أسهمها إلا في نهاية تطور بطيء ، كان يركز على استبعاد المخاطرة . وهذا الامر ينطبق ايضاً على مؤسسات بيروية كثيرة . صحيح انها تلجأ للاستلاف ولكن بطرق خاصة وشخصية جداً . انها تحصل على القرض ، في الاصل ، بفضل واجهة من العلاقات الانسانية ، ومن الانفاق الباذخ وصلات القربى والمصاهرة . ويمكن القول ان الزواج ، احياناً ، ليس ، في بعض الاوساط ، غير نوع من تصالب سمعات في السوق التجارية وقلقي آمال في التمويل . آمال تتحقق احياناً كثيرة . ولكنها قد تخفق ايضاً . اذ ان النمو الفجائي يعني ايضاً الهبوط السريع . فالترف العائلي يدوم عشرين او ثلاثين سنة . وهو يتعرض لهزات الاحداث . ولكنه يتمتع ايضاً بالخطوط التي تحملها . وبأي دهاء في المناورة اكل شيء يصبح مادة للربح بالنسبة للبعض : الاعانات لجياع الجبل ، تربح الانتداب الفرنسي ، ثم زواله ، والحرب مع اسرائيل ، وأزمة السويس ، والعمليات المثلثة التي يثيرها انقطاع العلاقات الرسمية بين بعض الملدان الخ . . وكثير من عمليات الاتراء تبدو ضرباً من المعجزات . انها نوع من التولد الذاتي ، كما يقول ، بلهجة فكهة

الاستاذ تيلهاك (٨) Mr. Teilhac

(٨) ومن هنا التشابك الهائل ، داخل الاخلاق العائلية هذه ، بين التمسك بالتقاليد العائلية او الطائفية ، والنظرة المفتوحة واسعة على الدنيا .

وقد كنت ، مؤخراً ، أمر قريباً من بناية في شارع الحمراء في منطقة « رأس بيروت » . وقد ارتأى بعض الاصدقاء ان يسألوا عن المالك ، فدلوهم على رجل يلبس الشروال ، وهو نوع من البنطلون المنتفخ ، يجلس على مقعد صغير من القش ، خاص بباعة الخضار . انه يرى مدخل بنايته . وهو يزهو بكونه مالكا حتى ليكاد لا يصدق عينيه . وعندما نسأله تأجير شقة ، يجيب : « لا ، لست مستعجلاً » . فان شرفه ، كمالك حديث يتعارض مع ذلك . وفي الحقيقة ، هو لا يدرك بعد بوضوح ان عقاراته ليست الا وسائل لتأمين الدخل . فالجد يكفيه حتى الآن . ولكن المرشح للاستثمار لا ينخر شيئاً بالانتظار ...

« هل الثمن حقيقي » ؟ هكذا يتساءل احد مراسلي^(٩) . وهذا الكلمة العميقة : « لقد كوّن لنفسه ذهنية ثراء لا تقل اهمية عن الثراء ذاته » . وها نحن في صميم نشاط العهد الثلاثي ، وحتى ما بعد العهد الثلاثي ، اذا صح القول : فبالطبع ، للرمز الاسبقية على الشيء . وكم يبقى هؤلاء المضاربون بعيدين عن رأسمالية الاستثمار وحسب المنطق السليم ، يتحتم ان تنتهي هذه الحالة بالافلاس . ولكن اذا حدث افلاس واحد ، فسوف يتبعه خمسون افلاس ، بل مائة . وسوف يتناثر المجتمع في سلسلة تصاعديّة .

وهذا المجتمع يبقى ، اذن ، بفضل تعقد تركيبه . ويمكن القول ايضاً . بفضل سرعة عطبه ، التي تجند من العنصر الانساني اكثر مما يلزم لتحدي القوانين الاقتصادية بشجاعة . هذا المجتمع يستهدف ، في النزعة التجارية ، غائية ذاته في حين تسمى مجتمعات عربية اخرى الى هذه الغائية ، بوساطة التخطيط . والبعض من رجال الاعمال هؤلاء قد لا يكونون غير مضاربين بالمعنى الذي يعطيه الغرب لهذه الكلمة . ولكن مغامرهم تضمن نفوساً من الانهار ، بحذر كبير ، بمختلف

(٩) وم كثيرون . ومعلوماتي تركز على تسجيلات مباشرة اجررتها بذاتي في هذا البلد المضيف . وانا انتبه هذه الفرصة لاشير الى ما لأحاديثي مع العديد من الاصدقاء المطوفين من دين يطوقون به عنقي في دراستي للمجتمع اللبناني .

وجوه التضامن العائلي ، والطائفي ، والوطني والدولي ، بحيث ان المجموع ، في نهاية المطاف ، يبقى قائماً بفضل تشابك اجزائه تشابكاً لا فكاك منه ونعم الوضع هذا ، لانه يظهر الكثير من فضائل المهارة والوفاء .

الشيء كل مجتمع انساني يركز على نسيج مادي يخضعه لفعله ويتلقى الانفعال به ، هذا النسيج يتألف عملياً من « اشياء » . ان لسان العرب ، وهو عادة في غاية الوضوح ، يكتفي بان يقول : « الشيء نعلم ما هو » . وبكل أسف ، اننا لا نعلم ! ولكن لنبعد عنا بحثاً فلسفياً صرفاً . ولنكتف بالتاريخ .

فالاشياء ، حينما ينظر اليها في علاقتها مع المجتمعات العربية الحاضرة ، انما هي اولاً الموضوع البصري الذي يقف فوق الطبيعة حيث يرسم جهد بني الانسان ، الطبيعة بامتياز عفويتها وخصبها .

وفي القطب المقابل : الشيء الذي يتدفق على البلدان « المتخلفة النمو » بشكل بضائع صناعية ، انتجها الآخرون .

ويمكننا ان ندرك للوهلة الاولى التعارض بين هذين المظهرين : الطبيعة في جانب ، والصناعة في الجانب الآخر . والعرب يعانون من شعور قديم بالحرمان ، في هذا الجانب وهذاك . فهم في انقسامهم الجغرافي ، او في شعورهم بالاحتباس او اللجم ، حسب ضرورات القوى التي يشجبونها ، لا يستغلون استغلالاً كاملاً محيطهم الخاص بهم . اما فيما يتعلق بالصناعة ، فهم لا يزالون متخلفين عن الاجانب : واحياناً كثيرة هم ، بالنسبة للآخرين ، لا يعدون ان يكونوا اسواقاً او مصادر للمواد الاولية ، او احتياطاً لليد العاملة . او على العكس ، جاهير مثيرة قلق من ضحايا البطالة او نقص التغذية ، فتصبح مرتعاً موعوداً الأفكار الهدامة .

وهناك ما هو أسوأ . فعلى صعيد التحليل نفسه ، هم بلغوا ، في الوقت الحاضر ، حد لوم أنفسهم على الافراط بالذاتية او الانفعالية عندهم . وفي مقالات مجلاتهم ، وفي خطبهم ، ومؤتمراتهم ، هم يضعون ، « الموضوعية »* التي يرونها ضرورية مقابل مبالغاتهم العاطفية . فهل هم على صواب في ذلك ؟ فالموضوعية التي يتصورونها ، أليست آلية وعلمية ، وتجريدية اكثر من اللازم ؟ ألا تبالغ في الفصل ، فيما تزعمه المفهوم الغربي « للموضوع » ، بين مفهوم « الشيء » ومفهوم « المشروع » ، فالعلم الحديث ، والتقنية الحديثة ، ليسا جافين الى هذا الحد . وليس من قبيل الصدف ان تتوافق الثورة الصناعية ، في المكان والزمان ، مع الثورة الرومنطقية . وهذه الاخيرة تبث الروح في « الشيء الجماد » الذي يتحول ، من جانب آخر ، داخل المصنع . والتقنية العالية التي تفترض فهماً عميقاً لقوانين المادة ، ربما هي ليست غير شكل آخر من الحساسية بالاشياء . واذا كان هذا الامر يصح ، في تحديد الحرفي والصناعي ، فان الثاني هو الذي يبدو « طبيعياً » اكثر .

ان جرد مكتسبات الاسلام في منطقة البحر المتوسط ، في الفترات وفي البلدان التي لم تدخلها الحضارة الآلية ، تفضح بصورة أكيدة فقره النسبي بالمعدات . وذلك على السواء في الحياة البدوية (١٠) وفي حياة المدينة (١١) : ويمكن تحديد بدء نضوب الازدهار في الصناعة اليدوية عند القرن الخامس عشر . (١٢) فالفن الذي كان يدخل في عداد المقومات التقليدية لهذه المجتمعات ، والذي كان يشكل

(١٠) النظر دي بوشان De Boucheman : « التجهيز المادي للحياة المادية في سوريا » ١٩٣٤ والجردات التي كانت تنشرها المجلة المغربية الممتازة « فنون وتكنيات » .

(١١) دون ريب بسبب ان الاثاث الاسلامي هو « أثاث معد للارض » . ومن هنا غلبة السجاد . النظر بحث هنري سيرينغ Henri Seyrig عن كتاب كيرت ايردمان Kurt Erdman في مجموعة « سوريا » ١٩٥٧ . ص ٣٧٣

(١٢) انظر ج . ويت g. Wett و ل . هوتكور L. Hauteccœur في كتاب « مساجد القاهرة » الجزء الاول ؛ ١٩٣٢ ص ٨٩ وما يلي .

أكثر مثلها العليا حياة ، كان يحتقر الأشكال التمثيلية . انه يفضل دقائق الزخارف على تقليد الأشياء المحسوسة . ومنذ شهور كنت أتأمل باعجاب ، في مدينة الخرطوم ، تماثيل من العاج أو الآبنوس ، من صنع فائق الدقة كانت مصطفة على الرصيف . ولكنها كانت شغوفاً مسطحة ، رغم أثر النحت فيها . وقد طمس الفنان النتوءات البارزة على سطحها ، كما لو كان ، هو نفسه ، بخيلاً بإبداعه أو خائفاً منه . وحتى هذا اليوم ، بين الأطفال الذين يحكون السجاجة ، من رمسيس وبيضا واصف إلى حرانية ، قرب القاهرة ، يتميز الاقباط بالنزعة لتصوير الكائنات الحية ، والمسلمون بالنزعة للتزيين الهندسي . أهو لقاء بحكم الصدفة ، أم استمرار عوامل وراثية صحيحة ؟

فلنترك الكلام ، حول هذه النقطة لعلماء النفس ، ولنسأل اللغة عن الحجة القاطعة . انها لغة تنزل من عل . وليس من لغة أخرى يصح فيها مثلما يصح كلام هيدجر Heidegger عندما يشبهها «بيت الكائن» ، وإلى هذه الكلاسيكية المقدسة يزعم العودة رجال النهضة* في البلاد العربية أكثر مما يدعون إلى ترقية اللغات العامية . فهذه اللغة تعمل اذن بعكس التطور الذي أصاب اللغات المتفرعة من العالم الروماني . والبادرة تدل على ان الخيار قد وقع على الرمز أكثر مما وقع على الشيء . ونذهب إلى ابعد من ذلك فنقول انها تدل على السعي لاستعادة الأشياء بوساطة احياء الرمز . ولي عودة إلى هذه الفكرة ، فيما بعد .

واخيراً ، فان البلدان العربية قد قاست من جمود سياسي طويل . وحتى التحولات الكبرى التي ظهرت في الحقبة الحديثة ، ظلت هذه البلدان تخضع لعالم الآخرين ، أكثر مما حاولت تكييف عالمها الذاتي بصورة فاعلة .

وفي هذه المرحلة التي يمكننا تسميتها المرحلة التقليدية كان عدد الشيء الموضوع ، وشكله وطابعه يعكس علاقات قوة اجادية الاتجاه .

فمصر تنتج القطن ولكن المنسوجات القطنية كانت تأتيها من مانشستر .

ولبنان يفرس اشجار التوت . ولا يمكن حرائر معامل ليون تغزو المساكن الغنية في فاس مثلما في حلب ، وتصبح جزءاً لا يتجزأ من الترف في المفروشات وفي الزينة النسائية . وماذا نقول عن المعادن ! وحتى يومنا هذا ، تكفيك زيارة لاسواق بغداد لتقنعك ان الأدوات والآنية والأجهزة كلها مستوردة . الحرفي يحافظ على بقائه في بعض الجوانب الفرعية . فاميركا تقدم السيارات وآلات منقطع النفط بينما ينحت الصانع الوطني حليه الذهبية . انها قسمة غير متكافئة ! ان مجرد النظر الى واجهات المخازن يكفي للحكم على طوفان السلع والمنتجات التي تنهر على هذا المجتمع ، او ، وفقاً لتلاقح قاس لبعض الكلمات ، انها تسلسل اليه وتغزوه .

وفي هذه المرحلة ، لا تتجلى مقدرة العالم الشرقي على انتاج الاشياء إلا في الانواع الأثرية . انها تعبر عن ماضٍ متألق ولكنه حافل بمعاني الدمار . وفي المدن تذكوري البيوع بالمزاد مقتنيات العائلات الاقطاعية او الموسرة . وكم من عظة كان بإمكاننا استخلاصها منها ، لو كان بوسعنا ان ننقب في سجلات هذه العائلات ! وها هي الكنوز المقدسة التي كانت ترفل بها دور الحرم او السلطان قد تبعثرت مع الرياح الاربعة ! فمن استغلاها ، بله من اذلالها ولدت تجارة مدرة للربح . وهذه الاشياء تنتهي عند قاجر الأثريات ، في البازار (١٣) ، واخيراً في المتحف . فالشيء - الموضوع (او المتاع) الشرقي ، عندما يوضع في الواجهة ، ويعزل عن كل نشاط ، وكل اشارة حية ، يفقد طاقته بالنسبة للحاضر . والمجتمع الذي انتجه ، بسبب انه يحتقر ، او حُمل على ان يحتقر الحضارة القائمة على الاشياء ، يتجه الى ان يصبح هو نفسه ملك او متاع الآخرين .

وانه لدرس مثير للعباس ان نسجل ، في كل حالة بمفردها ، التحولات التي يفرضها هذا النظام على الشيء - المتاع نفسه . لقد فقد دوره ومعناه . وبالتالي ،

(١٣) وكم يكون حافلاً بالعبء تاريخ « البازار » في الشرق ، تاريخ البيوع بالمزاد ، ومخازن الأثريات ، او على العكس ، تاريخ المخازن الكبرى الخاصة بالاشياء الجاهزة .

فقد تغيرت ، احياناً كثيرة ، مادته واستدارته . فهذا المحور اللولبي للمعصرة
المصنوع من خشب الزيتون ، قد اصبح محملاً للمصباح . والسجادة التي لم تعد
مرقداً او مضجعاً وانما أداة للزينة ، قد انقلبت ظهراً لوجهه . فهي تبدي نوع
صوفها وتنج عن ذلك نحسين في حياكتها وفي ألوانها . وزخرت الطاولات
المنخفضة بالأصداف والاحجار المنزلة . وانطلق السامرة لصيد مصاييح المساجد
العتيقة . وبعد الآن ، لن تضيء هذه المصابيح جو الصلاة . والمصالح المختصة ،
كما ترعم ، بحماية الفنون الوطنية ، لا تطمح ، منذ زمن طويل ، لانقاذ
الحرفي ، بسوى تشجيع « القطعة الفنية » (١٥) . وهذه الاخيرة ، اذ فقدت
وظيفتها ، تُقدّم او ترسم بحيث ترضي اذواق هواة طابع شرقي مشبوه : هو
انكار لوظيفتها كوعاء (لقابليتها لان تكون وعاء او أداة) . ومع ذلك فان
الحفاف (النعال) اليابانية ، وكنزات الصوف الايطالية ، والاواني المعدنية ،
ولعب الاطفال والسلع الرخيصة الموشّمة تغزو المدن «القيصرية» ذات الجلال .
وان « جهاز » العرائس الذي يتغير تكوينه من مكان الى آخر ، ومن طبقة الى
طبقة ، ومن زمن الى آخر ، من شأنه ان يعطي مستندات تاريخية عن التوازنات
غير المتكافئة التي تحدث بين المنتجات المحلية والمنتجات المستوردة . والصراع يمتد
الى قلب الحياة العائلية الحيمة وحتى الى اكثر خفقات الانفعال سرّية .

وقد كان الامر كذلك ، في كل مكان من العالم العربي ، حتى قبل ما بين
الحربين بقليل . ولا يزال الاندماج في السوق العالمية والتوحيد المتزايد للاذواق ،
والمحطاط الحرف اليدوية القديمة ، يعمق ، الى يومنا هذا ، ملامح هذه الظاهرة .
ولكن ، في انتظار ذلك تحققت ، في المشرق ، او ظهرت الرغبة في تحقيق
ثورة الانسان الصناع . وبموازاة ذلك ، اكتشف العرب ، من جديد ، الطبيعة ،

(١٥) اتجاه خاطيء ومضر ، وغاظة مستحيلة ، توافقا مع المحلل النظام الاستعماري في
المشرق مثلما في المغرب . ويتبع هاتين الظاهرتين ، اليوم ، في كل ملاحظتها ، نزوع لا سبيل للدفاع
عنه نحو الاكتفاء الذاتي .

بفضل شعراء المهجر . ولكن هل سبق لهم ان فقدوها ومتى ؟

لنرجع الى « لسان العرب » . فيينا تتضمن كلمات « Physis » اليونانية و « Natura » اللاتينية ، منذ ايام التأملات الفلسفية الاولى ، تتضمن كامل المعاني ، تقريباً ، التي نعطيها ايها ، اليوم ، بوسعنا ان نفتش عن هذا المعنى في مفرد « الطبيعة » ، فلا نجد في معجمنا الصادر في القرن الرابع عشر . لنحلل المفرد . ان كلمتي « Physis » و « Natura » تشيران باشتقاقهما الى فعل « التولد » و « النتاج » (١٦) وعلى العكس ، تشير كلمة « الطبيعة » الى الجذر : « طبع » ، اي « وسم » و « ضرب » وانبا . و « الطبيعة » هي « الطابع » الذي يمنعه المبدع الالهي . فنحن اذن بعيدون عن المعنى الذي يعطيه لهذا المعنى كاتب مثل الريحاني في اشعاره النثرية ، عندما يضيف عليه اتساعاً كونياً يذكرنا قليلاً بالشاعر لوكريس .

ومع سنوات ١٩٣٠ ، تبدأ مرحلة اخرى هي اكثر مادية بكثير : مرحلة الصنع . وانا اضع انطلاقتها الحقيقي عند التداوير الاولى التي اتخذتها ، في آن واحد تقريباً ، لحماية السوق الداخلية ، بلدان متنوعة الانظمة مثل مصر ولبنان وسوريا (١٧) .

ومنذ هذه الفترة ، يعني الشرق ، بشوق كل يوم اكبر ، ان يرى نفسه صانعاً منتجاً . وبالطبع ، صانعاً منسوجاته ، قبل كل شيء . صحيح ان النمو الصناعي في « المحلة الكبرى » ، كما في دمشق ، ليس متابعاً لتقاليد حرفية عريقة . ولسوء الحظ ، فان التحول في التقنيات ، وما رافقه من تحول نفسي لم يكونا موضوع أي تحقيق مفصل . فان معرفتنا للشرق لم تبلغ هذه المرحلة بعد . ومع ذلك فانها تستطيع التمييز بين تتابع الانماط . فمنذ فترة ما بين

(١٦) مجموعة مفردات لالاند Vocabulaire de Lalande

(١٧) برهان الدجاني : « الاقتصاد العربي » ، بيروت ، ١٩٥٨ ؛ ص ١١٦

الحربين وجدت تعاليم المعلمين الايطاليين ، في مصر ، من يتبعها وبتمثلها في حقل
العاهرة ، او في الحقل الذي يهمننا اكثر : حقل المفروشات . ولكن الأمرين
متلازمان .

فالحديث عن الاثاث يوحى بالحديث عن الجدار الذي يقوم الاثاث امامه .
والمناخ النموذجي لهذه الحقبة لم يعد السجاد وانما هذه الطاولة الجدارية المشحونة
بالطلاء الذهبي ، والخارجة من محلات النيشاوي . والتي تدفعها الموضة العصرية
اليوم الى اقاصي السودان والكويت والعربية السعودية .

اما النمط الثالث للتطور ، فهو الذي ينطلق من الحدادة او السمكزية . مثل
ذلك ، مصنع المصاعد الكهربائية القائم في سن الفيصل ، قرب بيروت والذي
يعود اصله الى مشغل صغير للتصليحات . وهنا ، كما في المجالات الاخرى ، يفجر
الانتقال من الحرفية الآلية الى الاستثمار الصناعية خصباً مليئاً بالوعود .

واخيراً ، فان مناهج اكثر جذرية ، واكثر تنظيمياً تم الآن ، في مصر ،
بتجميع السيارة والطيارة ، وحتى بصنع المحرك . وكل تخطيط للتنمية يحلم
بصناعة تعدينية كبيرة . ولنتقارن اليوم جدول المنتجات المصنوعة الذي ينشره ،
كل سنة ، اتحاد الصناعات المصرية بالجدول الجبركية لسني ما قبل الحرب .
فلاحظ ان الاشياء المستوردة والاشياء المصنوعة تتجه نحو التوازن . انها حالة
مثالية . وهي تعبر عن رغبات اكثر مما تعبر عن واقع . جائز ولكنه تطور لا
مراء فيه .

وهناك ما هو اكثر . فالمزادات التي تفتح في القاهرة ، اليوم ، (خاصة
منذ حجز الاموال الملكية) تجتذب زبائن هم باكثريتهم من ابناء البلد .
فالبورجوازية العالية الشرقية قد تحولت ليس فقط الى المفروشات والرياش وانما
ايضاً الى التحف النفيسة والى المجموعات النادرة . وقد تجاوزت ، منذ زمن
طويل ، الذوق التركي المعرّم بالمرايا ، والزجاجيات ، والساعات الثابتة : ضروب

من المفروشات الغيبية التي كانت تتأجج فيها شهوانية عريقة ولكن متأنقة .
واليوم ، يشيع مع الولع بالمفروشات ، الولع بوظائفها وبطابعها . وليس من
منزل زوجي ناشئ يستغني عن سرير الزوجية وطاولة الطعام ، وعن جهاز
للراديو وبعض اللوحات على الجدران . وانتهى المشرق بتأمين اسواقه ومخازنه
الكبرى ذات الاسعار المحددة . وفي شارع الموسكي بالقاهرة يلتقي العديد من
هذه المخازن . هذا الحى هو حى الاشياء العتيقة والسياحة والتبعية ، حتى الآن .
وبذلك ، لم يعد يشكل إلا عائقاً يعرقل مشاريع عمرانية مولعة بالجديد ،
ويجرح حساً وطنياً مولعاً بنظام الاكتفاء الذاتي . ولكن ما ان اتخذ القرار
بهدمه ، حتى ثار الرأي العام وفرض العودة عنه . أي تناقض بين موقف بمنزل
هذا النضج وهمجية محطة للمقدسات كانت لجنة الآثار التاريخية ، في القاهرة ،
تنبه لاخطارها منذ جيل ! ورد الفعل في قضية الموسكي لا ينطلق من لجنة
مؤلفة من اختصاصيين بعلم الجمال وأساتذة ، وانما من شعب بسيط يحس بفوائد
السياحة ، طبعاً ، ولكن ايضاً بسحر الاحجار القديمة ، والاشياء العتيقة (١٨) .
وفيما يتعلق بالفنانين ، فقد أخذ الحس بالاشياء يحل عند غالبيتهم محل الالهام
المجرد ، وفي ذلك انتقال من أحد قطبي الانفعال الجمالي الى القطب الآخر (١٩) .
وفي الوقت ذاته ، تتأكد واقعية أدبية ومدرسة تصويرية في فن الرسم تبدو لنا ،
أحياناً ، تصويرية أكثر مما يجب . اذ ان الغرب ، في انتظار ذلك ، قد سئم
الأسلوب التصويري وبدأ يتطلع جهة المجرد اذا لم يتطلع جهة « الشيء
السريالي » !

(١٨) ريبورتاجات في الصحافة المصرية الاسبوعية .

(١٩) انه تعارض منهجي (كلاسيكي) منذ و . ورينجر W. Worringer انظر
« التجريد والولادة المرافقة » في مجلة « متحف الجيب » : العددان ١ و ٢ ، ١٩٥٩ ، وسوف
أعود ، فيما بعد . لتفصيل أكثر حول هذا الجانب الالهام .

وهناك شيء مميز آخر : اننا نرى ، في بيروت والقاهرة ودمشق ، ظاهره
الشروع في عمل المجموعات التي تعنى بالسلالات والاقوام البشرية ، ومنذ الآن
تنشط التحريات والابحاث ، وهي لا تتناول فقط النواحي الفولكلورية ، اذ
أن التراث اللفظي قد أثار دوماً اهتمام العرب ، ولكن أيضاً الأشياء الحسية ،
« القطع » ، ومن الغريب ، من وجهة العادات التقليدية ، أن يُكرس من
الجهود ما كرسه كاتب مثل سعد الخادم ، للبحث في العلاقات بين الفن والتربية
الاجتماعية ، استناداً الى رسوم أطفال أو إلى العفوية الشعبية ، انها بادرة أفصح .
ولكنها تذهب بعيداً (٢٠)

« فالشيء » غير، اذن ، معناه عند العرب في مدى جيل أو جيلين ،
وذلك بفضل هذا الكفاح الذي يزداد قسوة يوماً بعد يوم ، والذي يضعون
فيه وجهاً لوجه متقابلين مبادرتهم وظفرهم المتجدد بشخصيتهم من جهة ،
والتبعية « والتشيؤ » ، من جهة أخرى ، وهذا الأمر لم يمكن تحقيقه عندهم الا
بفضل انفتاح عاطفي هائل ، وهذا الجهر بالعواطف الذي يتجاوز بالطبع كل
نزعة ، وأحياناً كل فعالية ، عدل النظام الذي كانت تنتظم فيه مواقفهم
ومفاهيمهم وأعمالهم .

العدد طيلة قرن وأكثر ، كانت الكمية الجشعة -
التوظيفات في صناعة الحرير في لبنان ، الستراتيجية
الرأسمالية في القنال ، الديون العثمانية والديون المصرية - قد أخذت بغزو
الشرق ، وهذا الجانب الذي دخل في نخيلة الجماهير منذ الحرب الأخيرة عن
طريق المساومات حول النفط ، والمناقشات حول قروض البنك الدولي ،

٢٠) سعد الخادم : « دراسة في رسوم الاطفال » ، القاهرة ١٩٥٣ ، وآثاره الاخرى
حول الثقافة الشعبية ، واعادة التثقيف الفني للباقيين ، والتجربة اليدوية وآثارها التثقيفية ،
والجامعات الشعبية (من ١٩٥٣ الى ١٩٥٩) .

وتقديرات الأمم المتحدة ، الخ ... قد أصبح موضع شعور نافذ الصبر كل يوم أكثر ، وطيلة أجيال عديدة ، قضي على هذه البلدان ان تنوء تحت الكمية بدلاً من أن تصنمها ، وأن تتحملها من غرب كان في مرحلته الصاعدة ، حينذاك ، مرحلة المصانع اليدوية الكبيرة ، وغزو الأسواق .

فلننظر مثلاً ، في تاريخ مصر منذ ستين سنة ، ما أحدثته زراعة القطن والثورة شبه الكاملة التي فرضتها على مشاهدنا الريفية ، وعلى مشاهدنا الفكرية فعلى مدى طويل ، وفيما يشبه البعث الفرعوني ، كدح المصري في شق الترع وجرف التراب وتسرية الأرض وإدارة عجلة آلات الري في خدمة المصنع البعيد ، ودفعة واحدة ، انتهى بالتخلي عن هذه الثقة بالطبيعة التي كانت تأتيه بفضل الفيضان السنوي الدافق بالخير ، وكان عليه ، إذا أمكنني القول ، أن يجري تحولاً في ذاته هو رهن باقتصاد كان يلتهم من العمل حداً حمل الناس على التساؤل ، في حدود سنة ١٩١٠ ، عما إذا كانت مصر لن تعجز عن تأمين اليد العاملة . أما اليوم ، فعلى العكس ، تحمل البطالة الهائلة القلق الى نفس كل رجل دولة في الشرق ، وبالمقابل إلى نفس كل اقتصادي اجنبي . انه لثأر الكمية الغريب ان تلميذ الساحر الغربي يخرج « الكمية الشرقية » من تحته وضده .

وهي تأخذ أولاً شكل نمو في عدد السكان يستحسه التقدم الصحي بما يشبه لسع السياط ، وتعداد السكان في مصر ، يبلغ اليوم ٢٣ مليوناً . صحيح أن البطالة الخيفة تستتبع ذلك ، ولكن كيف يسعنا الا نرى في هذا الأمر جواباً من نط معين على تحديات الاجنبي ؟ أكيد أن هذا الجواب لا يقف على مستوى الصراع الاقتصادي او التنافس التقني ، ولكن على مستوى حيوية مقتضبة تستعصي على كل شرط وكل تنبؤ ، وبكبرياء تمجد هذه البلدان أبعادها الجديدة . ففي كل احصاء للسكان ، وكل تصريح صحفي ، يتجلى مرة بعد أخرى التزايد . فمثلاً على ذلك ، في القاهرة ، وحدها ، مجرد كوث

٧٤٤,٠٠٠ بطاقة تموين قد وزعت على الأهلين ، قد أعطي الحق لحاملي البطاقات بالحصول على أكثر من مليوني أقة من السكر شهرياً ، اذا كان لهم القوة على شرائها . و سنوياً ، تستهلك العاصمة من الشاي والقهوة ، ما يعادل عشرة ملايين من الجنيهات المصرية ، أي ما يزيد على عشرة مليارات من الفرنكات ! والتعليم هو أيضاً ، بدأ يتجه نحو الطابع الكمي . وذلك يصح ، ليس فقط في المدرسة الابتدائية ، وانما في الكلية الجامعية . وكل سنة ، يقرر المجلس الأعلى للجامعات أنهم سيقبلون ، في الجامعات الأربع ، العدد كذا من آلاف الطلبة ، ففي سنة ١٩٥٨ - ١٩٥٩ ، قبلوا ٨٦٠٠ طالباً منهم ٣٢٠٠ في جامعة القاهرة و ٢٧٠٠ في جامعة عين شمس و ٢٦٠٠ في الاسكندرية . وليس الوقت صالحاً للبحث فيما اذا كان هذا الزخم لا يخلو من العمق ، فاننا نخرج بالانطباع الذي مؤداه أن الشرق يختار جانب الكمية ، بالنسبة للثقافة أيضاً وخلافاً لماضٍ حافل بالباطنية والندوات (الروحية أو الفكرية) ، (٢١) انه يجب ان الأمر مؤقت وأن الزمن سيتكفل بالباقي . ولكن ألا يدع نفسه تقع في الكمين ، بهذه الطريقة ؟

لا يهم : فالانفصال عن التقاليد أصبح من العنف بحيث لا يسمعنا أن نقلل من تقدير أهمية هذه الأمانة ، فالمتشرع يتحول عن المثقف الأناني الذي يحصر نفسه داخل ندوة « أهل الخاصة » * وعن « الانتلجنسيا » (طبقة أهل الفكر) الذين لا يشكلون الا أقلية تركز على ثقافة استثنائية ، فيذهب اختيار المتشرع نحو الجماهير . وهذا هو سبب العديد من المؤتمرات التي تعقد لتوسيع التعليم « الالزامي » * ولتصفية الأمية ، الخ .

و اذا كنا نريد أن ننصب انفسنا ديانين للرقم ، حتى على هذا الصعيد ، فبأي حماس لا نبدي موافقتنا على ضرورة التعداد في كل المجالات ، فبذلك يجتاحنا

(٢١) الامر الذي يشور عليه جورج حنين في افتتاحية نيرة ولكن مليئة بالتناقضات ، كتبها في صحيفة « البورصة المصرية » ، تموز سنة ١٩٥٨ .

شعور مسكر بالدخول في الحياة الحديثة . فالاحصاء هو صلاة الدنيا الحاضرة ...

وهاكم شهادات مميزة : ففي سنة ١٩٥٧ ، اقترحت الأمم المتحدة على الادارة المصرية اجراء تعداد للسكان . فتعذر انجاز هذا العمل لاسباب عديدة ، خاصة بسبب أن العملية كانت تتطلب اشتراك ثلاثين ألف موظف أو خبير ، ولكن مبلغ مليونين ونصف من الجنيحات المصرية قد صرف لاشاعة « الوعي الاحصائي » عند الجمهور . التعبير جميل ، وأنا اقتطعه من احدى الصحف (٢٢) وفي كل مكان تزهو المعاهد والمجلات الاحصائية ، وهكذا يوجد اثنتان أو ثلاث منها في بيوت وحدها . وتلزمنا مجموعة مستندات ووثائق في حقل التربية ، ليست متوفرة حتى الآن - وهل جرت يا ترى ، حتى محاولة القيام بجمعها - كي نستطيع تقدير الطريقة التي يصاب فيها الطالب العربي ، رغم نفور عرقي من علم حساب الاحتمال ، أي من لعبة الحظ ، بالتعلق بهذا العلم ، ربما من الطريق الجانبية . للتجريد الرياضي ، وبذلك ، يجد نفسه في مناخه العائلي ، فما الحسابات المعبرة بالأرقام ، ووضع المعدلات الحسابية في جوهرها غير طريقة لتفادي الحظ ، ولا حلال العقل في الأشياء ، بحثاً عن أسبابها ...

فقد بُعد الزمن الذي كان فيه أحد مفسري القرآن ، مثل الشيخ القاسمي ، يلجأ ، في سبيل وصف دمشق إلى رسم العشرات من جماعات الحرفيين ورجال المهن ، معطياً لكل منها ملاحظتها ، ودون ريب أيضاً ، صفتها بموجب الشرع (٢٣) وقد بُعد الزمن الذي كان فيه محمد كرد علي يجهد ، في دمشق أيضاً ، في

(٢٢) « البورصة المصرية » عدد ١٧ تموز ١٩٥٨ . وعدة مؤتمرات لاحصائين عرب أو في سبيل احصاء عربي ، خاصة في القاهرة ١٩٥٣ - ١٩٥٨

(٢٣) مخطوطة لا تزال قيد النشر من قبل مجموعة « الماضي والحاضر » في القسم السادس من معهد الدراسات العليا ، مع مقدمة من لريس ماسينيون .

استنطاق عبر الأماكن الأثرية والناس والعادات على غرار أسلوب « الخطط » *
القديم . وهذا شقيق الآخرس يقوم اليوم بوصف سوق دمشق بوساطة
المخططات البيانية : تأرجح الاسعار في علاقته بموسم الغوطة والتبادل الدولي ،
ونبض مجموعة النقد ، ونمو الغطة . ففي الحقيقة تبدو المقارنة خصبة بين الصور
المتابعة التي تعطىها للسوق الدمشقي دراسات متباينة تبين دراسات للقاسمي
و كرد علي وشقيق الآخرس . هل هو الواقع نفسه الذي يراه على التوالي ، شيخ
اتباعي للتقاليد ، ثم مثقف ذو نزعة قومية ، ثم اقتصادي متخرج من معاهدنا ؟
أم أن الواقع نفسه قد تغير ؟

فحوالي عام ١٩٠٠ ، وبالرغم من دوي الحدث الخارجي الذي يقترب
شيئاً فشيئاً ، وبالرغم من الخضوع لصناعة الآخرين وان كان هذا الخضوع لمسا
يزل مستحيياً ومباشراً كان لا يزال بالامكان دراسة الحياة الدمشقية دراسة مرهونة
بالتعاقب القديم الذي ينصب الاخلاق مقابل التجارة ، والعقيدة الدينية مقابل
حياة العصر ، فيتحلل الكل ويهرب الى حياة حضرية باهرة .

وحوالي ١٩٣٠ ، يتدرج كل شيء في المساجلة المزدوجة بين التعلق بالماضي
والاقبال على الحياة العصرية ، بين النزعة التحررية والتبعية . واليوم ، فيما يعبر
الرقم عن الكمية ويسيطر عليها ، هو يشكل الكابح للأهواء القومية وموضوع
تنازعا . وهذه المجتمعات تطلب من الرقم أن يوجه هذا الاندفاع العاطفي
وهذا الدفق اللفظي والقلبي اللذين يعصفان بهذه المجتمعات وأن يقيم التوازن
مع هذا الاندفاع وهذا الدفق ، اكثر مما تطلب منه أن يملن عنهما . وهي
تجد ، بل تريد أن تجد في النمو - الاقتصادي اذا أمكن ، وفي الوقت الحاضر ،
النمو في احصاء المجموعات الانسانية - اخلاقية واهنة تزيد أحياناً متطلباتها
وأحياناً تضع متطلباتها مقابل نداءات العاطفة . كل ذلك بصورة انتهازية تتفاوت
في قوتها .

وعلى هذا ، فان القيام باحصاء ليس بالشيء القليل في البلدان العربية ، ففيه
تداخل رزائة الاضطلاع بمهمة مع ومثاقفة اللعب ، وممارسة المواهب الجديدة
مع الامتحان الباسم للماضي . لقد كرس العراق مجلداً كاملاً للاحصاء الذي
أجراه عام ١٩٥٧ . (٢٤) انه وثيقة حافلة بالدروس بالنسبة اليها |

وذات يوم ، يبدأ الاحصاء في الساعة الرابعة صباحاً ، وفي كل الدنيا كمر
والتجمعات الانسانية . وهنا وهناك تقمع حوادث ذات دلالة . انهم متقفو
الطبقة الحديثة ، طلاباً واماتذة الذين يروحون ويحيثون ويدقون باباً بعد باب .
« ما هي مهنتك ؟ » - صحافي * : رائد اساليب جديدة في الاعلام
والحماسة . ثم ، الى جانبه « الدباغ » * الشيخ و « الفلاح » * الذي ينتمي بنسبه
الى سومر ، ولصقه السمكري أو مصلح أجهزة الراديو ، ان لم يكن « مهندس
التخطيط المدني » أو « المهندس المعماري » *

ويدق الباب : « ما هي مهنتك ؟ - مسجل الاحصاء . - وماذا يعني
مسجل الاحصائي ؟ - إنه امرؤ يدق ابواب الناس في الساعة الرابعة صباحاً -
وما هي شروط عمله ؟ - انه أجير دون اجرة .

وهناك نادرة أخرى : « كم غرفة عندكم في البيت ؟ - انتظر دقيقة كني
أصفد لعد الغرف ، |

. ومنها أيضاً : « كم عمرك ؟ - ستون عاماً : - وعمر زوجتك ؟ -
أربعون سنة . - منذ كم سنة انتما متزوجان ؟ - منذ أربعين سنة . -
ومنها : « ما هي مهنتك ؟ - « خبير بالبطالة » * .
أو : ما هي مهنة زوجتك ؟ - خبيرة في التبذير . -

وما هي مهنة حمائك ؟ - خيرة في المضايقة ، (٣٥)

وعندما يمر مسجل الاحصاء أمام منزل يصعب عليه التهرب من واجبات الضيافة فالأقل ، عليه أن يقبل بعض البيض ، على سبيل الهدية . ويا لصعوبة حفظ الاسماء ! وفي الأصل لا يمكن تذكر أسماء الجدد . فاذا غربت هذه الاسماء عن البال ، تصبح أسماء الأئمة هي المهيأة للحلول محلها . وبالطبع ، يصبح حتماً الاكثار من اسم كاظم والحسين . ولكن في الأجيال الأخيرة يتوود اسم ناصر كثيراً ...

وختاماً لعمليات احصاء السكان ، يستتج السيد أركان العبادي ، الذي كان وزيراً في ذلك الحين ، هذا المفزى (٢٦) انه يتبين أهمية عمل من هذا النوع في مثل هذا المجتمع . في جانبه التربوي والاخلاقي والمعنوي . فالمجتمع يعرف ذاته ، ويعيد التفكير بذاته : انها فضيحة كبرى ، لأنها تقطع الصلة مع التقاليد السامية القديمة التي كانت تجعل من تعداد القطعان خطيئة وبالحرى من تعداد الانسان .

وأخيراً ، فهناك جانب ، أود أن أسميه جانب اللعب يكمن في اللذة التي نشعر بها ليس فقط في انجاز المهمة ، وانما أيضاً في السير الى الامام ، وكما يقول مدير الاحصاء ، في أن نعطي شيئاً ملموساً وأساساً محسوساً للمشايخ المقبلة للدولة ، « أساساً كونكريتياً » . * فلنبد اعجابنا ، في طريقنا ، بالمفرد المولد : ولكن الم تكن المحاولة شيئاً فذاً ؟

وبعد ، هذا الجوع الحماسي الذي يظهره العرب منذ الآن ، للعد ، والقياس ، والتقدير الكمي ، بالامكان ان نستشف منه نزعة عقلانية غير مكتملة ،

٢٥ : المصدر نفسه ص ٣٠٤

٢٦ : المصدر نفسه ص ٣٣٨

وجاذبية الاستيراد . ولكن علينا أيضاً ان نعرف كيف نقرأ فيها شيئاً آخر ، فالعدد هو أيضاً الغيبية (متافيزيق) . فاقامة السيطرة ، أو استعادة السيطرة على الأشياء والكائنات ، هي ، أصلاً وجوهراً ، اعادة الاتصال بمواقف منطقية أو لاهوتية قديمة يكمن فيها سر التفاؤل الحصب . بالتأكيد ، لم يصل المشرق الى المرحلة التي يعيد فيها وضع العقل في قلب الوجود ، باللجوء لتقدم العلوم التجريبية والطرق المنهجية . ولكنه يشارك بطرق وسيطة ، في هذه المطامح التي تميد بها البلدان المتطورة . وكان ذلك ختمياً ، وفي محاولته لاستعادة سيطرته على نفسه ، لا يسعنا أن ندهش للحماس الذي يبديه في القيام بتعداد ذاته وقياس ذاته ، الأمر الذي هو أيضاً ، في احد معانيه ، نوع من المقامرة على الأرقام ومن المحاولة لبعث كون ، مثلما كانت في القديم تطمح مدرسة التأملات العددية .

ومن هنا كانت بعض المبالغات المفيدة في تنويرنا .

فالتجريد الجاف الملازم للأرقام . يجرؤ في الوقت الحاضر على اقتحام اللغة العربية . وقد كرس أحد اصدقائي ، من الاساتذة السوريين ، مجلداً ضخماً في حساب الدلائل لتكرار وقسوع الكلمات ليس في اللغة المحكية ، الامر الذي يحتمل ان يكون مفيداً ، ولا في اللغة الفصحى ، وهو شيء ثمين ، وانما في لغة الكتب المدرسية المستعملة في خمسة بلدان شرقية ، انها لأرادة طيبة جبارة (٢٧)

واننا نراها في كثير من التجارب التربوية . وبتصفح بعض هذه المجلات التعليمية العديدة ، والشديدة العناية ، وبدراسة البعض من هذه البواكير لمحاولات ما سوف يصبح علم الاجتماع العربي ، المكتوب باقلام عرب ، لا يسع المرء إلا أن يدهش لهذا الغلو في التقدير الكمي ، فالدراسة هي تنظيم

٢٧ - وقد أثارت المحاولة اعجاب ر . بلاشير وذعره ، (انظر مجلة (أرابيكا) سنة ١٩٥٤ ص ٢٣٨)

السؤال والجواب . والسؤال هو العدم ، الأمر الذي تتضافر على خلقه مفاعيل « ذهنية اقتصادية » متعجلة . مفرطة في الاتجاه نحو الاكتفاء بالوصفات ، ومبالغة البحث عن الاحصاءات ، باسم الواقعية والتشدد . ولربما لا يزال اللجوء الى التبريد الفقهي القديم يطل تحت هذا الغرام بالارقام ، في المواضيع التي لا متطلبات المادة تبرره ولا سلامة الاعلام .

وفي هذا الأمر يكمن الحظ ، على وجه التأكيد ، فبوسع « التحديد بالارقام » - في المعنى المزدوج لهذه الكلمة - أن يعقب بصورة مشؤومة اللاتحديد بالارقام الذي تحاوله هذه البلدان من ذاتها . انه انعدام للاصالة ، على الاقل ، وهذا المشق للكمية الذي يخشاه البعض ، قد شجبه الآخرون ، على اعتبار أنه يحمل على العودة الى « التشيي » . وبوسع قوى داخلية وخارجية أن تسهم في تحقيق هذا التشيي ، فمن الخارج كل ما يحاول أن يرمد العهد الاستعماري ، بشكل أو بآخر . ومن الداخل الحماس البالغ الايجاز ، في الاكتفاء بتمثيل الطريقة والأسلوب عند الآخرين . انه لالتقاء متناقض في الوضع الاسوأ فبضد هذه النزعة ، ينبغي أن يتسلح كل جهد عربي نحو المستقبل ، بالتحليل والعمل .

نظرة اجمالية

لنجمع ، ولو للحظة ، العناصر التي

عالجناها بالتتابع في هذا الفصل ، رغم مزالتق

مثل هذه العملية التأليفية . هذه العناصر ترسم الملامح الكبرى لتطور حدث في المواقف الاساسية ، فانعتاق الشرق يستهدف الابتكار الاقتصادي لانه يرى فيه عن حق ، صميم القلب من الاستقلال ، ولانه ، في الوقت نفسه ، يستطيع بهذه الوسيلة ، أن يرقى الى صعيد المتسلطين السابقين . ولتحقيق ذلك ، يتعين على هذا الانعتاق أن يزعم الكثير من وجوه التوازن القديمة . وليس بوسع

العلاقات بين المرء والمجتمع والطبيعة ان قبلي على ما كانت عليه في الفترة التقليدية ، ولا على ما يهواه الايمان الديني . وبعد الآن سوف تنصب الجهود على الظفر بالاحتميات التي تسيطر الظاهرة الصناعية .

وفي المرتبة الثانية ، ينبغي القبول بالنظرة الى الحظ والمخاطرة ، القاعدة المشتركة بين اللعبة الرأسمالية ، وروح الاقدام على العمل ، والاحصاءات ، وبصورة متساوقة ، سوف تتابع السيطرة على الشيء - الموضوع بوساطة الصنع ، وعلى عالم الكمية . وكل ذلك ، يتحقق ويتم تصوره وانجازها واحداث فعاليتها بصورة تتفاوت في الوضوح أو في الكمال أو في الشدة ، ولكنه يبدو ، في كل مكان ، خفاقاً ومشروعاً عالياً ، وسهلاً تمييزه .

ولكن ، بالطبع ، كل ذلك لن يتحقق دون أن يستثير مقاومة المواقف القديمة ، ودون أن يخلف العادات الموروثة باقية تحت الزي الجديد . انه لنقاش مفتوح بين الحاضر المتجه ضد الماضي ، وبين الماضي المتجه ضد الحاضر ، إنما ما ينتصر أكثر الاحيان ، فهو التسويات والمصالحات البارة التي تخفي او تكشف لعبة معقدة ؛ وبالرغم من ذلك ، يؤدي كل ذلك الى طفرة هائلة وقد كتب مؤخراً أحد النقاد المصريين ، ولعله أكثرهم نزوعاً فلسفياً ، في كتابه عن مشاكل الفن الجديد : « ان التمييز القديم الذي كان يقول به اساتذتنا بين الاسلوب والجوهر ، قد اختفي ، لان جيلنا قد رأى شيئاً خارقاً للعادة : « اختلطت الذات بالموضوع » * (٢٨) وهنا يحدث اكثر من التأثير المتبادل بين الذات والموضوع . فهناك تأثير متبادل آخر بين الجوهر ومظاهره المحسوسة ، بين المثال والفعل ، بين ارادة الكون و ارادة الفعل ، فالغرب يقوم ، في هذا الحوار ، بدور النموذج والمنقر في آن واحد .

٢٨ (محمد مندور : « قضايا جديدة في الادب الحديث » بيروت . ص ٨

ولكن علينا ألا نستبق التطورات المقبلة . وها نحن ، في الوقت الحاضر ،
قد عدنا الى الانتهاز (المقولة العاكسة) التي كانت تبعثها في نفسي مشاهدة
اسواق بغداد ، والتي يوقظها العديد من المشاهد الاخرى ، الطبيعية والذهنية ، في
الشرق الحديث . أهو الرمز أم الواقع ؟ ربما يستطيع التحليل ، بعد هذه
المحاولات الاولى للاقتراب ، من الموضوع ان يتتبع : من قرب اكبر ، تبادلها
المتعدد الاشكال .

الفصل الرابع

الجانب المالي : داء الدلالة

في الفترة التي تنتهي فيها المرحلة الاستعمارية من التاريخ ، يبدو ان الطريق التي اجتازها التابعون والمهيمنون لم تقعد هذه الفئة او تلك الى النتائج ذاتها . فالوضع الاستعماري كان يجمع ، في الأمداء نفسها ، فترتين جد مختلفتين . فالتابعون كانوا كذلك لأن وتيراتهم التي تتسارع في بعض المواضع قد تباطأت ، على العموم ، ومهدت . - وهذا الموضوع قد كشفت اليوم عنه الدراسات حول الانعكاسات الاجتماعية للتقدم التقني . ونظام التلمذ والتدرج القاسي (Le Compagnonnage) الذي بدأ في عهد الآلة البخارية ، ينتهي في عهد القرن الذري بالنسبة للمستعمر (بكسر الميم) السابق . أما بالنسبة للمستعمر (بفتح الميم) السابق ، فانه وقد بدأ في مرحلة المحرك الانساني او الحيواني ، لا ينتهي الا الى مرحلة الآلة المستوردة . ومصر التي تقدمت ، في هذا المجال ، صعداً مثل صعود السهم ، لا تزال في مرحلة الشروع بالصهر والتعدين والضبط

والتجهيز^(١) . فانه يحولنا أن نردد أن الانعتاق قد أقبل على العرب بفضل لعبة قوى لا اقتصادية . فالثورة اللغوية والثورة الملازمة لتزايد السكان قد أعطتهم حتى الآن اسلحتهم الرئيسية .

بالتأكيد ، كثيرون منهم ينكرون في الوقت الحاضر أثر هذه القوى المبهمة . وهناك نقطة خاصة لا تعود الكلمة والعاطفة تبدوان فيها قادرين على اسداء المعونة ، في البلدان المتحررة حديثاً . وذلك بمقدار ما تصطدمان ، ليس بالقوى القاهرة فحسب ، وانما أيضاً بالحاجة القائلة للمال .

والمعلوم أن الرأسمال لا يُفترض ولا يُغنى . وفي البلدان العربية هو ضعيف ومصطنع . وسوف يظل كذلك طالما يعرف الزخم الهائل لتزايد السكان نمو الدخل الفردي^(٢) . وبما أنه يبدو ، في نظم تتسم بالفوارق الاجتماعية الكبيرة ، أن كل معدل وسطي ، عندما نأخذه في سياق هذه المعاني ، ليس الا ضرباً من التعابير المجردة من المدلول ، فإن المصلح القومي الذي يعلم بذلك محمول على أن يشعر من جرائمه بقلق أكبر . واستتباعاً لواقع أن الشرق يسلم بالمفاهيم الكلاسيكية للاقتصاد ، يستطيع اليأس أن يستحوذ على الاذهان الاكثر حصافة أمام ضخامة الجهد الذي يتحتم بذله .

(١) والخوف من اتساع الهوة بين البلدان المتطورة والبلدان التي كانت تابعة في السابق يغذي ، منذ صيف سنة ١٩٥٩ مجموعة من الادب السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، تفرد له مكاناً كبيراً الصحف والخطب التي تلقى في الندوات الدولية . وهي حملة منسقة أم هدلة للتنفس في جو التوتر بين الكتلتين ؟ قد يكون من المفيد كتابة علم اجتماع استشرافي ولكن أيضاً علم اجتماع لدراسة المواقف الدولية بالنسبة للشرق ولدراسة مواقف الشرق نفسه بالنسبة لهذه المواقف وبالنسبة لذاته اي « تعدد الجوانب » لوصح القول .

(٢) الدكتور نزية أحمد ضيف يؤكد على الانعكاس الطبيعي للتخطيط الاقتصادي وحسابات الدخل القومي والفردي . وان دراسته حول التخطيط تشمل مجموعها على عرض لطريقة « حسابات الامة » ، انظر رسائل المجلس القومي للتخطيط « المصرية . رقم ٧ ص ١ .

صعوبات وتهديدات

من الضروري أن نرى في توظيف

الرساميل الشكل الحديث للقدر .

فبلاد مثل مصر يتحتم عليها ، لكي تحافظ فقط على المستوى المتواضع لمعيشتها ، أن تتمتع بنمو يعادل النمو في البلدان الاكثر تطوراً ، أي ان عليها ان توظف من دخلها القومي أكثر بكثير من نسبة العشرة بالمائة التي تعتمز فرنسا مثلاً توظيفها . وفوق ذلك ، من اللازم أن يضاف الى هذه النسبة أموال متوفرة قادرة على تصفية الامية ، وإشاعة الصحة الاجتماعية الخ . . . وهذا الذي تجهد مصر لتحقيقه كيفما اتفق . ويظهر أن أموال الادخار المحررة قد ارتفعت ، من سنة ١٩٥٢ الى سنة ١٩٥٧ الى ٤٦٠ مليون جنيه مصري أي بنسبة ١١٥ مليوناً في السنة ، من أصل دخل قومي يقارب ٩٠٠ مليون جنيه ، والخطة الحكومية تأمل أن ترفع أموال الادخار في عام ١٩٧٨ الى ٣٦٤٤ مليوناً من الجنيهات المصرية ، أي بزيادة ٤٠ الى ٥٠ جنيهاً مصرياً^(٣) وربما أكثر بالنسبة للفرد الواحد .

ورغم هذه النظرة المتفائلة ، علينا أن نعتبر أنه خارج عائدات البترول ، والارباح المنتظرة للقنال ، يعود جانب من الدور الكلاسيكي الذي كان يؤديه الادخار ، في هذه البلدان ، الى التمويل الاجنبي . وينتج عن ذلك مخاطر هائلة . ففي نهاية المرحلة الاستعمارية ، يطالب التابعون السابقون انفسهم بهذه التوظيفات المندفعة بعيداً من المركز Placements centrifuges والتي استطاعوا أن يروا فيها الشكل الأخير للرأسمالية . وبوسع هذا العود على بدء الباعث للمعجب أن يشير عن حق ، القلق في الوقت ذاته الذي يفرض إعادة النظر في النظرية .

.....
(٣) شفيق أخرس ؛ « مضاعفة الدخل القومي في الجمهورية العربية المتحدة في عشر أو خمس عشرة أو عشرين سنة . » مجلة « الاقتصاد والمال في سوريا والبلدان العربية » - السنة الثانية - عدد ١٨ .

صبح ان مؤسسات دولية ، كالمصرف الدولي للتعمير والتنمية الذي نحن مدينون له ببعض دراسات تعتبر منطلقات في هذا الحقل ، حول العراق ، والأردن ، وسوريا^(٤) لا تهدد زبائنها بالمخاطر السياسية ذاتها التي كان يهددها بها الدين العثماني ، أو شركة قناة السويس ، مهما بلغ من حقيقة « الطابع الدولي » الذي كانت تزعمه في ذلك الحين . ولكن يلزم البلد الناشئ الكثير من المثالية للاعتقاد بان قروضاً تستطيع الى هذا الحد ان تخرج من جسدها المادي فلا تعود تنقل ، في أجل قريب أو بعيد ، نفوذاً لا يقبل الا عن كراهية . فالنقطة الرابعة ، اذ تحقر التغطية الدولية ذاتها ، عرضة لحملات لاذعة من قبل الرأي العام . والمصارف والشركات الفرنسية - الانجليزية في مصر قد دفعت غالباً ثمن علاقات الترابط التي يقيمها الشرقي ، عن حق ، بين كل نشاط اجنبي حتى ولو كان منزهاً عن النفعية (مثل البحث العلمي) ، « والاستعمار »* الموقوت . وبالحرى عندما يكون هذا النشاط مدرراً للمال .

وعندما نواجه رؤية الأشياء ، يصبح من الممكن اعتبار الحاجة الى الرساميل في الحالة الحاضرة لهذه البلدان نابعة من مرامي بناءة وليس من النزعة لتبذير المال ، كما في السابق . ومع ذلك فهي تعبر عن الوضع المتدني نفسه ، وفي هذا الوضع بالذات تكمن اليوم التبعية الاستراتيجية ، مثلما كانت في الماضي تكمن التبعية الاستعمارية .

وبالوسع تفسير حساسية بلد مثل مصر عندما نفيس مدى الأغوار في حياتها الريفية الحميمة التي استطاعت الديون الأجنبية ان تتغلغل اليها^(٥) . والتكوين

(٤) ظهرت هذه الدراسات في منشورات جون هوبكنز ، في بلتيبور ، الولايات المتحدة ، على التناوب في اعوام ١٩٥٢ ، و ١٩٥٥ و ١٩٥٧

(٥) ابراهيم عامر ، « الارض والفلاح » القاهرة ، ١٩٥٧ . ص ٧٠ وما يليها

الفلاحي يتمتع بسلطان قاهر في هذه البلاد. فهو يحيط من كل مكان بالأقتصاد المناضل . ومعلوم ان البنوك الأجنبية هي التي اثقلت بالديون كاهل الفلاح ، زمناً طويلاً . وقد بلغ هذا الأمر حدًا : انه في عام ١٩٠٧ ، كانت الملكية العقارية المقدرة بمائة وعشرين مليون جنيه ، مدينة بعشرين مليوناً اي بنسبة السدس من قيمتها . ومنذ ذلك الحين اتجه الوضع نحو العافية . ولكن رغم كل الجهود المبذولة ، لم يتحقق بعد تخليص الفلاح من ديونه بصورة حقيقية . والأبدال براسمالية ذات أكثرية مصرية لم يؤد الى الآثار الخلاقة التي كانت بالوسع انتظارها ، فمثلاً : قد جرت في سنة ١٩٣٢ تصفية فرع زراعي اسسه البنك الوطني المصري (بنك مصر) سنة ١٩٠٢ . فقد لوحظ حينذاك ان كل سهم بقيمة ٥ جنيهات قد سحب ربحاً قدره ثمانى جنيهات .

وربما تكون ضخامة الربح والدخل ، في التكوين التقليدي هي العامل الوحيد القادر على تحريك الراسمال ، طالما يقتصر على وسائل اقل عنفاً من الوسائل التي تتبعها الثورة المصرية منذ ١٩٥٢ وبالفعل نحن نعلم انها استهدفت اذابة الجليد عن هذا الراسمال الذي كان ، يذفن نفسه في الأرض ، يجعل من الفدان رمزاً أكثر منه واقعاً ، وقد كانت اجرة الفدان ، عام ١٩٥٥ ، تبلغ ٥٠ جنيهاً مصرياً في السنة اي تماماً ربع هذا الفدان نفسه ، ولكن فيم كان الفلاح بتشيت؟ ليس من اجل ان يعيش بالمعنى الاقتصادي للمعبرة . فلنقل : من اجل ان يوجد ايا للرمز الرائع ، ولكن يا للاقتصاد المرعب .

قد سبق لي أن أشرت الى نظريات الاستاذ تيلاك^(٦) التي يعطيها كتاب

(٦) الشرق الاوسط : دار I . S . E . A باريس ١٩٥٧ ، ومحاضرات الاستاذ تيلاك غير المنشورة في المعهد الفرنسي للحقوق .

السيد غناجه الحديث (٧) صدى مدوياً . وفي نظر هذا الباحث ، يشكو الاقتصاد في بلدان الشرق الأوسط من علل عميقة ، فقد أفقد التنافر بين نمو الموارد والنمو في عدد السكان ؛ وكذلك النقص ، النسبي على الأقل ، في التجهيز الاجتماعي ، طابعه الانساني . وفوق ذلك ، هو يبدو مفكراً ومتناثراً لأنه مرتبط ارتباطاً التبعية بالخارج : زبائن النفط في الجنوب الشرقي ، جاذبية المضاربة والعمليات المثلثة ، على ساحل البحر المتوسط ، عبوديات الزراعة الأحادية في مصر ، الخ ...

اللجوء الى المجهول الشوقي

ما العمل اذن ؟ أن نصح

انفسنا من جديد . لقد لاقت

افكار « غناجة » هذه معارضة منيرة للعقل . فقد انتقدها أحد الاقتصاديين السوريين . ولكن هذا النقد لم يتناول محتواها ، بقدر ما تناول مداها البصري (٨) وهذا المدى لا يفسح مجالاً واسعاً للعروبة ، وهو ذاته يبدو متراكباً فوق الواقع كما يصفه أو كما يثيره كاملاً ، حالياً ، طرح معنوي ومادي على السواء ، أكثر مما يبدو مندجماً في هذا الواقع . هذا الشجى وهذا الانفعال يطغى على التفسيرات العربية ، ولكن لنعرف كيف نميز ، تحت الاندفاع الحماسي عند المتناقشين الغريزة التي لا تخطيء في التعرف الى المجهول الشرقي (٩)

(٧) غناجه : النمو الاقتصادي والبناء في الشرق الاوسط ، باريس ١٩٥٨ .

(٨) هشام متولي : حول « كتاب جديد » مجلة « الاقتصاد والمال في سوريا والبلدان العربية » ، عدد آذار ١٩٥٩ ص ٦٨ وما يلي .

(٩) سبق له . أ . ر . جب H.A.R.Gibb ان استعمال ، بمعنى آخر ، العبارة : « العامل x » الظر كتاب « الشرق الاوسط في المرحلة الانتقالية . » من منشورات و ، لاكور W . Loqueur عام ١٩٥٨ .

ومنذ عشر سنوات ونيف ، كانت الامم المتحدة تقدر بالف وثلاثمائة مليون دولار المبلغ اللازم لرفع اقتصاد الشرق الأدنى بنسبة ٢ بالمائة سنوياً . وبوسائل مخيفة الى حد ما ، قدرت المبالغ المدخرة بقيمة ٥٤٠ مليوناً : بما يؤدي ، في نظرهما ، الى عجز قدره ٧٦٠ مليوناً .^(١٠) ومعلوم ، منذ هذه التقديرات ، ان كثيراً من الأشياء قد حدثت في هذه البلدان ، عدا الثورة السياسية : فان مكتسيات هامة من البناء السفلي الاجتماعي والمادي هي موضوع اعتزاز في البيانات الحكومية التي تلقي بأرقامها مثل ضربات المطارق وتعلق نجاحاتها بوتيرة أصبحت شيئاً فشيئاً أكثر تسارعاً ، والتفاؤل يتضرم في مناسبات « اسبوع التنمية » في العراق^(١١) . وفي الخطب والنشرات والكراريس التي يصدرها مجلس الانتاج أو مجلس الخدمات بمناسبة التخطيطات القائمة في اقليمي الجمهورية العربية المتحدة^(١٢) ، واذا امتنعت مصادر القروض الخارجية (عن الاقراض) ، نتجت هزات غريبة في القانون الدولي وأزمة في التشكلات السياسية ، وقد رأينا ذلك عام ١٩٥٦ ، والمنجزات لا تنفك تتتابع ، في كل الميادين : في القوى المائية ، وفي الصناعة ، وفي التعليم . ويلاحظ

(١٠) غناجه ، المصدر نفسه ص ٤٧ وما يلي .

(١١) حيث تطبع مجموعة وثائقية مصورة باللغتين العربية والانجليزية .

(١٢) هناك أدب بكامله يشتمل بصورة طبيعية على نشرات للدعاية وكذلك « كتيبات » للإرشاد والتيسير المفيد . (أنظر : « تطور الانتاج الصناعي والزراعي في عشر سنوات ») واطروحات مثل تلك التي ينشرها مجلس التخطيط والتي سلت لي « كرمياً واطفاً ، وبعض دراسات متتبعه مثل دراسة الدكتور مرجعي عن الاصلاح الزراعي : والدراسة التي لا تحمل اسم مؤلفها عن التصنيع ، وأخيراً المجلد الذي صدر مؤخراً والذي يقدم جرداً احصائياً لجميع وجوه النشاط في مصر عن السنة الجارية : « الكتاب السنوي » عام ١٩٥٩

أصحاب البنوك بدهشة إنه لا الوضع المالي ينهار ولا الدينامية تلجم (١٣) .
وليس لي أن أوضح ، هنا ، ماهية ومدى التقييدات والتوترات التي فرضت ثمناً
لذلك ، إذ أن هذه الملاحظة تتجاوز حدود المناسبة والمكان .

فها هي شعوب كان من المفروض ، وفقاً للحس السليم . وبإستثناء البلدان
المنتجة للنفط (كالسعودية والكويت) ان تتخبط في صعوبات مرعبة ، ناتجة
بمجموعها ، عن عدم الاستعداد التقني ، وغياب الاحتياطي والتسارع في عدد
السكان . ومعلوم الآن ان هذه الشعوب تواجه هذه الصعوبات بمشقة لا تخلو من
المباهاة الظاهرة . فكيف يمكن تفسير هذا الشذوذ ؟ هل يعود ذلك الى ان
الموارد المحلية ، او المساعدة الاقتصادية الأجنبية قد قدرت أقل مما هي عليه ؟
والأرجح ان سبب ذلك هو تجاهل عوامل ليست اقتصادية حقيقة ، وتستحق
اكيداً ، في هذه المرحلة من النمو وفي هذا المركب السياسي ، انتباهاً أكثر مما
تخطى به عادة من قبل المراقبين التقليديين ، فان معالجاتي ليست معالجة
اقتصادي . فهي لن تجد أية صعوبة في التسليم بهذا النوع من عدم الفهم ،
بصفته معطى أولياً ، ولا تزال تذكر دهشة خبير دولي ، دعي الى درس
الاضاع المالية البنانية ، فيما كان منه ، عندما وجد الازدهار حيث كان من
المفروض أن ينتظر البؤس أو الافلاس التحليل الدقيق ، إلا ان نصح هؤلاء
المتوسطين الاذكياء بأن يتابعوا عمل ما كانوا يعملونه حتى الآن ، ولكن عمل

(١٣) انظر مثلاً التقرير عن « الاوضاع المصرية » الذي نشر في المجلة الفصلية للبنك البلجيكي
والدولي في مصر ، تشرين أول ١٩٥٨ . وهناك تاريخ مفيد للمراحل القديمة لتوظيف الرمايل
في مصر يمكن العثور عليه في النشرة الاقتصادية ، ١٩٥٦ العدد العاشر ص ٣١٠ وفي مقال
حسين خلاف ، « تمويل التنمية في مصر » وهنري تادوس « التطورات الاخيرة لميزان المدفوعات
المصرية » اللذين نشرنا أولهما في مجلد ١٩٥٥ وثانيهما في مجلد ١٩٥٧ من مجلة « الاوراق
الاقتصادية للشرق الاوسط » الصادرة باللغة الانجليزية في بيروت .

ماذا ؟ هذا ما لم يتوصل اختصاص الخبير الى توضيحه .

نحن لا نعني أنه يقتضى اقامة نظام من اللاعقلاني أو مما لا يمكن الاعتراف به . بل على العكس ، ان خلاص هذه البلدان مرهون من وجوه عديدة ، باعادة بناء منطقية . ولكن على تحليل الصعوبات الحاضرة أن يؤدي ليس الى استخدام وصفات جاهزة ، ناتجة عن روايب تجربة أو عقيدة اقتصادية دولية ، وانما الى البحث عن أسلوب ملائم . ويصح في هذا المجال ، ما يصح في جميع الوجوه الأخرى من الحيلة الشرقية . فالواجب الأول هو شعار : « اعرف نفسك بنفسك » ، والى هذا كان أ. بياتييه A . Piatier يدعو مستمعيه المصريين ، في محاضرتين القاها سنة ١٩٥٦ (١٤) . فقد برهن على أنه ، بالرغم من النظريات الكلاسيكية ، كان من اللازم الأبقاء على الأمل ، والاقدام على العمل ، واطراح مفهوم « الانسان الاقتصادي Homo œconomicus » . فهذا المفهوم يستطيع الابعث النفور عند عالم الاجتماع . فهو يهمل بطابعه الاعتباري المفرط عناصر جغرافية وتاريخية وعقلية تلعب دوراً حاسماً . « فالقوة النفسية عند الشعوب هي أثمن « رأسمال » ، والذي يميز الإنسان « المتطور » عن الإنسان المتخلف في تطوره » هو القدرة على « الجواب » .

وهذه القدرة ، التي يتطلبها على السواء القديم وطاقت الحاضر الناشطة يملكها العرب الى درجة قوية . فوفقاً لنظرة مثل هذه لا يعود للزخم الاقتصادي غير مجرد الاستمرار المطابق للزخم الذي يساعدهم على استعادة شخصيتهم ، بطرق أكثر الاحيان غير منتظرة ، ولكن سر الفشل أو النجاح يكمن في صواب المطابقة . فكثير من قواهم ، وهي ناقلات الخلق ، والهرب ايضاً ،

(١٤) بياتييه : وجوه التفارث الاقتصادي والسياسي والنمو على المستوى الاقليمي وعلى المستوى العالمي « القاهرة ١٩٥٦ S . O . P . Press

يجب ان توجه في اتجاه كاث من المستحيل التبوء منذ عشر سنوات فقط .
ومن هنا كانت الضرورة القائلة بالنسبة ، اليهم ، للتحليل ولإعادة النظر . وهذا
ما يمكن أن يسمى ثورة .

تكوين رأسمال عربي نحن لا نملك معطيات واضحة
كثيراً حول سؤال بهذه الأهمية ، في

نظر الاختصاصيين واهل المهنة ، وهو السؤال المتعلق بتكوين الرأسمال . وليس
من دراسة وافية في هذا الحقل (١٥) . ولا يزالون في هذا الموضوع ، عند مرحلة
التحقيق الذي يستند الى « الامارات الخارجية ، والمقابلات الضخمية ، ذات
الميل المفرط الى تفسير التفسيرات ! ومع ذلك ، فان المخاطرة لا تمنع دراسة
منبهة خاصة للتطورات ، وللتحركات وللمواقف .

وهذه الدراسة تلاحظ فيضاً مالياً متدفقاً ينهمر ، من العربية السعودية
وامارات الخليج الفارسي ، على لبنان بصورة توظيفات عقارية أو وجوه
استهلاك باذخة ، وعلى القاهرة بصورة تشييد أبنية على الضفة اليسرى للنيل ،
وفي كل مكان بصورة رواتب وهبات ، ونفوذ ، وفي خط مقابل ، تزود
عائدات النفط ، التي ينبع منها هذا الفيض . البلدان العربية بالعملات القوية
وبالقدرات المالية . ومن اللازم تتبع هذه القدرات في سرها وفي ظهورها المفاجيء
غير المنتظر أحياناً ، أو المنتظر اكثر مما يلزم . . . والمعونة الاجنبية ، ومن
الآن فصاعداً ، عائدات القنال ، تشكلان مصدرين آخرين من مصادر القطع
النادر .

وهناك ظاهرة أخرى ، اقل تميزاً جغرافياً ، تعود أسبابها الى تنقلات الثروة

(١٥) رغم جهود علمية قيمة ، مثلاً جهود جماعة من الاقتصاديين في الجامعة الاميركية .

العقارية ، المرتبطة بمصير طبقة من كبار الملاكين وهذه الطبقة تلقت على التوالي في مصر (١٩٥٢) وفي سوريا (١٩٥٨) وفي العراق (١٩٥٨) ضربات الاصلاحات الزراعية ، وهذه الاصلاحات كانت تبشر بهدفين : عمق طاقات كانت هاجعة منذ أجيال ، في زراعة روتينية ، وتحرير الفلاح . وهذا المظهر الثاني ، رغم أنه الاكثر جذرية ، لن يستوقفني الآن . وفيما يتعلق بتحريك الرساميل العقارية ، يبدو ان التحديد الفعلي لمساحة الأملاك ، وتحديد الأجور ، الذي لا يقل عنه اتساماً بالأثر الحاسم ، شرعا في تحويل قسم من التوظيفات نحو الصناعة ، في مصر ، البلد الذي كان اول من سلك هذه الطريق . وبهذا الشكل أصبحت مساهمة الرأسمال الخاص ملحوظة ، بنسبة لا يمكن اغفالها ، من قبل البرامج المصرية ، وتشكل موضوع تصريحات رسمية تهدف الى تشجيعها ، ان لم نقل الى الحض عليها . (١٦) ولا يزال من السابق لأوانه ان نتبين في سوريا والعراق ما اذا كان التطور نفسه بدأ يرتسم . وفي العراق ، سبق لنظام الاقطاعية العقارية ان بدأ ، على الأقل في بعض الحالات ، نوعاً من عملية التحول . فقد كانوا عام ١٩٥٨ يذكرون في سوق بغداد المالية ، اسماء ثمانية الى عشرة من اصحاب المليارات ، ومنهم العديدون الذين كانوا يحملون اسماء عريقة : الدامرجي ، والحضيري ، والشبيبي . وفي مصر ايضاً ارتسمت تباشير هذه التنقلات من الريف الى المدن انى حد ان الدولة اضطرت الى أن تظهر مؤخراً قلقها من اتجاه مفرط نحو التخفي بصورة عقارات للايجار .

ويعود ضرب ثالث من الأموال القابلة للتشهير الى مخلفات الجيوش الخليفة . فمن المبالغ الطائلة التي انفقها تكونت ثروات سهلة ، لقيطة ، كانت المضاربة

(١٦) تصريح عبد الناصر عند افتتاح مصانع النسيج في حوش بلاص ، في سوريا ، بتاريخ ٢٤ آذار ١٩٥٩ . فقد كان في ذلك التصريح إعادة الاعتبار للرأسمال الخاص ، وفي الوقت نفسه دعوة لم « للاشتراك التعاونية » . وهناك بادرة توفيقية أخرى : مؤتمر M. I. D. E. C. المنعقد في القاهرة من ١٥ الى ١٧ تشرين الثاني ١٩٥٩ .

تغرف منها على نطاق واسع ، وفي مجال مماثل من الأفكار ، يلزمنا أن نشير الى المكانة التي تحتلها روح الأعمال ، والتجارة ، والعمولة ، والسياسة ، والنزعة التجارية على العموم ، حيث كانت الأخلاق التجارية القديمة ، الراسخة الجذور في تقاليد المدن ، تتنافس على الاولية مع الاتجاهات الجديدة ، بنصيب متفاوت من الفعالية ، (حلب ودمشق الخ ..) وحيث كانت التبادلات النشيطة مع الخارج تشكل الجانب المسيطر من الاقتصاد ، ونوعاً من الوجه المالي للتعلق العاطفي بالغرب (لبنان) .

كيف يمكن تصنيف هذه الروافد المختلفة ، بالنسبة لبعضها البعض ؟ هنا ، حول هذه القضية ، يلزم ان يكون بتصرفنا أرقام ، وللغور . ويتفق أن الامكانيات الحالية لمصادر الدراسة لا تزال بعيدة جداً عن الدخول في الحساب ، لو اعتمدنا على نشرة جد حديثة من الجامعة العربية . ويشكو برهان الدجاني ، في محاولته لجمع المعطيات الملتقطة ، بمناسبة انعقاد مؤتمر الغرف التجارية ، من عدم أهلية هذه الاحصاءات للثقة^(١٧) ووجوه من التباين الكبير تفصل ، من هذه الناحية ، بين البلدان المختلفة . ففي البعض منها ، يواكب عدم النضج في الطرق المتبعة المبالغ في الدعابة ، وفي البعض الآخر ، على العكس ، نرى محاولة جديدة لاستقاء المعلومات قيد التكون .

لنتصفح نشرة الدكتور فينيلون Fénelon حول الدخل الوطني في العراق^(١٨) والمؤلف واحد من الخبراء الذين يبثون الروح في مجلس الاعمار . وهذا المكتب ،

(١٧) برهان الدجاني: المصدر نفسه الذي اوردناه في المقدمة .

(١٨) انها بين المؤلفات التي نملكها او على الاقل التي نشرت ، واحدة من اكثرها جدارة بالثقة .

الذي كان يتمتع بشبه حصانة داخل البلد ، كان يتصور نفسه آلة لتحويل قسم من عائدات البترول الى تجهيزات . وهذا الطلاق الواقعي بين التجهيز المادي وانعكاساته الانسانية يبدو واحداً من الأسباب العميقة للثورة العراقية . ولكن هذا لا ينفي كون أن عملاً هاماً قد تراكم . وبكثير من العلم الموثوق به ، يقوم التقرير أو لأيسر «دلائل» اقتصادية واجتماعية : (Indicateurs économiques) مثلاً استهلاك التيار الكهربائي . وإذا كانت تصدير النفط يرتفع في العراق ، من ٦ ملايين طن عام ١٩٥٠ الى ٢٩ مليوناً عام ١٩٥٦ ، مع كل ما يتبع ذلك من عائدات ، بينما مجموع الصادرات الاخرى لا يرتفع الا الى ١٣ مليوناً من الدينارات ، في التاريخ نفسه . والسمة التي تكاد تكون مستمرة لهذه البلدان : هي الضعف النسبي للواردات والصادرات بالنسبة للدخل الوطني . ففي العراق ، يقدر هذا الدخل عام ١٩٥٦ ، بمبلغ قدره ٣٠٣ ملايين من الدنانير : أو ما يعادل ٣٠ ملياراً من الفرنكات . ونسجل أنه في عام ١٩٥٦ ، بلغت توظيفات مجلس الاعمار وحدها ٤٥ مليوناً من الدنانير ، هذا باستثناء جميع التوظيفات الادارية والخاصة ، مقابل دخل اجمالي يقدر بمبلغ ٣٠٣ مليوناً : انها نسبة مثوية ضخمة .

وما من أحد ، في الوقت الحاضر ، يقدر على التدقيق في هذه الارقام . وقد يسمح لنا بأن نفضل على هذه الارقام الاشارة النفسية التالية ، على اتسامها بخيبة الامل ؛ وهي مستقاة من تقرير صادر عن مسؤولين آخرين في بلد آخر « ان نسبة الاموال المدخرة في هذا البلد منخفضة جداً ، بسبب النسبة الضئيلة للدخل الوطني » « واكثر مشاريع التنمية هي تلك التي يعتمد عنها الافراد إما لانها تحمل ، من جهة الاستثمار ، كثيراً من المخاطر وقليلاً من الارباح ، واما

لأنها تتطلب الكثير من رؤوس الأموال لفترة طويلة» (١٩)
وهذه الجملة تتضمن واقعتين أو ثلاث وقائع مهمة . أولاها هي الخوف
القديم من المخاطر : ولنكرر انه يعود الى جذور عرقية . وكيف ينظم نفسه
داخل نفسيات التجار هذه مع حب اللعب ؟ هذا ما تسمح دراسات مقارنة
تاريخية دقيقة وحدها ، بأن تبيّنه .

وثانيهما هو الحذر من التجميد البطيء للأموال . وهكذا ، فإن التاجر
الحلي (٢٠) ، كما كان لا يزال يشاهد في فترة ما بين الحربين ، يحتفظ بقسم من
ثروته في صورة احتياطي من الاراضي : وهو بذلك يقف على حدود
الملامح النموذجية لسيد الارض الاقطاعي . وهو يكثر بقية ثروته
بالتبادل التجاري ، الذي تزداد وتيرته تسارعاً على قدر ازدهاره . وهو يسلك
تقريباً سلوك ابرة التطريز الرشيقة فوق نسيج حياة المدينة . فان نجاحه رهن
بكثافة علاقاته . وهذا النمط من النشاطات لم يعد يتناسب أبداً مع الزمن
الجديد . ولكن الدهنيات تبقى . وفي رأي احد الاقتصاديين السوريين ، هذا
هو السبب الذي يوجب على الدولة «أن تسد النقص الذي يخلفه تقاعس الافراد» .
ونظام الاقتصاد الموجه يفرض نفسه هنا ليس بسبب عمليات اختيار نظرية ، وإنما

(١٩) « مجلة الاقتصاد والمال في سوريا والبلدان العربية » ١٩٥٩ ، ويحلل التقرير الرسمي
للمجلس الدائم لتنمية الانتاج القومي لعام ١٩٥٥ ، بالصراحة نفسها ، التوجيه السيء للداخلين
وللادخار ، ص ١١٠ وما يلي .

(٢٠) انني مدين ، في هذه النقطة للحامي ادمون رباط ، ابن احد كبار تجار حلب ،
بالكثير من ذكريات طفولته الثمينة ، وحلب ، بأسواقها المسقوفة التي تملوها قلعة ابراهيم ،
هي نقطة التلاقي التقليدية بين اوربا وآسيا الدنيا والمتوسطة والقصى ، وهي تعرض علينا
النتابع الاكثر اثارة من الاختبارات التاريخية ، كيف تنتظم داخل هذا الاطار هاتان العلاقتان
بالنسبة لبعضها البعض : من جهة علاقة الشرق والغرب . ومن جهة أخرى علاقة الصنع بالمواد
الاولية . وكيف تغير هذا التنظيم بل وبدا اتجاهه خلال العصور : هذا هو موضوع تحقيق ذي
فائدة حاسمة ، ولكن أين وصلت الابحاث عن المجموعات الانسانية في الشرق الادنى ؟

لمواجهة النواقص في الابنية الموروثة .

ولهذه الولادة العسيرة للرأسمال الصناعي ، تكرر نشرة مصرفية حديثة مقالاً ذا مغزى (٢١) ، ويلهجة كلاسيكية ، يبدأ المحرر بالقول انه يجب البحث في الادخار عن مصدر الاموال للتوظيف ، انما هناك شكلان لسدادخار : الادخار الحر والادخار الاجباري (الضرائب وعمليات الدولة الأخرى) ، ومحررنا ، الذي ينتمي الى مجموعة بنك مصر ، يميل الى الحرية . فهو يتمنى أن ينحو التراكم العفوي ، الى حد ما ، و الى تكوين رأس المال ، * لكن هذا التكوين يعرفه « سوء التنظيم » ** ، وها هو ، بالرغم من اعلانه عن نزعه الليبرالية ، ينجر الى هذه النظرات التي يقتضي ، بموجبها تبديل البيئة رأساً على عقب ، حتى تعمل فيها النواميس الاقتصادية بصورة حقيقية ، والاسس *** نفسها هي فاسدة ، وبالأخص الأسس البسيكولوجية ، ومنها الحذر من توظيف رأس المال ، والخوف من الاموال المنقولة ، والعادات النقدية المشؤومة : كل ذلك يقود المحرر الى تمني قيام ترابط بين الادخار ومشاريع محدودة للتنمية . يجب اذن انشاء « مراكز قطبية » للتنمية ، وهي سوف تلعب دور المحرضات على الادخار . وسوف يكون هناك نسوع من التسوية بين نظام الاقتصاد الموجه والنظام الليبرالي ، ولكن ذلك يقود أيضاً الى مراقبة توظيف الرساميل : صحيح أن هذه المراقبة سوف تم فقط بوساطة المصارف والمؤسسات النقدية الأخرى ، لن يكون هناك نظام اقتصاد موجه صريح ولا ادارة الدولة المباشرة . ولكن ، بعد كل هذا المطاف ، سوف تتابع رؤية الفرق بين موقف مثل هذا والموقف الذي كان ، منذ عدة سنوات سلفت ، يستوحى منه

(٢١) النشرة الاقتصادية . بنك مصر ١٩٥٧ ص ١٨ وما يلي : مقال عن تحويل النمو الاقتصادي . النظر خاصة الكراس الذي كتبه محمد نامي محمد عن دور العامل النقدي (رسائل المجلس القومي التخطيط ، رقم ٢)

سحاس متفاوت كذلك للتواصل مع الرأسمال الاجنبي . وبالامكان تتبع هذا الحوار المزدوج في تاريخ المصارف العربية . فبنك مصر الوطني الذي تأسس عام ١٨٩٨ لم يحصل على امتياز الاصدار الا بعد ذلك التاريخ . وفي عام ١٩٢٠ ، كان انطلاق بنك مصر . انه منعطف كبير في تاريخ الاعمال الشرقية . وفي عام ١٩٥١ ، كان انشاء البنك الصناعي الذي يدرشن سياسة التسليف المخصص . ان هذا التطور قد جاء متأخراً في العراق ، إن العراق ظل حتي عام ١٩٥١ جزءاً من المنطقة النقدية الهندية . ولم يكن ذلك مجرد صدفة بحتة . فإن تأسيس البنك الوطني العراقي لم يتم الا عام ١٩٤٧^(٢٥) ، وهو لم يبدأ عمله الا عام ١٩٤٩ ، ولم يصبح مصرفاً مركزياً الا عام ١٩٥٦ برأسمال قدره ٥٠ مليون دينار . مع امتياز الاصدار وكذلك المراقبة والتوجيه .

ومنذ ذلك الحين ، وفي كل مكان في هذه البلدان ، تكاثرت الجهود وتنوع . فلكل من هذه البلدان أصبح مصرفها المركزي ، ما عدا لبنان ، الذي لا يزال يحمل إرث الانتداب . ولكن منذ ذلك الوقت . أصبحنا نرى مصارف وظيفية تسعى بصورة ناقصة على كل حال ، لتكوين مراكز استقطاب للتسليف ، وأخيراً تطل مصارف الأعمال العربية : ويمدون منها ما يزيد على العشرة . وها هو مثلاً البنك العربي ذو الرماهيل العراقية واللبنانية : وبين اللبنانيين ، المالي اميل البستاني ، وبين العراقيين بضعة من أكبر شخصيات العهد السابق . وقراءة موازنة عام ١٩٥٧^(٢٦) كانت تعطي انطباعاً بالنمو الحقيقي او الوهمي . اذ لا يسعني بالطبع ان استعين هنا بالمقاييس التقنية .

(٢٥) النشرة الاقتصادية ، ١٩٤٩ العدد الثالث ، ص ١٣٨ ، تعطي تاريخ هذا التطور . انظر ايضاً المصدر نفسه ، عام ١٩٥٦ ، العدد التاسع ص ٢٧١

(٢٦) التقرير السنوي الثامن والعشرون ، البنك العربي ، شركة محددة ، بغداد ١٩٥٧ (باللغة الانجليزية) . والنشرة زاخرة بالصور والرسوم البيانية الملونة ، وعلى الغلاف ، صورة فرع طرابلس (ليبيا)

ولكن لنلاحظ أن المداخيل ارتفعت من عام ١٩٥٦ الى عام ١٩٥٧ من ٢,٤٠٠,٠٠٠ دينار الى ٢,٧٠٠,٠٠٠ دينار . والارباح الصافية تضاعفت فمن ٣٠٠,٠٠٠ دينار (أي من ٤٠٠ الى ٤٥٠ مليون فرنك) ارتفعت الى ٦٢٠,٠٠٠ دينار ، وزع منها ما يقارب ٤٠٠,٠٠٠ دينار .. وألاحظ ، ماراً ، ارتفاع نسبة الارباح الموزعة : فهو ، على ما يبدو من مستلزمات اجتذاب الرساميل . وأخيراً هناك سمة مميزة للرأسمالية العربية الناشئة : انها لا تقوم بالمخاطرة الاعلى أمل استهلاك النفقات بصورة باذخة .

وسير هذه المصارف ، على الرغم من ادعائها بأنه سير يتششى مع روح العصر ، يعكس الخصائص المحلية التي سبق لفؤاد مرسي ان وصفها دون عطف : التأثير المفرط لحجم النقد ، ولتقلباته ، وتنقلاته ، على العمليات المصرفية وعلى الاقتصاد بوجه عام ؛ وضعف الودائع وبالمقابل أهمية عمليات الربا الفاحش ، فوحي التسليف وتناثره ، وتأخر * المؤسسة المركزية ذاتها (٢٧) كل هذا ، يصح بالنسبة لمصر (١٩٥٥) . وفي نظر المؤلف نفسه ، عام ١٩٥٨ أيضاً لم تكن الحالة اكثر اشراقاً في لبنان وسوريا حيث ظهر أن غلبة المؤسسات الأجنبية ، والضعف النسبي ، وعدم التخصص عند البنوك العربية (بما فيها بنك مصر) وحتى انشاء المصرف المركزي ، قد بلغ حدأ أصبح لزاماً فيه ان نرى الحسنة الرئيسية لهذه المؤسسات في قدرتها على البقاء رغم المنافسة . وهذه الحالة ، كما تعلم تتطور يوماً بعد يوم ، وحسب البلدان ، اما في اتجاه نظام لتوجيه الدولة كل يوم أكثر بروزاً ، واما في اتجاه تعدد المبادرات

(٢٧) الدكتور فؤاد مرسي «النقود والبنوك في البلاد العربية» ، «مصر والسودان» ، القاهرة ، ١٩٥٥ . ثم «سوريا ولبنان» ، القاهرة ، ١٩٥٧ . هذان البحثان يدخلان في مجموعة الوثائق المفيدة التي نشرها معهد الدراسات العربية ، لدى الجامعة العربية ، والتي تسلمت لي ، كرمأ واطفاً . مع شكري للدكتور شفيق غريال .

خاصة في المجال متسع كبير امام رجال المصارف الاجانب ليفضحوا في الكثير من هذه المبادرات . الأساليب المفرطة في الانسياق مع النزوات الغريبة الكيفية، وانا فحس انه يسيطر، في هذا الأمر، مزيج واضح من قدرات هي ، عند البعض، على مستوى عالمي ، ومن الوفاء عند البعض الآخر لنمط تقليدي أكثر مما يلزم : روح المضاربة المجنونة ، التي تلتفها عادات المجامة والكياسة واستشارة الحظ (الاستغارة *) .

واكيد ، يقتضي عدم الوثوق ، بالنسبة لملاحظات من هذا النوع ، بأقوال منافسين جردوا من امتيازاتهم قليلاً أو كثيراً . ولكن هل رجال الاعمال العرب أنفسهم ، اكثر رقة في ملاحظاتهم ؟ فقد كتب لي واحد منهم ممن استشرتهم حول هذا الامر : اذا اردنا التمعن في الامور ، وجدنا ان المضاربة والتجارة مترابطتان بصورة حميمة . فليس من مضاربة بدون تجارة وليس من تجارة بدون مضاربة . اما فيما يتعلق بعادة اكتناز الاموال وتخزينها ، فان « الميوعة » الكبيرة في الاقتصاد اللبناني قد جعلتها تضاءل : فهي أقل بروزاً في لبنان اليوم مما كانت عليه في السابق ، او مما هي عليه في بلد مثل سوريا . ومع ذلك ، فان بيروت تشكل دائماً سوقاً كلاسيكية . كبيرة للذهب . ولكن هذا الذهب ، أو ، بصورة اعم ، هذا الاساس الكبير من الاموال المتوفرة ، هل هو دائماً في اساس الاعمال التجارية الكبيرة ؟ ويكتب لي مراسلي نفسه : « عندنا تسيطر وأسمالية دون وأسما » . فالبنوك العربية او الاجنبية أو اللبنانية ، تجني الربح من استخدام نفوذها اكثر مما تجنيه من زج احتياطيتها . وتقوم بينها منافسة محومة تمتد وتتجلى حتى في عرض السيارات الفخمة أمام أبهة الواجهات . وفي وسط مدينة بيروت حيث تباع الاراضي بأسعار فاهشة يزدحم ما يقارب العشرون مؤسسة مصرفية كبيرة فرنسية وبلجيكية وبريطانية ، والبنك العربي ، الذي سبق ذكره ، وبنك الرافدين ، وبنك

القاهرة ، والبنك السعودي للتجارة ، وبنك بيروت - الرياض ، وبنك حمصي ،
وبنك اترا ، الخ ...

ويقابل هذه اللوحة من الليبرالية التنافسية ، بصورة متوازية ، كما يقال ،
لوحة المؤسسات المصرفية الكبيرة التابعة للدولة التي تُعطيها المرحلة الحديثة
توسعاً طائغياً وخطابياً ؛ إذا أمكنني القول ، والتقريب الأخير للمصرف
المركزي السوري يوجه نحو هذا المقاوم الطريف، جهداً في التحليل والمراقبة
بودنا ان نتبين فيه لهجة « الحسبة » * في العصور الحديثة ا

الاخلاق والاشياء

تغير في المواقف ، وتغير في اساليب

القول . وانا لا اريد دليلاً عليه غير

لغات الاعمال ، المشابهة تماماً للغات الاوساط الاوروبية والاميركية والتي
تجلى في الصفحات المخصصة للبورصة ، في القاهرة والاسكندرية ودمشق او
في الصحف المخصصة . وتعدد الصحف الاقتصادية ليس سمة ذات مغزى ضئيل ؛
مجلة كوميرس دي ليفان (تجارة المشرق) لصاحبها كسروان لبكي في
بيروت ، وجريدة التجارة والبحرية . الصادرة في الاسكندرية ، (بالفرنسية)
والمجلة الاقتصادية والسياسية المصرية لصاحبها عادل ثابت (بالانجليزية) ، او
النشرات التي تصدرها المصارف بالفرنسية والانجليزية والعربية في القاهرة
وبيروت ، ومجموعة النشرات التي اصدرها بنك مصر الوطني تشكل مجموعة
وثائق جدمهمة ، وعميدة الصحف اليومية المصرية « الاهرام » شرعت في
اصدار عدد اقتصادي اسبوعي (٢٨) وفي الاعداد الاخيرة ، نجد مقالات
صادرة عن مالين يعتبر البعض منهم خبراء دوليين ، وهي شبيهة جداً بالمقالات
التي نجدها في منشوراتنا المتخصصة . ومشاعلها ذاتها هي متشابهة : دراسات
أسواق ، احصاءات ، مخاوف ضرائبية ، وتعليقات حول البورصة . وعلى
مسافة بضع صفحات ، نسمع هدير تدخل الدولة المتفجر أو المتسلل تحت

٢٨ « الاهرام الاقتصادي » ، رقم ١٧ ، في ١ كانون الثاني ١٩٥٩

الارض ، والاشارات الى « سوق الاوراق المالية » * الناشطة في القاهرة كما في الاسكندرية رغم فرض الدولة ضرائب في فترات متكررة ، أو في بيروت (٢٩) رغم ارتباط بالغ مع اسهم أجنبية ، واخيراً زاوية حول سوق الذهب وشارع الموسكي القديم ، ملأى بالنوادير ولكنها ظاهرة العناية .

اذ انه لا يزال هناك شارع الموسكي ، والشرق القديم - ساهرة لبنانيون ، مهربون كويتيون ، وكثيرون غيرهم في كل مكان تقريباً - وهذا لا يعني أن هذا الجو الطريف ليس غالباً مدمراً للأرباح ، وتقدر أملاك اللبنانيين في الخارج بمائتي مليون دولار . وتضع نادرة شعبية على المسرح بائعين متجولين ، يدعى احدهما مارون والثاني كاظم ، وهذا يدل على طائفتهم واصلمها . وفيما كنا يعملان في احد الادغال البعيدة في افريقيا ، اسرهما الزنوج المتوحشون وربطوهما الى احد الاعمدة بينما الماء يغلي في قدر كبيرة . فيبتهل مارون الى سيده بكفيا وكاظم يسلم امره اسيدنا الحسين ، ولكن زعيم اكلة لحوم البشر الذي كان يصفى اليهما يناديهما بلغة اشمونية : هو نفسه مهاجر من دير القمر !

ولبنان يبقى ملك التركيبات الكبرى حيث يستخدم كل شيء ، كما رأينا ، حتى اكثر العوامل حميمة : مثلاً التسليف العائلي . وكما تحول البنوك الكبيرة ، في هذا المركز المالي ، نفوذها الى طاقة نقدية ، كذلك تعمل العائلات اللبنانية الكبيرة ، وتشعباتها الكوزموبوليتية (الضاربة في اقطار الدنيا) تقوم سناً وظهيراً لها . وكل شيء يتم بكلمات تليفونية عبر المحيطات ، وتستخدم اللغة العامية بمثابة شيفرة ، بحيث لا يفهم الغرباء ، وهكذا تعقد في بيروت صفقة

(٢٩) حول بورصات الاموال في مصر ، انظر « النشرة الاقتصادية » ١٩٥٠ الجزء الثالث ص ٢٢ . وفي بيروت : ر ، برينجي : R. Pringuey سوق الاموال المنقولة في بيروت « اطروحة ، بيروت مطبوعة على الرونيو ، كل شكري المؤلف وللاستاذ . ديكرو Prof. B. Ducros

بيع قطن مصري بين تشيكوسلوفاكيا وفرنسا ، وتتم عمليات نقل عملة بين الاوراجواي والبرتغال . والقرار : الذي اتخذ مؤخراً ، بتأمين سرية المصارف يحمل هذه الامكانيات الرشيقة مساهمة الكثير من عمليات العطف والتواطؤ الاجنبيين ...

واشتركي على غط تولستوي ، مثل جنبلاط ، يبدو قاصياً جداً بالنسبة لهذه التصرفات الخلقية التي لا يمكن ، بالفعل ، الزعم بانها تمثل كل « الروح اللبنانية » (٣٠) . اذ ان اثرياء الهجرة انفسهم يظهرون عناداً رائعاً في التعلق بجذورهم الفلاحية . وهم يوظفون ثرواتهم في عمل كروم ذات جلالي باهظة التكاليف وفي تشييد فيلات جبلية . وغرس اشجار التفاح اصبح امراً رمزياً في لبنان مثلما كان غرس اشجار التوت في الماضي . وهذه الزراعة تستهدف الامواق العربية التي تمونها روح فينيقيا القديمة بالخدمات : مندججة ، الى حد ما ، مع مداها الجغرافي .

وهذه التطورات ، وفي الوقت ذاته هذه الديمومات ، تعطي الدليل على انه من واجب دراسة للانماط في الشرق التمييز بين الحقب والبيئات . فالنظام الليبرالي المنفتح ، الذي استطاب لبنان ليعيش فيه حتى الآن لا يشكل في ذاته غير بقعة يدور حولها الجدل من داخل ومن خارج (٣١) اما خارج هذه البقعة ، فان نظرة واحدة تلقى ، على اقتصاد الشرق الادنى ، حوالي حزيران ١٩٥٨ ، كانت كافية للتمييز بين بقعة يسيطر فيها تحدي الحكم التتني ، (الحكم التقنوقراطي) وهي العراق ، وبقعة تسيطر فيها المركزية الارادية ، وهي مصر ،

(٣٠) كمال جنبلاط « حقيقة الثورة اللبنانية » ، بيروت ، ١٩٥٩ ص ١٠ ، حول « العامل المركنتيلي » او « التجري » الذي يريد الغاءه في البلاد .

(٣١) محاورات كانت صحافة الجمهورية العربية المتحدة تعكس اصداها المشجعة منذ صيف ١٩٥٨ ، ولكن عادت للتأجج في دمشق في اتجاه معاكس هذه المرة .

وهذا التكوين قد تغير منذ ذلك الحين ، بسبب الثورة العراقية . وسوف يظل يتغير . على كل حال ، ليس بالوسع تمثله ، إلا بصورة مصطنعة ، في شكل فواصل عازلة بالغة الوضوح . فالأنماط الثلاثة تؤثر ، بصورة متغيرة ، في الفئات الثلاث ، وربما في رجوه السلوك الثلاثة .

والنظام الليبرالي يضرب بجذوره بعيداً في ماضي المدن في الشرق والحكم التنوocraticي (حكم المتفوقين تقنياً) سواء كانوا الفراعنة ، او اللورد كرومر او مجلس الاعمار ، يؤجج فرص نجاحه في بلدان أُلجئت الى الطفرات التحولية في التكنيك . ونظام الاقتصاد الموجه ، كما سبق لي القول ، يقوم بمثابة تعويض تقليدي عن مبالغ النظام الماركنتيلي (نظام سيطرة التجارة على الاقتصاد) ونواقصه .

والضرورة المشتركة للبناء تشمل العديد من وجوه التنوع وتتجه نحو تنسيق الوثيرة .. وفي لبنان ، يلاقي سلطان التجارة ، بواكير معارضة . وفي العراق لم تفسخ الثورة حتى الآن عقودها مع شركة الآسي بي سي^(٣٢) والتنظيم الاقتصادي المصري ، يعلن ، لعام ١٩٥٧ ، ان ٤٧ مليوناً من الجنيهات سوف توظف ، منها ٣٨ ، أي ٦٥ بالمائة في الصناعة وحدها . وفي الوقت ذاته ، نقرا في إحدى صحف القاهرة ، في الزاوية المخصصة للبورصة ان «الرأسمال المصري يهتم اكثر فاكثر بسوق الاوراق (الاسهم) المالية ، وقد بدأت توظيفاته تدخل في الحساب ؛ وتمر كز جهوده بصورة خاصة اكثر فاكثر على الصناعة ، لانه يعرف انها مدعوة لمستقبل باهر ، . ونقرأ ايضاً : « ان المهندس احمد عبود ، الذي حصل على قرض بالدولارات من بنك التصدير والاستيراد ، سوف يعمل على توسيع مصنع الاعمدة الكيماوية وزيادة الانتاج^(٣٣) » . تعليقات استبعد

(٣٢) ان بحث جميل سعيد ، « العراق الجديد » ، ١٩٥٨ ، وهو اول كتاب صدر بعد الثورة العراقية ، لم يتضمن اي هجوم على مجلس الاعمار . ومنذ ذلك الحين ، فقدت ميزانية المجلس استقلالها ، وذابت المؤسسة في ادارة حكومية موحدة .

(٣٣) صحيفة لايبورس الميجيسيان ١٢ تموز ١٩٥٨ .

نصها ، بسبب النقص في العناصر الكافية ، ولكن يتعمم علينا التأمل فيها .
وسوريا تحمل هذه التأثيرات الى ذروتها . فعبثاً هي تعمل على تصنيع نفسها ،
فهي تفاخر ايضاً بتقاليدها التجارية . وبين سوريا ومصر ، لا تنطبق نسبة عدد
السكان على نسبة التجارة الخارجية في البلدين : فان مصر تبيع واشتري نسبياً
أقل بكثير مما كانت سوريا تبيع وتشتري قبل الوحدة بين البلدين . ففي سنة
١٩٥٧ ، مثلاً ، بلغت صادرات سوريا ١٥٩ مليون دولار مقابل ٥٠٠ مليون
دولار فقط من الصادرات المصرية : أي نسبة واحد الى ثلاثة بينما تبلغ نسبة عدد
السكان في البلدين واحد الى خمسة . اما نسبة الصادرات فهي واحد الى اثنين
تماماً : ٢٥٠ مليوناً من الدولارات مقابل ٥٠٠ مليون . صحيح ان كل شيء
يتغير وان اتفاقيات المقاصة تفرض على التجار السوريين ضرورة ألا يشتروا إلا
من بلدان لم يصب ميزان مدفوعاتها بعجز ليس بالنسبة لسوريا وحدها ، وانما
مع مجموعة الجمهورية العربية المتحدة ، اي عملياً من بلدان اوربا الشرقية . ولا
يمكن تفسير هذا الشيء الا اذا كان بالامكان ارجاع سببه الى اتفاقيات المساعدة
الفنية ، وبالتالي ، الا اذا كان يندرج في نظام (٣٤) . ولكن هذا النظام يثير
احتجاجات التجارة القديمة .

وبالرغم من ان التقاليد المحلية ، والاتجاهات البسيكولوجية تجندها مناقبية
ترتكز على الاستصلاح والانعقاد ، فان عليها بالفعل ان تقوم بمصالحة مع
النظام السياسي في الوقت ذاته الذي تنزل فيه داخل اطار تقليدي وتعطي صورة
عن تجربة أريد لها ان تكون مقبولة . وفعالية العملية ، على كل حال ، سوف
تكون مرهونة بملاءمتها ، بصلاحتها . وذلك لان العمل ان يتوافق مع
ظروف البيئة التاريخية وان يماشى على أقرب ما يكون ، التعرجات التي تحدثها
في اللعبة الاقتصادية ، لعبة (العامل) المتغير الشرقي ، الذي يسهل كثيراً
الاحساس به ، ولكن يعسر كثيراً تحديده .

(٣٤) اتفاقات مصر مع اوربا الشرقية .

الاستحياء
امام الذات
ولكن بينما لا يسع البناء الشرقي ان
يؤسس تجارب معقولة إلا على دقة احكامه
بالنسبة الى ذاته ، فهو ينبغي البقاء وفياً للدروس

التي تلقاهما : الموازنة بين المبادلات ، والتأطر داخل السوق ، وتحاشي
التضخم المالي . واحتقاره ، الفطري على الأقل ، لطرائف مسلكه لا يعادله الا
عجز شريكه الاجنبي عن فهمها . فنظريونا الذين لم يعودوا يرون ، في بلادهم ،
ان توظيف الاموال هو النتيجة الإلزامية للادخار ، يطبقون دائماً هذه
القواعد المثيرة للعجب على البلدان الشرقية . وان اسباباً من التزمت في حساب
الموازنة ، كانت من جملة الأسباب التي أدت ، على ما يقال ، سنة ١٩٥٦ ،
الى رفض البنك الدولي للتمير والانماء منح القرض الذي طلبته مصر لانشاء السد
العالي . سبب صغير ونتائج ضخمة . فهناك اذن ، امام الاقتصاديين الشرقيين
والاوروبيين او على الاقل امام اكثرهم ضرورة قاهرة لتجديد شباب مخططات
التحليل .

ويكفي ، للاقتناع بذلك ، ان نفحص مسلك هذه البلدان اكثر بما نفحص
التفسير الذي تعطيه هي له . (٣٥) فهذه البلدان تقوم في البحث عن ذاتها . انه
سوقها في البيع والشراء . وانه لبحث اقتصادها الموجه . ومراحل العنف التي
يستفزعها الغربيون من وقت لا آخر تدخل في نطاق هذا البحث . والانطلاق
من جديد ، والصيد الحسن (مثل تأميم السويس وما تبعه) يدخلان كذلك
في هذا البحث . وبنطق اكثر بما يبدو : لان هذين الامرين يشكلان نوعاً من

(٣٥) علينا ان نحبي باهتمام مثل محاولة الدكتور يسري هلي مصطفى لتقدير المدى الذي
تطبق فيه مختلف طرق المحاسبة الوطنية على الواقع الاقتصادي الوطني (رسائل التخطيط القومي ،
رقم ٥١ ص ٣٥ وما يلي) . وانا لا استطيع هنا ان ادخل في التفاصيل التي يستدعيها تطور
الفكر الاقتصادي والتكنيك المالي في الشرق ، رغم الاهمية البالغة لهذه التشابكات الاجتماعية
والنفسانية .

انقلاب المرحلة الاستعمارية . ويعقب السيطرة ، فترة إبطال السيطرة ، الذي تتحقق ، قدر المستطاع ، بشئ باهظ يتبدى في صورة فورة للاحداث والعواطف ، والمخاطر ...

وهكذا يقدم العرب للآخرين ولأنفسهم الدليل على براعتهم في المحافظة على الوجود . والافتناع بالشهادة ليس ضرورياً لهم بأقل من جزوة الحرارة لوجود ثائر ضد عالم مفرط في قسوته . وعندما تكون النظرة من هذه الزاوية ، تبدو في المضاربة او الشدة في نظام الاقتصاد الموجه كطريقتين ، متحالفتين كانتا ام متنافستين ، لتجاوز النفعي ، او لاوضاء متطلباته الشديدة ، او لتلافي نواقصه . ومن هنا كان هذا السحر الذي يذهل الخصوم ، وهذه المبالغات التي تثير القلق عند الاصدقاء . ومن هنا البراعة في اقناع الآخرين ، من أضعفهم الى اقوامهم ، باتخاذ الحجة ، على التناوب ، من القوة الذاتية او من الضعف الذاتي . ومن هنا حسن الحيلة في استخدام هذا الاقتصاد المرتكز على المساعدة ، الذي نما بعد الحرب استخداماً بلغ حد جعله فريضة خلقية تلزم الذي يقدم المساعدة ، وفضح تقصيره واظهاره على انه اهانة ، وفي الوقت ذاته فضح الضالة النسبية للمعونة الملتقطة على هذه الصورة !

اذن ، فان فن الاقتصاد الحافل بالايماءات عند العرب أصدق في الوقت الحاضر من انظمتهم . وتحت وجوه السلوك المتناقضة ، التي تميز رجال اعمالهم الكبار ورجال دولتهم الكبار ، تطل النزعة الفريرية نحو شيء بوسعهم ان يبعث الدفء في الدروس العتيقة للعالم الخارجي وبالنسبة للعرب ، داخل المنافسات الحفية والوحشية التي لا يزالون ميدان رهانها اكثر منهم لاعبيها ، تجرد في ذلك الرغبة في ان ينقذوا ، بالالتحاء الى ذاتهم ، استنابيتهم طعم الحياة وأملاً تلغمه التأخيرات الخفيفة . وفي هذا ايضاً الرغبة في الهرب من اسلوب الآخرين في أجل قريب او بعيد ، وليس بوسع آمالنا إلا ان ترافقهم في هذه المحاولة . اذ ان نجاحها يعني ، بالنسبة اليهم كما بالنسبة اليها ، ان الانسان انتهى بان يسيطر على دلائله عبر الهزات المرعبة في العصر الصناعي .

الفضل الخامس

الارتقاء إلى التقنية أو انبعاث الشيء

لنذهب للبحث عن خلافات أخرى أو اتفاقات أخرى في موقع يمثل الكلاسيكية الكبيرة المنهارة : جوار باب زويلة ، في القاهرة .

ولبلوغ هذا المكان ، لا بد من المرور بشارع « تحت الربيع » الشعبي . ويشير الاسم إلى تلك الأبنية الفسيحة المتعددة الطوابق ، حيث كان يتحرك منذ القرون الوسطى ، شطر بكامله من العشيّة (ربيع) . واكثر هذه المساكن لم تعد تؤوي: احلام سيدات كبار مثل عائشة التيمورية . حتى ولا احلام البورجوازية المكبوتة التي تبرز حياتها فيما بين الحربين ، سلسلة روايات نجيب محفوظ . فالطبقة الاجتماعية الراقية قد هربت إلى الأحياء الحديثة ، تاركة للطبقة الشعبية الدنيا بؤس الاستمرار وسحر الولاء .

ها هي معروضات من التنك والقصدير ، بعضها مقصودة على شكل خيول ، تلعب الاطفال ، واخرى مصنوعة بالمقاييس المألوفة . وفي كل مكان ، تبدو صناعة حاذقة من محاولة استصلاح الحاجيات . وهي لا تزال تتلظى في محاريب

باب فخم^(١) او في زوايا الاسوار او في الأبهة الحربة البادية في « الحوانيت »
القديمية . فقد خلف مصنع للاحادية الخفيفة (الاخفاف) محلات بيع الشباشب
المغربية . وهنا ايضاً ، في ثنية من الجدران العتيقة ، يدح نجار موبيليا « روائعه »
لنا : مسجداً بكامله من الخشب و كعب في الاسكندرية . ويعرض امامنا باباً من
الجلد ذي الزخارف الدقيقة . فكأن بعض المواهب القديمة ، اذ تنكرت لها
الحياة الحديثة ، قد استمرت من البقاء في الاحياء الدنيا : حرف نافخ الزجاج ،
وناحت الرخام ، وحافر الخشب . ويدير النداف أدواته الغريبة ذات الشكل
الشبيه بالقيثارة ، كما لو كان أحد عازفي العصور القديمة . وأدنى من ذلك ايضاً
يضطرب عالم شبه طفيلي من الاشياء المجموعة من كل مكان والتي تستصلح
لأعادة استعمالها . وعلى بضعة خطوات من مسجد المؤيد او من الفخامة
الرومانية - البيزنطية البادية على باب زويلة ، تتلوى قساطل من الرصاص على
واجهات متأكلة . وتستخدم نفايات المدينة كوقود في أحد الحمامات المغربية ،
وكذلك لانضاج الفول المدمس المعد لإطعام ابناء الطبقة الدنيا الباحثين عن
أطياب الطعام بما يثير امام البلدية مشكلة لم تحل حتى الان ، ومنذ قبل الفجر ،
سوف تذهب عربات الباعة من هذه الامكنة المهيبه والبائسة حيث يجسر ، في
مدى جد ضيق ، طبيب شعبي ، خبير بجميع الأدوية ، واستاذ من الأزهر ،
يقطن في احدى خبيثات الأسوار ، وآلاف السامرة ، وبائعو الحاجيات العتيقة ،
وحراس قصر احد التجار^(٢) المتسولون ، وجواهر المارة التي لا ينقطع سيلها
ليلاً ولا نهاراً .

(١) هذه المحاريب في زويلة تدعى فجوات ، وهو تعبير رمزي ، على نحو ما ، وسوف نعود
اليه في بحثنا (انظر ص ٢٥٦ من النص الفرنسي التالية) .
(٢) قصر جمال الدين ابو الذهب (من القرن السابع عشر) . انظر « بوتني » Pauty في
قصور ومنازل من اليهود الاسلامية في القاهرة ص . ٥٦

كلمات وأناس

هذا الفقر المتعايل ، المختبىء تحت

سقيفات الماضي ، يشهد على حيوية

وطبيعة لحظتها بدقة الرواية المصرية الحديثة . وليس أكيداً ان اطاره هو ومنزل الموت المحقق ، (٣) . اذ ان هذه البشرية ، بالرغم من اطارها القائم على الخراب الفخم ، وعلى الرغم من ملامح الانحطاط العديدة ، تنفذ نفسها بالاستمرار والحصب . وهي تتبع مجرى التاريخ الشرقي . ولكن كم تبرز متضادة مع النماذج التي تغذيها الثورة التقنية ، ابناء الآلة هؤلاء ، الذين يضع محمد صدقي على المسرح مراراتهم التي بدأت تتعزز للقتال (٤) وانها ، بالتأكيد ، لمشكلة بالنسبة لحكومات هذه البلدان ان تحسن تحديد مكان الجماهير العمالية من الطراز الحديث والجماهير الأوسع التي يستمر الماضي فيها ، وان تحدد الواحدة منها بالنسبة للآخرى . وهذا الاستمرار في البقاء أليس توسيياً ؟ ام انه يسمح باطلاة قوى لم تزل غير مستكملة ؟ اية من هذه الجماهير هي الاكثر تمثيلاً ، او اذا شئنا بصورة افضل ، ايتها الاكثر دلالة على زخم المجموعة البشرية المعنية في المكان والفترة الراهنين ؟ اذ انه اذا كانت الصيرورة الصناعية لم تعد موضع شك بالنسبة لمجتمعنا ، فان مراحلها ، وانعطافاتها ، وانحرافاتنا المحتملة ، وصلاحيات النماذج الانسانية التي تجندها ، هي كلها رهن بشخصية البيئة . ومن هنا كانت الافتراضات الصعبة ، وعمليات الاختيار الخطرة التي تقع على عاتق رجل الدولة . ومن هنا كان تردد عالم الاجتماع امام مادة لم يستكشف منها إلا أقلها . ومن زاوية التاريخ ، وعلم النفس ، تلزم معرفة كيف استطاعت هذه الأصول الفلاحية والحرفية ان تولد مواقف صناعية ؛ حيث يتاح للفهام ان تدرك اتصال الزمان والمكان وربما الفئة . ومعضلة من هذا النوع ، في صميم قرنتنا العشرين ؛ لم توضح البتة .

(٣) ولا بد من تذكر الوصف المزلزل والمثير للاشمزاز الذي كتبه كوسيري Cossery

1958

(٤) « الانفار » : ١٩٥٦ ، « الأيدي الحسنة ١٩٥٨ .

ولكن ما الذي حدث في مصر وسوريا حتى تخلي الكفاءة اليدوية في النسيج مكانها للصناعة القطنية؟ أهو استبدال ام تحول؟ نحن لا نعرف ويا للأسف شيئاً عن هذا الامر (٥)، ان علم الاجتماع في الشرق، لم يبلغ بعد مرحلة القلق المتجه نحو الدراسات الأحادية المواضيع. ولكن ربما يتحقق هذا العمل في السنين المقبلة (٦) « فاللقاءات » بين حرفية الماضي ومصنع الحاضر ليست، على كل حال، نادرة. وليس خالياً من الأهمية ان تبدو خطة للتصنيع مثل خطة سوريا عاملة على البحث عن هذه اللقاءات بصورة منظمة.

وسواء أكانت لقاءات او عمليات انفصام، فان ذلك لا يقلل من حقيقة ان الانتقال الى التقنية الآلية بشكل قفزة مفاجئة ونكاد نقول تحولاً أساسياً. وان المضاربة الحسابية القديمة، ودهاء التاجر والصيرفي لم يكونا يتفصلان عن النظام الرأسمالي من النمط الحديث الا بقدر حذرهما من علم الاحتمالات. بينما يفصل الابداع التقني الصناعة الحرفية، وهي ابنة عم الفن، عن الانتاج الصناعي. ويزداد اتساعاً بعد الشقة بين الظروف التاريخية التي فرضت فيها الصناعة الآلية نفسها على الشرق: وقد كانت ظروف المعاهدات الاستعمارية. فالصناعة الشرقية لم تستطع ان تنمو إلا فوق طمي الانهيار المتحلل.

واللغة تعكس هذه الظاهرة (٧). فاللغة العربية تحس بالضيق في التعبير عن التقنية. وهي تلجأ الى تعريب (مفردات) تستعيرها من لغات اوروبية. وفي المنشورات المحلية التي يلجأ اليها هذا البحث عن طيب خاطر، تعود دون كلل كلمات نابية في سمع الأذن المعتادة على الفصحى مثل: « تكنيكي »، « وتقني » « وميكانيكي » ..

(٥) لنشر مع ذلك، لتحقيقات حسن الساعاني، في الميدان الصناعي.

(٦) خاصة اذا تركز تعاون علمي صحيح بين مؤسسات علمية محلية واجنبية.

(٧) حول كلمتي « الفن » و « الآلة » انظر لسان العرب، المجلد الخامس.

وصحيح ان اللغة القديمة كانت تشتمل على مفرد يستعمل اليوم احياناً بمعنى «التكنيك» ولكن بصورة اكثر اختصاراً ، للدلالة على معنى الفن . انها ازدواجية حافلة بالدروس . فالتمييز يظل غامضاً بين الفني والحرفي والصناعي . اذ ماذا تعني ، بالفعل كلمة « فن » ؟ في الأصل ، لا شيء غير « ضرب » وصيغة و « شكل » ، فرجل بفنين ، « Rajulun bi - fannin » هو رجل صناع ، « حاذق » وخاصة حاذق باللغة : مما يسمح من بعض النواحي ، لعبقرية مثل هذه تتعشق الكلمة ، أن تتدرج نحو المعاني التقنية حقاً : هذا الرجل هو حاذق في تقنيته (اي في فنه) التي هي اللغة . ومن هنا كانت عبارة « فنان » ، « يا للمعجزة ا » . ولربما يجب ايضاً الصعود الى علم المصادر الكلمات اكثر حسية : « فن » بمعنى « غصن » ، او « فنن » . هل تقوم هذه الصورة في أساس الاشتقاقات ؟ هل الغصن الذي يتفرع أعطى معنى التنوع والتقنن ؟ نحن لا نعلم من الامر شيئاً .

ويستعملون اليوم مفرداً آخر للدلالة على الاداة : انه مفرد « الآلة » . وهو يعود الى جذر لا نهاية ، تقريباً ، لمعانيه ومرادفاتها . آلة : المعنى المادي الاول الذي يمكن العثور عليه لهذا المفرد هو معنى « عمد الحية الخشي » ، ومن هناك يجري الانتقال بسهولة : الى كلمة « الآلة » بمعنى « الماكينة » . وفي الشرق ، تُسمع في ايامنا الصفة « آلي » تدمغ شيئاً « ميكانيكياً » ، أي شيئاً مادياً محتقراً ، او حتى مادي الطبيعة ، نقيض « وظيفي » او « عضوي » . ولنلاحظ ، مع ذلك ، انهم يستعملون بانتظام ، تقريباً ، عبارات مأخوذة من اللغات الغربية ، في هذه الكتابات التي تم بدورها عن مهارة فائقة ، اذ انه حتى الابحاث حول التنسيق الصناعي تقدم اليوم في المؤتمرات باللغة العربية . في الأمر اذن إبدال وزيادات ، اكثر مما فيه مطابقة كلمات سابقة .

والانقطاع في الكلام يعكس الانقطاع في الشيء ولا يلزم ان ندهش لهذا

الامر . فالصناعة الحديثة لم تظهر في الشرق مولدة لانتاج عمولة تبعاته ، ومنفعل لا مفروض ، إلا مدة طويلة بعد ان فرضت نفسها بشكل منتجات . بل ويمكن القول ان التطور أبعد من ان يكون قد اصبح مستكملاً ، بل وأبعد من ان يكون قد بوشر به . ومن هذه الناحية ، ايضاً ، يبدو تاريخ الشرق كما لو كان مقلوباً بالنسبة لتاريخ الغرب المعاصر . فان هذا الاخير يبدأ ، على وجه الضبط ، بثورة تقنية ، ليؤسس ، تدريجياً بعد ذلك ، وحدة وطنية ، بل وحدات اقتصادية ، ثم ينتقل الى رؤية إعادة الترتيب الاجتماعي ، ذاهباً دائماً من الأكثر حسية الى الأكثر مثالية ومن القوة الى العدل . أما بالنسبة للشرق ، فالأمر على العكس ، تماماً . فهو يبدأ بالمثل العليا ، او على الاقل بالمطالبة بالعدل . ويكاد يصح على هذا التاريخ الشرقي ما قاله ماركس عن فلسفة هيغل : « يجب قلبها رأساً على عقب ، لأنها تمشي على رأسها » . وان بعضاً من بلدان المنطقة تحاول ان تحقق هذا القلب . وهكذا فإن الانسان الشرقي لا ينطلق من التقنية ، وانما ينزع نحو التقنية ، فيكتسب التقنية . ولكن ، في الاصل ، هو يبدو لنا ، على عكس الانسان الغربي ، الذي هو انسان عامل Homo Faber (انسان صناع) هو يبدو لنا مرتبطاً بقيم اخرى . فالشرقي ، هو ، او بالأحرى ، كان اللاعامل le non febrere القليل العمل . ولم يكن رب العمل الاوربي يكف عن رميه بالانتقادات ، التي كانت ، بالفعل ، عمليات ادانة . ولا شك في ان القوة « الآلية » الكامنة في العامل المصري كانت ، منذ زمن طويل ، موضوع تقدير . ولكن قدرته على المبادرة ، كان يفترض انها تنطفيء منذ الحدائة (٨) ! ونحن نعرف ان ملاحظات من هذا النوع ، متحدرة من تحيز ، هو نفسه مرتكز على مغالطة سوسيولوجية ، قد غذت تدابير من التمييز العنصري ، في الشرق ،

(٨) عباد باشا : « اولية القوى الآلية عند المرق المصري » نشرة معهد الدراسات المصرية الساسلة الثالثة ، العدد ٢ ص ٢٠٥ وما يلي . ويعزى الطراز نفسه من الملاحظات الى المنسينيور لاليجيري ، على الطرف الآخر من عالم البحر المتوسط .

وفي مواضع اخرى ، حتى يومنا هذا ...

ومهما كان الأمر ، ففي عهد كرومر ، حيث يلاحظ رسمياً (٩) تفسخ المجتمع الحرفي القديم ، كانت المؤهلات والكفاءات العالية تُطلب من الغريب . من المالطي واليوناني ، اللذين لا تزال نجدهما تقريباً في كل مكان ، وحتى من الايطالي . ودور هذا الاخير ، الذي يمكن تحديده تاريخياً ، يستحق لحظة من الانتباه . ففي القسم الاول من القرن ، في مصر ، « عقد » العامل الايطالي ، اذا صح القول ، « الارتباط » مع التقاليد الحرفية ، في البلاد . فهو الذي بنى المدينة الحديثة في القاهرة وطلاها بهذه الالوان الطلائية الصفراء المستوحاة من جنوى او من تورينو . وقد ترك الكثير من التلامذة . فكثيرون من الصناعيين الصغار الحاليين ، من ذوي العمر الناضج ، يتباهون بانهم تعلموا المهنة الى جانب معلم اجنبي . والذوق الايطالي في المفروشات ، والبناء ، والزجاجيات قد استمر حتى الحرب العالمية الثانية . اما تأثير « الوكلاء » فقد كان من مستوى آخر ، ومن فترة امتدت الى ما بعد الحرب . مستشارون بريطانيون متوارون ، ومهندسون او مفكرون فرنسيون ، وكل الأناس الذين يعتمرون الطربوش ، ويتقنون فن اللياقة الاجتماعية ، ويقيئون علاقات تفاهم وود مع البورجوازية المحلية ، ويقبضون اجوراً باهظة ، ويمسنون استقبال الناس . ويدعمهم معنوياً ، اذا صح القول ، نفوذ الدول المسيطرة . بنوك في الميدان ، واساطيل ليست بعيدة ، والقناة التي تستثير الاحلام ... هذا العالم ، الذي مات او كاد منذ عام ١٩٤٠ ، قد فقد قلته الاخيرة عند التأميم عام ١٩٥٦ . وبين الفترتين ، بدأ عهد الخبير* . فمصر ترسل موظفيها الى البلدان الشقيقة ، وتستورد « الخبير »* الاجنبي . وهذا الاخير لم يعد له البتة رابطة مع المجتمع المحلي الذي تحول ، بكل تأكيد . وتجربته الانسانية مع البلد (الذي يعيش فيه تقتصر على العموم على علاقات زمالة

(٩) تقرير اللورد كرومر لسنة ١٩٠٤ ، القاهرة ، ١٩٠٥ يحتوي نظرات تنبؤية حول هذا

الموضوع .

بسيطة مع الخبير " الشرقي . ولا يبدو على الحكومة التي تستعين به انها راغبة في توسيع هذه العلاقات . وبلاد مثل مصر ، رغم روح الود الوراثة التي تميزها ، تتجه شيئاً فشيئاً نحو عزل الفنيين المستوردين ، فيما يشبه التدبير الوقائي . فهناك سعي لدعجهم في نوع من آلية تتسم بضغط الأزرار : فلتلبية هذه الحاجة او تلك يضغط على زر : الخبير يعمل ، ويقبض أجره . وعلى هذا النحو ، يستطيع البلد ان يستورد كل التقنية التي يريد ، والاناس التقنية على قدر ما يشتهي ، دون ان يبذل من نفسه اكثر مما يجب . ولكنه يبذل نفسه ولا يميل شيئاً لتكوين الفنيين من ابنائه .

وإذا سألت هؤلاء الفنيين الشرقيين تلاحظ انهم قلما يرضون عن انفسهم . انهم يعتبرون ان بلدانهم قد دخلت مرحلة انتقالية ، مولدة ضيقاً بصورونه اكثر الاحيان بلهجة متشائمة . ولا يزال يتردد في سمعي قول احد الصناعيين العراقيين وهو يستنكر الاضرار التي لحقت بالجيل الشاب في بلده بسبب اهتمامه بالشؤون التقنية . وقد قال لي ان كلية الهندسة الفخمة ظلت زمنياً طويلاً لا تجتذب غير اليتامى ! وبالفعل ، ففي كل نظام قائم على وراثة الذكور ، يعهد احياناً كثيرة الى اليتيم ، او ابن « المرأة الاخرى » ، بكل الاعمال الوضيعة ... ولنصغ الى هذا المهندس اللبناني . انه يأسف للاستخدام السيء الذي يصيب اولئك الذين يتخرجون كل عام من معهد الهندسة في بيروت . وقد حققت مطالبهم في نقاط عديدة . فقد لاحظ انه ، في بلد ينقصه مهندسون معماريون ، كانوا يستغنون عنهم في تشييد عدة أبنية ، كانت تشكل اخطاراً على العائلات التي تقطنها . وقد توصل المهندسون الى الفوز باحتكار عمليات البناء بصفقتهم معماريين . انما في الآونة الحاضرة ، عادت اللامساواة الى الظهور : فان الاقبال على طلب البعض منهم اكبر منه على البعض الاخر . فانتهى الأمر بتخصيص نصيب سنوي من الابنية (للمهندسين الناجحين) . ومما يؤسف له ، ان البعض من هؤلاء الذين « يركض » الناس وراءهم ، اصبحوا يجنون المال الوفير من تواقيعهم ...

تقنية ، ومطالب مهنية من جانب ، ومقاومة وطرق تحايل خاصة بالبيئة :
 اننا ندرك هنا الصميم الحي من أحد مواطن الصراع في الشرق الحاضر فقد
 رأينا ان المهندس ليس مرتاحاً : ربما بالذات لان تكونه الثقافي ومثله الاعلى
 يبعده عن مجتمعه وحتى ، في الحالات القصوى ، ربما هو لا يعترف بمجتمعه .
 ومجتمعه لم يعد يفهمه . وقد ابرزت رواية عراقية ناضحة بالألم « اليد والماء
 والارض » (١٠) ، صدرت بعد عقد معاهدة بورتسموث بقليل (١٩٤٨) المحاولة
 اليائسة التي قام بها بعض الشبان الذين انطلقوا لاصلاح بلادهم ، واخيراً الهزيمة التي
 منوا بها . وهناك ، يحدثونك عن البطالة المؤسفة التي يتخبط فيها حملة الشهادات
 العليا المتخرجون حديثاً من جامعات اجنبية وانا افكر باحدم وهو خريج
 معهد البوليتيكنيك فاصبح وزيراً حقاً ، ولكنه ، بالفعل لم يستطع ان
 يبدع في بلده ، شيئاً بمستوى ثقافته . واذا كان بالامكان القول ، انسياقاً مع
 احد المعاني ان الثورة العسكرية تمثل ، خاصة في مصر ، ارتقاء طبقة شبيهة « في
 دورها بطبقة البورجوازي والفني على السواء » ، فاننا لم نرَ بعد انتصار
 « المهندس » في اية بقعة ... وانها لظاهرة ذات مغزى ان نرى ان النشاطية
 والسلطان الحقيقي لا يزالان يختاران دروباً اخرى .

معدات ومناظر
 يضع الغلاف الخارجي لاحد
 الكتب التي صدرت حديثاً صورة
 مكاري جنباً الى جنب مع صورة مندلة (آلة تمتع النفط من البئر Derrick) .
 واللوحة التي نشرت بمناسبة انشاء معمل الصلب في حلوان تنصب مداخن مصانع
 مثيرة للحماس . والمستندات المنشورة في العراق ، بمناسبة « اسبوع التنمية في
 العراق » وكراريس الدعاية لشركة الارامكو تستطير امثال هذه الوجوه من
 الاستيحاء . . . والتناقض بين البدوي ، المعتم بالكوفية والعقال وآلات المصنع
 المعقدة اصبح كلاسيكياً . انه احدى الصور الموجزة البصرية الشائعة عن هذه

(١٠) ذر النون ايوب ، الذي عاد الى بلاده ، بعد القطاع طويل في المنفى .

البلدان وهذه الادمغة . ويقابل عالم الانحاء والتجميل الرخيص عالم القضيبي
الحديدي والخط العسكري : زوايا ، وبراعي ، ودقة وأسرار على السواء من
جانب ما كينة ، ومن الجانب الآخر الزخرف العربي . ان الحضارة الصناعية
ترسخ فناً كوفياً جديداً في الشرق الحاضر !

وهي لا تأتي فقط بامضاء او بلغة وانما بالطبع هي تحمل ايضاً اشياء . وفي
باديء الامر لا تُفقه هذه الحضارة إلا على صورة اجساد . اولاً لانها على هذا
الشكل ، قد فرضت نفسها مع التوسع الاوربي ، آتية من الخارج ، قادمة من
البعيد . ولكن ايضاً لانها تطلبت من الحساسية الشرقية ، شبهة نحو الاشياء
الصلدة اذا صح القول ، يشتد عنفها على مدى كتبها الطويل .

وهذه « الجسدية » ليست غائبة ابداً عن الاسلام ؛ وربما هي تسيطر حتى
على نظريته في العقود . وانني أراها في النزعة الحاضرة لاقامة المعارض . وانا
هنا أفكر بمعرض دمشق . وانا افكر بالمظاهرات التي تنظم ، دون انقطاع ، في
حديقة الجزيرة بالقاهرة . وهذه المعارض تنبسط امام الانظار كحدائق الحيوان ،
فتعرض فيها وتروض حاجيات العالم الصناعي . انما ، بعد اغلاق الابواب ،
يندر ان يحمل المعارض دبه . وكالما بدا الصنف اتيقاً ، معقداً ، وشهياً ، كلما
أظهر صاحب السلطان المحلي رغبة في اكتسابه . وهكذا فهو يحتفظ بمعدات
مرتفعة التكاليف ، احياناً لا فائدة مباشرة منها . مثال ذلك آلات
للاحصاء الالكتروني . ومثال ذلك آلات التحليل الطيفي . والاتحاد
السوفياتي قدم مؤخراً « مفاعلاً ذرياً » للابحاث للجمهورية العربية المتحدة
وان أحد مواد الطعم التي يلوح بها (الاتحاد السوفياتي) للحلول محل الولايات
المتحدة ، أو التي تشرعها اليابان للتسلل الى سوق مشتركة آسيوية افريقية ، هي
بالذات قضية العودة الى نظام المقايضة : مقايضة الآلات بالقطن ، التقليل من

استعمال المال في دورة التعامل ، التقليل من استعمال العملات النقدية ، او ، اذا
تطلعنا بعمق أكثر ، تشكل الآلة « الدلالة » او « النقد »

وفي اتجاه معاكس ، بدأت البلدان العربية بعرض منتجاتها في الخارج .
مثال ذلك (معروضاتها) في بروكسيل ، صيف ١٩٥٨ . وقد كانت أجنحتها
مجمعة في كتلة واحدة تحتل ١٥٠٠ متراً مربعاً : مثلما كان للمكسيك ، وعلى
بنود التصنيف العام الاثني والخمسين ، قدمت مصر ٢٣ بنداً ، وسوريا ثلاثة
عشر ، والعراق تسعة ، والاردن سبعة ، واذا كان انتاج التبغ أهم بصورة
خاصة العارضين ، فان فئات مثل : الدباغة الصناعية ، والاقمشة ، وصناعة
التعدين ، والصناعة الكيماوية ، كانت تبسط باعتزاز بحق أحدث مظاهر
التقدم (١١) .

ولس تشوقت هذه الحمية المندفعة من الوهلة الاولى نحو قسم التقنية ، فان
ذلك قد يبعث القلق في نفس الاقتصادي ، ولكنه لا يدهش المؤرخ . وعلى العكس ،
فان هذه البلدان ، بالتأكيد ، مصلحة في تجديد مسلكها ، دون أن تدع
نفسها تحت ضغط الشيء الذي نجح في مواضع أخرى : حذر فلاحي ، وبطء
بورجوازي صغير . ولكن الذي يستوقفني أكثر هو الظاهرة البسيكولوجية ،
القادمة من بعيد ، والتي تتأكد في هذا الاندفاع نحو جسد الآلة ومصيرها .

اذ ان الكثير من المعدات هي الزامية ، ووجودها ذاته يحرك حولها أمواجاً
من الابداع الصناعي ، وهي تتضمن قيمة التربة ، قيمة التحريض . انها تخلق
سلاسل (تحركات) جديدة في حياة البلد . ولهذا السبب فان على كل درس
لهذه التقنيات أن يبدأ بمجرد المعدات التي تتكدر في هذا البلد ، بما فيها

(١١) وثائق أمالة سر المعرض ، التي وضعت بتصرفي عن تكريم .

التجهيزات العسكرية ، وهذا الجرد لن يلتفت فقط الى الاداة (الكاملة) وانما الى قطعها واجزائها . اذ ان القطع تهم كثيراً ، فان الاداة تسقط اذا لم يكن بالوسع تغيير هذه القطعة التفصيلية او تلك ، في مدة معينة من الزمن . وبعد زمن طويل من الانقطاع الذي حدث عقب عام ١٩٥٦ ، بقيت المعدات الغربية على حظها بالبقاء لانها كانت مرفقة باحتياطي من قطعها : ففي السوق لم يكند يوجد غير قطع من اصل غربي (فرنسي ، او انجليزي ، او اميركي) . وقد نتج عن ذلك ببطء في استيراد معدات أخرى . وفي هذه القضية بالذات ، فان الاقتصاد الغربي ، يبدي المقاومة في سوق القاهرة في هذه الايام بفضل ميوعته (١٢)

ومع الزمن ، قام الشيء الصناعي ، الذي يتمتع هو ذاته بالمبادرة ، بتجديد المشهد ، بالطبع . كانت المدن اول ما اصاب . ففي القاهرة والاسكندرية ، ودمشق ، وبيروت ، وحلب تنمو ضواحي صناعية ، ولكن وجهها العمراني يجهد هو ايضاً في الاتجاه نحو تقنية من احدث طراز .

وبعد الآن ، اصبح للجزيرة في القاهرة برج ايفلها : بناء من الباطون ساحق كبرج الناقوس ، يبدو معداً لغاية كبيرة وخفية ، انه ، على كل حال ، اعلان عن ارادة تقنية : وكذلك كان برج ايفلنا الذي كان سمة وشارة لصناعة التعدين في نهاية قرننا ، ونحو المصب يتوثب من النيل دفق هائل من الماء : انه مربع « الفونتانا » الذي يقلد (أحد مشاهد) جنيف ، وفي غوطة دمشق ترتفع مداخن المصانع : بين اشجار المشمش ، وعندما تدخل المدينة ، تستقبلك إثر جنائن بردى ، جادة مزهورة ، خططها ايكوشار ، يحف بها ميدان المعرض الفسيح

(١٢) ان هذه الكلمة ، غير المستحبة بحد ذاتها ، تسمى اليها فوق ذلك المعاني التي تعطىها اياها البسيكولوجيا السارترية . ولكن « الميوعة » هي عامل اقتصادي قوي : بالوسع البحث عن تفسيرات عدة له ، على الصعيد الثقافي .

الذي يتقدم جامع السلطان سليم .

ونجد التحولات نفسها في بغداد ، فهذه المدينة التي كانت زمناً طويلاً ،
احد أطراف الدنيا ، اصبحت محطة كبيرة للطيران . وفي شارع الرشيد ،
يتصدك عند كل خمسين متراً مكتب لاحدى شركات الطيران : يبيع الهروب
كاحدى جنيات العصر الحديث . وواجهات هذه (الشركات) تتناوب مع
واجهات المخازن الكبيرة . واكثرها اناقة يعرض عليك ، في الواجهات ملابس
من تفصيل باريس ، وبالقرب منها تماثلاً اعلانات دور السينما . وسوق البنوك
ينصب جدرانه الامامية ، ومنها الجدار الامامى لبنك الرافدين ، الذي تقولب
بأكمله على شكل خليات النحل ليحمي داخل البناء من الشمس ، بالطبع ، هذه
الطبقة الاخيرة من الصور لا تخفى الطبقات السابقة : في البعيد التخطيط العمراني
الأول ، الذي كان عثمانياً ؛ ثم أقرب نجد طرازاً استعماريّاً بشعاً ، نصف
انجليزي ، نصف هندي ، نصف الماني من مونيخ وأخيراً — رانا هنا اميل
للتبسيط — السيل المتدفق بعد حربنا الأخيرة ، والذي لا يزال هنا ملجوماً
بالماضي ؛ ولكنه يتدفق ظافراً الى ما وراء الباب الشرقي نحو دجلة ، في صورة
دارات متشابهة كلها .

والعالم الصناعي لا ينتصر فقط بالاشكال الخارجية للابنية ، انه يفزو طرق
اللباس . والعلاج ، والطبخ . انه يضخم نسبة الأغذية المستوردة من البعيد ،
« والمعلبة » او « المرضية » ، كما يقولون ، فمصر لم تبدأ بانتاج الأطعمة المحفوظة
الا في عام ١٩٣٠ ، وكثير من رجال الاقتصاد قد ساورهم القلق من جراء
ذلك فهم يقولون : اي تناقض غريب في السعي لانتاج اطعمة محفوظة في هذه
البلاد التي تنتج الوفير من الاطعمة الخضراء ، والتي يمكن القول ان الارض ،
تتفجر فيها ، مرتين في العام ، بصورة نيولولوز (المادة الليفية العضوية الرئيسية
التي يتألف منها القطن — المترجم) ، والتي يتلىء فيها الجمل نفسه حتى تنتفخ

الارتقاء المتزايد لكليات العلوم، ومعاهد الهندسة ، واشتراك الشرقيين المحسوس في حلقات دراسية علمية تدور حول مواضيع شاقة، كعلم القيادة الأوتوماتيكية والعلوم الذرية (١٤)؛ والبحث العلمي والموازنات التي تخصص له : ضخمة نسبياً في بلد مثل مصر .

من المؤكد ان البلدان العربية الاكثر تقدماً قد سلكت منعطفاً نحو شيء لم يكن يفرض نفسه بعد ذاته ، لان الضرورات لا تظهر الا بامعان الروية والنضج وبالتفكير القادر على التمييز ، حتى في التقدم المادي ، بين النصيب العائد للشيء الذي يضطلع به ويؤخذ على العاتق والنصيب العائد للشيء الذي يتلقى مجاناً ، (ولو كان هذا الشيء المجاني يكلف كثيراً في النهاية) . وان مفهوماً من هذا الضرب ، يعيد بناء الواقع بعمليات اقتراب تزداد حصة شيئاً فشيئاً ، يعبر عنه ، في علم الاقتصاد بالتخطيط ، وفي العلم بالبحث ، وهذان الجانبان المتوازيان ، قد تم جلاؤها كلاهما ، بوضوح في المقال الافتتاحي للمجلة القيمة « المجلة » (١٥) . ومؤلف هذه الدراسة الهامة يحرص على رفض رؤية تتشبه اكثر مما يجب بالتطبيقات وتضحى بالاساس النظري : وهذا الاتجاه ، بالفعل ، هو الذي تلزمنا محاربتة في الشرق ، لان المذهب النفمي يشكل فيه اكثر الاحيان ، نطاً موازياً للمواقف القديمة القائمة على القدورية والاتكالية ، وفي اليوم الذي يتغلغل فيه هذا الموقف النير أكثر فأكثر في صميم الواقع ، وفي اليوم الذي ترافق فيه بحكمة البحوث في العلوم المضبوطة ،

.....
١٤) في المؤتمر الثاني للطاقة الذرية ، الذي انعقد في جنيف عام ١٩٥٨ ، كان اسهام الشرقيين هاماً . والبعض من ارائهم أدى بالبروفسور فرانسيس بيرن الى اتخاذ موقف .

١٥) ابراهيم حلمي عبد الرحمن « الثورة العلمية الكبرى وموقفنا منها » ص ٥٣ وما يلي . ويدير هذا العالم اليوم المجلس المصري لخطة التنمية . وانا مدين له تكريمه بتزويدي بمجموعة « الرسائل » التي ينشرها ، وبمطارحة هامة في أيلول الماضي ،

البحوث في العلوم الانسانية ، تكون خطوة حاسمة قد جرى اجتيازها (١٦) ...
ومهما كان الامر ، وبمحصر موضوعنا في العلوم المضبوطة ، نستطيع ان نلاحظ
ارتقاءً منوعاً تبعاً للمادة وللبلدان . فالاونيسكو تنشر بصورة دورية ملخص
تحليلياً لهذه الآثار . وقد قمت ، على سبيل التسلية ، بأحصائها حسب الفئات
المختلفة . فوصلت لسنة ١٩٥٥ ، وهي فترة قد تم تجاوزها الى الرقم المرتفع
٦٩٢ دراسة نشرت في الشرق حول مواضيع علمية وتقنية .

علوم عامة	١٣ دراسة
علم فلك وفيزياء الأرض	١١
فيزياء تطبيقية	١٠
كيمياء	٤٧
علوم جيولوجية	٣٨
بيولوجيا	٦٤
علوم طبية	٣٥٥ (وهي مهنة قديمة في البيئة)
علوم زراعية وبيطرية	١٣٩ (١٧)

وبالامكان إكمال التحقيق بالتثبت مما اذا كان الباحثون المحليون يسجلون
شهادات اختراع . وقد استقيمت المعلومات من مصادرها المحلية . وقيل انه لا
يوجد (مخترعون من أبناء البلاد) . ففي لبنان ، حيث كل الناس يبحثون

(١٦) كثير من هذه البلدان تؤسس أو تنمي ماهد للعلوم الاجتماعية بمساعدة الاونسكو .
والعناية التي توجه للعلوم الاجتماعية هي اختبار حاسم للتنمية .

(١٧) « ملخصات من المقالات العلمية والتقنية »

« Abstracts of Scientific and Technical Papers »

منشورات الاونيسكو عن عام ١٩٥٥ ، وهذا المركز الوثائقي العلمي في الدقي اصبح اليوم
مصرياً بحثاً وبعدها أن كان يعمل في الاتجاهين .

كعها بذة قانون ، وحيث يضعون دائماً الحجة في جانبهم ، ترد الاكثوية الساحقة من هذه الشهادات من قبل الاجانب . ولكن هناك أيضاً بعض الاختراعات المحلية : مثلاً طريقة لاغلاق قناني الويسكي : هذا الامر ليس موضوعاً للاحتقار ، فنحن أيضاً عندنا مباراة « ليبين »* ويهيم التقنية ، في الاصل ، ان تبدأ بالاشياء الصغيرة . وقد أودع مخترع آخر نموذج بطاقة بريدية للعجاج الى مكة المكرمة : فالناس يرسلون دائماً تمنياتهم في جميع المناسبات الكبيرة في الحياة ، وهذا اللبناني الفطن قد وجد صيغة درت عليه ، دون ريب ، ارباحاً كبيرة . ولكنهم يدلون ايضاً ، في النبطية ، البلدة الشيعية ، على ضريح مهاجر** من عائلة الصباح (١٨) اكتسب القاباً عالية في الولايات المتحدة بتسجيل العديد من الاختراعات في الحقل الصناعي ، وفي الجدل الذي يثيره فكري أباطة ضد جامعة الأزهر ، ينحى باللائمة على التربية التقليدية لأنها تعقم نشأناً قادراً على أن ينجح بصورة باهرة في الخارج ، في الميدان العلمي ، كما في الميادين الأخرى : وهو يذكر أسماء العديد من الفنانين المصريين الذين شقوا طريقهم في العالم الفسيح ، وهو بذلك ، يفتح امام بحثنا دروباً لا يستطيع أن يسلكها في الوقت الحاضر : فنقارن ، بواسطة

*مباراة ليبين Le Concours Lépine هي مباراة تقام سنوياً بين أصحاب الاختراعات الصغيرة (واكثرها يتعلق بتحسين استخدام الادوات والآلات الشائعة) ، وهي تعطي المناسبة لاقامة معرض سنوي في باريس لعرض الاختراعات المقدمة للمباراة . « المترجم »

** هو حسن كامل الصباح : أحد اللبنانيين الافذاذ في المهجر الاميركي نبغ في علم الفيزياء واحتل مراكز هندسية وعلمية - رفيعة في الولايات المتحدة حيث توفي منذ حوالي ربع قرن ، « المترجم »

(١٨) هذا الضريح صورة تمثل البلدة . وقد نصبت العائلة فيه لوحة وثائقية ، وقد ترك « هذا المهاجر » مجموعة رسائل غير منشورة ، متبادلة بينه وأكبر علماء عصره ، ومن بينهم اينشتين .

اختبارات وأنماط أخرى من التحقيق - مثلاً اغطاط بيوغرافية - تعرف هؤلاء الشبان الشرقيين بالنسبة للتقنية عندما ينتقلون (الى بلد اجنبي) ويستوطنون فيه . وان عدداً من الصعوبات النابعة من البيئة الاجتماعية يدخل دون شك في نطاق هذا البحث الخاص بعلم النفس المقارن ، ولا تزال مجردين من وسائل البحث في هذه المواضيع الدقيقة ، وسيبقى الامر كذلك طالما ليس بتصرفنا ، في هذا الباب دراسات أساسية احادية الموضوع ، بينما أكثر هذه الظواهر يختبئ ، حالياً ، خلف غلالة كثيفة من العقائد والاهواء .

ثلاثة امتحانات
للمضير
وبسبب انعدام عمليات سبرأغوار في
دراسات أحادية الموضوع ، لم يقدم عليها
أحد حتى الآن ، او أجهل انا وجودها ، سوف استنجد بثلاث سلاسل من
الوثائق ، تقدم ضمانات كافية من العفوية ، بهذه الضروب من امتحان المضير التي
تشكلها دورياً المؤتمرات الشرقية . وانه لشيء زاخر بالدروس بالنسبة لنا ، اذ
انه في هذه المؤتمرات ، وخاصة ، اذا لم تكن دولية ، وانما فقط بين الدول
العربية ، يتحلل المساهمون من كل « عقدة » ، ويستندون الى تجاربهم بكل
اخلاص ..

وها هو ، مثلاً ، مؤتمر خاص بالتعليم التقني ، عقدته الدول العربية في
القاهرة في كانون اول ١٩٥٧ (١٩) وبين الشخصيات التي كانت حاضرة . نذكر
مربياً مصرياً ، يعمل حالياً كمدير مساعد للمكتب الدولي للعمل ، في جنيف :
هو الدكتور عباس مصطفى عمار . وانا الحظ في خطابه ، التوصيات الصائبة الى
حد كبير . فهو يناشد زملاءه بالآلية صرورا بحشهم على مجرد الصياغة اللفظية ،

(١٩) وتقدم معاضره ، المطبوعة على الروثوب ، مجموعة ثمينه من الوثائق التاريخية
والاحصائية والتربوية .

وعلى الدفق الخطابى للتوصيات ، وانما بأن ينتقلوا الى مرحلة التطبيق والتنفيذ .
انها نظرة مسؤول . ونظرة نابعة من التجربة . وانك لتجد ، بصورة شبه
دائمة ، في هذه المؤتمرات توصيات من النوع نفسه ، ونقداً للفظية ودعوة
للانتقال الى المنجزات . ولسوء الحظ فانها تبقى اغلب الاحيان دون جدوى .
وفي ذلك اليوم ، قدم كل بلد عربي تقريراً ، وكثير من هذه الوثائق تحتوي
على نبذات تاريخية واحصاءات . وتنطبق هذه الملاحظة على العراق ؛ وعلى مصر ،
حيث يميز محرر التقرير بين ما لا يقل عن ست فترات للتنمية . اولاً انشاء
مدرسة تطبيقية في بولاق . فقد كانت منطلقاً لتخريج الفنيين وانصاف الفنيين
الذين لعبوا دوراً مهماً في تنمية المنطقة ، واخيراً يصل المحرر ، الذي لم يكن
ابداً ينظر بعين العطف الى مبادرات العهد الملكي ، الى الفترة السادسة : من
سنة ١٩٥٦ الى يومنا هذا ، فالنظام رقم ٢٢ الصادر سنة ١٩٥٦ يشكل وثيقة
التعليم التقني في مصر . وهو يميز بين : المدارس الاعدادية ، المفتوحة لكل قادم
والتي تخرج عمالاً من مستوى « عادي » * ، والمدارس التقنية الثانوية التي لا
تقبل الا شباناً يحملون شهادة ابتدائية : فتدوم الدروس فيها ثلاث سنوات مع
امكانية الوصول في نهاية الشوط ، وبعد اجتياز الامتحان بنجاح ؛ الى دخول
مدرسة الهندسة ، وانها لفرصة ثمينة بالنسبة لطلاب من اصل شعبي ، ثم انشاء
معهد معلمين للتعليم الصناعي ، واخيراً تعميم الدروس التطبيقية . اذ ان داء
التعليم التقني ، في كل هذه البلدان ، هو في بقائه تجريبياً وفي عدم اثارته ،
للعمل الا نادراً .

ومهما كان الامر ، فهذه هي النتائج ليس للاصلاح ، الذي لم يؤت ثماره
بعد ، وانما لهذا التاريخ الطويل من التعليم التقني في مصر . ففي سنة ١٩٥٦ -
١٩٥٧ ، احصي ٩,٨٠٠ طالب في التعليم التقني الثانوي ؛ ويأملون أن

يرتفع هذا العدد في عام ١٩٦٠ - ٦١ الى ١٢٠٠٠٠ طالب . وفيما يتعلق بالتعليم الاعدادي ، تصبح الارقام ، بالنسبة للسنتين المذكورتين ١٣٠٠٠٠ و ١٧٠٠٠٠ . وللوهلة الاولى ، بوسعنا ان ندهش لكون التفاوت النسبي ليس اكبر من ذلك : فهناك ، على ما يبدو ، « طلاب ثانويون » ، اكثر مما يجب بالنسبة « للطلاب الابتدائيين » . والانتقادات حول هذه النقطة ، لا تعدم : اذ ان صفة التقنية لا تتضمن فقط صفة التقنية العالية ، ولكن ايضاً المراحل الوسيطة ؛ واغلب الاحيان ، ما ينعدم هو الاهتمام بالقاعدة . لذلك فان الانتخاب النهائي يصبح قاسياً : ١٢٤٤ ناجحاً من بين ٩٨٠٠ طالب . ولكن ما الذي سوف عمله المرفوضون ؟

وفي سوريا تطرح تقريباً المشاكل نفسها : تلك التي تنشر الاسى في التعليم التقني في كل البلدان . ومجموعات الطلبة تظل لسوء الحظ ضئيلة . وعدد الطلاب يقتصر على ٤٨٣ وعدد المتخرجين في سنة ١٩٥٦ - ١٩٥٧ لا يعدو ٣٣ ، واننا نتصور ما يمكن ان تكون عليه توصيات المؤتمر : توسيع الجهد ، ودفع اكبر نحو التطبيقات العملية ، وهكذا ... انها تقريباً توصيات جميع المؤتمرات التقنية ، في كل مكان تقريباً ، ولكن في كل تقرير ، هنا تتكشف ملامح طريفة من البسيكولوجيا الاجتماعية تحت غطاء البحث التاريخي والاحصائي .

وفي القاهرة ، انعقد مؤتمر للمهندسين العرب (٢٠) ، عام ١٩٥٤ . ونحن مدينون له بما يقارب الخمسين من الدراسات الدقيقة الاحادية الموضوع :

(٢٠) الى جانب التقرير العام ، نشرت مجموعة من عدة عشرات من اللوحات استمد منها الكثير من المعلومات الواردة اعلاه . انظر خاصة أبحاث منصور خليل ، حلمي سيد فهمي ، رشاد البراوي ، سعد لوقا من بين أبحاث أخرى . وقد تلتطف المهندس جوزيف نجار باعارتها لي .

مجموعة وثائق لا شبيه لها من هذه البلدان في عهدنا الحاضر . وبين
المشركين ، اخصائيون أصبح بعضهم منذ ذلك الحين وزراء ، بينما ألقى
البعض في السجون . ورغم هذا التفاوت في الحظ ، أو هذه الزعزعة في
الاضاع التي تقاسيها الطبقة المثقفة بمجموعها في الشرق ، نشعر عندهم جميعاً
الطموح نفسه نحو الموضوعية . ويكشف الدكتور رشاد البراوي « لعله راشد
البراوي - المترجم » عن نقاط الضعف الخطيرة التي تثقل الحياة الصناعية
وتعرقل انطلاقها بسبب الظروف الاجتماعية والبيكولوجية غير الملائمة :
عدم قبول المخاطرة ، الخوف من المسؤوليات . فقدان البورجوازية الحقيقية .
وهناك عملية اسهام ، تكاد تحمل الميسم السان سيموني ، توحى «بتناسق اجتماعي
على أساس تقني » . وبعض النقاد يؤكدون على اللامبالاة في الكثير من خطط
التنمية ، وانعدام التعضير في أعمال التخطيط العمراني . من جملة أعمال أخرى
والنقص الحالي في معاهد الهندسة الخ ...

وهناك تعليقات مثيرة للاهتمام حول عدم النضج في اليد العاملة ، والضعف
الجسدي الذي يُعزى لسوء التغذية وايضاً حول مسؤولية أرباب العمل الذين لم
يعرفوا حتى الآن ، وشأنهم في ذلك شأن الادارة ، كيف يعثرون على
طرق للكشف في خضم الجماهير الوطنية عن المواهب المهنية الجديدة بأن تنمى
بالمران والممارسة .

ولكن اذا كان العديدون من المشركين بالمؤتمر يبدو عليهم الاغراق في
التشاؤم ، فان نوعية غالبية الدراسات تحمل على الأمل . فكثير منها يبدو
عليها أنها من مستوى علمي رفيع : مثلاً الدراسة التي توجت بتقدير معهد
(الدراسات العليا بالقاهرة) والخاصة بدروس دينامية أنواع التربة : انها دراسة
أحادية الموضوع لانارة القاهرة ، من جانبها التاريخي والتقني والفكر العملي ،

والمقاييس المنعقد في بيروت عام ١٩٥٨ . وبالامكان أن نرى في توحيد المعايير والمقاييس كلاسيكية الشيء الصناعي (٢٢) . فان ضرورات الانتاج الواسع والتسويق تفرض عليه أشكالاً ومقاييس وعيارات نسقيّة تصبح شيئاً فشيئاً دولية . انها تتيح مبادلات واسعة للبضائع ، وتستطيع أن تبعث الامل ، عند حلول الاجل ، بأن ينسق الانتاج ، ورويداً ورويداً الاستهلاك والمواقف الفكرية عند مختلف البلدان . وانه لأمر حافل بالمعاني أن ينبغي الشرق اختبار قدرته في هذا الميدان ، وان ينعقد هذا المؤتمر في بيروت ، وعند افتتاحه ، اشار الوزير اللبناني باعتزاز الى ان لبنان هو ثاني بلد (عربي) ، بعد مصر ، ينشئ مركزاً لتنسيق المقاييس والمعايير (الصناعية؟) . وبالفعل ، ففي بيروت كان يوجد معهد للبحوث الصناعية . ويظهر أحد أعضائه ، الدكتور كمال سعد ، الى اي حد يمكن أن يؤدي انعدام تنسيق المواصفات . فلبنان كان يصدر حتى الآن حنفيات وحمامات ماء من صناعة جيدة : فيأتي صناعي مزيف وينتج منها اعداداً تخرج عن المعيار القياسي بحكم الطبيعة ، لان هذا المعيار الموحد غير موجود . وهكذا يفقد لبنان اسواقه لتصدير هذه البضاعة . وليس هناك في المؤسسات التي تعنى بتصدير الفواكه والخضار من مقاييس تناسب مع مجهود البلاد نفسها : لذلك فان هذا الانتاج لا يزال مصاباً بانخفاض في الاسعار . فهو لا يبلغ مستوى السعة التجارية الرفيعة التي بوسعه ان يطرح اليها ، انه انعدام ادوات القياس الخ ...

وهكذا نرى تعبيراً عن الاسف والحسرة . اذ ، في الواقع ، لا يوضع تنسيق المقاييس والمواصفات موضع التطبيق الا في بلد شرقي واحد : مصر ؛ ويجدده الدكتور محمود طلعت هذه المكاسب الدقيقة . فان فكرة وضع المقاييس لم

(٢٢) محاضر نشرت في عدد خاص من مجلة « بريد تنسيق المقاييس »

ترد على خاطر المهندسين المصريين الا في عام ١٩٣٩ ، ومنذ عام ١٩٤٧ تطالب
رابطتهم باحراز هذا التقدم وفي عام ١٩٤٩ ، تتشكل لجان لهذه الغاية ،
والشيء المثير للاهتمام ، انهم يشركون فيها عالماً لغوياً مشهوراً ، فبالإضافة الى
الصعوبات المعتادة لتنسيق المواصفات والمقاييس في العالم ، توجد في البلدان
العربية صعوبة المصطلحات التي تبعث الاضطراب فيها . وهذا الامر لا يمنع
الجهد في الميادين الاكثر حسية ، وتنتدب رابطة المهندسين المصريين أحد
اعضائها لدى لجان التنسيق في انجلترا وفرنسا . وانما يراً في كانون الثاني
من عام ١٩٥٧ نشأ مرسوم حكومي نموذجاً قياسياً مصرياً . وكانت
خطوة حاسمة . فهذا بلد شرقي يقف في صف البلدان ذات الانتاج الكبير
والصناعة المتقدمة . انه يسبو الى حضارة الشيء . وهذا الامر يتطلب تدابير
من هذا النوع : تعيين هيئة قانونية لتوحيد الموازين والمكاييل . وانشاء معايير
للمواد والمنتجات ، والبحث عن الوسائل والطرق بحيث تستطيع المواد
والمنتجات ان تطابق تصنيفات النماذج القياسية ، وتموين المنتجين الصناعيين بقطع
الغيار .

وينحصر الجواب الأهم في انضمام مصر الى النظام المتري . وفي الواقع ،
فان ذلك لا يسير دون عناء . ففي عام ١٩٥١ تقرر الانتقال الى الوحدات
المترية ، لكن في عام ١٩٥٧ تجددت المهلة لخمس سنوات ، بحيث يتاح توسيع
هوامش التكييف . وفي عام ١٩٥٨ ينبيء اعلان في الصحف أن ادارة الوسم أو
التروقيع والموازين ستوقف في المواعيد الآتية تروقيع أو رسم الوحدات غير
المترية : وحدات الكيل للحبوب ، كانون الثاني ١٩٥٩ ؛ محطات ضخ البنزين :
جزيران ١٩٥٩ ، قباين غير مترية : كانون الثاني ١٩٦٠ .

ولنلاحظ أن هذه الثورة الهائلة تم خلال أزمة السويس فتسر دون أن
ينتبه أحد لها ، ومع ذلك فان بوسع المؤرخ أن يستخرج دروساً عديدة من

هذا التوافق : ففي الوقت الذي كانت البلدان العربية ، وفي طابعها مصر ، ترفع لواء قوميتها ، كانت تجري بدقة ، وبانصياع ، اذا أمكن القول ، توحيد مقاييسها ومعاييرها الصناعية وتضم الى النظام المتري .

ومع ذلك ، ما الذي يفعله القلب ؟

يروى الرئيس فؤاد شهاب نادرة غنية بالدلالة (٢٣) ينتوي أحد الفلاحين بيع بغله لاقتناء سيارة شبيهة بسيارة أحد اغنياء القرية ، فيمضي الى المدينة ، رغم توسلات امرأته . ولكن الحظ ، أو العناية الالهية شاء أن يرى على طريقه السيارة معطلة . فيجرها البغل الى القرية . انها عودة غير مشرفة للالة ، ولكنها مليئة بالوعود بالنسبة للحيوان العزيز الذي انتصر على السيارة . وبلا ريب ، يصح الأمر على الكثير من الأشياء اذا اخذت في مجموعها . وهذا النوع من المغامرة ، أو من المديح ليس خاصاً بالحضارة الفلاحية القديمة ففي كتاب « رحلة الى الغد »* ، يستعمل توفيق الحكيم نوعاً من الرواية المرتكزة على التصور العلمي ليمثل سفرة بين الكواكب يقوم بها شخصان حكم عليهما بالاعدام ويختلفان الى أبعد حدود الاختلاف : فالواحد مثالي والآخر مادي وبالقطع يفضل المؤلف الشخص الأول . فيجعله يتزوج ، على أرض مجهولة امرأة سمراء : هي الماضي ، وهي الفكر ، انها الشرق . ولكن هذا الاختيار يهيج نقد محمود أمين العالم (٢٤) . وهذا الأخير يقوم بتمجيد الآلة* في قطعة رائعة

(٢٣) انظر المقطع المترجم من قبل ف . مونتيل V. Monteil في صحيفة « الاوربان » بيروت ، عدد ٦ أيلول ١٩٥٨ .

(٢٤) محمود أمين العالم : « فلسفة المسرح عند توفيق الحكيم » ، في مجلة « الشهر » عدد تشرين الثاني ١٩٥٨ . وهذا البحث يشكل مع نص انور عبد الملك حول التاريخ : كمدمة لترجمته لجوردون تشايلد ، أحد اهم الكتابات المعنوية للاتلجنسيا الماركسية الشرقية ، انظر كذلك في رؤية مغايرة ، عبد الجبل حسن « معنى الانسان والآلة » مجلة « الآداب » ، تشرين ١٩٥٨ .

حافلة بالتفاؤل العلمي . (٢٥)

فهناك اذن انقسام في المواقف . وهذا الانقسام موجود في الغرب نفسه ، حيث نرى أيضاً أناساً يشدهم الحنين الى أحد القصور الذهبية ويتنافسون مع عشاق اليوتوبيا : ونحن نعلم ان الماركسية تمجد ، على الصعيد الأدبي بالذات ، أمل الإنسان الصناعي . ولكن ، في الشرق ، يتبطن النزاع بجوار آخر خاص به ، فالشرقي ، ازاء التقنية التي ينطلق نحوها بخطى جسيمة ، يشعر بتمزق خاص : فهذه التقنية كانت تبدو له حتى الآن من فعل الغرب والخارج . أما الآن فانه يريد اكتسابها ، ولكن بعد رفض أخلاقية الغرب الأجنبي ، المرتبطة الى مدى بعيد بتقنيته . فهل يمكن تحقيق ذلك !

(٢٥) هذا التساؤل العلمي ليس جديداً في الشرق ، ففي اوائل القرن ، كان المقلع بالنسبة لمجلة « المقتطف » التي لا تزال آثار الدكتور فؤاد صروف وفيه لحظها ، انظر مثلاً بحثه في الكراس « البحث العلمي في العالم العربي » بيروت ١٩٥٨ وكتابه الجديد حول المذهب - العلمي الايماني .

الفصل السادس

التردد حول المنشأة (L'Entreprise)

المنشأة تدغم بصورة دينامية الرأسمال والتقنية مع المبادرة الشخصية . ويجهد المرء في ادراك قوى تتجاوزه وفي ربطها في عملية امسك بالطبيعة تضيق قبضتها بصورة متزايدة يوماً بعد يوم . ونتج عن ذلك ان منشيء العمل 'عب ، حتى اليوم ، دور المحرك المثالي للتاريخ الاقتصادي ، مثلما كتبه المؤلفون الغربيون . وقد لعب هذا الدور بقدر ما لعبه المخترع ، وهذا الدور الذي سبق أن تراءى لكانتيللون Cantillon والذي حدده جان باتيست ساي J.B. Say . قد وجد مغنيه في شومبيتر Schumpeter . وفي نظر هذا النمساوي الذائع الصيت لا يمكن أن يخلط بين منشيء العمل ورجل المال ولا بينه ورجل الادارة ، وحتى الفني . فهو بعض من كل هؤلاء . فهو يوحد كل هؤلاء ويستخدمهم لأغراضه التي هي أغراض خلق وابتكار . ولهذا السبب يشتمل تتابع الحقب أيضاً على تتابع الانماط : من الصانع - التاجر الذي ظهر في المرحلة الأولى للثورة الصناعية ، الى قادة الصناعة في القسم الأول من القرن التاسع عشر ، لنصل الى وجوه المدراء ورؤساء الادارة والمؤسسين ، التي عرفها القرن العشرون ، والتي

تتكاثر في كل مكان على الكرة الارضية تقريباً : وهم على السواء محركو الحضارة الصناعية ونتاجها (١)

التطبيق الشرقي
للنظرية
ليس في اللغة العربية كلمة تعبر عن هذا الشيء . فكلمة « المؤسسة » تعادل كلمة Institution وكذلك كلمة « المنظمة » * أما المفرد « المقاول » * فيدل على منفذ الاعمال الذي يتعاقد ، في الدرجة الثانية ، ابتغاء الحصول على العمل . وحتى كلمتا « المهندس » * « والمتعهد » * الذي يتعهد بتأدية خدمات ، لا تعبران عن هذه الفكرة القائمة على المبادرة الحسية والمضمون التكنولوجي والاقتصادي على السواء . التي توحي بها كلمة Entrepise . وفي الاساس ، يتوزع النمط ، في الشرق ، بين عدة أنماط أخرى لم تتجمع أبداً حتى الآن . فالمهندس ورجل الاعمال الكبير والبيروقراطي الكبير يضطلعون بالوظيفة تحت ألقاب مختلفة ، ولكن دائماً بصورة منقرحة ، فهذه الوظيفة لا تبدو إذن بعد مرسومة بوضوح . ويعود اضطرابها الى ملامح أخرى من تكوين الرأسمال والتطور التقني في هذه البلدان ، وليس من المستغرب أن تؤكد مثل هذه العلاقات المتبادلة ، على السواء اللغة والنمطية المألوفة التي يمكنها أن تبني مثلاً ، على ذمة محاضر وصور صحفية . انه اضطراب يعكس تأخراً أو وعداً : وبين الاثنين ينبغي القيام باختيار .

وقد اهتمت الجامعة الاميركية في بيروت بهذه المشكلة . وقد كرس أحد

(١) وهنا أيضاً ، أنا استعين بالابحاث الواضحة التي وضعها جيمس ، حول الشرق العربي انظر مقال ش . عيساوي « طبقة منشئي الأعمال » في كتاب « القوى الاجتماعية في الشرق الشرق الاوسط » الصادر بالانجليزية عن دار ليشر Fisher عام ١٩٥٥ ، ص ١١٦ وما يلي .

أساتذتها ، يوسف صايغ ، أطروحته التي لم تنشر لبحث المشكلة ، وهذه الأطروحة قد نوقشت في جامعة جون هوبكنز (٢) . وقد بدأ قسم العلوم الاقتصادية ، في السنة الفائتة ، مشروع تحقيق اجمل نتائج . ولكن عرض موضوعه يكشف عن اتجاهاته (٣) . وتعلق المسألة خاصة بالعثور على الملامح المميزة لمنشئ الأعمال ، كما ترسم في التجربة او في التقنية الغربية . والذي يحدث هو ان الطريقة القياسية تصل حتماً الى مأزق . وهذا الامر ، كنا نعلمه منذ نقطة الانطلاق . وفي رأي صايغ ، تفعل البيئة الشرقية كعامل مضيق وحتى كعامل قسري بالنسبة للنمط . وبالرغم من الحساسية الكبيرة عند منشئ الأعمال المحتملين تجاه الكسب ، يؤثر عليهم دافع من هذا الطراز أقل مما يؤثر في البلدان الغربية . فمنشئ الأعمال العراقي : مثلاً ، سوف يتجه ، بالأحرى ، نحو المبادرات التجارية ، لانه يخشى مخاطر المغامرة السكامنة في المحاولات الصناعية ، وهو ، كذلك يحس بتثييط عزيمته بسبب ضالة الرأسمال ، عند الانطلاق . وهو كذلك ، يحس بأنه أعزل بسبب جهله لطرق التنظيم . ولهذا السبب يتألف الافراد الذين يبلغون مستوى المنشأة من الاجانب في أكثر الاحيان ، أو من ابناء الاقليات .

(٢) يوسف أ . صايغ : أطروحة لم تنشر (١٩٥٣) ونسخة مأخوذة عن مقال نشر في مجلة « تاريخ انشاء الاعمال Entrepreneurial History (عن مركز الابحاث في تاريخ انشاء الاعمال) هارفارد ١٩٥٨ ص . ١٢٣ وما يلي .

(٣) تحت ادارة الاستاذ صعيد حماده « الاطار الادراكي وتخطيط المراحل لدراسة انشاء الأعمال في علاقتها بالتنمية في لبنان » . الجامعة الاميركية ، بيروت ، أول آب ١٩٥٨ . انظر ادثر أ . ميلز Arthur A. Mills « المنشأة الخاصة في لبنان » الجامعة الاميركية - S. D (١٩٥٩)

وبقدر ما هم من اهل البلاد ، هم يغتربون بالنسبة الى بلدهم ، وينزلون داخل اراضيها ، Ils s'exterritorialisent ، حسب تعبير صايغ : اي انهم يتخذون لونا اجتماعياً وذهنياً يميزهم بصورة بارزة عن البيئة الاصلية . وفي النهاية ، ينكرهم وطنهم .

وفي مثل هذا الطابع المتشائم ، هي محاضرة للبروفسور الاميركي مورّو - بيرجر Morroe - Berger الذي توحى مصر له تشخيصاً سلبياً (٤) ، فهو لا يعتقد إن من حق الشرق ان يربو تقدمه من المنشأة او من تنمية المنشأة . بل من عمليات مشاركة وتلاحم ، من اي نوع كانت ، بين الراسمال المحلي والاجنبي ، وبين الراسمال الخاص والعام . وينبغي على الشرق ان يرقب نموه الصناعي من عمليات تحقق التعانق والاتصال بين رساميل ، من أي مصدر جاءت ، وتلقبها جميعاً على تجمعات عمالية ، أكثر مما يمكنه أن يرقب من مسلك خاص ، يطابق ما عرفه الغربيون تحت اسم المنشأة ، وبالاختصار فان الصنيع الاقتصادي سوف يولد من التلاقي العملي بين مدّ التيار النقدي وقوة العمل .

وبصفته عالماً اجتماعياً ، يؤكد مورّو - بيرجر على العامل « التبايني » . ونحن سوف نتبعه في هذه النقطة . ولكنه في ارتكازه ، عن صواب ، على الحديث والمقابلة الشخصية ، من المحتمل ان يكون قد أخذ ، أكثر مما يجب ، وقف سائد في الشرق ، يجسده يوسف صايغ : وهو رد الفعل المبهم عند كل الباحثين الشرقيين بالنسبة لبيئتهم . وهو يقودهم بالتناوب ، الى انكار أي

(٤) مورّو - بيرجر : « الطبقة المتوسطة في العالم العربي » : من محاضرات جامعة برنستون ، وهذا العالم الاجتماعي هو أحد القلائل الذين أدركوا أنه في سبيل دراسة الشرق يقتضي درس اللغة العربية . وهذا من باب الابتداء بالبداية .

فارق ، حتى ولو كان متعلقاً بتفصيل دقيق ، أو بتكييف أو بمرحلة ، من النوع الذي يمكنه أن يميز هذه البيئة عن البلدان المتقدمة ، ثم الى التذمر من كون لا شيء ، في هذه البيئة يسير ، في نهاية المطاف ، مثلما في المواطن الأخرى . وان الصور الاجالية للنظرية الاقتصادية ، كما تبدو في رؤية من هذا النوع ، على السواء تصلح للشرق وتتلاءم مع أوضاعه وتظهر عوراته ونواقصه ، بصورة مضخمة . ولكن هذه الأحكام تكشف عن انقطاع الجذور لدى الباحث الشرقي اكثر مما تعبر عن الواقع . وبكل تأكيد ، سوف يكون الأساس أمتن ليسجل تاريخياً ، الكثير من هذه « الظواهر الغريبة » .

وقد رأينا أن الاسلام يوصي بالنوع المباشر من التعامل ، بعملية (خذ وهات) تقريباً . وبالاختصار ، بنوع من الالتحام الجسدي التعاقدى . وحالما يؤجل التنفيذ ، كما في البيع لأجل ، أو في التوصية ، يبدي التردد ، وهو يصب شكوكه على الصيغ ذاتها التي يدين الاقتصاد العالمي لها بنموه ، فهذا الاقتصاد يرتكز على ثقافة الاحتمالات ، بينما الاسلام يحرم المخاطرة أو الصدفة . انما ، لا يتعلق الأمر هنا بحائل نظري ، فهو لم يعد يوقظ مآسي ضميرية ، في غالبية الأحوال ، فعلى التحقيق أن يتجه نحو المواقف الحديثة : ليس لانها تحررت تماماً من هذه الخلفية العقائدية ، ولكن لأن التاريخ يجدد الحالات .

والقضية لا تتعلق أبداً باستنكار عجز مزعوم لدى البورجوازية أو الشبيبة الشرقية ، في مجال انشاء الاعمال ، وبفضحه على ضوء فرضيات مسبقة من الغربي . وانما بمحاولة لتعديد لعبة الاستمرار وعدم الاستمرار ، في هذه الناحية . وبصورة راهنة ، ينبغي للدراسة ان تميز ، حسب المستويات التكنولوجية ، بين الاقاليم الجغرافية ومراحل التطور . وهذه الاخيرة بإمكانها ان تلاحظ بوضوح اختياري . اذ ان الاوساط العربية المختلفة تبدي مراحل مختلفة وتشرك شتى المواضيع المتعلقة بادخال الطابع الحديث . ذلك ان الشرق اصبح منشئاً للاعمال ،

بالرغم من النظرية . وهو قد اصبح ذلك ، بانشاء الاعمال كما تقتضي الاصول .

الملامح التاريخية
قبل عام ١٩٣٠ : لا شيء يمكن
التنويه به غير تمتمات . ونقطة الانطلاق
لحركة التصنيع تطابق بدايات حركة الحماية الجمركية . وفي ذلك الوقت ،
تتضمن نشاطات مجموعة بنك مصر . وأخذ يعطي ، بصورة منتظمة ، سلفات
للمؤسسات الصناعية . وفي عام ١٩٤٥ ، يقولون عامة ان مصر ، اذا لم تتكلم
عن غيرها ، قد استطاعت ان تؤمن حاجاتها الداخلية بالنسب التالية :

السكر :	١٠٠ بالمائة	الدقيق :	٩٩ بالمائة
الكحول :	١٠٠ بالمائة	خيوط القطن :	٩٦ بالمائة
السيجار :	١٠٠ بالمائة	الاحذية :	٩٠ بالمائة
الملح :	١٠٠ بالمائة	التراب :	٩٠ بالمائة
الصايون :	٩٠ بالمائة	المفروشات :	٨٠ بالمائة
البيرة وأعواد الثقاب :	٧٥ بالمائة	الزيوت البتائية :	٦٠ بالمائة (٥)

والتقدم في توظيف الاموال قد تلازم مع الوتيرة نفسها . فمن ٨٦ مليوناً من
الجنسيات المصرية في سنة واحدة ، عام ١٩٣٩ ، ارتفع (مجموع الاموال الموظفة)
الى ٩١،٤٠ مليوناً عام ١٩٤٥ ، ثم الى ١١٤ عام ١٩٤٧ . وفي نهاية ١٩٥٠ قارب
١٤٠ مليوناً من الجنيهات ، أي بزيادة ٥٠ بالمائة منذ ١٩٤٥ بالنسبة لمجموع
القطاعات وبزيادة ١٧٠ ٪ فيما يخص الرأسمال (٦) .

(٥) « النشرة الاقتصادية » الجزء الثالث ، ١١٣ (احصاء ١٩٤٥) ، ١٩٥١ ، الجزء
الرابع ، ٢٤٩ (التقدم بعد الحرب) ، عام ١٩٥٤ الجزء السابع ، ١٠ (مجلة الصناعات المصرية
لعام ١٩٥٣) وعام ١٩٥٢ ، الجزء الخامس ، ١٢٤ (حول المصرف الصناعي) .

(٦) « النشرة الاقتصادية » : عام ١٩٥٧ ، الجزء العاشر ، ٣٣٨ (التقدم بين ١٩٤٥ -

الكثير من الاجانب بين فئة الموظفين والقليل جداً بين فئة العمال . وخاصة ، تصنيف المنشآت حسب عدد الاشخاص العاملين فيها ، كان يعطي هذه النتائج المدهشة :

١٣٩٥٧ منشأة يعمل في كل منها اقل من ٥ اشخاص .

٤٩١٧ منشأة يعمل فيها من ٥ الى ٩ اشخاص .

وماذا يعني ذلك غير ان تلك المنشآت كانت لا تزال في باب العمل الحرفي ، ان لم يكن مجتمها ، فعلى الاقل بتقنية انتاجها ؟ وفي كل مكان ، تشبث بالبقاء المنشأة التي تعنى بالاعمال الصغيرة جداً (٨) .

وهذا يجعل من الصعوبة بمكان ، من نواح كثيرة ، قراءة الاحصاءات في البلدان العربية . إذ انه ، فيما يقصرون ، في مصر ، منذ مدة ، على اعتبار المنشأة فقط . تلك التي يتجاوز عدد عمالها العشرة ، ففي لبنان يهبط الرقم الى ٥ عمال وفي العراق الى واحد (٩) فكيف تمكن المقارنة ؟ أو فيما يتعلق بسوريا ، فان مؤلفاً خارجاً لتوه من مؤتمر الغرف التجارية ، يقر بانه لا يعرف شيئاً عن الامر . فالتحديات التمهيديّة ، في هذا الحال ، تختلف او تنعدم .

ومع ذلك ، فانه لا يسمنا انكار وجود تقدم لا تستطيع الوثائق والمستندات المصرفية ان تضع اصبعنا عليه فلتر مثلاً ارقام عام ١٩٤٨

ففي صناعة النسيج (ونحن نتصور ان صناعة النسيج تؤدي فوراً الى المجموعات الضخمة من المغازل ، والجمهير الحاشدة من العمال ، وبالتالي الى

(٨) النشرة الاقتصادية ، عام ١٩٤٨ الجزء الثالث ، ص ١١٣ (تاريخ الصناعات القطنية)
وعام ١٩٤٩ ، الجزء الثاني ، ص ٧٥ و ١٩٥١ ، الجزء الرابع ، ص ٩٥ وما يلي (صناعة السكر) ، وعام ١٩٥٠ الجزء الثالث ص ١٣ « صناعة الترابية » الشمتو ، وعام ١٩٥٠ الجزء الثالث ص ٢٤٢

(٩) برهان الدجاني ، المصدر المذكور سابقاً في المقدمة .

عمليات التوظيف الواسعة) ، على ٩٦٤٤ منشأة ، يوجد ١٢٥٩٥ مالك : (او صاحب منشأة) اذن ، هناك مالكون اكثر من منشآت ا وعلى العكس ، فاذا كانت هذه المنشآت التسعة آلاف تجمع اكثر من ١٠٠٠٠٠٠ عامل ، اي تقريباً بمعدل ١٢ عامل لكل منها ، فان منشآت استخراج المعادن التي لا يتجاوز عددها ٥٨ منشأة تخص ٣٩ مالكا وتعد ما يقارب ٧٠٠٠ عامل : فهنا ، حملت التقنية النظام ، اي نظام التركيز الاقتصادي (١٠)

ومنذ ١٩٥١ ، وردت تحفظات شديدة حول القدرات الصناعية للبلد في التقرير السنوي للاتحاد المصري للصناعات . وقد فضح المؤلفون عدم الملائمة بين النظام الجبركي والاداري والتشريعي (١١) . ومع ذلك ، فان قفزة قد حدثت منذ عام ١٩٣٠ . ولم يعد يكتفى بنظام حماية جمركية يتسم بالحجل والاعتدال . فان ما يعتزم المنتجون الانتساب اليه هو نظام الاكتفاء الذاتي الكلي . انما هم يشكون من عدم اهتمام البلاد بمشاكل الانتاج من فقدان سياسة شاملة ، من واقع ان العمل يتعرض على التوالي لأن يضحى به في سبيل ضرورات التموين او لان يلوح به تمشياً مع أهواء الحركات الاجتماعية او شهوات جباية الضرائب . وبالاختصار ، هم يريدون المنحيل : أعني نظام حماية كامل ، ولكن مجرد من رقابة الدولة او من نظام ضرائب ملهح . انهم يشجبون شبه السرية التي يجتمى عليها كثير من اصحاب المنشآت . انهم يخفون حساباتهم ، وارباحهم ، وعدد عمالهم ، متوقفين كل اسبوع عن التصريح بانتاجهم » .

لا يجدو بنا ان نبدو قاسين الى هذا الحد . فهذا المنتج الصغير ، القابع في مشغله الذي يعلوه التراب ، في الاحياء الشعبية ، والمغرب في بعده عن ذهنية « الورشة » الكبيرة (كلمة ذات قرابة مع الكلمة الانجليزية Work - Shop أليس هو الذي وجدناه تحت اشكال تتجه نحو الطابع البالغ الصغر ، في ناحية

١٠ (النشرة الاقتصادية : عام ١٩٤٨ ؛ الجزء الثالث ص ١٢٠ - ١٢١ (الجداول) .

١١ (في النشرة الاقتصادية عام ١٩٥١ الجزء الرابع ص ٢٤٧

باب زويلة ؟ ففيه يمكن ان يتحقق الالتقاء بين الصناعة الحديثة والمؤهلات الحرفية القديمة . ففي ذلك بعض الشبه بما حدث في القديم في حي سانت انطوان عندما . وكثير من المكنسبات الحديثة تستطيع ان تجد هناك لقاءها مع اندفاعات عفوية قديمة . وفي هذه الظاهرة مادة كافية لانبعث التصورات عند الطوباوي ، وليس عنده فحسب ...

التنظيم والحياة

لنقفز من حقبة ما قبل الثورة
هذه الى وقتنا الحاضر . فاننا سنقع

اليوم على الملامح العامة نفسها . ولا شك انها ستبرز بصعوبة من سياق مضطرب . ومحاولة تتبع هذا السياق من قرب بالغ ، لا تخلو من خطر الظهور بمظهر من يحاول الاتجاه الصحفي ، او على الاقل ، من يتبنى الاساليب الصحفية التي نرجو لبحثنا الابتعاد عنها . وسأكتفي اذن بالتعرف الى هذه (الملامح) الثابتة في نص رسمي يعمل على محاربتها : انه القانون المصري رقم ٢٦ القاضي بتنظيم الشركات المساهمة . فهو يسمى لتوسيع عدد المساهمين ليمنع التركز العائلي والاحتكار . وهو يفرض رفع نسبة الاحتياطي في المصارف وتحديد الحد الاعلى من الارباح الموزعة بعشرة بالمائة . وايضا مفهوم ان الرأسمال لا يوظف ، عادة ، إلا اذا ضمن تجديد ذاته في ثلاث سنوات او اربع . وليكن مفهوماً ايضاً انه في اكثر الاحيان ، تبقى النظرة ذات طابع تجاري اكثر منها ذات طابع صناعي . حتى لو كان التوظيف في مصانع صغيرة للتريكو (لحياكة الاصواف) كما يحدث في القاهرة ، في هذه الايام بالذات . ويفضلون البناء اكثر من أي شيء آخر : لانه في عملية البناء يتكاثر المال الموظف في سنوات قليلة ، وكذلك لان هذه العملية تتصف بطابع الأبهة ويتجسد العمل في صورة أثر مهول . ويحدث ان

١٢ . التعليق في مجلة « الاقتصاد والمال في سوريا والبلدان العربية » ، عام ١٩٥٩ ،

ص . (٨٦)

يُلجأ الى هدم بناية شيدت في حقبة ١٩٣٠ ، ولا تزال في حالة سليمة ، لاقامة بناء جديد : فيتم بذلك الهرب من القوانين التي تحدد الاجور . لذلك تدري في جميع زوايا القاهرة ، اصوات المعاول التي توسي الاعمدة في الطبقات السفلى من الارض . ولهذا ايضاً تنهار البنايات المشيدة بعجلة وبصورة مرتجلة ، كما حدث في الاسكندرية . فهد هذه الاخلاق والعادات يعتزم القانون (الذي سبق ذكره) احداث ردة الفعل . وهو ، كذلك ، يحذر ، وعن حق ، من عمليات توزيع الارباح السخية التي يقال انها ، في اكثر الاحيان ما كانت ممكنة إلا بفضل اخفاء النتائج الحقيقية . ابنية ضخمة ، ومصاعد معدنية تحمل على التصور باننا نعيش في المدائن الخيالية التي تبنيها ريشات الرسامين المستقبلين ، وسيارات كاديلاك راسية امام المساكن ، دارات باهظة التكاليف في احياء « العجوى » او « الصحراء » ، ونشر الغنى الباذخ في ملهى « الاوبرج » بالهرم : هذه النداءات لاستجلاب الثقة ، والطمأنينة من جانب المسام ، ولتشجيع الكفالات ، اصبحت من الان فصاعداً موضوع الريبة وسوء النظرة . وفي عملية توافق لا يسهها ان تدهش عالم الاجتماع ، يشكل انحسارها كذلك ابتعاد طبقة اجتماعية خاصة وذهنية سياسية وحتى نمط جسدي وطبيعي (فيزيائي) ولغة .. وبالطبع ، لا يسمح الاموات بدفن انفسهم ، طواعية . فالنظام الليبرالي التجاري القديم ومظهره المتطرف : المضاربة يظهران اضطراباً عصبياً ازاء هذه التدابير . ورد فعلهما ، العنيف او المستر ، يتباين ويختلف حسب الوقت والبلاد . وهو يعمل كذلك في سياق يتجاوز الشرق ويتصادم فيه مفهومان اقتصاديان يلعب دور البطل في كل منهما الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الاميركية . ومن جهة اخرى ، تعمل الظروف المحلية على التأثير على مبادرات الافراد والجماعات ، جاذبة الآمال في هذا الاتجاه او ذاك : التجارة اكثر من التحويل الصناعي ، ان لم يكن العكس . وتتجلى هذه الظاهرة في بيروت ، حيث تتناوب ، على التوالي ، في الاشهر الاخيرة ، عرائض التجار الذين يطالبون بالعودة الى نظام

حرية التعامل اللامحدودة ، واللاملجومة ، ومشاريع الحماية الجمركية الصادرة عن الصناعيين (١٣) نظرة بنائية من جانب هؤلاء ، ان صح القول . ونظرة واقعية (تستند الى الظروف الاقتصادية الراهنة) من جانب اولئك . ومهما كان الامر ، فهاتان النظريتان قتصادمان اذن ، متواجدين مع عوامل كثيرة اخرى ، ومخفيتين تحتها اشياء كثيرة ... وهي تتصادم ايضاً ، بصورة اكثر تخفياً ، في دمشق ، بل وعلانية ، كما حدث في شهر اوكتوبر الماضي ، امام المشير عامر . وهذا ما حدا بشفيق الاخرس ، على ان يشكو ، بكثير من المداورة اللفظية ، « من عدم وضوح عودة الثقة » ، ومن « عادات » الرأسمال المحلي ، الخ .. والى التعاون مع هذا الرأسمال والى التسوية بين الاهداف الجديدة والمجهول الشرقي ، كان احد رؤساء الدول ذات النظام الموجه يدعو مواطنيه في الفترة الاخيرة .

الدهاء اللبناني

لندعه في حيرة بين : المنهج المتشدد (الارثوذكسي) المزدوج الذي يشرعه الشرق والغرب في وجه بعضها البعض ، من جانب ، ومن جانب آخر المنهج الشرقي الخاص ، هذا الاسلوب الذي يجرب رجال الدولة العرب مواهبهم في التمرس به ، والذي يقوم على البحث عن عمليات توارن بارعة وفتية . ولنلاحظ المسلك البرجماتي ، (التلمسي) الذي يتبعه ، منذ اجيال ، رجال الصناعة في بيروت (١٤) .

منذ ربع قرن ، يهرب فتى من مدرسته القائمة في حي فقير . انه يجب استعمال الادوات . فيقضي وقتاً طويلاً في اصلاح (الاشياء) وفي تركيبها وفكها وضبطها . وعلى مدى الزمن ، تصبح هذه « الحرقلة » عملاً صناعياً . وها هو صاحبنا في مشغله الصغير . فيوصونه بصنع غرفة مصعد . فينقل نموذجاً مستورداً . ولكن

(١٣) انظر مر مثلاً : جريدتي « الجريدة » عدد ١٦ - ١١ - ٥٩ ، والاوريان ، عدد ٢٣ - ١١ - ٥٩ ثم افتتاحيات رينه عاجوري حول أزمة دمشق (نوفمبر ١٩٥٩) (١٤) تحقيق ريبورتاج بقلم لوسيان جورج في جريدة الاوريان ، صيف ١٩٥٧

هذا الانتاج يرضي حاجات الزبائن ، فيأتيه المطامع . فينشيه مصنعاً صغيراً في ناحية فرن الشباك ، ثم في سن الفيل (في ضاحية بيروت) ولكن هذه المرة على صعيد اوسع : انه يحتل ٣٠٠٠ متر مربع ويستخدم ١٢٠ عاملاً . لقد اتبع تطوره تطور التجهيز المنزلي في بلاده . ومن هذا الجانب تستوقفنا تجربته . فقد بدأ بصنع هذه الافران التي تسير على المازوت والتي انتشرت هنا انتشار البريموس في مصر ، معبراً عن التخفيف التدريجي في اعباء المرأة والندورة المتزايدة في الوقود الطبيعي . وفي عام ١٩٥٠ يبدأ ، في الشرق ، عهد المصاعد الفخمة . وهو كذلك عهد البناءات الحديثة المشيدة بالاسمنت المسلح ، والمضاربات على الاجور وتوظيف الاموال في المدن . والتطور الثالث الحديث (هو يتمثل في انتشار) الحاجيات الاضافية في حياة المنزل البورجوازي ، كما كينات الغسيل بين اشياء كثيرة غيرها ، كل ذلك يظهر اضطراراً في الاقتصاد المنزلي ، استطاع صاحبنا ان يفيد منه ، دون ان يقوم بتحليله . ويقوم احد زملائه بالتخصص ، عام ١٩٥٦ ، بشؤون مكيفات الهواء . وبشكل رفض البيئة احد وجوه حضارتنا الحاضرة . فان احد الملوك العرب يقوم ، كلما توجه للصيد ، باصطحاب غرفة مكيفة الهواء ، تتبعه في تنقلاته ، الامر الذي كان من شأنه ان يبعث الدهشة عند شعراء الجاهلية . وصاحبنا الصناعي لا يقف عند هذه المقارنات الباعثة للحنين . فحسبه انه ينتج الكثير من البرادات . يصرفها حتى في اسواق الكويت والعربية السعودية .

وهكذا يبدو الدور الذي يلعبه الاستهلاك باشكاله الاكثر ترفاً ، ان لم تكن الاكثر طبيعية ، فهنا تكمن الوعود بالارباح الضخمة . ولهذا السبب ، يغري الاضواء المتدفقة ليلاً من الاحياء الراقية المتعهد وتستحبه . وفي بيروت لا تظهر النيون الا بصورة خجولة عام ١٩٤٣ ، وفي توافق غريب بين التبدل في الاطار والتبدل السياسي . فيكرس مهندس لبناني ، يحمل شهادات اوربية عن

جدارة ، نفسه لهذه المهمة . فيتقدم فنه ويفز وكل مجال صنع الاجهزة الكهربائية
فنتج المصباح الكهربائي الوطني الاول عام ١٩٥١ . وفي عام ١٩٥٦ يصل
انتاجه السنوي الى قرابة النصف مليون مصباح (لمبة) .

ولكن اطار « العيش المريح » ، « Good Living » ليس الوحيد الذي يتغير
امام البصر . فقد وأينا نظام التغذية يتغير هو ايضاً . وبذلك تصيب التحولات
(الطفرات) طبقات اجتماعية اوسع . اما الخور فان سوقها مهددة حقاً بالمواقف
العقائدية المتعارضة . انما البيرة تبدو أقل تعرضاً (لمثل هذه التحريمات) ، لحسن
الحظ . والصودا بمنجى تام عنها : ومن هنا كانت الجهود المدوية لمساندة هذا
المشروب او ذلك . ومن المعروف ان المناقشات ، التي دارت حول مشروب
من ماركة تتمتع بشهرة ذائعة ، أحدثت لدى المستوردين قلقاً بالغاً ، زمنياً
طويلاً . وقد اشم بعض المتضلعين في القانون ، والمتزمين ، لعبة شيطانية في
القضية : فهل تؤدي الاتهامات والشكوك التي ترمي (هذا المشروب) بصفة
المحرم الى خفض عمليات البيع ؟ ولكن الخطوط اليبانية لهذه العمليات تنتهي
بالصعود قفزاً ، لان الموج بقسم الاذاعة والانباء لدى الشركة قد نجح في اقناع
الجمهور ، بفضل دعاية تنقل همساً ، بخصائص الشراب المتميزة بيعته للقوى الجنسية .
ويصعب صندوق القناني ، ذات اللون الخمرى (لون دم البقر) والاعلان الصارخ -
المرسوم بالاحرف العربية التزيينية ، مثلما يتوجب (كما استدعت المصلحة
التجارية) - جزءاً ملازماً لمشاهد الاطار في المدينة او في الارياف . ولكن
تبقى عمليات تراتب واساليب متفاوتة بين وجوه الاستهلاك : فاستعمال الخمر او
البيرة ، والوسكي او الشبانيا ، او الكوكاكولا يميز اخلاقاً ومستويات معيشة
ويكاد يميز عمليات توجيهه بسيكولوجي ، بله توجيهه سياسي .

ففي لبنان ، عندما ينشيء صناعي مصنعاً للبيرة ، او ينتج خموراً ذات نوع

متوسط ، هو يقوم بمنافسة مؤسسة فرنسية . وهو يقتصر ، على صعيد الوطنية والربح التجاري . وهو يتوصل الى ذلك بفضـل عملية (عشائرية) من تقسيم العمل . فبينما يغرق منافسه في نفقات باهظة ، هو يقوم بعمل كل شيء بنفسه ، يساعده ابناء عمه القادمون من الجبل ، والذين يتصفون بقناعتهم وتقشفهم بقدر ما يتصفون بقوتهم . انما لسوء الحظ ، يأتي منافس جديد ، هو مواطن (ابن بلد) ، ويؤسس مثلما أسس . عندئذ ينشب الصراع بين ماركتي البيرة ، والذي سمي « الحرب بين الشقيقتين » . وقد دخلت (الصناعة) مرحلة التصدير ، وفي الوقت نفسه ، مرحلة المخاوف فيما خص السوق الداخلية . اذ ان مصانع اخرى للبيرة قد انشئت في سوريا : وها ان صناعتنا بدأوا ، منذ ذلك الحين ، يحلمون بالتعرفات الجمركية الهادفة لحماية (انتاجهم) ...

وهذه المبادرات لا تقف عند نطاق الاستهلاك الشائع . فعمل البناء يجذبهم ، بصورة كلاسيكية . وللقيام بالبناء ، يازم توفر الاسمنت . وهذه المرة تحظى الخطوة التجديدية ، العزيزة على قلب شومبيتر Schumpeter ، بتأييد ومساندة النفوذ الروحي . فان مطراناً هو الذي يؤسس المصنع الاول ، بالاشتراك مع الفرنسيين . وهنا ايضاً يحدث توافق تاريخي ... ولكن الاعمال تتدهور قليلاً ، فتأتي مجموعة سويسرية لانقاذ المشروع . على كل حال ، كانت النظرة الاولى صائبة ، وتحقق المشروع الذي اصبح المصنع الضخم القائم في بلدة « شك » ، على طريق طرابلس .

وصناعة النسيج قد انطلقت في لبنان ، بصورة طريفة ، وقبل نموها في « المحلة الكبرى » ، بمصر . فقد بدأ الاخوان عريضة ، وهما ينتميان الى عائلة كبيرة في الشمال اللبناني ، تجربتها ، عام ١٩٣٧ . وقد حصل واحد منهم كل ثروته في المكسيك . ولم يبق هذا المغترب شاعراً في المهجر . لقد عاد رأسالياً . فيتمركز

في حي شعبي في طرابلس ، في حي البحصاص ، ذي السمعة السيئة ، والذي كان في ذلك الحين ، ما يمثله حي الروثة في بيروت : اي الموضع المختار لعمليات الانتحار والاعتداءات . ويؤمن اصغر الاخوين بالمستقبل . فها هو ينطلق نحو المجهول . فيزج بكل موارده . وكانت البلاد واقعة تحت الانتداب . فكان عليه ، كما قال ، ان يواجه صراعاً ، من طراز رفيع ، مع المكاتب الحكومية . وقد تحقق النمو الصناعي في هذه البلدان ، دائماً ، ضد العهد الاستعماري . وقد زوده هذا الصراع بنوع من الدينامية الاضافية وبهذه الصفة المعنوية التي يظل العرب دائماً شديدي الحساسية ازاءها . وبصورة عامة ، تدير السلطات الاجنبية قليلة الميل نحو التصنيع . وفوق ذلك ، هي غارقة في البيروقراطية . وفي النهاية ، يقرر عريضة ، الذي بلغ حد اليأس من تصرفات هؤلاء الموظفين ، ومن مشاكل الجمر ، والقطع النادر الخ . . ان ينقطع عن التحدث باللغة الفرنسية ! وفي عشية الحرب الاخيرة ، هو يفكر بالسفر الى العراق . فالعراق بلد ما زال بكرأ ، تلونه مغامرة فيصل . ومن الخير ان يعيش المرء كصناعي مستقيم في بلد رومانطيقي ، وكغربي في إطار عتيق . ومن هذا التناقض يمكن ان تولد ، لفترة كاملة ، ارباح مشرة . واخيراً تذهب القضية الى عصبة الامم . والحكم الفرنسي ، واسمه مسيو كيه ، الذي ارسل الى موضع الشكوى ، هو نفسه الذي أقنع عريضة بالبقاء ، مقابل حماية جمركية بنسبة ٢٠ بالمائة . واليوم ينتج المصنع ١٢ مليوناً من أمتار النسيج .

لتصفح واحداً من هذه الكتب

مجموعة بنك مصر

السنوية ، التي ينشرها الاتحاد المصري

ومنافسوها

للصناعات . فمنه يظهر ان عدداً كبيراً من الحاجيات اصبح الآن محلياً . وبعضها

من نوع غريب حقاً . مثلاً هذه القبعات من نوع « البيريه الباسكية » التي لا اعلم

ان بين المدنيين من يلبسها غير الكاتب توفيق الحكيم . وعلى العكس ، كم

كان الناس يرتقبون صنع الاسمنت بأشكاله المختلفة كلها : الباطون ذي الخلايا ، الباطون المضغوط مسبقاً ، الباطون الذي سبق صبه الخ .. وهناك فصول (صناعية) اخرى ، مثلاً صنع المستحضرات الطبية ، تبعت ذكريات الكفاح المرير بين الاستيراد من الخارج والاحتكار الداخلي . وثلاثة المنشئين تشتمل على غالبية كبيرة من الاسماء المحلية . ومن المسلمين باكثريتها الآن ، ولكن لا تخلو من بقايا المهجرة اللبنانية في اوائل القرن . انما لو تصفحنا « كتاباً سنوياً » صدر من عشر سنوات فقط ، لما كان لنا مثل هذا الانطباع الاحصائي . ففي هذه الفترة ، استطاع الاقتصاد المصري ان يستعيد موافقه . والمشاركة الكوزموبوليتية تستعيد حقوقها في الفصل الذي اعطي له هذا العنوان الجلي : « الموردون الرئيسيون للصناعة المصرية » . فان مصادرها ، وخاصة علاقتها ، تعطي الدليل على مذهب في الاختيار لا يخلو من الامتاع . فهذا واحد يمثل في آن واحد مؤسسات في الدانرك ، وبلغاريا وفرنسا ، واميركا . وتجد البكولوجيا الاجتماعية كذلك موضوعاً للدرس في فحص هذا الفن الخاص بالشعارات التجارية : وانا اعني بذلك هذا العرض الطريف للأسماء التجارية ، والشعارات والعناوين البرقية ، والتي تميل احياناً كثيرة للمديح وتعنى بالفال الحسن : مثلاً عنوانات السيدا ... هو « الاعجاب كايرو Admiration Cairo او التي تشير الى الرحلة التي قامت بها المجموعة العرقية ، كما فعل تاجر جلود حين اختار الاسم : كويروس Cueros ، ليوحى موطنه سالونيك ، وربما اسبانيا ، التي ربما تحدر منها اجداده الأبعدون ... (١٥)

(١٥) « الكتاب السنوي الاتحاد المصري للصناعات » « والتجارة الخارجية في مصر » لعام ٥٥ - ١٩٥٤ . وقد حل الدكتور احمد رفعت محل المأسوف عليه صبحي وحيدة كسكرتير للمؤسسة .

وبالوسع التعليق طويلاً على هذه «الشعارات»* اما الاقتصادي ، فبإمكانه ان يقيم جهود المنشأة ، ونجاحاتها او فشلها . اما الباحث البسيكولوجي فبوسعه ان يسعى لجمع تواريخ حياة اشخاص ، او لتصنيف مواقف . ولسوء الحظ ، نحن نصل ، هنا ، الى ضرورة التحريات والاستقصاءات التي يلزم اجراؤها لتنفيذ الى التفاصيل الشخصية . صعوبة اضافية تقف في طريق الباحث الاجنبي الذي يقتضيه ألا يتخطى حدوداً معينة من التستر . والطريقة الوحيدة التي يمكن ادراكها هي طريقة الاستجواب ، على ما فيها من حظوظ متفاوتة بالنجاح . ولكن ذلك لا يمنعها من ابراز تنوعات اكيدة ، وكذلك تباعداً في المستويات . فان معرض التجارب البنائية الذي خرجت منه ، في أعلى ، ببعض الوجوه ، يشهد خاصة على محاولات وكفاءات فردية ؛ كان الحافز لها استهلاك ، تحذره طاقات بالغة التوتر . وبالطبع ، لا تزال (الرواسب والملاح) القديمة تغلب (في المجتمعات الاخرى) ، خارج لبنان . ففي بغداد مثلاً ، لا يبدو ان النمط قد تحرر بصورة واضحة . ولربما كان صاحب المنشأة المحلي لم يباشر نشاطه إلا في الاعمال الصغيرة الخاصة بإنشاء الطرق ، المرتبطة هي نفسها بعمليات اكبر لتنقل الناس والبضائع . وفي بعض الحالات الممتازة تلتفت الثروة العقارية نحو النشاط المصرفي ، وبصورة اكثر ندرة نحو الانتاج الصناعي . وهكذا فان عائلة الدامرجي التي تكاد تملك جميع حي الباب الشرقي ، في بغداد ، قد انطلقت في انشاء صناعة الدباغة . ومن الضروري وضع الدور الذي تلعبه بيوتات الاسياد والنبلاء ذوي الحساسية ، هنا كما في دمشق (آل العظم مثلاً) كملحق للدور الذي لا يزال بارزاً ، والذي يلعبه أبناء الأقليات . ولكن هذا الدور الاخير عرضة للتغيرات . وهو يتقلص بوضوح في مصر ، في السنوات الاخيرة . وقد بدأ شكل التعاطي الاقتصادي (او الترابط الحيوي) بين المشرف الاوربي والمساعد القبطي ، او المناقص الثانوي السوري ، يوغل شيئاً فشيئاً في مجال الماضي

وبالفعل ، ليس بالوسع فصل الشعور القومي ، والغريزة التي تدفع بالطبقات البورجوازية المحلية الى استعادة المواقع التي يحتلها رجل الاعمال الاجنبي عن هذه التطورات تميزاً هو تطور مؤسسة بنك مصر ، ذي التاريخ الطويل ، والجديد من حيث الفكرة والموارد وكذلك من حيث تطلعاته الجماهيرية .

كان طلعت حرب ، مؤسس هذه المنظمة محافظاً في اخلاقه بقدر ما كان مقداماً في اعماله . فقد سبق له ان أخذ موقفاً معادياً لدعوة قاسم امين الذي كان ينادي بتحرير المرأة من الحجاب . ويقولون انه لم يقبض ابداً فوائد عن امواله الموظفة . وبسبب عداوته لكل اشكال المقامرة ، اجبر احد المدراء البارزين في مؤسسته على بيع مجموعة خيوله للسباق . ورغم أنه كان حائزاً على شهادة الليسانس وجد مولع بالروايات الفرنسية ، فانه كذلك كان اديباً من الطراز التقليدي . وقد عاجله الموت بينما كان يعنى باعادة طبع مجموعة شعرية لصديقه ثحفي ناصف ، قدم لها بقلمه . وقد كان شديد التعلق بمكتبته . فقد كان يجمع ، اذن الى صفته كرجل اعمال صفة « الاديب » * والباحث الاخلاقي المسلم . وقد كان ترمته يذكر بتشابهات اخرى بين الاقتصاد والفكر ، لم تكف الاقلام عن التعليق عليها : دور البروتستانتية عند نشأة الرأسمالية الصناعية ودور المذمت الزميتي (le Puritanisme) الحنبلي عند مولد الولايات المتحدة الخ . . ومهما كان الامر ، فقد كان الانسان مسلحاً بتجربة راسخة من ادارة الاعمال ، اكتسبت خاصة في كوم أمبو وفي شركة مصر التعاونية . ومنذ عام ١٩١٠ ، هو يفكر بتأسيس مصرف . وقد كان لزاماً على افكاره التي عبر عنها في كتابه « علاج مصر الاقتصادي » ان تغلب على جميع الشكوك قبل ان يصل في ٢٧ مايو عام ١٩٢٠ ، الى انشاء المؤسسة . وقد اشترطت هذه المؤسسة اصدار اسهم شخصية (اي مبهورة باسم حاملها) بصورة تسبح بابقاء المؤسسة بأيدي المصريين . وقد استعملت اللغة العربية في كل معاملات

المؤسسة . اذ أن كل ثورة يجب أن توفق أيضاً بثورة في اللغة المستعملة . وفي الأصل ، هو يعتزم تشجيع مشاريع تتصل بالاقتصاد ، والمشاركة في شركات صناعية ومالية ، وتأسيس غرف تجارية ، ونقابات مهنية وتوسيع روح الاقدام على الأعمال ، والتضامن والتنظيم عند الشبيبة وارساء أسس سليمة للتثقيف الاقتصادي في البلاد .

وهكذا ينمو عنقود ضخمة من المنشآت يزيد عددها اليوم على العشرين . ويتضمن منطق هذا النمو عبوة . فهذه المؤسسات تبدأ بالرأس . ففي البدء ، أسست مطبعة وفي صورة أخذت يوم التدشين ، يظهر طلعت حرب محاطاً بالشيخين « التفتازاني » ، « والنجار » (عام ١٩٢٢) . وهذه الاحاطة تحمل مغزى خاصاً . ففي بداية هذه المشاريع ، نحن لا نجد إذت جو مناخ الفهم ولا اكتشاف « البغلة الجنية » ؛ وإنما التأكيد الثقافي . فقد بُدِيَء بالرمز ، بالإشارة . أما ما نسميه الواقع المادي فإنه لن يأتي الا لاحقاً . ولكن لنلاحظ أيضاً أن ذلك كان يعني البدء بأقل ما يمكن من الاخطار ، والتأكد من التصريف السهل بعد التمهيد له بعملية الاقناع . وتحاشي المنافسة الاجنبية وفي عام ١٩٢٥ تولد الشركة المصرية للمسرح والسينما : التي دلت على قدرة فائقة على التنبؤ بالقوى الاجتماعية - البناءة رغم كل شيء - التي عملت هذه الانشاءات الفوقية على ابتعاثها واكتشافها في طول العالم العربي وعرضه .

وبالطبع ، تعني قرابة الثلث من المؤسسات التابعة لبنك مصر بثووث النسيج ، من قريب أو من بعيد . فلم يكن بالامكان ان يكون الامر على غير ذلك ففي هذه العملية الوقحة التي كانت تقوم بها مصانع لانكاشير لتملك الأرض ، والفلاح وأخيراً الدولة المصرية ، كان هناك ما يحفز على القيام بعملية أخذ الثأر ،

أو على الأقل ، على روح المنافسة . ولهذا السبب نرى ظهور شركات مصر لغزل القطن والنسيج ، لحلج القطن ، ولاستخراج الزيت من بذرة القطن ، ولنسج الحرير ، ولتصدير القطن ، ولصناعة الغزل والنسيج من القطن . أخيراً تأسست عام ١٩٤٦ شركة لصنع الحرير الاصطناعي . وهكذا ، اذن ، يصل عدد الشركات التي تهتم بالمنسوجات الى حد السبعة . وأخرى جدي متنوعة : مثلاً شركات للملاحة النهرية ، وللتأمين (وهنا تظهر من جديد فكرة المخاطرة ، قلب النمو الرأسمالي الحديث) ، وشركات لصنع الادوية والمستحضرات الطبية ، ولانتاج الاسمنت المسلح ، ولتسويق الزيوت ، الخ ... أعمال ضخمة ، لم تسر دائماً ، كلها على ما يرام والتي ربما اصابها أحياناً الموجة الحلقية التي يجاربهها القانون المصري الأخير . ولكن المؤسسة الاحتكارية تنهض من كبوتها وتنعيم ، ابتداء من ١٩٣٠ ، بعيويه أكثر اقداً على الاعمال ، بفضل الزخم الذي يبثه فيها حافظ عفيفي ، وخاصة هي تفيد ، منذ الحرب الاخيرة مثلما تفيد المؤسسات الاخرى ، من دفع الاموال المنهورة التي كان ينثرها تموين الجيوش الحليفة فوق جميع تلك المنطقة الجغرافية ، من مراكش الى العراق ، والتي سوف تستخدم خاصة في مساندة زعامة البورجوازيات المحلية في معركة الاستقلال . واليوم تستطيع ادارة محمد رشدي أن تفخر برأسمال لبنك مصر يقدر بمليوني جنيه مصري (عام ١٩٥٥) وباحتياطي وصل في السنة نفسها الى ٥,٧٩٨,٢٨٣ جنيه مصر ، وبأرباح صافية تتجاوز ٧٥٠ مليوناً .

وفي المعرض الصناعي الاخير الذي أقيم في الجزيرة^(١٧) كانت المؤسسة تحتل

(١٧) انظر « المجلة الاقتصادية السياسية » يناير عام ١٩٥٩ ص ٣١ . ومنذ كتابة هذا السطور ، امتت الدولة بنك مصر .

القسم الاكبر من القطاع المخصص للمبادرة الخاصة ، في الجناح المركزي . وكانت المنسوجات القطنية والحريية والصوفية تؤكد بلوغها مستوى من الجودة يتيح لها المنافسة على الصعيد الدولي . انها لنهاية مطاف جميلة لهذا الرفيق القديم لطريق التحرر المصري . ولكن اذا كانت تجربة مؤسسة مصر ، تنادي ، عن حق بكونها أقدم تجربة في هذا المجال ، فانها لم تعد الوحيدة في الشرق . ففي مصر نفسها تستحق وجوه أخرى أن تسترعى الانتباه . وبإمكاننا ان نذكر رائداً في صناعه التعدين هو هنري رباح ، وأناً مثل فرنسوا تاجر ، شيه مصري لبوساك ، والسباعي والشوربجي الخ ... ويلزم خاصة استخراج العبرة من حياة مثل حياة المهندس عبود .

فهذا الاخير قد بدأ في فلسطين . وفي عام ١٩٣٠ ، هو يبدي الاهتمام بالصناعات التي تدخل في مجموعة أسوان مثلًا الاسمدة والسكر . ثم بكورنيش الاسكندرية الشهير ، الذي تحدثت عنه الصحافة فيما بعد ، أحاديث جمة ، ثم بقصبة كوم أمبو ، وبأوتوبيسات القاهرة ، واخيراً بكل أنواع المشاريع التي لا تزال قائمة في العهد الحاضر بحظرظ متفاوتة من النجاح .

والنظام الحالي ، كما هو معلوم ، لم يبد أي عطف على راسماليين كبار آخرين ، مرتبطين قليلاً او كثيراً بالاتجاه الوفدي من امثال محمود عبد الفتاح . وفي الحقيقة ، يتمثل صاحب الاقدام الانشائي في الوقت الحاضر ، بالموظف البيروقراطي النشط ، مثل المهندس محمود يونس ، المدير الحاذق للمنظمة التي خلفت شركة السويس (١٨) . أو برؤلاء المالىين ، ومنهم من ينتهي

(١٨) انظر كذلك : « قناة السويس ، تحت الإدارة المصرية » نيسان ايار ١٩٥٩ .

الى طراز رفيع ، مثل اولئك الذين جهدوا ، بواقعتهم وتهذيبهم ، في جنيف
والقاهرة لترقيع الأمور بعد عام ١٩٥٦ ، وقد عرفت مصر كيف تقدم ،
في هذا المجال ، اناساً يتمتعون بكفاءات عالية ، على صعيد المقارنة
الدولية .

ولكن ، في هذه الجولة التي قمنا بها على غير هدى ، والتي قادتنا من بلد
بلد الى آخر ، وفقاً للصدف وحاجات دراسة نمطية تنوي عدم التقيد بأية
حدود بين بلدان المنطقة ، ها نحن قد اضطررنا للوقوع على نوع من النسخة
الثانية لنمط هؤلاء المديرين الرسميين في شخص أميل البستاني ، المدير الدائم
الانشراح لمؤسسة الكات ، والبستاني ماروني من الجبل قد اعتنق البروتستانتية ،
وهو ذو ثقافة انجليزية . وهذا يشكل تراكمًا رهيباً من الامكانيات ... وهو
قد انتهى ، من زمن قريب ، من اصدار كتابه « شكوك وديناميت » (١٩) وهو
عبارة عن تحليل للشرق بقلم رجل متشبع بالروح الغربية ولكن تصل مشاريعه
لان تقدم هؤلاء ولأولئك حلولاً تأليفية قائمة على التسوية ، معتمداً على التوفيق
بين عامل مظهره وثقافته وميله ، وعامل الضرورات المحلية ، - وهو يدركهما
بمهارة .

والحل التألفي الذي يقترحه لم يبدو عليه أنه لاقى النجاح في المؤتمر العربي
الأخير لشؤون البترول الذي كان غائباً عنه أحد كبار الملاكين ، عنيت العراق .
ومشاعر العرب ، في هذه المرة ، كانت متجهة عكس انتهاز الفرص العملية :

(١٩) اميل البستاني : « شكوك وديناميت » ، الشرق الاوسط في الوقت الحاضر
لندن ١٩٥٨ .

الفصل السابع

امامة في العصر الحديث

في نهاية تموز ١٩٥٨ دشّن وزير الصناعة المصري صناعات جديدة : لمعالجة الرمل الاسود ، في الاسكندرية ، ولحفظ المأكولات في مواضع أخرى . وأخيراً مصنع الحديد والصلب : وأعني الكومبينة الشهيرة التي أسستها شركة «ديماج» Demag في حلوان . وبالإضافة الى ذلك محطة لتوليد الكهرباء في جنوب القاهرة ، ومصنع لشاحنات السكك الحديدية في حلوان ، ومصنع البطاريات الكهربائية ، وآخر لصنع الادوية (١) . وبعد سنة من ذلك ، يعلن عن خروج السيارة « رمسيس » من المصنع . وقد أصبحت الصفحة الثالثة من الصحف مكرمة لمظاهر النشاط الصناعي وبحكم الصدق ، يمكننا أن نصيد ، ذات يوم من الأيام ، آلاف الوقائع الصغيرة التي تكشف عن ألوان الكفاح والانتصارات بقدر ما تكشف عن الصعوبات المعترضة : قرض بخمسة ملايين ونصف من الجنيهات المصرية قد منح لشراء ادوية من الخارج . وبالفعل ، فإن

(١) انظر صحيفة « البورصة المصرية » ، في ٢٣ يوليو ١٩٥٨

(٢) السيارة « رمسيس » قد دشنت في يوليو ١٩٥٩

المؤسسة الوطنية التي تحتكر هذا الشراء ملزمة في ان تاخذ بعين الاعتبار ، في هذا المجال ، اذواق جمهور معين من الزبائن . « لقد اخذ بعين الاعتبار نوع الادوية التي يجب ان تصنع محلياً ، انما سيصار الى استيراد كميات صغيرة من منتجات مماثلة لتلك التي سوف تصنع محلياً ، هكذا تعترف الصحيفة والمقاومة التي تبديها فئة معينة من المستهلكين تلوح خلف هذه السطور . إن قرصاً بليون ونصف يعطي لتشديد مساكن للعمال : عملية تكمل في حي « الدقي » وفي احياء اخرى ، مع وجوه متفاوتة من النجاح على الصعيد الجمالي والاجتماعي ، ولكن حسن النية يتعلو بصورة ساطعة . وها هم الخبراء السوفيياتيون يظهرون ، قادمين للاهتمام بالزنك والفحم : فكانوا فزاعة مخيفة للغرب - وتشجيعاً - محدوداً جداً - للاشترابية المحلية . وكما لو كان الامر صدفة ، تعلن الصحيفة في مكان يبعد بضعة سطور الى الأسفل ، عن وصول بضائع انجليزية الى الاسكندرية ، وعن مبادلات مع اسوج ، أو أيضاً ، تحت أبواب أخرى : عن انشاء كومبينات انتاجية في سوريا ، وفي سيناء ، وعن صناعة مقبلة ، تحويلية ، منبئة بصنع ثوب - نموذج للطلبة ؛ وهم الزبائن الجاهزون (لاستهلاك مثل هذه البضاعة)^(٣)

وبالحقيقة ، كم هناك من أشياء يمكن العثور عليها في صحيفة ... فتحت أقنعة البراءة المزيفة التي يتقنع بها النبا اليومي ، تطل في وقت واحد حركة التجميع المركزي للسلطة ، والرغبة في الامساك بالاقتصاد من جميع الأطراف ، في آن واحد ، ومقاومة الواقع والحقائق .

ولم يكن لقضية السويس وقوانين التمصير من أثر ، في هذا الميدان الا

(٣) صحيفة البورصة المصرية ١٣ يوليو ١٩٥٨ .

(٤) فيما يتعلق بهذه النبذة التاريخية ، راجع خاصة بعد الثورة «مشروع السنوات الخمس » القاهرة .

بالتعجيل في حركة الاستعادة الوطنية التي بدأت في مصر منذ عهد طویل .
ولكنه ، على كل حال ، تسارع ، وخاصة منهجة . فینشأ مجلسان كبيران :
يشمل واحدهما « الانتاج » * والآخر « الخدمات » * أو التجهيز الاجتماعي .
ومنذ حوادث ١٩٥٦ ، تضطلع « المؤسسة » * بالشؤون المؤممة ويمارس
مجلس « التخطيط » * النوع ذاته من الصلاحيات . وليس في نيتي دراسة
التناسق المتبادل أو السلطة العائدة لكل من الاجهزة المختلفة ، فاتجاهها المشترك
ذو الطابع الموجه هو وحده الذي يلفت نظرنا . وهكذا فان « المؤسسة »
المرتبطة رأساً برئاسة الجمهورية ، يقع في واجباتها أن تنمي الاقتصاد بعمليات
صناعية ، وزراعية ، ومالية ، وحتى تجارية . وأن تقوم ، من جانب آخر ،
بالمراقبة المباشرة على المؤسسات الخاصة ومن هنا كان تأليف شركات تجارية
ومالية وصناعية تتصف بمساهمة كبيرة بالأموال من قبل الدولة . وقد نص
في المادة السادسة ، على أن المؤسسة تستطيع ان تشكل مباشرة ، آخرون .
وأعضاء مكتب التسيير يجب ان يكونوا مصريين بالولادة ، وان لا تكون لهم
مصالح في الشركات التي يتعامل معها المكتب : وهو تدبير ذو مرمى اشتراكي
مهم لأنه يهدف الى تبديل في أرباب السلطة .

دراسة غطية وبالفعل ، فان هذا المفرد « المؤسسة » *
لنظام الاقتصاد الموجه في الشرق الذي أنقله الى
الفرنسية بعبارة « Institution » والذي ينقله الجمهور ذو اللسان الفرنسي
بعبارة « Organisme économique » ، أليس هو ، في الحالة الراهنة التي تستوقفنا ،
المعادل للمنشأة « Entreprise » ، لقد سبق لي ان اجبت بالنفي على هذا
السؤال . ولكن يمكن القول ان مصر ، حيث يذهب هذا التوجيه بعيداً جداً
تجد في مبادرة الدولة نموذجها الفريد للمنشأة . وهذا النموذج ، يبدو ؛

لاول وهلة ، ملحفاً « للأعمال الكبرى » التي تقوم في الجوالليبرالي مثل تلك التي نجدها في بيروت مثلاً . ولكن لنجذر من المقارنات المبسطة (الهادفة لاكتشاف التضادات) فكل وجوه السلوك العربية ، حتى تلك التي تتنافس من حيث المباديء والاهداف ؛ تترابط بينها بالقربي ، ومن هنا عمليات تخاصم وقد اخل تحير أحياناً كثيرة المراقب الاجنبي ، صحيح ان الحدث يأتي سناً للتعويضات وأن الوضع السيامي يبسط الأشياء . « فالمؤسسة » المصرية تأتي بصفة وريثة وعامل تصفية . من وجوه كثيرة ، للأعمال الفرنسية الانجليزية ، وأشهرها شركة القنال . وهي تنصب نفسها ، على نمط الشركة الدولية ، المنشأة النموذجية . وهذه المقولة المعاكسة (انتيتيز) سوف تسيّر أحكامها . ففي الشرق اليوم يقف نوجان من الدينامية الاقتصادية متعارضين ، على مستوى الكتل الاحتكارية الكبرى : من جهة الشركات الأجنبية الكبرى ومن جهة أخرى ادارات التسيير المنبثقة عن الدولة . « فالمؤسسة » ليست امتداداً لمبادرات أناس من أمثال اميل البستاني أو المهندس عبود . وإنما لأمثال شركة قناة السويس السابقة ، وشركة مرفأ بيروت ، وشركات التابلين والارامكو والاي بي سي . ويتأكد التناقض حتى في التفاصيل ، فالارامكو والاي بي سي الخ ... بتقدمها الفني ، والمخططات الاستراتيجية التي تحضن الكرة الأرضية بمجموعها ، والشبهة الاحتكارية ، تمثل الشكل الأقصى للنظام الرأسمالي التوسعي القديم ، والذي يحمل في الواقع من الطابع « الكولونيالي » أكثر مما تحمل الأشياء التي تدمغها اليوم كلمة « استعمار » وبالمقابل ، ينبغي النظام العربي القائم على هيمنة الدولة أن يبدو نوعاً من المقاومة ومن استعادة الحقوق . وهو ، إذ تثقله الظروف المحلية ، وعدم التجربة ، وعدم الاستقرار المالي ، يبحث عن قوته في التجاوبات الشعبية التي تثير انفعالات الارادة العميقة والتي كانت ، حتى الآن خرساء في هذه البلدان . ومن هنا كانت

غرابة الكثير من مبادراتها ، وكانت الحماسة التي تثيرها الفوارق في أساليب العمل ، مظاهر تقف على النقيض من مظاهر أخرى تتجلى في شعوب أخرى وتلحدر من أنظمة أخرى ، رغم وجوه الشبه التي أغدقت بسخاء وبكثير من التساهل . اذ ان رؤية الفوارق الأساسية بين تأمين قناة السويس وتأمين مصانع رينو ، وبين مشاريع المؤسسة وعمليات التخطيط السوفياتية (٤) ، لا تعني في اعتقادنا ، تضخيم جانب الاختصاص في الاقتراب للدراسة ، أو جانب الفوارق الخاصة بالبيئة .

وهذه الامور هي من الحقيقة بحيث ان التحليل لا يستطيع ان يفصل هذه التجارب الشرقية عن التأييد الاجماعي الصاحب الذي يساند القائد أو « الزعيم » فهو في الواقع ، الذي يلعب ، في هذه المجتمعات ، على الاقل جزئياً ، وفي جوانب معينة من شخصيته ، الدور الذي يقع ، في مواضع أخرى ، من نصيب المجدد الاقتصادي . وهو يتصل بقوة الاستمرار الاسلامية ، أو على وجه أعم ، الشرقية ، التي وقع حماتها الفريسيون ، المتظاهرون بالتقوى والمنادون بالمحافظة على التقاليد ، في أوجال فضائح العهد الاستعماري . فبوسعه إذن ، طالما ان الاجماع يرفعه عالياً ، أن يحرك الزعشات والاصداء المتساوقة العميقة ، ان الكلمة في شفيتها ، تبعث ، مؤقتاً واجماع الامة ، ● وعلى هذا ، پسعنا أن نفهم لماذا تبدو السلطة التي يجمد ، والنظام الذي يفرض ، والرفاق الذين ينفوس ، كما لو كانوا وحدهم القادرين على مواجهة مهام ادخال التيار الحديث .

(٤) محمود محمد ابراهيم . في محاضراته حول مشاريع التخطيط المصرية والهندية بدا في التأكيد على ان كل عمل تخطيطي مصري يلزمه ان يصدر عن ينايع قومية ، وان عليه الا يقدم غير منهج مستقى من الواقع الايجابي لحاجتنا « من واقع احتياجاتنا ● ومن الظروف » الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية التي تعيق بنا « رسائل مجلس التخطيط المصري ، رقم ٦ ص ١ » .

ولا يسهه ، وهو على هذه الدرب ، إلا أن يحل محل رجل الاعمال وأن يسيطر على المهندس ، ليس فقط لان أسلحة هذين الفردين ، سواء أكانت رأسمالاً أم معرفة تقنية ، هي أبعد من أن تكون على القوة التي هي عليها عندنا ، ولكن خاصة لانه ينافسهما في وظيفتهما ، مؤمناً الغلبة عليهما .

وفي المدينة العربية القديمة كان التاجر ، الذي كان يؤمن التوازن تجاه رجل الدين يشكل الطرف الآخر لعملية التوازن . والتبعية تجاه الاجنبي ؛ قد أحدثت في الوقت الحاضر ، التشويش في اللعبة . فالتاجر ورجل الدين ، كلاهما ، قد أحدثا التسوية مع التبعية ، حتى على صعيد المعارضة . فان مشاركتها في النضال القومي البورجوازي الذي كان يميز فترة ما بين الحزبين حزب « الكتلة السورية » وحزب « الوفد » المصري مثلاً لم تستطع ان تنفذ طبيقتها ، ولم تحملها أكثر أهلية للاضطلاع بالمهام الجديدة . وسواء كنا متمتعين بخيرات النظام السابق ، او معارضين له ، فانهما يتحملان اليوم ، نتائج انهياره ، لانهما كانا اكثر الأحيان يعملان داخل هذا النظام المولي . ففي العالم العربي الجديد هذا . الذي تقلد فجأة مسؤوليات الاستقلال . والذي لم يعد يحميه بعد الآن من المنافسة العالمية . أي عطف خاص من جانب دولي ، حتى لو كان هذا العطف نفعية أو تواطؤاً في هذا العالم ، أقول لم يعد التاجر او رجل القانون ، ولا العامل هو الذي تتجه اليه الجماهير للاضطلاع بالاهلية للمقاومة أو التجديد وانما هي تلتفت « للزعيم » عامل الاستعادة ، أو على الاقل عامل إعادة النظر ، ومستقطب القوى في جهاز وطني تم في السابق التخلي عنه أو اضاءة تركيزه .

وهو ، اذ يستمد سلطته من زخم اندفاع شعبي نحو العدالة والعقل ، يعد باعادة الانسجام — الذي ظل مدة طويلة مطبوساً — مع أخلاقية لم تستطع الفترة

الليبرالية في هذه البلدان - والتي تشاء الصدق ان تطابق الفترة الاستعمارية - ان تنسى هذه البلدان الحس الغريزي بها ، وبينما نرى ان المذهب الاصلاحى المرتكز على الشريعة ، والذي دفع به الاخوان المسلمون في طريق التطرف الذي لا يطاق ، قد فقد اعتباره بسلوكه الاتباعي التقليدي اكثر مما يسبب عنفه الذي لا يخلو من الدجل ، تقوم مبادرات الزعيم الاقتصادية باعادة التوفيق بين العالم الحديث والاخلاقية الاسلامية . في اطار من الظروف القائمة على الانجازات المحسوسة . وعلى هذا الصعيد ايضاً ، هو يؤكد ذاته اكثر اصالة من خصومه ومنافسيه . واكثر احتراماً للرموز القديمة .

اذ ان الشرق العربي حتى في تكيفاته الأكثر ذكاء مع العالم الصناعى يجد صعوبة في التخلي عن حذره تجاه فائدة الراسمال واطار التعامل . وفي هذه الظاهرة ما يفسر التحفظ الذي لا يزال يبدية رجال الدولة فيه تجاه العمليات المالية . واذا هم اظهروا اشمئزازاً منفعياً من التضخم المالى . فليس مرد ذلك فقط الى انهم مستشاريهم من هم تلامذة قد حفظوا جيداً دروس اساتذة قويمين (ارثوذكس) ولكن خاصة الى انهم يتصرفون بصورة رد فعل ضد نظرة الصيرفي الذين يخشون . عزيزياً ، دهاها السردابي .

وبعد ، فان الاخلاقية الاسلامية التي يستوحونها كانت ، بتعريفها التقليدي للربا ورفضها للعبة المالية ، تعبر مع كل فجاجة صعود الاكثرية التي كانت مبعدة ، حتى الآن ، عن ميل نحو علامات اخرى (غير الربا واللعبة المالية) ، عن ميل نحو العلامة اللفظية . وهذا الموقف لم تنفهِ الوقائع حتى يومنا هذا . صحيح ان العلامة اللفظية تدخل اليوم في تنافس مع العلامة الحقيقية ، فالكلمة والعددي مهددان بالقدر نفسه ، بانتصارات الشيء .

ولكن هذه الانتصارات تستطيع ان ترضي نزعة اسلامية أخرى نحو الاختيار .
فان الاتجاه القديم ، في هذه المجتمعات ، نحو المباشر والمحسوس يتضافر ويتساند
مع الاندفاع نحو المتاع الصناعي ، والاسلام بوسعه أن ينجح في تحقيق عمليات
مساوقة (وتوفيق) جديدة ، بفضل عمليات تحويل يجريها مواجهة . فمن
هذه الزوايا التي شققناها للنظر أيضاً ، يتفوق « الزعيم » * على رجل الأعمال ،
ويعدُّ بأكثر وبأفضل في نظر مواطنيه .

وفضلاً عن ذلك ، فان التاجر الشرقي ، قد برع أكثر الاحيان ، وحتى
هذا اليوم ، بالنعومة والنفاد ، في المضاربات التي يقوم بها أكثر مما يتميز
بالاستقامة والدقة والجرأة في المخاطرة . ومن هنا كانت نزعته نحو المساومة ،
وتردده في توظيف ماله ، وأناقته وطيبته الظاهرة (في علاقاته الانسانية)
وبعض التقلب (٧) . وعلى العكس تماماً ، في الحركة الشرقية الجديدة
العاملة على التشديد في المركزية ، يستطيع البعض ان يجيوا صعود
الروح الحديثة ، والآخرون العودة الى التقاليد . اما الطبقة
البيروقراطية (طبقة الموظفين) ، والتي تظل أكثر الاحيان مبهمه السلوك ،
ومعلقة بارادة الزعيم في اصغر التدابير التي يلزمها ان تأخذها ، فانها تقوم ، حتى
باخطائها ، بعملية البناء وبتطمين الضحايا . وهي تحيط نفسها بملاك متواتب في
نظام هرمي يشبه النظام ذاته الذي كان يميز السلطات الشرعية ، او الروحية .
والتساهل يشمل نواقص هذه الطبقة أكثر مما يشمل الفوضى المتطرفة لدى رجال

(٧) انظر دالتون بولتر Dalton Polter في « تاجر السوق » المنشور في كتاب
« القوى الاجتماعية في الشرق الاوسط » طبعة ثالثة ص ٩٩ وما يلي .

الاعمال . او بالاحرى هي تنعت نفسها ، في حسناتها وسيئاتها ، على نقيض حسنات وسيئات رجل الأعمال . فهي وطنية فيما يكون ، هو ، تابعاً ، في قليل او كثير ، الاجنبي . وهي منتظمة في مسلكها ، فيما ، هو ، يداور . وهي فظة ، فيما هو يتسلل بنعومة . ولتنظر من قرب اكثر . انها تقيّد من انقلاب الفترة الاستعمارية ، التي كان يعمل فيها منشثوا الاعمال امثال ويلكوكس Wilcocks (٨) وبول بورد Paul Bourde ، « وبناء الجسور ، وغارسي الاشجار اكثر مما كان يفيد أي مستوطن بقرم بمعالجة المواد الاولية او بالعمل الصناعي . ولقد كان اولئك المنشثون يمارسون في الوقت ذاته ، عملية ادخال اساليب جديدة في الحياة حريصة على تجاوز الجوانب المتصورة على جمع الارباح ، وعملية سيطرة كانت تطمح ايضاً الى الاقناع . واذا كان الامر كذلك ، فان المبادرة الاقتصادية تستمد ، في الحاضر ، قيمتها وصحتها في هذه البقعة من العالم ، من حركة التجديد :انها ، ولكنها تجري هذه المرة بكفالة مجهود يتجه نحو نزع السيطرة ، فيما يضع الشعور القومي لها ابعاداً تزيد في تضخيمها (٩) .

ولئن حدث ان توافقت هذه الصحة في المبادرة الاقتصادية الصائبة مع ظاهرة استمرار في نظام هيمنة السلطة ، الراسخ الجذور على ضفاف النيل ، فانها لا تجند الاجماع فحسب تبعاً لذلك ، فهذا قليل ، ولكنها تكسب الفعالية . وعملية

(٨) الذي، اظهرت الصحافة الوطنية المصرية نحوه روحاً عالية من الانصاف . وسكوت مونكريف Scott - Moncrieff ، وهو احد العاملين في شؤون الري ، هو على حد علمي ، الانجليزي الوحيد الذي ترك اسمه على احد شوارع القاهرة .

(٩) يؤكد بحث قيم لتيري بروترو E. Terry Prothro وليفون مليكيان Levon Melikian في مجلة Public Opinion Quarterly الجزء ١٧ ، العدد ٣ ، مستنداً الى اختبارات اجريت في الجامعة الاميريكية ببيروت ، صحة المقياس F. المدعو « المقياس الكاليفورني » . « ولكنه لا يظهر نسبة ايجابية بين نظام الحكم الفردي والاتجاه المحافظ في السياسة والاقتصاد » وردت بالانجليزية في النص الاصل . فليس « الاسلوب » وحده ، هو الثوري ، وانما الوظيفة التي هي نوع من « التجديد » ، بمفهومه الكلاسيكي .

الارتقاء والتسامي غير المنتظرة التي حققها المرشدون المصريون في قناة السويس ، بعد ١٩٥٦ ، تؤكد ، بصورة موازية ، العلاقة الحميمة بين كل هذه الظواهر ، واثر الدينامية الجماعية على ميدان كان المخطط النظري الليبرالي يحسبه وقفاً على التجربة والتخصص . ولكن علينا ألا نذهب بعيداً في مثل هذه المراهقات . إذ ان التعليق على النجاح او الفشل ، بعد حدوثها ، هو اسهل من التنبؤ بها علمياً . ولكن من الذي يجرؤ على اهمال ما يمكن ان ينجم عن هذا « الدرس » ؟

زخم النشاط المصري

لقد سبق لي ان فحصت بمض

جوانب تاريخية من حركة التصنيع

في مصر ، من زاوية المنشأة . وعندما ينظر اليها من زاوية مجهودات الدولة ، نرى انها ترجع الى يوم أمنت الدولة ، بتقديم عقاراتها ، الاعتمادات التي منحتها مؤسسة بنك مصر ، في عام ١٩٢٣ . (١٠) وفي عام ١٩٤٧ ، كان انشاء البنك الصناعي . وتعطي ثورة ١٩٥٢ اندفاعاً متسارعاً لهذه النشاطات . ومنذ عام ١٩٥٦ ، هم يتحدثون عن التخطيط . وتقوي هذه السياسة ، وعن صواب ، جانب الدرس . فترسم لوحة اجمالية تكاد تكون اوتوماتيكية لقيادة جميع المجهودات . وهذه المجهودات كان عليها ان تنظم نفسها رهناً بتنمية ذات عدة شعب : الصناعات ، المناجم ، النفط ، وفي الوقت ذاته ، الانتاجية والتثقيف المهني . او يلزم ان يدرس كل مشروع من عشر زوايا ، لا اكثر ولا أقل . مثلاً : الانعكاسات المرتقبة للمشروع على الدخل القومي ، وحاجات التمويل ، والحاجات الى العملات الاجنبية ، الربح المنتظر ، وامكانيات تأليف رأسمال في المستقبل ، والتأثيرات على الانتاج ، وعلى الاستهلاك ، واخيراً الانعكاسات الاستراتيجية ، وهذا الجانب يترك للأخير ، ولكنه ، من بعض الوجوه ، قد يتحكم ببقية الجوانب ، وأخذاً بعين الاعتبار للنظرة المرتكزة على الاكتفاء

(١٠) النشرة الاقتصادية . عام ١٩٤٨ المجلد الثالث . ص ١٣٣

الذاتي .

ورغم كل هذا ، فليست هناك رغبة في تثبيط عزائم الراسمال الخاص ، فالاموال العامة تكتفي بان تدل على الطريق . انها هي التي تبدأ بتشكيل الراسمال الموظف . ويفترض ان تستطيع الراسمال الخاصة توسيع مجالها في التوظيف ، في خلال خمس سنوات (١١) . وهكذا ففي سنة ١٩٦٠ ، يرتفع الراسمال الخاص الموظف ، في المصانع (التي انشئت) الى قرابة الخمسين مليوناً من الجنيهات ، والرأسمال العام يبلغ فقط ثلاثة وعشرين مليوناً . وذلك يعود ايضاً الى ان المصانع التحويلية تم بصورة اكثر مباشرة الراسمال الخاص . وفي قطاعات اخرى ، تنقلب النسبة . وبصورة متوازية تصدر كل انواع التدابير التي تتركس سلطات تحكم الدولة بالاقتصاد وتقويها : ويرى بنك الاصدار نفسه مسلحاً بصلاحيات تعطيه حصة الاسد (١٢) ، ومنها حق مراقبة عمليات التسليف ، والاشراف على البنوك الاخرى ، فهو يستطيع ، مثلاً ، ان يفرض على هذه البنوك ان تودع في خزائنه اموالاً بنسبة يستطيع ان يحددها هو ذاته . وهو كذلك الذي يحدد نسب الاموال النقدية التي يتحتم على هذه البنوك الاحتفاظ بها ، وهو يستطيع حتى انشاء اقسام تجارية ذات قدرة مباشرة على المنافسة . وفي مقالة ليست بالبعيدة بحتج الدكتور سعيد (١٣) على هذا التدبير الاخير ، الذي يبدو ، في نظره ، تدخلاً اكثر من اللازم (في الميدان التجاري) . وفي الاتجاه ذاته يذهب قانون الشركات المساهمة المعد لطبع تسيير هذه المؤسسات بالطابع الديموقراطي . (اي بتفتيت ملكية الاسهم بتوزيعها بين عدد اكبر من المساهمين - المترجم) . وامثال هذه التدابير ، المرفقة بحملة تصير الوظائف في المنشآت

(١١) « الصناعة بعد الثورة » ص ١٠٤ وما يلي .

(١٢) القانون المصري رقم ١٦٣ ، من عام ١٩٥٧

(١٣) « مصر المعاصرة » العدد ٢٩٢ - ١٩٥٨

الخاصة ، تهدف الى تقليص الدور الذي يعتبر اكبر مما يجب ، والذي كان يلبيه ، في الاقتصاد المصري شخصان متوازيان : : الوجيه (او ابن الذوات المصري) والأجنبي ، البيك والخواجه ، الوجهان التقليديان اللذان لا يخلوان من الطرافة في هذا الاطار الخاص . وهي تتجه ، بشكل ملحوظ ، الى اعادة توزيع الدخل والوظيفة والى بعث بورجوازية متوسطة وصغيرة يشكل الجيش رأس الحربة فيها ، ان صح التشبيه ، وذلك بتوسيع المشاركة من قبل اصحاب الرساميل المدخرة الصغيرة ، وباحداث تعدد في المراكز البيروقراطية في زمن قد يطول وقد يقصر .

وبما لا شك فيه ، ان مثل هذه التطلعات لا تستطيع ان توضع موضع التنفيذ دون حدوث هزات ، ولا دون ارتكاب اخطاء ، بعضها يدعو كثيراً للأسف . وهي ، بالتأكيد ، عرضة لنقد خصوم النظام الموجه ، وضحاياها . ولكن الانتقادات التي تبرز قضية فعالية (هذه التدابير) تبدو اكثرها خطورة . فهي تشير ، مستندة الى الوقائع احياناً واحياناً بصورة مجردة ، الى الارتجال وعدم التناسق . فيقال ، مثلاً ، ان فرناً ينفجر لان الفحم لم يصل في الوقت المناسب ، وان احد الالمان الذي قدم عرضاً في احد العطاءات (الالتزامات) لم يستطع ان يدرك الاعتراضات ، الدالة على « تخلف » ظاهر ، التي واجهوا بها عرضه لاقامة مصنع امجين الورق : فكاد يجن ، وأخذ ييم على وجهه ، في شارع سليمان باشا ، يخاطب نفسه كمن به مس ، على كل حال ، فان حمارة القميص كان من شأنها ان تعين على احداث هذا الاضطراب . وفي موضع آخر ، يصار سراً الى بيع عتاد باعظ الثمن . وهناك ايضاً فشل تجربة « مديرية التحرير » التي كانت ، على ما يبدو الوحيدة التي اذيع خبرها بصراحة . والى الصعوبات العامة التي تلاقيها عمليات التسيير من قبل الدولة ، تضاف الصعوبات التي تقيسها عدة من الاخطاء ووجوه المعز التي يمكن ان تعزى الى ماضٍ ثقيل ، الى « جاذبية التاريخ »

هذه ، التي كان يدل عليها صبحي وحيدة ؛ في كتاب بالغ النباهة . وهذه الجاذبية هي من الثقل بحيث لا يبقى امام الجهود المبذولة لرفعها الا ان تندحر ، حيناً ، اوان تتجاوز الحد المعقول ، حيناً آخر .

وقد رأينا ان توظيف الرساميل الخاصة قد بدا دائماً بالغ الرجل في هذه البلاد . وربما قد بقي على هذا الحال ، وقد ظل ، زمنياً طويلاً ، يتخذ الشكل الاقطاعي ، ويتبع الاراضي التي كان يمتكرها الاسياد . وبعد الثورة ، وتطبيق الاصلاح الزراعي ، وهبوط اجارات الاملاك الزراعية تم اجر الرساميل الخاصة الى العقارات في المدن . فاضطرت الحكومة ، في سبيل اخراجها من مكنها هذا ، الى اللجوء لتحديد الاجور ، ليس فقط فيما يتعلق بالابنية القديمة ولكن حتى فيما يختص بالعمارات الجديدة . وفي الوقت الحاضر ، يقوم الرأسمال الخاص ، الذي يشعر بانه مطارد ، بعمليات الاختباء (الاكتناز) ، او الاستيداع في البنوك ، او بالمضاربة في البورصة . وهو ، بهذه الاشكال ، يفيد ، على طريقته الخاصة ، من قفزة الاسعار التي حتمتها تدابير الحماية في سبيل الاكتفاء الذاتي . ولكن ذلك لا يسمع بالقول انه بدأ ، حقاً ، بمبادرة نابعة من ذاته ، في التوظيف البناء . وانا اتجاوز الصعوبات التي تعود الى عدم الكفاية في تدريب الموظفين . فالطبقة البيروقراطية الصغيرة تظل اكثر الاحيان مغلولة اليدين او عديمة الكفاءة . وليس بالوسع ان تنتزع منها اكثر القرارات تواضعاً الا بكل صعوبة بالغة . واكثر الاحيان يبلغ سلال اللامسؤولية ، الصاعد ، ان صح القول ، حداً من الجمود يجعل الموظف دائماً الرجوع الى الرئيس او الى ممثليه العسكريين ، في كل قضية ، مهما كانت صغيرة . وفي كثير من الحالات ، يفرض القانون ذاته ، على الادارة ان ترجع الى مجلس الدولة (مجلس الشورى) ، في القضايا التي تثير مسألة مبدأ . وتأخر المعاملات في انتظار رأي مجلس الشورى ، وهو هيئة بطيئة في عمليات وضعها وولادة قراراتها وكل منشأة ملزمة بالرجوع الى رأي ارفع المراجع ، قبل ان

تقرر زيادة الرواتب بمعدل ١٥ جنياً مصرياً . وبالرجوع اليها ايضاً ، كلما اقتضت الحاجة الاتصال باجنبي . وبعض مساويء النظام البيروقراطي ، المشتركة في كل البلدان ، تنضاعف هنا باخطاء خاصة بالوسط ، وبالضيق الذي تخسه الطبقات التي ارتفعت حديثاً . فالمبادرة تخيف الموظفين . والعمل يبلبلهم . والدولة تبسط سيطرة ترداد ، يوماً عن يوم ، ايغالباً في العزلة . وكلما اقتضى الامر السفر للخارج ، يتعم على طالب السفر ان يستعدي طويلاً ، وبصورة عقيمة ، تأشيرة للخروج .

وربما يكون الانقطاع عن الخارج اكثر ظاهرات هذا المجتمع جزأ في النفوس ، على الاقل بالنسبة لكبار البورجوازية ، ولكن ايضاً بالنسبة للمثقفين ، وهذا اخطر . طبعاً تبغي الدولة ، من احداث هذا الانقطاع توفير النقد الزاخر ، وتحاشي التخلي عن الذات ، وان لم يتناول غير الاخلاق والنفوس . وانها لرغبات جد مشروعة ! ولكن يكمن خلفها خطر الوقوع في عزلة (شبيهة بعزلة ابناء الجزر) يعسر تصورهما بل فهمهما في العالم الحالي ، ولا يسع نزعات نظام الاكتفاء الذاتي الا ان تحمل اليها تشجيعاً اخطر من الفشل . والموقف تجاه الخبر الاجنبي يمثل ، مثلما دونت في مكان آخر ، على الاتجاهات الجديدة . فهذا الاجنبي المستورد ، يبدو عليهم انهم يريدون حصر عمله في تقديم لوازم مكتبية او تقنيات . وان تصل الامور التي يقدمها ، معقمة (بيضاء من غير سوء) . وان سياسة كاملة ، مستندة على التأشيرات ، والموافقات المسبقة ، واللجان التي تقف حجاباً منيعاً ، وعلى خطر الاستخدام والتدقيق في الترجمات ، ومراقبة المطبوعات تسعى الى غرابة كل ما يرد من الخارج ، سواء كان بضاعة او خدمات او افكاراً . انهم يريدون تجريد هذه المستوردات من كل ما يمكن ان تحمل من « شوائب » او من اوشاب . وهم ، بذلك ، يحسبون ان بإمكانهم استخدام العلم الاجنبي ، او بالحري التقنية الاجنبية ، بعد ادخالها في جهاز التعقيم هذا ، وبعد عزلها عن

كل سياق اخلاقي او روحي . وموقف من هذا النوع لا بد ان يدعو للقلق ، وان كان له ما يفسره . وفي نهاية المطاف ، هو سوف يؤدي الى عملية « نحو الثقافة » (او نزع الثقافة) التي بدأ يخشاها الكثيرون من الجامعيين .

وبالأکید ، هذه اخطار ، وعمليات تجاوز ، او تقاعس تصحيحها احياناً كثيرة طيبة هذا الشعب الظريف ، والسخاء السمع اللذين يعرف كيف يستقبل بهما - وفي الطليعة مثقفوه قبل الآخرين - ما يحسه من صراحة واخلاص عند الغير ، حتى في النقد . والمقارنة بوضعها ان تطبئنه ، بهذا الصدد . ففي فترة النمو ، ليس العجب في ان يخطئ المرء ، او ان يفشل احياناً . انما العجب ان ينبج بعض الاحيان . وقد سجل بعض المراقبين الجديين ، مثل اندره فيليب في بحث جد حديث ، تقدماً كبيراً في اعداد مشروع التنمية المصري الجديد بالنسبة لمشروع سنة ١٩٥٦ . اما المؤرخ الاجتماعي ، فهو لا يدع الانفعال يأخذ منه امام الفشل او النقص . ولكنه يتمنى المزيد من الانتقاد ، والمزيد من المعلومات . وهو يسجل باهتمام تقدماً في المفهوم^(١٤) الذي يعنيه - ويعني الجمهورية العربية المتحدة^(١٤) مكررة) اكثر مما يعنيه النجاح او الفشل المادي . ويعطي عالم اجتماعي مصري تعريفاً للقرن العشرين بقوله انه « عصر التخطيط » . وهذا التخطيط يبدو ، في مفهومه الواسع نوعاً من « التصور الاجمالي » ، الاجتماعي والاقتصادي على السواء ، لما يراد ان يكون عليه المستقبل في فترة معينة . فالى هذا التحسس الاجمالي تعود ، في نهاية المطاف امكانيات التعديل والتصحيح ، والحظوظ بالنجاح ، المتوفرة امام البلدان العربية . فمثل هذا التحسس يتيح لهذه البلدان فرصة التفاهم والمصالحة مع الوجود العالمي .

١٤ يسرني ان استشهد بمحاضرة الدكتور ابراهيم حلمي عبد الرحمن في مؤتمر رودس (اكتوبر ١٩٥٨) وعنوانها : « التوازن في النظرة الى التقدم ، والتنظيم الاجتماعي ، والحرية في مجتمع متحول » . (العنوان بالانجليزية - المترجم)

١٤ مكررة) حامد عمار

جولة حول حركة

التصنيع الشرقية

لقد سبق لي ان قلت ان
الشيء الصناعي قد بدأ بغزو
الشرق في صورة بضائع استهلاكية ، ثم

في صورة معدات . وفي مرحلة ثانية ، اقبل الشرق على تملك الآلة : وهذه هي المرحلة التي تعبر عنها ، اليوم ، المعارض ، وحركات الاستيراد والتكوين المنظم للمعدات ، والذي تعلن عنه حملات دعابة ناشطة . ومرحلة ثالثة ، هي مرحلة الانتاج الصناعي ، بدأت تلوح في الأفق . ومن هنا كانت الامة التاريخية والبيكولوجية والرمزية ، على السواء التي ترتديها حركة التصنيع في الشرق . وأخذاً بعين الاعتبار ان ظروف البيئة هي ما هي عليه ، فان الطريقة التي تتبع الحصول على الحد الأقصى من النجاح للجهود المبذولة هي في وضع مشاريع واسعة وفي القيام باعمال انشائية جبارة ، فهذه المشاريع والاعمال ، بمجرد كونها تصدر عن الدولة ، على الاقل لجهة ضخامتها واتساعها ، تقدم فائدة اضافية . وهي انها تسمح بتشغيل جماهير العمال التي يحررها تفتيت الطبقات الفلاحية وتعمل على تحويل مفاهيم قديمة للتراتب الاجتماعي لا تزال قائمة في النفوس ، تحويلاً طبيعياً الى نظام اقتصادي قائم على تركيز السلطات بيد الدولة .

ويتجه النظام نحو بناء اهرامه . او بالأحرى يشعر بالحاجة الملحة ، المتحدرة اليه من اغوار الاجيال السحيقة ، لأن يبني اهراماً ، في إطار جديد تماماً . حاجة تفرضها ، طبعاً ، الضرورات الاقتصادية . ولكن هناك ضرورات ثقافية ومعنوية تكاد تكون على القدر نفسه من القوة . إذ ان محاولة من هذا النوع تشهد على زخم اندفاعي لا يفرط بمحقوق البلاد ولا يأتي من الغير ، كما كان يحدث في المحاولات الاستعمارية لاستثمار موارد البلد ، ولكنه يصعد من اعماقها . وهذه المحاولة تفذي ، في الوقت نفسه ، هذا الزخم الاندفاعي . وهكذا يأتي ، بصورة موازية ، التفسير للعناية ، المفرطة اكثر الاحيان في نظر الاقتصادي ،

التي توجهها هذه البلدان لانواع الانتاج الاساسية ، وبصورة نموذجية خاصة ،
لاننتاج الصلب .

لقد كان يوجد في مصر ، صناعة صغيرة للحديد ، كانت تقوم بصورة تقليدية^(١٥) ،
وكانت تستخدم الحديد « الحردة » الذي كانت تقوم باعادة صهره ، بنسبة
٣٠.٠٠٠ طن في العام تقريباً ، على اساس الحديد الصافي . وقد أتت الحرب
بالكثير من الحديد الحردة الى القطر المصري : وقد كان هذا احد نعم الحرب .
وكان وزن هذه النفايات المعدنية يقدر بمائتي الف طن . فكان ان ولدت فكرة
تنظيم صناعة تعدينية . فارسلت بعثات الى اسوج والمانيا . وقد كان مصدر
المواجهس أمر الوقود ، اذ ان البلد ينقصها الوقود المحلي ، على الاقل بصورة
قابلة للاستثمار . هل بالامكان استخدام مواد بديلة ، كالزفت (او الخمر) او
سيقان قصب السكر ؟ كل ذلك يعطي نتائج غير مرضية . فینتهي الامر بضربة
جريئة . لقد وُجه الى الشركة الالمانية « ديماج » طلب باجراء الدراسة . وتمشياً
مع نصائح هذه الشركة ، يجري وضع الخطوط لتصميم الشركة المصرية للحديد
والصلب العاملة في حلوان ، والتي بدأت العمل عام ١٩٥٨ . وقد كان من شأن
صناعة تعدينية من هذا النوع ، يقتضيها الاتيان بكل شيء من الخارج ، تقريباً ،
انما وجهت تحدياً للبيئة . فالصعوبات ضخمة ، ولكن القيمة المعنوية ضخمة
ايضاً ! .

(١٥) نشرة قدمت في المؤتمر الخامس للمهندسين بعنوان « الصناعة بعد الثورة » (بالانجليزية) :
ونشرة حول الشركة المصرية للحديد والصلب ، وفي النشرة الاقتصادية الصادرة عام ١٩٥٤ ،
ص ١١٠ ، مقالاً حول الاتفاقية الاولى المقودة بين البنك الصناعي ، وبنك مصر ، وشركة
مصر للنسيج ، وشركة مصر للتأمين من جهة ، وشركة « داماج » Damag الالمانية ، من
جهة اخرى .

والشيء نفسه يصبح على « السد العالي » (١٦) الذي كثر الحديث عنه : فهو نوع من الصورة الثانية لمشروع قناة السويس ، والرد الوطني المقابل لعمل كوزموبوليتي ، والجواب « بالمنجز المندمج » في حياة الأمة المواجه للمنجز « المبسوط » من خارج . والهالة الخلقية التي تحيط بالمشروع هي على جانب كبير من القدرة على الدلالة . فمصر تتوقب العمل الجبار الباهر ليس فقط ان يعطيها المصدر الذي يتدفق منه كل شيء : الماء ، والحصب ، والغذاء والكهرباء ، ومصر جديدة ستولد شيئاً فشيئاً . ولكنها تتوقب ايضاً وخاصة نوعاً من الاكتمال الجغرافي والمنطقي ، المبطن بعودة تاريخية خارقة . فلنتذكر مصر الفرعونية ، ووحدة وادي النيل ، والقوة الهائلة التي كانت تتركز في يدي سيد الماء ، سيد النيل . أكيد ، يدخل في مشروع السد العالي شيء من هذه الفكرة وليس فقط حسابات اقتصادية . وربما يلزمنا الالتفات بمثل هذه النظرة الى مشروع ري الصحراء الذي يروى انه سيسير من واحة الى واحة ، متبعاً ما يسمى « درب الاربعين » : « اربعين يوماً » او ربما « اربعين ولياً او قديماً » ويمتد محور المشروع من « خرجه » الى « سيوا » ثم الى « السلام » . انها طريق القوافل القديمة القادمة من « دارفور » . وافدام النياق قد حفرت فيها ، على مر الزمن ، أخاديد وحفرأ جعلت الدرب تبدو على صورة خط طولي مرت عليه المسلفة ، يمتد امامك حتى اللانهاية .

فاذا تحقق هذان المشروعان ، ستولد مصر على القياس الفرعوني . فاذا نظر اليها من هذه الزاوية ، يبدو عملها التخطيطي على انه تمش مع السابقة السوفياتية او مع نصائح البنك الدولي للتعمير والتنمية أقل بكثير مما هو بمثابة استتباع للأبجداد القديمة ، ومحاوله لاستعادة الجوهر الأصيل : أي الشيء ذاته

(١٦) النشرة التي كتبها المهندس يوسف سماوية حول استخدام مياه النيل ، من مجموعة « الرسائل » التي يصدرها المجلس القومي للتخطيط .

الذي تهدف اليه ، بنجاح كبير او صغير ، جميع فئات هذا المجتمع .

ومن هنا كان الدوي الشعبي الذي يحمل في هذا الوقت زعيماً مثل جمال عبد الناصر بمشاريعه . لا يصح ان نفتش عن اسباب ذلك في مهابة الخطيب الساحر او في الانفعالية العربية فحسب . أكيد انه عرف كيف يثير هذه التشنجات العاطفية ، وهذه الصور من الهذيان اللفظي ، وفي الوقت ذاته اضطرابات هذه الجماهير المأخوذة بحمى الدوران ، التي سبق لي ان رأيت فيها أشكالاً عتيقة من المبادلات . ولكن تحت ذلك ، وعبره ، تقوم الحلقات البنائية التي تحاول هذه الدراسة اكتشافها تحت تعقيد الأناس والاحداث والاشياء .

وكل البلدان العربية لا تسير في الطريق نفسه . فوفقاً للوثائق التي يسعنا مراجعتها ، يبدو على سوريا انها فضلت ان تختار الصناعات التحويلية . فان المكان الذي كانت تحتله الزراعة ، في دخلها القومي عام ١٩٥٧ ، كان يتسع بالصدارة : ١٠٥٩ مليون ليرة سورية مقابل ٢٥٧ مليون فقط للصناعة ، و ٣٨٨ للتجارة (لان البلاد تراعي رسالتها التجارية) . وكان المجموع يبلغ ٢٠٨٥ مليوناً من الليرات السورية ، يأتي ٤٥ بالمائة اي حوالي النصف منه من الزراعة . فليس من باب الصدفة ، والحال هكذا ، ان تفرض صناعة التحويل نفسها على منظمة التخطيط . يضاف الى ذلك ، بالطبع ، عوامل اخرى ، بسبب صيغ سياسية جديدة ، وخاصة بسبب الوحدة المصرية - السورية التي فرضت توزيعاً في المهام .

وفي سوريا القديمة كان تحالف تقليدي يربط بين انواع ثلاثة من النشاط ، بين انماط ثلاثة من الناس ، بين اتجاهات ثلاثة : جنائن الغوطة ، المحيطة بدمشق ، والتي تبسط حولها باسجار زيتونها ، وفضافها ، ومشمشها ، وفي داخل المدينة ،

السوق وتجاره ، واخيراً الندوات الادبية ، التي كانت ترمز في الماضي الى الجو الأكاديمي الخاص بدمشق ، والذي يعود الى الماضي السحيق . فهذه الوجوه الثلاثة من النشاط ، هذه الأنماط الثلاثة من الناس ، كان يربط بينها نظام حضاري واحداً . فقد كان يمنحها الحساسية المرهفة واللاذعة التي يقع احياناً كثيرة للاجنبي والغريب ان يذوق مرارة تجربتها . وان انسانية من هذا النوع كانت تظل مشدودة الى الاحداث الطبيعية والى جمال الاطار . وهذا الامر كان بالنسبة لها طريقة ، شعرية ومدرة للربح في آن واحد لتكثير تقاليد الجاهلية ، من طريق التعلق بالاسلام . وهكذا يتم الالتحام بين الثقافة والطبيعة ، واندماجهما في كل عانت السلطات الاجنبية ، عثمانية كانت ، او فرنسية ، مقاومة ضارية منه ، احياناً كثيرة . فهل من الغرابة او من المبالغة في شيء ان نجد ، اليوم ، تحت اعمدة الارقام ، والتحليلات المتجهمة التي تزخر بها الوثائق المالية ، التحالف المستمر ذاته ؟

وفي التقرير الاخير المصرف المركزي في سوريا تطل ، في كل لحظة ، اشارات الى الحياة الزراعية ، وحق الى تعاقب الفصول . وفي عام ١٩٥٦ - ١٩٥٧ كانت ازمة السويس . فاستتبع ذلك هبوط في اسعار الجملة على هذه المنتجات الغذائية يعزوه المحرر الى موسم خبير دافق بالحبوب والفواكه ، بدلاً من ان يعزود الى هذه الجلبة الدولية المدوية . فكانت ملاحظة ريفية (جديرة بفرجيل) ، في وسط هذه الحركة الدولية التي أدت الى تصادم الامم : اننا نرى انبعاث الحضرة المعربة في بساتين الغوطة . هذا الذي حدث عام ١٩٥٦ - ١٩٥٧ . وحتى اليوم ، في اواخر ١٩٥٩ وبداية ١٩٦٠ تتفطر قلوب المصارف ، حزناً للتقلص الذي طرأ على الثقة بأصحاب المشاريع وبالتالي ، للتباطؤ في النشاط التجاري . ولكنهم يعزونه الى الموسم الرديء عام ١٩٥٨ . وعلى العكس ، فهم يأملون نهاية الانحسار المصرفي ، استناداً الى وعود الموسم الذي لا يزال في مستهله .

والمشروع السوري للخمس سنوات اضطر ، لكي ينطبق على الحقائق المحلية ، أن يبعث نفسه من القبر ، اذا صح القول . إذ أنه في الأصل ، كانت تسيطر على هذا التخطيط نظرات منهجية وأفكار مسبقة . قد رأينا أن الطريقة المصرية كانت تعتبر عشرة مقاييس للاولوية ، انما من بين هذه المقاييس العشرة ، لا تأتي المقاييس التي تتصل بطبيعة الأشياء الا في المرتبة السادسة أو الثامنة وهذا الأمر يصح في مصر مثلما يصح في سوريا . ومع ذلك ، وبالرغم من كل شيء ، فان خصائص البلد تبرز وتتفجر حقيقة ان المشروع السوري « خطة التنمية » لا يلحظ في حقل التعدين غير مصنع واحد لانتاج قطع الغيار ، و انتاج السلاسل في حلب ، انطلاقاً من الاسلاك الحديدية المصنوعة في مصر ، وصنع هياكل معدنيه ، وأواني وشاسي ، وصهاريج ، انطلاقاً من الصفائح المصرية ، أيضاً . فانتباه القائمين على مشاريع التخطيط يتركز على الاستهلاك . وفي مجموعة الاعتمادات التي قدرت بخمسة مليون ليرة سورية ، تحتل عمليات التحويل المركز الثاني ، بعد الصناعة البترولية مباشرة « وهذه الاخيرة هي صناعة ذات أهمية استراتيجية أكثر منها اقتصادية : وهي تستخدم ٢١٦ مليوناً من الليرات السورية ، بينما الحقل التعديني لا يشغل الا مليونين و ٧٣٠ ألفاً من الليرات السورية ، أي حوالي واحد بالمائة من اعتمادات صناعة النفط . فالاستهلاك هو وحده ، الجدير بالاهمية ، وكذلك عمليات التحويل ، التي تجعل انتقال المنتجات الطبيعية الى سلع استهلاكية ناشطاً ومحسوساً ، وخطة التنمية تهتم ، اذن عن قريب كبير ، بالملح ، والعلب ، والحليب ، وعمليات التوضيب والزيوت وبالطبع كذلك ، بعمليات غزل القطن ونسجه . وتمكن ملاحظة جهود جدير بالعناية للحد من المركزية . فحمص سوف تصبح عاصمة النسيج ، ودمشق عاصمة شغل التريكو ، وحلب سوف تصنع السجاد والاعطية الصوفية . وسوف يوزع انتاج ٦٠٠٠ متر مربع من « الكليم » (سجادات أو أبسطة صغيرة) بين المدن الكبرى الخمس .

وهناك ايضاً الانتاج الثقافي . وهو يلعب دوراً كبيراً منذ الازمنة البعيدة ، في الشرق . وهذا الدور قد ازداد في هذه الايام . وانطلاقاً من غابات الجمهورية السورية ، من هذه الغياض التي تكثر فيها اشجار الحور والصفصاف والتي تحيط بمدينة دمشق ، سوف تصنع عجينة الورق ، اللازمة لورق الجرائد . والحاجة الى هذا الورق هي هائلة ، لا كايح لها . فالجمهورية العربية المتحدة تستهلك سنوياً ١٧٠٠٠ طناً من ورق الجرائد . وسوف يصار الى تحقيق ما هو اكثر دلالة : فسيتم تركيب ٢٥٠٠٠ جهاز لراديو سنوياً : وهكذا يعود للظهور ، هنا ايضاً ، سلطان الكلمة ومقتضياتها .

وبالطبع ، هناك اشياء كثيرة يمكن ايرادها حول المشروع السوري لخطة التنمية ، وحول الفوارق في التوجيه التي تميزه عن مشروع الخطة المصرية ، ودمج البلدين ، نتيجة لحركة الوحدة العربية ، ادى الى توزيع المهام لا شأن لي بامتداحه او بنقده : فالرأي العام هو الذي سيتولى ذلك ، والنتائج هي التي ستكون الوسيلة للحكم ، ولكن في كل الحالات ، علينا ان نلاحظ ان الخطة السورية تعبر انتباهاً رئيسياً للعوامل النفسية والمحلية . وربما هي تظهر ، على هذا الشكل ، نوعاً من الحماس التعويضي ، فان تقيدها بطبيعة البلد يتضمن دلالات على « نعومة » تحليلاتها التي يتجلى فيها الحسن السياسي والمرونة والحكمة المتحدرة بالوراثة من اجيال بعيدة ، والتي تفرض نفسها ، او من الضروري ان تفرض نفسها ، على كل محاولة للاقتراب بالدراسة من الجانب الاقتصادي .

وعلى العكس من الجمهورية العربية المتحدة : يملك العراق موارد ضخمة لرؤوس الاموال . وهو لم يستوف هذه السنة ، بمثابة عائدات النفط ، غير ١١٣ مليار فرنك ، عن انتاج نفط بلغ ٣٢ مليوناً من الاطنان ، وعادة كان

يذهب ٧٠ بالمائة من هذه المبالغ الى صناديق مكتب الاعمار ، الذي كان يديره خبراء عالميون . ولبضعة أشهر خلت ، كان يقتضي التنويه ، في مجال التخطيط والمجهود الحكومي ، بأسبوع التسمية الذي كان ينظم في بغداد ، في فصل الربيع والاسبوع الذي انعقد عام ١٩٥٨ كان يظهر نتائج جد مدهشة ، ويمكن العثور على الاهتمام بالشؤون المائية في صميم المشاغل العراقية كما في مصر وسوريا ولبنان وحتى السعودية . وعلينا ان نحكي في هذه الظاهرة ليس فقط الخاصة الوراثة ، وعملية الاختيار الحكيم ، وانما احدي المحاولات الصائبة للتوفيق بين المجتمعات العربية ومعطيات بيئتها .

وحوادث العراق ، التي وقعت منذ تموز ١٩٥٨ ، هي في آن واحد قريبة وبعيدة أكثر من اللازم ليمكن لنا أن نتبين الى أي مدى سوف تخضع هذه المخططات الاقتصادية أو لا تخضع لتوجيهات جديدة ، وفي أول كتاب صدر في بغداد بعد الثورة : لا يشير المؤلف ، حسين جميل ، إلى مجلس الاعمار ، لا بخير ولا بشر ، رغم الحملات العنيفة والمحمومة التي شنّها على النظام السابق . ولا شك لأنه كان يعتبره أداة مسخرة لخدمة الاجنبي ، فهو لا يعزو الأخطاء ومظاهر التقصير الا لعمل الحكومة . أما عندنا ، فأن مجلس الاعمار قد أثار انتقادات مستوحاة من مواقف تشدّد جديدة فرضها على نفسه العلم الاقتصادي في تحليلات «التطور المتخلف» التي يرأسها فرنسوا بيرو^(١٨) (F.Perroux) ولكي تثبت بيئة أهليتها للتقدم الاقتصادي ، عليها أن تستوفي ثلاثة شروط : أن تكون قادرة على الابداع الاقتصادي ، وان يكون هذا الابداع قادراً

(١٨) ج . بلاردون G. Blardone في Cahiers del' I.S.E.A اعدد كانون الاول عام ١٩٥٨ ص . ٩٨ .

على الانتشار فيها ، وأن يتضمن شحنة من المعاني (١٩) ، والدلالات ، ولسوء
الحظ كانت مكاسب مجلس الاعمار تدرج في نظام تنعدم فيه الامكانيات
الأخيراتان . فالوثائق غير متوفرة ، في الفترة التي أكتب فيها (ديسمبر ١٩٥٩) ،
حتى يمكن التحدث عما يستطيع نقد من هذا النوع أن يحدثه من انجازات في
عراق اللواء قاسم .

من نظام الاصلاح الاصولي
الى الطفرة نحو التقدم (٢٠)
وعندما ينظر الى الثورة
العراقية ، من هذه الزاوية ،
تبدو مثل جميع الثورات لا شيء الا محاولة عنيفة لاعادة المطابقة بين الدلالات
والمجتمع . وفي العالم الحالي ، يتضمن هذا الامر ، في الدرجة الأولى ، تحويلاً في

١٩) لاسترانز هوبيه R. Strang - Hupé يعزو « درس » تموز ١٩٥٨ الى لامبالاة
المجتمع العراقي أو الى شعور العداة الذي يكتنه نحو الاساليب العلمية المضبوطة التي تقوم عليها
التكنولوجيا الغربية (مقدمة لكتاب فهم قبيل : اعادة بناء العراق ، عام ١٩٥٨ ، بالانجليزية)
وانه لمن قبيل قلب الاشياء حقاً ، ان توجه ال اصحاب العلاقة تهمة عدم فهم « التقدم » التي
تلقى عليهم ... انظر من جهة أخرى مقال السيد ن . كوينت N. Quint « فكرة التقدم في
قرية عراقية » في مجلة « ذي ميدل ايست جورنال » عدد الخريف عام ١٩٥٨ ص ٣٦٩
وما يلي .

الابنية الاقتصادية الاساسية ، وبالفعل يتعلق مستقبل البلدان العربية بتحويل من هذا النوع . وكل تجارب التخطيط الاثمائي في هذه البلدان تحمل خصائص مشتركة ، بالرغم من أنها قابلة لتغيرات مرهونة بالمعطيات المادية والمعنوية التي تختلف باختلاف الحقبة والبلد المعني . وليس من قبيل الصدف أن تلجأ مصر ، وهي أكثر البلدان العربية تقدماً ، على الصعيد الاقتصادي ، الى نوع من النظام « الاصلاحى » ، في هذا الميدان ، نظام أتاح لها أن تخلق صناعة ثقيلة ، تقريباً دون أن يكون لها أية من الوسائل الطبيعية اللازمة لهذه الصناعة .

وهذا النظام الاصلاحى الاصولى - (Fondamentalisme) وأنا استعمل عن قصد هذا التعبير الذي يصف الداعية للاصلاح « الأصولى » * - اذا كان يفترض اعادة نظر جذرية في الماضى ، اى بتعبير آخر ، الاستمرار الحقيقى للماضى ، فهو يجر أيضاً ، وبصورة منافية للمنطق الظاهر ، الى اختيار التقدم السريع ، فرجال الاقتصاد يتناقشون حول الحسنات المقارنة للتطور التحويلي البطيء والطغرة المفاجئة ، وهذه الحسنات او تلك توضع في النهاية ، على محك معيار وعامل ضروريين : تبديل العقلية . فطالما هذا التبديل لا يتحقق ، تسقط كل المنجزات في حالة الموت والشلل ، ويتبخر فعل التراكم الحضارى . ولا شك ، انه اذا كان الكثير من السياسات الاستعمارية ~~قديراً~~ فشلاً ، ان لم يكن في استصلاح خيرات البلاد ، فعلى الأقل في دمج هذه العملية الاستصلاحية في حياة البلاد ، فلأن هذه السياسات لم تعرف كيف تحبك هذه العقدة اللولبية الخفية . واكثر انصار التقدم البطيء يلحون ، اذن على عامل نفسى يركز على التحويل في سبيل المطابقة أو الاقتناع الاختياري ، فهم يعتقدون عن حق ان هذا العامل وحده يستطيع ان يشكل الضمانة للباقي . ولكنهم يفشلون دون ريب بسبب لجوئهم الى بيسيكولوجية مرتكزة على الفرد ، في الاحاطة بمجموع التأثيرات المتبادلة العميقة التي يلوحون بها . لأن هذه التأثيرات لا تختصر جميعها

بقضية استدامة المواقف العقلية . وعلى العكس فان هذا التقدم الذي يقتضيه ان يكون كاملاً ، تحت طائلة الا" يكون ، يعرض نفسه كنقطة التقاء تتجه اليها في المستقبل ، جميع التيارات في حياة كاملة . وهذا التقدم الذي يلزم ان يكون جذرياً ، بالضرورة ، بفرضه الانعطاف ؛ على كل من هذه التيارات ، لا يوفق بينها الا من خلال امكانياته كمشروع . وعلى قدر ما يطلق زخم اندفاع نحو المستقبل ، هو يعاكس حتماً حركات استمرار الماضي . والمجهود الذي يتطلبه ووجوه المقاومة التي يعانها - وكدت اقول التي يطالب بمماناتها - تميز نفسياً مواقف من هذا النوع وتفترض نمطاً من العمل ، ونمطاً من المندفعين في تحقيق العمل ، جد محددين .

والامر كذلك فيما يتعلق بالتخطيط الانمائي في الشرق . فلكي يؤدي الى نتائج محسوسة ، أي تحت طائلة الفشل ، لا يلزمه فقط حل مشاكل عسيرة تتعلق بالتحويل والبحث عن تقنيات وفنيين . ولكن يلزمه ايضاً ان يكبح ، في الروح التقليدية لهذه الشعوب ، ما يقاوم مثل هذه الاهداف ، او على الاقل التوترات التي تنتج عنها . ومن هنا كان الاتجاه الاختيار نزعة كلية لا يمكننا ان نقسم بانها اصبحت مؤمنة بوعي تام . اذ انها لا تتجلى حتى الآن الا في ميادين التجهيز الاقتصادي والاجتماعي وفي ميدان التربية بمعناها الواسع . انما هذه الميادين ، بالرغم من ضخامة اهميتها ، اصبحت تجتاحها ميادين تخاض فيها معركة اعادة نظر كلية للانسان والبيئة . وتقاوم هذه الاعداء في النظر قوى اخرى ، هي هائلة ايضاً ، لا شيء يدل على ان هناك قدرة ، او حتى رغبة في تحديثها . ولا شك ان المزيد أو النقص في هذه النزعة الراديكالية هو الذي يميز الانظمة والاتجاهات والبلدان . وهنا يلتقي الحوار الداخلي في الشرق ، على الصعيد العقائدي مثلما على الصعيد الاستراتيجي ، مع الحوار العالمي ، وهذا الامر ، الككل

يعلمه أكثر من اللازم .

والاجنبي ، رغم اطلاعه العميق ، لا يفهم المشاكل الشرقية الا من الزاوية وبالقدر الذي تندرج فيه هذه المشاكل في الصراع الدائر للسيطرة على العالم الفسيح ، فهل نحن متأكدون من أن بعض الرؤساء للدول الشرقية ، لا يشعرون الشعور نفسه تجاه هذه المشاكل . والحال هو انه من قبيل مخادعة النفس محاولة تفسير الداخل بالخارج . وعلى العكس ، فعلى كل الدروب التي ملكتها في أبحاثي كانت الصفة النوعية او الخاصة الذاتية هي التي تستوقفني : تلك التي تميز الداخل ، وتلك التي تميز مواجهة الداخل مع الخارج . واذا كانت البلدان العربية تقف شيئاً فشيئاً في صف العالم الخارجي ، واذا استعارت من الآخرين نظريتها الاقتصادية والمنهج التربوي ، دون حاجة بنا للتحدث عن البقية ، فان الوجود الذي نظمت داخله كل هذه المكاسب هو خاص بها ومميز لها . أكيد هي لا تعترف بينها ونفسها دائماً ، بضرورة اجراء الاختيار الكامل والابداع الشخصي الذي يترتب عليها ، تحت طائلة الفشل ، وأكيد أن مذهبها الوليد المرتكز على تغليب العامل الاقتصادي يلزمه أن يأخذ في الحسبان وقائع مقاومة ، وقيماً راسخة الجذور ، وأخيراً عادات عالمية تدعي هذه البلدان القدرة على بلوغها . ولكنها لم تستطع حتي الآن أن ترسم عقيدة خاصة بها .

انما هي تعوض عن هذا النقص ، بصورة غريزية ، بمواقف جماعية : فالحماس الشعبي ، والشدة في عرض المطالب ، والالتفاف حول « الزعيم » * كل ذلك يقيم التوازن مع تفاهة الأوضاع . والضعف الحيي في التحليلات . وبذلك تتم اعادة التكوين كاملة . لما لم يره الفهم والاكتناه ولم يعمله الفعل الا جزئياً . وبذلك أيضاً ، يتم الاهتداء ، من طرق دائرية لم تحظر ببال ، الى شيء من

الدقة المضبوطة . يبقى أن هذه الطريقة تتسم بطابع التمس الغريزي أكثر مما هي تنبع من بحث ارادي ، وأن بالامكان نسف آثارها بفعل لابعقلانية الوسائل أو عتق العناصر الموضوعه موضع العمل . وانه لخطر كبير . وهو ليس الا الضريبة على النجاحات التي لامراء فيها وهذه الازدواجية في القيمة تشكل ، عن حق ، أحد أخطر المواضيع المطروحة للتأمل أمام المؤرخ الذي يعنى بالشرق الحديث ، والمثيرة للقلق عند أبنائه ومواطنيه .

الفصل الثامن

الصَّعُودُ نَحْوَ الْأَسْسِ *

يحدث للعقل ، في محاولته ان يصوغ الواقع على صورته ومثاله ، وان يرسيه على المنطق والعدالة ، ان يلاقي المقاومة من حصى الاشياء . والكثير من هذه الاشياء ، اذ يتحدر من ماضٍ قد ولى ، يصبح مرفوضاً ومجرّحاً ، لهذا السبب وهناك اشياء أخرى تبقى ، على العكس ، صالحة ، لانها تشكل ، في نهاية المطاف ، مادة المبادرة العاقلة ، وموضوع المناقشة فيها في آن واحد . وهذه المغامرة التي يخوضها كل متشرع ، وكل ثوري ، لا يتفرد الشرق بها . ولكنه يعانيتها بصورة دراماتيكية اكثر من اي منطقة اخرى ، لان صعوبات اكثر خطورة مما في المناطق الاخرى تظهر فيه وتنبثق من السياق الداخلي والخارجي فتسمى لشل الاصلاح . وكذلك لانه يعرف تباعداً اوسع بين الواقع والممكن بين المثال والمحسوس . ومن هنا كان العنف الموزع بين الحماس والريسة ، الذي تنسم به محاولات مندفعة نحو « الاساس » والتي تسمى احداها ، في كل مكان ،

● نحن نستعمل عن قصد هذا التعبير الثنائي رغم التناقض الظاهر بين طرفيه.

الديموقراطية . (١)

وقد يثير لدى المتشرع العربي ما يشبه الشعور بالفضيحة ان يُشَبَّه سلوكه الأولي بسلوك الرسام الذي يصنع الايقونات والذي يسعى لان يستنزل الواقع التافه من السماء . ففي اعلى السجل ، تطل شمس ، (وفي الاسفل) اشياء هذه الدنيا ، بالوانها الزاهية والحنونة ، تعبر عن الحياة المحسوسة امـا ذهب الشمس فيمجد الجوهر السهاوي . «الافاضة» * و «التنزيل» * : هذه الكلمات والكنايات ، التي شحنتها الصوفية العربية بالمعاني ، تعبر ايضاً عن نظام متراتب ، وعن منجز تسوده سلطة مهيمنه . ولكن يريد المجهود ، المبتدول في خط سير ضروري ، ان يحدث (في القاعدة القائمة) تحته حركة صاعدة ، وان يجد جواباً لمبادراته . وكلما تعمقت الديموقراطية في هذه البلدان ، سعت لان تجعل من الاساس الموثل الاخير . انها تريد على عكس «التنزيل» * ان تصعد من الاساس .

هذا هو ، على كل حال ، الهدف الذي يعلنه الكثير من السياسات الشرقية التي تدعي الديموقراطية ، باخلاص يقل أو يكثر . وهي تفعل ذلك بقدر أكبر بسبب ان الاسلام باستعائه بفكرة الحلول ووجوب الوجود ، التي تأتي ، مع فكرة التسامي الكينوني ، ذبلاً له وتابلاً ، يقر ، على الأقل جزئياً ، بعلاقته بأمثال هذه العقائد . والقيمة اللاهوتية « للشعب » * الذي تربطه وشائج خفية مع قيمة « الزعيم » * تسمح بهذا الانتقال من الجو التقليدي الى اللحظة الآتية العابرة . وهناك مفاهيم أخرى مثل مفهوم « اجماع » * الائمة ، ومفهوم « الشورى » * توحى بالنظام البرلماني ،

(١) هذا هو الموضوع الاساسي لمؤتمر الجمعية اللبنانية للعلوم السياسية الذي انعقد في بيروت في نوفمبر عام ١٩٥٩ .

بينما مبدأ « الاجتهاد » * المستمر عند الشيعة خاصة ، يعلن في خضم التعلق بالقيم القديمة ، فضائل الثورة الدائمة . ومع ذلك فالذي أودان أقف عنده ليست الصور السياسية الاجمالية للحاضر وانما الحركة الأساسية التي تحملها وتتجاوزها والتي تكشف ، بوقوفها بمنأى عن التفسيرات البالغة التأثير والالتصاق بالأحداث ، عن طراوة الاندفاع لدى هذه المجتمعات نحو تحقيق ذاتها في عالم اليوم .

وقد جرتب العراق ، في عام ١٩٥٨ ، الأخطار التي يمكن أن تنجم عن بذل مجهود جده محسوس في سبيل التنمية ، عندما لا يضطلع به المواطن بأي شكل من الأشكال . ولهذا السبب ، تطلق الرغبات في بناء المجتمع على النحو العصري ، وفي إعادة تنظيمه محاولات وسيطة من جانب الجماهير ، سواء كانت هذه الرغبات بحسبة في رجل ، أو في طبقة . أو في هذا النشاط أو ذاك من النوع الذي يمثل ظاهرة التجدد الاجتماعي - التجهيز ، والتربية الخ . . . - وكثير من المبادرات يمكن أن تفهم على هذا النحو . وبالطبع ، نحن لن نجد أكثرها فعالية في عمليات الاستفتاء الشعبي أو في اللعبة البرلمانية كما تتجلى في أشكالها الحاضرة ، وانه ليتحتم النزول الى أعماق اخرى ، والى أصالة تجربة جده مختلفة لرؤية ما يلعب ، في هذه المجتمعات ، التي هي نهب الاضطراب التشنجي ، الدور الذي كان يلعبه في القديم سلطان « الرئاسة » * ، مع كل تشابكات علاقاتها المحسوسة والشعبية . والبعض من هذه الاجراءات ، يبقى عتيقاً ، تشوّهه خصائص موروثية من عصر الانحطاط . ويشهد البعض الآخر على تمثّل جده حاذق لمواقف ومبادئ مستعارة من العالم الصناعي . وانني سأرسم كيفما اتفق بعض الحركات ذات الدلالات الكافية ، بدلاً من الدخول في عمليات تمييز بالغة الدقة والمطافة قد تستدعي مادة للتحليل الأحادي الموضوع .

المصنع المحب للقلب

في الساعة التي أكتب فيها هذه المحاولة هناك بلدان مثل الجمهورية العربية المتحدة تطالب من الالتفاف الشعبي الارتباط الأكثر وضوحاً بين التجديد والحقائق الأساسية . وهذا الارتباط يتضمن ، من أحد الجانبين الدفق الخطابي ومن الجانب الآخر الهتافات المدوية . فهو يتصل اذن ، على الأقل خارجياً ، بمبغرية كلامية راسخة الجذور وجد عريقة ، ولكنها لا تستطيع ان تقدم غير رمز للعمل الايجابي . فعليه يحرص القائمون على التنظيم على العمل في الحقل الاقتصادي وراء هذا الستار من الخطابة والحشود . وعلى توظيف المال (في العمل الصناعي) في المرتبة الاولى . لانهم يعتزمون زيادة الدخل (١) ، بالطريقة الأكثر أرثوذكسية (الأكثر سوية)

والآن ، ماذا يعني تقدم من هذا النوع بالنسبة لبلدان بقيت ، في اقسام فسيحة منها ، في مرحلة اقتصادية دنيا ؟ فمنذ بضع سنوات قليلة ، في مصر كان سكان المدن ، الذين تبلغ نسبتهم نصف نسبة سكان الأرياف ، يستهلكون ، ثلاثة أو أربعة أضعاف ما يستهلكه الأخيرون . وكان الغذاء يحتل حوالي ٥٠ بالمائة من ميزانية سكان المدن ، وأكثر من سبعين بالمائة من ميزانية الفلاحين (بقدر ما يمكن تصور مثل هذه الميزانية) . أما نفقات الملابس التي تبلغ ٨ بالمائة من ميزانية عائدات المدن ، فتتهبط الى ادنى من ٢ بالمائة (أي شبه لا شيء) - بالنسبة لسكان الأرياف . والارتفاع في الدخل ، الذي تعلق عليه خطط التنمية الكثير من الآمال ، في نظرة جد صائبة ، لا يحظى بالعطف الكبير من قبل دنيا القلب ، وهناك أيضاً زيادة امكانيات تشغيل اليد العاملة وفرص

(١) انظر تقنيات جمال عبد الناصر ، بمناسبة معرض انتاج السلع ، في مجلة « المصور » عدد ١٢ ديسمبر ١٩٥٨ ، والاتفاق التي يستعرضها في خطابه بمناسبة ذكرى الثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٩ .

الاستخدام : وكل مسؤول عن الشؤون المالية يفكر على الطريقة الغربية، مثله مثل كل مهتم بخطط التنمية يؤمن بالاشتراكية ، يضع نصب عينيه ، كهدف جد اساسي ، هذه الزيادة من فرص العمل « Jobs » * . أجل هذا اكد . ولكن زيادة فرص الاستخدام في القطاع الصناعي يعني أيضاً اجتثاث سكان الارياف من ارضهم ، ولا شك أن تأثير الاجتثاث سوف يغلب في نفوسهم ، مدة طويلة ، على تأثير العثور على عمل . لذلك يقتضي البحث عن طرق أكثر طرافة لمطابقة العمل الاقتصادي على الشعور الشعبي بصورة اقرب .

في معرض القاهرة الأخير ، كانت المنتجات المصنوعة في مصر (made in Egypt)* تشغل مساحة قدرها ١٢٦,٠٠٠ (مائة وستة وعشرين ألفاً) من الامتار المربعة وقد قضى الرئيس ثمان ساعات في زيارتها : وتلك ، أيضاً كانت مظاهرة ذات طابع كمي ا وكان عدد كبير من السلع يحمل الاشارة السحرية : منسوجات قطنية ، ألبسة جاهزة ، اصواف ، اغطية جميلة وسجاجيد زاهية الالوان ، مفروشات ، وخاصة معدنية منتجات جلدية ، قساطل معدنية ، اواني خزفية ، ومعلبات غذائية ، وكذلك بطاريات كهربائية ، واجهزة راديو ، وادوات بلاستيكية ، وورق ، وادوية الخ . . .

وينكر احد الاقتصاديين^(١) على هذا المعرض كون كل شيء قد كتب باللغة العربية : فكل الاعلانات ، تقريباً ، تستهدف ، اذن الاستعمال الداخلي فهو يرى في ذلك نقصاً من ناحية الدعاية للخارج . ولكن علينا ان نتبين ، بالاحرى ، في هذه الظاهرة ، احد الملامح الجديدة بالاهتمام للتعاون بين عالم الشيء وعالم الدلالة . وقد ظل هذان العالمان ، زمناً طويلاً متنافسين في الشرق .

(١) عادل ثابت في مجلة « ايكونوميكال اندبوليتيكال ريفيو اوف ايجيبت » « المجلة المصرية السياسية والاقتصادية » عدد يناير ١٩٥٩ ص ٣١ .

ومنذ انقضاء جيل كامل تجري المحارلة « لتبليد » (او اقلمة) الشيء الصناعي ، اعني ليس فقط لاستخدامه ، وانما لانتاجه ، في مرحلة اخيرة .

انما افضل طريقة لجعل صعود « المنتجات » محسوساً ، هي في زيادة الاستهلاك ، فالبلدان الشرقية لم تبق بمنجاة عن النزاع بين الزبدة والمدافع . وهي تعرف فوق ذلك ، صعوبة اضافية بسبب ان الاستهلاك قد انشطر بين قطاع ذي اذواق اوزبية ، من جانب ، وهو قطاع البورجوازية العالية والاريستوقراطية ، وقطاع شعبي ، من جانب آخر .

وكان هذا الامر ، ولا يزال شديد التأثير على الحواس في اكثر هذه البلدان . فمنذ الصباح يعطي افطار رجل الشعب المقتصر على « الفول » * مشهداً يتناقض تنافضاً صارخاً مع افطار الطبقات التي تحتكر التوجيه والسلطان ، افطار من النوع « القارتي » ، كوتيننتال بريكفست * (Continental Breakfast) والانشطار نفسه يبدو في مواقف الشارع ، وفي ارتياد المقاهي والنوادي : انه انفصال بل انعزال ، أو يكاد ، بين العنصرين ، بين الطبقتين . ولكن هذه الظاهرة تتجه نحو التناقض ، والذين زاروا القاهرة مؤخراً استطاعوا ان يروا الى أي حد بدأ الكثير من هذه الاماكن العامة بالانفتاح للشعب ، والخضوع للهد الديموقراطي وقد أخذت الجماهير الغفيرة من المستهلكين الذكور ، تغزو شوارع سليمان باشا وعدلي ، عارضة اجسادها التي لا تحمل غير القمصان المجردة فلا تشرب الا القليل ، وتربط ساعات بطولها في لعب الورق أو النرد ، وهذا المشهد الذي سبق شيوعه في دمشق وبغداد لا يسر الباحث عن الجمال الا قليلاً . ولكنه يفيد الباحث الاجتماعي ، اذ يمثل في نظره ، ارتقاء البورجوازية

الصغيرة (٤) .

ارتقاء الطبقات ها هي بالفعل ، ظواهر اخرى ،
« وسيطة » ، على افضل ما تكون
الوساطة . فهي تعكس التغيرات العميقة التي تحدث في الشرق منذ نصف قرن ،
في ميدان الطبقات الاجتماعية وحياة العلاقات فيما بينها .
وانا أميز ثلاث ظواهر رئيسية من بينها تتبع كلها من المحطات الملائكة الخاصة
بالمدين ، والتي يستحق كل منها دراسة اوسع من تلك التي نستطيع التكرس
لها هنا .

وفي بداية القرن العشرين ، يبدو تضخم عدد الجمعيات واللجان ، التي هي
على صلة بالقومية الاولى ، مبشراً بشكل جديد من الارتباط الاجتماعي من
« التكتل »* . وصعود البورجوازية الصغيرة يعود ، على العكس ، الى تكاثر
الموظفين في الدول الجديدة ، ومنذ ١٩٤٥ ، الى استبدال صاحب المنشأة الاجنبي
استبدالاً اقتصادياً ، وهو لا يخلو من الترابط مع الثورة العسكرية ، على الأقل
في مصر . وأخيراً فان التجمع النقابي يتقدم . فمحمد مندور يعتبر ابطال رواية
نجيب محفوظ (٥) المثلثة الاجزاء من طراز البورجوازيين الصغار . فالأب هو
تاجر متوسط الحال ، متشبع بالايان وبواقف الحياة التقليدية . والابناء الذين
يتكونون في النصف الثاني من فترة ما بين الحربين ، يمثلون دون شك ،
طرازاً مختلفاً . ولكنهم لا يزالون مشدودين الى عالم الأب ونظامه ، على الأقل
بوشائج الثورة . انما هناك عمليات ارتقاء عديدة : فثمة ارتقاء الموظف الذي

(٤) انظر المقالات الحية والناقذة التي نشرتها سيمون لاقوتير Simone Lacouture
في صحيفة Paris - Normandie الصادرة عن مدينة روان Rouen ، بين ٢٨ يناير

١٩٥٩ و ٥ فبراير ١٩٥٩

(٥) « قضية الادب الجديد » *

ينتدبه ، احياناً ، النظام الجديد القائم على التوجيه الشديد ، لمهام مدير ادارة كبير ، وارتقاء الضابط (٦) الذي هو اكثر الاحيات من أصل ريفي ، والذي يجعله تعليم أكثر عمقاً واستقلال مادي ، وذهنية أكثر عقلانية ، في حالة استعداد للتفكير الراديكالي ، وارتقاء العامل ، رغم ان هذا الارتقاء لا يزال مكبوتاً قليلاً أو كثيراً . كل هذه الوجوه للارتقاء تفتح آفاقاً جديدة تماماً . وهي ، الى حد ما ، تعكس حركة الهدم - واعداد البناء ، التي تحمارل ، بنسفا الاطار القديم لحياة المدينة . مثلما تنسف الحلية الريفية ، ان تعيد تأليف الكل ، بصورة غريزية ، في شكل وحدات وطنية ، وهي تعبر عن حركة الصيد - والجاذبية التي تعمل في آن واحد على بث روح التمرد في الوطن المسترجع من يرائن كل تبعية خارجية ، ولكنها تفتح ، بهذا العمل ، القطاعات الأكثر انغلاقاً فيه لتأثيرات العالم الفسيح .

فلثلاثين سنة خلت ، كان الكثير من اهل الحوانيت والمشاغل الحرفية (المحترفات) يتوزعون ، في الكثير من هذه البلدان ، الى طوائف او فئات مهنية منفصلة (Corporations) (٧) . وقد أبدل هذا النمط من الناس الحرفيين بنمط العامل ، وبصورة أكثر شيوعاً ايضاً ، بنمط تشغيل المصنع . وقد أسهم في إحداث هذا الابدال الهدم التدريجي للتقنيات اليدوية ، وتراجعها امام التقدم الآلي وغزو المنتجات المستوردة . وشغل المصنع باذقطاع الصلة بينه وثقافة المدينة

(٦) مجيد خضوري ؛ ضابط الجيش ... (بالانجليزية) في مجموعة « القوى الاجتماعية في الشرق الاوسط » الطبعة الثانية - عن دارفيس ص - ١٦٢ وما يلي . وهي دراسة حديثة لورو بيرجر morro - Berger

(٧) حلل لويس ماسينيون ، في نصوص متنوعة ، تمتد على طول حياته الفكرية ، في عملية ، اتذهب عمقاً ، التنظيم الاسلامي للعمل . ولن نستشهد الا بمقاله في مجلة « الدفاتر الدولية لعلم لاجتماع Cahiers internationaux de Sociologie المجلد الخامس عشر ، عام ١٩٥٣ ، ص ٣٤ وما يلي ، بعنوان « تكوين العمل في دمشق عام ١٩٢٧ » .

لا يندمج مع اشباهه إلا من خلال مجموعات قائمة على وحدة الاقليم او القرية التي تحدروا منها ، إلا اذا ارتفع ، في مرحلة تالية ، الى شكل ثوري ، الى الشكل النقابي ، وفي الخطوط الكبرى ، تتكرر الظاهرة نفسها في كل مكان في العالم العربي ، مع التنوعات التي يمكن ان تعزى الى الشروط المحلية . وقد استطاع العامل الطبقي ، مثلاً ، ان يتدخل ويؤثر على حركات التضامن المهني . الى حد انه في بلد مثل لبنان لا يزال فيه هذا العامل بالغ النشاط ، يبدو ان إطار التجمع او الانعزال المهني نفسه لا يزال مفقوداً .

ومع الاحتلال الاجنبي تولد وجوه أخرى للتضامن ، تؤدي الى تجمع ابناء المدن ، بصرف النظر عن منشأهم ، ضد السلطة . ومن نواحي عديدة ، كانت الزعماء البورجوازيون يقومون ، في هذه المرحلة الاولى ، بالتعبير عن الضيق الذي لم يكن مقتصرأ على المجال السياسي وانما ايضاً يتناول المجال الاقتصادي والاجتماعي . والنظام التقليدي للمدينة كان يظل قائماً ، بفضل هذه الظاهرة ، او يتجند ضد الاجنبي ، بينما كان تطور لا يقهر يلغمه من داخل : فاشترك ابناء الشعب ذوي الحياة المتواضعة في المدن ، في التجمعات والحشود ، والاضرابات ، والقذف بالحجارة ، وفي عمليات اغلاق الحوانيت ، وتظاهرات الشوارع ، اصبح عنصراً اساسياً من الحياة العامة . وفي دمشق كما في القاهرة ، كانت اندفاعات الحماسة الاكثر اخلاصاً تتأجج اكثر ما يكون في هذه الطبقات . ونتائج هذا التطور لم يكن بوسعها ان تظهر ، في شكل مطالب الفقراء ، وفي بعض الحالات ، في شكل صراع طبقي ، إلا في البيئات التي تتميز بفوارق اجتماعية كبيرة ، وإلا بعد ان تنقضي مرحلة اولى من التحرر الوطني . فلم يكن بمقدور الحركة النقابية ، اذن ، ان تهرب من تأثير الحركات البورجوازية التي حاولت طويلاً ان تلجم حيويتها الدينامية وتستغل امكانياتها ، الا على النفس الطويل ، وبمساعدة عمليات تطور متنوعة .

ففي لبنان (٨) رسمت الطريق منذ عام ١٩١٣ ، بواسطة نقابة عمال المطابع ، وهي إحدى أقدم النقابات في الشرق الأوسط . وقد دعت إضرابات مظفرة قامت بها عام ١٩٢٦ حركة نقابية بلغ منها أنها أصدرت صحيفة خاصة بها اسمها « اليقظة »* ولكن الحكومة كبتت بعنف جراح هذه الحركة . « وان الانفتاح العقائدي المبكر لدى بعض قادة هذه الحركة واندفاع الحزب الشيوعي لتكوين منظمات عمالية لم ينجحاً في بناء حركة نقابية لبنانية قبل عام ١٩٣٩ » : ومع ذلك فقد ولد اتحاد للنقابات وبدأ يطالب بقوة بتنظيم للعمل . ومن هنا كانت محاولة الإضراب العام سنة ١٩٤٦ ، وعدة حملات تهيجية من عام ١٩٤٥ الى عام ١٩٤٨ . ولكن مقاومة الإدارة ، ورجال الأعمال ، وانقسام العمال ، وفي كثير من الأحيان ، جردهم قد أدى الى انحطاط الحركة . واذا كان الاتحاد ، « لا يستطيع ، اليوم ، الادعاء بأنه يمثل طبقة عمالية وحركة هو يحلم في تحقيق وحدتها ، فإنه يعتمد وباستطاعته ان يعتمد على قوى هجومية ومواقع لا مسيل لزعزعتها » وقد أتمى الاتحاد جدته العقائدية . وان فرص النجاح المتوفرة لديه هي الفرص نفسها المتوفرة للاشتراكية ، في الشرق الأوسط ، لا أكثر ولا أقل . وهذه القصة القصيرة تظهر ما تستطيع ان تكون عليه جوانب العظمة والتعاسة في الحركة النقابية في بلد عربي يتسع باقتصاد مزدهر ، ويكاد يكون متحرراً من الأمية ، ولكن ازدهاره بالذات ، وتقاليدته التجارية ، رغم ملاءمتها للحرية ، لا يقدمان افضل الميادين للمطاب العمالية .

صحيح ان لبنان لا يعرف حتى الآن غير حركة تصنيع متواضعة وان التجمعات العمالية سوف تشهد ، في المستقبل ، مولد الحركات الحاصمة على أعنف وجه ، في العراق ، وفي امارات الخليج الفارسي ، وفي العربية السعودية

(٨) كمال بحصلي : « اسهام في دراسة اوضاع الطبقة العاملة في لبنان » باريس عام ١٩٥٦ ، م ، شادر « العمل الاجتماعي » في مجموعة متنوعات « mélanges » الصادرة عن جامعة القديس يوسف عام ١٩٥٦ . وانظر ايضاً بدوي زكي في كتابه : « مشاكل العمل والمنظمات العمالية في مصر » ، الاسكندرية ١٩٤٨

حول المجموعات الصناعية البترولية الضخمة ، رغم ان الظروف المحلية ايسر ، في الوقت الحاضر ، وحيمة بهذه التجمعات ، كما نعلم كنا . وكذلك ، ليس بالوسع استغراج الأمثلة من مصر الحاضرة ، رغم ضمانة الاقدمية والعدد ، ورغم نمو الحركة النقابية فيها ، بفضل حركة التصنيع النامية . فهذه الحركة النقابية لا تزال في مرحلة هيمنة الدولة (٩) في هذا البلد . ومع ذلك فان الجماهير تتدفق . ووفقاً لاحصاء جد حديث لليد العاملة ، يبدو ان بين الذكور الذين تتراوح اعمارهم بين ١٥ و ٦٠ سنة ، في هذا البلد يوجد : ٢١ بالمائة عمال صناعيون ، و ٤٥ بالمائة عمال زراعيون و ٢٠ بالمائة في التجارة والنقل والنشاطات المختلفة و ١٤ بالمائة دون مهن . وفي هذه الحشود الكبيرة ما هو ، يا ترى ، عدد النقابيين ، وعدد المناضلين الذين يمكن عدّهم ؟

ان التقلبات التي تلاحظ ، في هذا المجال ، في فرنسا ، مثلاً ، والتي تمدد احياناً وتقلص احياناً أخرى ، وفقاً لنسب تتغير بدورها ، نسبة المسجلين ، والمشاركين ، والعاملين الناشطين تظهر بوفرة كبيرة اذا اقتضت الحاجة العلاقات التي تربط الحركة النقابية بعوامل تاريخية اخرى : معارك التحرير الوطني ، مهابة الزعيم ، حيوية الاحزاب ، الخ . . ففي بلاد مثل السودان ، ترتبط المرحلة الاولى من الحركة النقابية بكاملها بالمطالب القومية ، وفي مصر مارست اندفاعات الاختيار الماركسي المتقطعة ، والمثيرة للانتباه والدهشة احياناً ، على الرغم من كل شيء ، أقول مارست ، ولا شك ، عمليات ترابط ، على صعيد النشاط العمالي . وعلى العكس ، تستهدف حركة القمع احياناً ، وفي الدرجة الاولى ، المناضلين العماليين الذين يتقاسمون هذا الامتياز مع رجال الفكر

(٩) ان احدث دراسة حول هذه الحركة هي بحث م . ت . اوسدي M. T. Ausdley بعنوان « قضايا العمل والاجتماع في مصر » منشور في مجلة « ميدل ايسترن افير » (الأعمال في الشرق الاوسط) ، العدد رقم ١ ، اوكسفورد ١٩٥٩ ، ص ٩٥ وما يلي . انظر ايضاً ف . ج . توميش (F. J. Tomiche) « الحركة النقابية في مصر الحاضرة » مجلة « الازمنة الحديثة » عدد ١٦١ يوليو ١٩٥٩ ص ١٠٧ - ١٢٣

والمتقنين ، عماد طبقة الانتليجنسيا . ومع ذلك ، فان بحثنا الحاضر سوف يهمل هذه الظروف المؤلمة ليعنى باللامع الثابتة الأكثر اتصافاً بالرزانة والصفاء . والتي هي ، فوق ذلك ، مشتركة بين جميع الدول الشرقية .

والقدم النسبي للتنظيمات الانتاجية في هذه البلدان ينشط دور العلاقات الانسانية بين اصحاب العمل والمستخدمين ، ولعبة الحدس الشخصي *le Jeu de l'Intultus personae* على حساب الوعي الطبقي . فان اقلية عمالية ، تقدر بعشرين بالمائة ، تعرف ، وحدها ، القراءة والكتابة . وان فيض العرض لليد العاملة ، وامتداد البطالة والتشغيل الناقص يغفل سلاح المطالب العمالية في كثير من الاحيان . ويضاف الى ذلك ، في هذه الأيام ، ضرورات النمو القاهرة . فقد قرر المشرع في الجمهورية العربية المتحدة ، مؤخراً ، ان يضعي بالحق في الاضراب على مذبح هذه الضرورات (١٠) صحيح ان قانون العمل الذي نشر مؤخراً فيها (قانون رقم ٩١ الصادر في ١٩٥٩) يوسع ، بصورة محسوسة ، حماية العامل والضمانات الاجتماعية . ولكن همه الرئيسي لا ينفك ، كما يبدو ، ان يكون تحصين الاقتصاد ، بصورة وقائية ، ضد اخطار توقف العمل الناتج عن مطالب جماعية او عن تحريك اليد العاملة ، مما يحدث زيادة في المسؤوليات التحكيمية للدولة ، التي لا ترى فيها المعارضة غير نوع من التحكم الاعباطي .

فقصة الحركة النقابية في الشرق الادنى تبرز ، اذن ، تقدماً لا يمكن نكرانه . ولكنه غير متعادل ، ويختلف حسب البلدان . فاتحاد القوى العمالية السودانية يمكن ان يعطى كمثل على الحركة النقابية الاكثر تقدماً ، على الاقل في الفترة التي كان المرجوم الدكتور فوزي يقوم بتحليلها (١١) وان مؤرخ هذه الحركة

(١٠) مجلة « الاقتصاد والمال في سوريا والبلدان العربية » عدد ايار ١٩٥٩ ص ٣٨
(١١) سعد الدين فوزي : « الحركة العمالية في السودان » (بالانجليزية) اكتوبر ١٩٥٧
انظر ايضاً لنفس المؤلف « توزيع اليد العاملة في السودان » في مجموعة « الاوراق الاقتصادية في الشرق الاوسط » ١٩٥٨ ص ٢٢ وما يلي .

كان يذهب الى حد الخروج بالنتيجة التي تقضي بضرورة اشراك الحركة النقابية مع عملية وضع المخططات الاقتصادية ولكن التطور يتميز ايضاً بصعوبات خاصة ، ومن وقت لآخر ، بما يمكن ان يسمى « التراجع التحسبي » المرتكز على عناصر الوضع الاقتصادي . ولهذا السبب ، وبالرغم من الامة الفائقة للنمط الاجتماعي هذا ، الذي قد يشكل ارتقاؤه المنتظر ، رغم انه يلجم اكثر من اللازم في اكثر الاحيان ، المثل النموذجي لنمو يذهب من القاعدة ، فاني ما كرس تحليلاً اكثر تفصيلاً للكشف عن قوة كبرى اخرى : الطبقة الفلاحية .

النظام التعاوني في مصر ليست الحركة التعاونية

شيئاً جديداً في مصر (١٢) . فنند

١٩٠٧ ، قام مصلح من النوع الذي عرفته هذه البلاد من جيل الى آخر يدعو للحركة التعاونية حتى انه سمي « رائد الحركة التعاونية » انه عمر لطفي . لقد أسس عدة جمعيات تعاونية على غرار جماعات رافيسين Raffeisen وقد تفنن زعماء مثل محمد فريد ومثل سعد زغلول في التعايل لاقرار الوثيقة الاولى ، ضد القوى المقاومة او الحرجولة . وقد كانت ذات طابع نظري ، الامر الذي يشير الغرابة . هذا صحيح . وقد اقتضى الامر الانتظار حتى عام ١٩٢٣ حيث صدر المرسوم رقم ٢٧ الذي أرسى قواعد الحركة التعاونية في مصر . وقد تطورت الحركة ، منذ ذاك ولكن هذا التطور كان في اتجاه الكمية اكثر منه في اتجاه الفعالية حتى بلغت الحركة ارقاماً تبدو ، لأول وهلة ، ضخمة . ففي عام ١٩٢٨ ، كان يوجد ١٦١ تعاونية زراعية ، وفي سنة ١٩٤٥ ، الف وستائة واحدي واربعين . وقد كانت تضم حينذاك ٧٧٦٠٠٠ عضواً ، ولو ضمنا اليها ايضاً التعاونيات الاستهلاكية البالغ عددها ٣٦١١ لأن الجهود كان يتناول في وقت واحد

(١٢) انظر تاريخ الحركة في «مجلة التعاون» * عدد حزيران ١٩٥٤ ص ٣١ وما يلي .

الانتاج والاستهلاك . وقد أسس مصرف يدعى المصرف الزراعي والتعاوني ،
في ٢٣ سبتمبر ١٩٤٨ .

وكان الفلاح بحاجة ماسة اليه ا فالاقتصاد كان يشكو من العسود المفرط
للوستاء . وبما ان حياته كانت ، الى حد كبير ، مرتكزة على زراعة القطن فان
عدداً كبيراً من المهن قد تكاثرت في الحيز الذي يفصل الزراعة عن التسويق .
وما أطول الطريق التي تمتد بين حقل القطن والاسكندرية ! فعلى طولها يسرح
المضاربون والمغامرون . انها مشكلة دائمة التكرار والأهمية الآنية ... والدولة
تشتري ، اليوم ، القطن في مجموعات حداها الأدنى ٢٥٠ قنطاراً . وهي كمية
كبيرة لا قبل للفلاح الصغير بها . فهو لا يملك اية وسيلة للتمويل ويضطر للاتجاه
للمرابي المحلي الا اذا استطاع ان يستنجد بتعاونية الاصلاح الزراعي التي سأحدث
عنها فيما بعد . اما فيما يتعلق بالفلاح المتوسط الحال ، فان الوسطاء يستنزفون
دمه . فبين المنتج والمستهلك ، او بالأحرى المصدر ، تتصب عدة فئات من
التجار . فثمة التاجر الذي يسمى « الزهار » وهو الذي يشتري القطن وهو لا
يزال في حالة الإزهار ، وهي عملية ربا في اكثر الاحيان ، وثمة « الجلاب »
الذي يشتري كميات صغيرة ليعمل منها اقساماً كبيرة « موضبة » . ولكنه
ليس غير مضارب يعكس ، على نطاق العزبة او القرية ، مع تضخيم بالارباح ،
حركات بورصة الاسكندرية او القاهرة . اما « الحلاج » ، وهو الضحية والجلاد
في آن واحد ، فينقل الى القاعدة العذابات التي تقاسمها وتتجرعها على ايدي كبار
التجار ، والشركات الكبرى ، وبفعل هذه الطريقة يسير الجهاز العام القائم على
تركيز الثروات والذي يعيث فساداً في مصر كما في كل مكان آخر .

والنظام التعاوني كان يدعي محاربة كل هذه الآفات (١٣) . فهل كان ينجح في

١٣) لقد استمرت الوثائق الحالية لهذا المقطع من تحقيقات نشرت في الصحافة المصرية
وخاصة من تحقيق لعدي برسوم في جريدة « المساء » عدد ٩ اكتوبر ١٩٥٨ و ٢٣ اكتوبر
٥٨ ، وكذلك لعلي الشالقاني ، في الجريدة نفسها عدد ٩ اكتوبر ١٩٥٨ و ٢٥ اكتوبر

تحقيق هذه الرغبة ؟ عندما أقدموا ، في مؤتمر القاهرة للتعاونيات عام ١٩٥٥ ، على وضع دراسة لجلاء الأمر حول جدوى كل الجهود التعاونية ، برزت تجاوزات مذهلة ، وظواهرات فشل ذريع ، اعترف بها التقرير العام ، بكل صراحة . فقد كان النظام التعاوني يشكو من أثنائية وجهاء واعيان القرى ، ومن عدم تجربة رجال الادارة ، ومن تجاوزات بنك التسليف الزراعي ، فان هذا الاخير كان يقوم ، بصورة تدل على التناقض ، ولكنها تتماشى مع الاسلوب التقليدي ، بالتفاهم مع الاعيان المحليين ، فيعقد عليهم نعم سيلفه وقروضه ، مقابل قيامهم باعمال السمسة له . ومن هنا ، اذن ، كانت الضرورة لاعادة البناء كاملا ، ابتداء من القاعدة . ولهذا السبب تخضع تعاونيات « الاصلاح الزراعي » التي تضم الفلاحين الذين احتلوا الاراضي المرزعة ، لمبادئ جديدة ، منذ اعلان الثورة

فضد نفوذ الاعيان ، تقرر انه لا يحق الدخول في تجمع تعاوني إلا للملاكين الذين لا تتجاوز املاكهم الخمسة أفدنة . ولكن ، لسوء الحظ ، يتحول الفلاح ذو الثلاثة افدنة ، سريعا ، الى مستغل صغير . ففي احدي النشرات الاولى المكرسة للاصلاح الزراعي يلاحظ المرحوم حسن ابو السعود أنه ، في عام ١٩٥٥ ، كان مليونان من الفلاحين يملكون أقل من فدان واحد ، اذ لا يزيد معدل المساحة التي يملكها واحد على ٣٠ بالمائة من الفدان . اما الذين يملكون من فدان واحد الى خمسة أفدنة فان عددهم لا يتجاوز ٦٧٨٠٠٠ ، ولكن معدل المساحة المملوكة بدأ يقفز الى ٢١٤٤ فدان . فتركيز الملكية بدأ يلعب ابتداء من القاعدة . وقد بدأ ترسب الطبقات يرتسم بين طبقتين من صغار المنتجين : المنتج الذي يبقى في المرحلة التعت اقتصادية (او الاقتصادية الدنيا) والمنتج الذي يرتقي الى المرحلة الاقتصادية والذي شرع في عمليات الاحتكار . ومن جهة اخرى ، فان الدولة ، في سبيل مكافحة عدم التجربة لدى المنتفعين بمخدمات

التعاونيات ، تقدم بسخاء ، المدربين والخبراء : وانه لجهود مشكور ، وايضا
يشكل غزواً من قبل الروقيين البيروقراطي ! ولتلافي المساويء التي كانت تنتج
عن تصرف بنك التسليف الزراعي ، تقرر وضع القروض بتصرف الفلاحين ،
ويجري منحها بواسطة مديرية التعاون ، واللجنة العليا للاصلاح الزراعي : وعند
ذاك بدأت تجاوزات نظام المركزية في الادارة ، تهدد بكل اخطارها .

وكما في كل عمل ابداعي انساني ، تتشابك الحسنات والسيئات والامكانات
والاخطار . ويمكننا القول ، في معرض الثناء على الاصلاح ، وعلى الكتب التي
تغذيها ، مثل الكتاب الذي أخرجه مؤخرأ سيد مرعي ، وعلى الريبورتاجات
الحديثة احياناً التي يدفع اليها ، ان شعوراً بالمحسوس الارضي ، هــو ولا شك
شعور متحدر بالوراثة البعيدة ، يحصنها احياناً ضد الكلام بالكنايات والأقاز ،
ضد اللاواقعية .

ففي خريف ١٩٥٨ انعقدت اجتماعات « للمديريات * » « والمراكز »* في
سبيل وضع موازنة للجهود التعاونية . فها هو ، مثلاً ، ما حدث في سنبلوين ،
في الدقهلية . ان خمس « وحدات مجمعة »* تعمل فيها : وهي هيئات للاعانة
والارشاد الريفيين ، اطلقت فكرتها ، منذ عام ١٩٥٣ ، في عمل تجديدي بالغ
قام به الدكتور عباس عمار . وهذه الوحدات تتكاثر شيئاً فشيئاً في هذه الايام .
وهذه الوحدات تضم خبراء او بالأحرى مدربين ، وشعبة للتسليف وشعبة لتربية
الحيوان الخ .. وفوق ذلك شعبة لتربية النحل والاقتصاد المنزلي . وقد أمنت
تعاونية لاستثمار الاسماك التي تصطاد في بحيرة المنزلة . وهناك رغبة في توسيع
الضمان الزراعي الى خمس « مراكز »* منذ عام ١٩٥٩ وقد اتخذ اجتماع الفلاحين
ثلاثة قرارات تمني : اولها يتعرض للثورة العراقية ، والثاني لقضية الجزائر .
والثالث فقط (وطريقة الترتيب في صياغة القرارات تعكس الترتيب
في الاهمية) تتسرب من خلاله اصوات شكاوى الفلاحين المرة . انه الانقلاب
المميز في العموم المباشرة ...

وفي شبين الكوم ، في المنوفية يقدم الوزير نفسه عرضاً عاماً لعمليات
الاصلاح الزراعي . فهو يقول انه يمكن ، في الوقت الحاضر ، احصاء ٣٣٣٠٠٠
(ثلاثمائة وثلاثة وثلاثين الف) فدان وزعت على مائة وعشرين الف عائلة .
وهذا العدد قليل ، بالنسبة لعدد السكان الضخم في مصر . ولكن الأرقام غير
الصادقة تستطيع ، عن حق ، ان تذهل . فان عمليات التعاونيات الزراعية قد
تجاوزت الخمسة ملايين من الجنيهات المصرية (أي ما يعادل قرابة الستة مليارات
من الفرنكات الفرنسية) ويظهر أنه قد تحقق ربح يعادل مليون وربع من
الجنيهات . وعمليات التسويق التي اضطلعت بها التعاونيات تجاوزت الثلاثمائة
الف « قنطار »* من القطن . وهذه الاعمال تناهض ، بالطبع ، نشاط الوسطاء
والمرابين . فالعملية لا تخلو ، اذن ، من قيمة وتعطي مداراً واسعاً من التجارب ،
هذا اذا اعتبرنا انها مرفقة بجهود مكثمة عديدة ، في ميدان السكن ، وتوزيع
الحيوانات الخ ...

أكيد ، ان التجربة القائمة والمهزنة ، في هذا الحقل ، في جميع البلدات ،
تفرض ان يُنظر للامر عن قرب اكبر ، اذا امكن ، بما تتيحه التقارير الادارية .
وهذا الذي حققه الكثيرون من الصحفيين . فقد ذهبوا ليعاينوا محلياً ، مجرى
الامور في قريتين : الزعفران و « أدا » . وفي الزعفران تضم التعاونية ٥٢٣
عضواً . وقد تلقوا بذاراً بقيمة تزيد عن ١٣٠٠٠ (ثلاثة عشر الفاً) من الجنيهات .
وهذا البذار (يحمل ، في مصر ، اسماً غريباً « التقاوي »* او « التقاوي »* .
وتلقى اعضاء التعاونية كذلك اسمدة بقيمة ٢٧٥٠ جنيهاً . اما في « أدا » فان
ما يقارب المائة من اعضاء التعاونية تلقوا بذاراً بقيمة ٢٠٠٠ جنيهاً وأسمدة
بقيمة ٤٥٠٠ جنيهاً . وفي القريتين يوجد مخزن تعاوني ، يستطيع الفلاح ان
يشترى منه ، مبدئياً كل ما يلائمه . ومن جهة اخرى تعطى له الابقار الحلوب

بالتقسيم لأجل . وعلى هذا ارتفع عدد افراد القطيع ، في احدى القريتين ، من ٣٥٤ رأس بقر عام ١٩٥٥ الى ١٤٩٥ بقرة حلول عام ١٩٥٨ . اما قفا الصورة؟ فيظهر ان الانضمام للتعاونية اجباري لكل الذين ركزوا في الارض : اذن ، منذ البداية ، لا مبادرة شخصية ولا عفوية . ونظام التوجيه المشدد يتجلى في كل لحظة ، في شكل تخطيط زراعي ، وتسويق ، ومحاولات للمكننة ، وتسليف . وفي القريتين يبدو مجلس الادارة للصحفي الذي لا يخشى ان يقرها بصراحة ، مجرداً من كل سلطة حقيقية ، انه يعتبر ان « المندوب »* أي المفوض الاداري ؛ هو الذي يتمتع بكل السلطات . الا اذا كانت هذه السلطات بيد المجلس المركزي للتعاونيات ، وهذا الامر ليس افضل في شيء .

هذه الانتقادات لا تبعث ابداً على الدهشة . فالتجديد الاقتصادي . او جدة هذه المحاولة الاقتصادية ، في هذه المرحلة وفي هذه البلاد ، يتدخل بصورة كلية ، مجهزاً بسلطة الجسم الاجتماعي ومثقلاً باعبائه . وقبل ان ينتقل الى مرحلة المواقف الفردية ، يقتضي ان يبرز ويرتسم جهاز كامل من الافعال ووردود الافعال المضطربة في حركة مد وجزر . وهذه الحركة ستكون خصبة بقدر ما تترك للنقد الايجابي مجراه الحر . فالفلاح ينكر على المخزن التعاوني كونه يفتقر بالسلع الجميلة ولكن الجميلة الى حد . والتي لا تعطى الا مقابل دفع نقدي . انه يفضل اللجوء الى البقال ، هذا القارض الصغير الذي يعيش في القرية ، والذي يقدم للفلاح نعمة البيع بالدين . ويتمنى الفلاح ان يشتري كيسين من الاسمدة عن كل فدان من الارض التي يستثمرها ولكنهم لا يعطونه الا كيساً واحداً ، فيتعتم عليه ان يشتري الكيس الآخر من السوق السوداء . وقد طلب الفلاحون بذاراً من « البرسيم »* والبول : ولكن عبثاً . والدولة تشتري منهم القمح بسعر ٤٠٠ قرش صاغ « للأردب »* . ولكنها تعود قبيحهم اياه ، في شكل بذار ، بسعر ٤٥٠ قرشاً . وفي مصر ، كما في البلدان الأخرى ، وفي النظام التعاوني كما

في التجارة ، يخلق التعامل بالحبوب تجاوزات مقلقة . والفلاح لا يتهم مجلس الادارة بهذه الاشياء فقط .

ففي قرية اخرى ، شبشير العيسى ، يشكو الفلاح من كون توزيع الاراضي ، الذي يقتضي ان يقتصر على فقراء القرية ، قد أدى الى تركيز غرباء (وكلمة غرباء تعني هنا ، اهل القرية المجاورة) . وخاصة هو يشكو من اضطراره لان يدفع اقساطاً من ثمن شراء الارض اكثر مما كان يدفع لليك بشكل أجار الارض : اكثر من ١٠٢ جنيه مصري ثمناً لفدانين وثلاثة قراريط . والفلاح لم يعد يدرك هذا الامر او يتظاهر بأنه لا يفقه من الامر شيئاً . فهو عبثاً يجهد لان يكون فلاحاً متنبهاً وحريصاً . انه يفرق (او ربما يلتجئ الى الفرق) في نوع من خضم المفاهيم وخاصة الارقام . وهذه الارقام هي اعداؤه بالوراثة . فقد ظل أبداً عرضة للنهب (او الجز) من قريب ، حتى اعتقد ، او يتظاهر بالاعتقاد انه لا يزال ضحية هذه العملية . ونحن نعرف ذلك ...

ولكن عواطف اخرى ، ومبادرات اخرى ، تدخل الآن في اللعبة . فان اعضاء التعاونيات في احدى هذه القرى يقررون في مجلسهم بان يمتنعوا عن الاستخدام بصفة عمال موسمين ، رغم اغراء الربح ، طالما لم ينجزوا الاعمال التي يقتضيها موسم القطن في مؤسستهم الخاصة . والحال ان هذه الاعمال هم يستوفون عليها اجوراً منخفضة نسبياً ، بينما كان بإمكانهم ان يستفيدوا من المضاربة الموسمية في المواضع الاخرى : اذ ان للبايس ، هو ايضاً ، حظوظه . وهنا يتجلى ، في وضع النهار ، استعداد نفسي ، ليس تعاونياً فقط ، وانما جماعي ، ربما أو مشاعي ، عامي Communal . ان شيئاً ما يولد ، عبر الشكوك ، والاشياء ، والتجاوزات .

التكون العسيري للعاميات (Communes) هل سيكون هذا الشيء الكومونة (أو العامية) * . فمن كل زوايا العالم العربي من البصرة الى فاس المغربية، يرتفع المطلب ذاته : ان تمنح المبادرة للقواعد في المجتمع . ولكن كيف تفهم هذه القواعد؟ ان أنواعاً غنية بالعبير تظهر تحت اجماع التقرير . فكل من هذه البلدان ، عندما يقوم بثورته ، يقرر القيام « بأصلاح زراعي » . وان كتابات عديدة شرعت تطرز حول هذا الموضوع . ان الاصلاح الزراعي ، هو « ثعبان البحر » ، ان صح لي القول ، في كل التفكير السياسي والاجتماعي السائد في الشرق منذ جيل . ألا يدخل في نطاق هذه الشهوة للامساك بواقع الأرض ، المحتمدة في نفوس أناس خرجوا منها بقوة الأشياء ، وسواء هم انتموا الى الطبقات الارستقراطية أو البورجوازية القديمة والمتقنة ، أو الى الطبقات الجديدة التي أدى ارتقاؤها الى سدة الحكم لانفصالها عن الحقائق الاساسية هل هو الضيق حيال هذه الحقائق ؟ صحيح انها تبدو باعثة للمشاكل ، ولكنها ، أيضاً ، على شيء من الاثارة للروائح الكريهة ، أو ان جاز لنا أن نقول كل شيء ، هي لا تخلو من التلوث انها على كل حال ، معادية لثقافة المدن التي استفادت من تحالفها مع الحركة الوطنية في مرحلة التحرر . .

فها هي مثلاً ، طبقة من رواد الدورات التدريبية التي أقيمت عام ١٩٥٣ ، في بداية حملة التثقيف الشعبي انطلاقاً من القاعدة ، في مصر (١٤) ، لقد أقبوا من

*) اتنا نستخدم هنا ، للتعبير عن المفرد « الكومونة » La Commune كلمة « العامية » التي لتعبرها من الاسم الذي اطلق على حركات ثورية قام بها الفلاحون في لبنان في القرن التاسع عشر : عامية انطلياس و عامية لحد المترجم

(١٤) جاك بيرك الكرميدي والفلاحون ، « الارراق التونسية » Cahiers de Tunisie

عام ١٩٥٨ ص . ٥ .

جميع أنحاء العالم العربي ، أي بأكثرتهم من أعماق الريف والقبائل . وهما هي شهادة أحدهم « وأنا أضع ملاحظاتي بين هالين » .

« العمل في القرية » : لقد أثار هذا التعبير ، بين رفاقنا ، كل أنواع المناقشات والمشاورات الطويلة . انها كلمات مخيفة ومشحونة بالسحر الخفي ! فالبعض منا لم يشاهدوا في حياتهم قرية البتة ، « هل من المعقول ان يستطيع عراقي خارج من الوسط القبلي أن يتبادل أحاديث من هذا النوع مع رفاقه المصريين الذين يكشف مظهرهم الجسدي نفسه عن نسبهم القروي » ؟ انهم يتصورونه في ملامح وحش مفترس « لنتركه يعطي المبالغة حصتها ... » وكان كل واحد يتساءل بقلق : ما الذي يمكن عمله في قرية ؟ (انهم يعرفون ذلك اكثر من اللازم ، لان طفولتهم قد اندججت وجبلت في حياة القرية) ، وخاصة ، هل سوف نعرف كيف نضع موضع التطبيق ما تعلمناه اثناء الدروس ؟ « وهم على حق ، لان مواد التعليم في هذا الجزء من العالم ، كما في المواضع الأخرى ، تظل احياناً نظرية أكثر منها تطبيقية » والذين كانوا يتفوقون في المناقشة لم يكونوا الاكثر طمأنينة ، اذ ان ثمة دائماً اجتناباً أمام المجهول يستولي عليك عند اجراء «الاتصالات الاولى» . («الاجتناب أمام المجهول» حيال قرية مصرية ، هذه القرى التي كان حضورها يعصر النفس ويحيط بنا من كل جانب ويسد كل الأفق حولنا) . وذات يوم هاهم مجتمعون في قاعة الدرس . وقد اختار الاساتذة النقاط التي ستتناولها التجزئة . هذه القرى ، كان من الضروري تسميتها ، عند ذاك بوشر بكتابة اسمائها على اللوح ، وبشيء من الخجل ، وقامت الصعوبة الاولى : « فقد صرح الدكتور x لنا ان المركز قد اختار لنا أربع قرى : وبدأ بكتابة اسمائها على اللوح . ديبركي . فكانت فقهة ضحك من قبل رواد الدورة الذين كانوا يسمعون ، لأول مرة ، بهذا الاسم ذي الرنة الغريبة

(لماذا ؟) . ثم فيشا : وكانت نوبة ضحك أخرى : ومن كل مكان ، كان الحضور يرددون بسخرية : فيشا ! فيشا ! ثم رسم اسم قلطا الكبرى : وكانت موجة ضحكات جديدة واصوات تساؤل . ثم بلغ الضحك اوجه عندما سميت القرية الرابعة ، « مناوهلة » : وكانت نوبة اقوى ما يكون .

انها مواقف لا تخلو من التناقضات . غرابة القرية : والشعور بالانفلات من حقيقتها الارضية ، التي يتحدثون منها مباشرة ، رغم كل شيء .

ان الدكتور كامل حسين ، مؤلف « المدينة الجائرة » ، قد ولد في قرية جد قريبة من « مناوهلة » هذه التي كان اسمها يحمل صاحبنا العراقي على الضحك . وهو نفسه يعترف بالصدع الغريب الذي انفتح في ذاته ، مجتثاً الأصول الارضية في شخصيته ، وهو يروي انه رأى ذات يوم ، وهو جالس امام باب بيته ، احد جيرانه يمرُّ راكضاً في اتجاه المحطة : وكان القطار على وشك الاقلاع . فأهل الكاتب في رده تحية العابر ، ان يدعوه للدخول الى مسكنه . فما كان من هذا الأخير الا أن حفظ له مدة طويلة هذه البادرة غير اللائقة . فان مفهومه « للادب » كان يختلف عن مفهوم اهل المدن ، وكان ينادي بالفضيحة اذا أخذ جاره بعين الاعتبار صفارة الانذار التي يطلقها القطار .

وفي مصر لم تكن ايجاعات الحياة الفلاحية تنجح ابداً في امتلاك طريقة تعبيرها الذاتية : وبينما تطردها ثقافة حياة المدن من فوق ، يغزوها النمط البدوي من تحت . ومهما كان بوسع المثل الاعلى البدوي ان يبعد عن تقاليد فلاحية بالغة الرسوخ والتأصل ، فان تيار القومية العربية قد انتقل به من الصحراء الى القرية . فهو يسيطر بصورة خاصة على « الصعيد » * حيث تسلمت مظاهر التراتب الاجتماعي القائم على سلطة الاب ، ونظام الأخذ بالتأر ، وغرور

الانسان الذي يمتطي صهوة الجواد ، بصورة غريبة ، وخطرة ، وقربت الى هذه
الذهنيات الفلاحية . صحيح انه بالمقابل مجرد سلطان الريف الملازم للذهن حتى
اثارة الوسوسة ، وعجيجه الخاص بأصوات الكائنات الخفية التي ترخر في جوه ،
يجرد (اقول) هذان المظهران في الريف كل تجمع عمراني في مصر ، قسماً من
طابع المدينة الذي يحمله . فالمدينة السكنية تكس تجهيزات ضخمة نسبياً :
ثلاثين ألفاً وحتى خمسين ألفاً من السكان . ومع ذلك فهي تظل بعيدة عن ان
تؤكد ذاتيتها . وهنا يظهر تناقض حاد مع حياة المدن الجلية التي تغلب على
التجمعات العمرانية في سوريا وفلسطين . فنابلس تفرض نفسها كمدينة .
اما عنوف فلا ، وهذه الحقيقة التي ترين بثقلها على النفس ، كأنها من الطمي ،
كانت تجد تقليدياً ، احد مساوئها باتجاه الازهر ، فالجامع الكبير كان يفتح ،
امام ابن الريف المتعلم ، ميدان العلم العالي . وبالمقابل ظل هذا المسجد طويلاً ،
حلقة لدراسة الشعر العامي (الزجل) . فهذا « الأدب الشعبي » * الذي يجد في
عمليات الارشاد الحديثة منطماً وحظوة خصبة . كان احد وسائل التعبير الملاذ
(او الملاجىء) في حياة الجئت الى صمت الجوع او الزاوية . وبالإضافة الى
ذلك ، اهتدي الفلاح الى طرق عديدة للتطور بفضل امتداد المدرسة الابتدائية
وحياة الوظيفة الصغيرة ، ومناصب الجيش ، والبوليس الخ . . . ولهذا السبب ،
عندما اندلعت الثورة المصرية . اصدرت بتاريخ ٩ سبتمبر ١٩٥٢ مرسوماً
حول الاصلاح الزراعي (١٥) . ذلك لانه المرة الاولى في التاريخ ، يعود الحكم
في مصر ، كاملاً ، الى الفلاحين .

(١٥) عرض رسمي بقلم سيد مرعي ، كثير الوضوح وعني بالمراجع : « الاصلاح الزراعي في
مصر » (Agrair Reform in Egypt) القاهرة ١٩٥٧

وفي العراق أيضاً ، كان انصار الاصلاح ينحنون ، منذ زمن طويل ، على حياة القرية . وبالنسبة لبعض منهم تظل القرية غير مفهومة تقريباً من قبل الذي يتطلع اليها من الخارج (١٦) . وخاصة من قبل الموظف الاداري . ولهذا السبب اتخذت تدابير لا حصر لها ، لدرجة ان التنظيم العراقي الذي نص عليه المرسوم الملكي رقم ٧٠ والصادر عام ١٩٥٦ ، حول انشاء قرى جديدة ، تقتصر فقط ، كما يقولون ، « على الخبر والورق » .

فقد كان يحدث ، بعد ان يتم تشييد البيوت ، ان تظل غير حائزة على رضى وقبول الفلاح ، لدرجة انه كان يفضل البقاء في كوخه (القرية) قرب المسكن النموذجي . وهذا الدرس قد تلقاه ، الاصلاحيون ، ليس فقط في العراق ، وانما ايضاً في شمال افريقيا خاصة ، وفي كل موضع آخر . فالدولة تفهم بصعوبة حياة القرية . لذلك هي تتخذ قرارات تنظيمية مضحكة . واحد هذه القرارات ، مثلاً ، تقضي بتنظيف المجموعة السكنية . وهو ينص على ضرورة المشددة القاضية بتخليص الشوارع من « روث الحيوان » * والظاهر ان الذي اصدر هذا القرار لم يلاحظ أبداً ان الوقود الوحيد ، في العراق اكثر الاحيان ، وفي مصر ، هو روث الحيوانات الذي يقوم النساء بجبله وتجفيفه . ولم يسع المؤلف الا ان يشعر بحزن الى حادثة رأها مؤخراً في مدينة صغيرة على الفرات . فان فتاة بارعة الجمال قد مرت وهي تحمل على رأسها سلة مليئة بالروث ولو كانت هذه الفتاة في مكان آخر ، وفي ظروف اخرى ، لوجد المرء متعة في مغازلتها ، لروعة جمالها . اما هنا . فان شطف العيش في البيئة ، جعل منها عاجزة براز .

(١٦) محمود نديم اسماعيل « اصلاح القرى في العراق » * بغداد ١٩٥٩ ص ٦٠ وما يلي وخاصة ص ٧٨ وما يلي . وعبد الرزاق الهلالي في كتاب « نظرات في اصلاح الريف » بغداد ١٩٥٤ .

وحسب المؤلف نفسه ، يعود السبب في هذه العمليات الفاشلة الى انهم لم يفقهوا ، إلا نادراً ، الحيوية الداخلية للقرية وهم لم يفهموها لانها تركز على النظام العشائري * . وهو يستعمل كلمة « عشائري » لافتقاره الى مفرد آخر فهو يخلط بين الفلاح والبدوي ، كما يُنتظر فعلاً . ولكنه يجلس عن صواب ، وجود نواة للمبادرة الاجتماعية والسياسية . وكل تشريع يتجاهل هذه المبادرة ، يظل لغواً . والمؤلف هو تقريباً الوحيد في بلده ، وفي عصره بمرحلته التي يتحدث عنها ، الذي لاحظ ذلك . فهو قد تحرر من النظرة الذاهبة نزولاً التي تميز المصلح (الذي يعمل أو يفكر في إطار) النظام الشديد المركزية .

وهذا الرجل الذي يشير الى ثورة البرزاني الطويلة الامد ، في شمالي العراق : يعرف ماذا يعني القول : انه يعرف ماذا يكلف الحكومات المركزية عدم شعورها ، قبل فوات الاوان .

لا يزال من المتعذر تقدير الآثار البيكولوجية والاجتماعية للاصلاح الزراعي الذي عرفته بدورها سوريا ، البلد المنتج للحبوب . واني أجد قانون العقود الزراعية مليئاً بالدروس والعبر ، لانه اقل بهرجة وبروزاً وإثارة للمناقشات الآتية ، وهو نص صدر فقط في تموز ١٩٥٨ : وفي المقدمة ، يضع الوزير هدفاً مؤجلاً هو الاشتراكية التعاونية التي ستؤدي الى تحرير القروي من رواسب الماضي . وبالنسبة للكثيرين من الشرقيين ، كلمة « الريف » تعني الاقطاعية . فان تاريخهم العقاري قد ساد بالفعل ، التوسع في ضريبة أميرية ، هي « الميرة » * وكان النظام يفترض ان الارض هي ملك للطائفة الاسلامية « الأمة » * وفي الواقع ، انه كان يعطي تفسيراً دقيقاً لكل أنواع الاحتكار الذي كانت تفرضه السلطة المركزية أو المحلية . وكان الأسياد قد جمعوا مساحات وأمداء شاسعة

يقطنها فلاحوهم ، وقد امتلكوها وسيطروا عليها حتى السنين الأخيرة ، اذ أنه اقتضى الأمر قيام ثورات زراعية حديثة مثل ثورتي العراق وسوريا لكي تبدأ المحاولة لتصفية هذا البناء الاجتماعي .

ويضيف النص المذكور ان العقود الزراعية لم تكن ترتكز ، حتى الآن ، على أي حق . وانا أسلم دون مشقة بأنها لم تكن ترتكز ، على القانون . ولكن هل يمكن الاعتقاد ان العادات الريفية نفسها قد ضاعت وتبددت ؟ على كل حال ، فان واضع المقدمة يعتبرها عرضة للتغيرات المستمرة . ان كل ماأخذه على العادات الريفية بالحري هو النمط الواحد والجمود ، ولا شك ان اعتبارية المالكين كانت تتحكم فيها ، دون منازع . وان رد فعل سليم يقود المشرع الى أن يعطي النصيب الضخم الذي يعود للعادات التي تسير حياة أهل الريف ، في جميع بلدان العالم ، تقديراً بما هو أدنى مما يستحق . ومهما كان الامر ؛ فان القانون الجديد يحدث تقدماً ملموساً . فهو يمنع العقود الابدية : وذلك ليقطع الطريق على العمليات البديلة لعملية القنائة (أو الرق) . وفي النهاية ، ترد اشارة الى واجبات الفلاح التي يقتضي أن تعادل حقوقه وهنا تعود للظهور النزعة المركزية المتسلطة . ولنلاحظ ، لدى تصفحنا هذا القانون ، ذي النوايا الديمقراطية رغم كل شيء ، أنه يمنع على الفلاح حق الاضراب ، وينع على المؤسسات النقابية حق تشجيعه على الاضراب . وبالطبع ، فهو يمنع على المالك حق اغلاق مؤسسته او وقف العمل كرد على تهديد العمال بالاضراب . انما في نهاية المطاف ، تكاد الواجبات تعادل الحقوق ، كما يبدو ، الامر الذي له مبرراته في الواقع ، والذي لا يستطيع اي تشريع ان يلغيه بسرعة .

ومع ذلك فان اتجاه السودان الافريقي ، على تجرده من الطابع الزنجي ، يجذب مع القومية العربية ، مزيجاً طريفاً ذا مساقفة « سيفونية » ، وهذا

التعبير لست انا الذي اخترعته ، وانما وزير سوداني ، هو محمد أحمد محبوب (١٨) مؤلف احد الابحاث الاكثر اثاره للأهتمام في سرد حياة الجيل (١٩) . وقد تحدث آخرون من الشرق ، عن الاحسان نحو الفلاح ، وعن حقوق الفلاح وكذلك عن واجباته . ولكن بقيت كلمة « العامية » (الكومونة) مفقودة . انما نفع بصورة غريبة ، في هذا الكتاب السوداني علي اصرح نداء لما يعرفه التاريخ الغربي على شكل ثورة عامية . وينتهي محبوب بقوله : « ان الثورة العامية (وقد اجري تحقيقاً حول ما تعنيه هذه الكلمة ليس فقط في انجلترا ، ولكن ايضاً في فرنسا والمانيا) : انها « الطريق الوحيدة » لمساعدة هذا البلد على تكوين امة ولتحقيق آماله الاجتماعية . » . خط سير قومي ، وخط سير اجتماعي . والكل مترابط بوساطة زخم اندفاع قادم من الاعماق .

المخطاط الجماهير ومثل هذه المناداة بالايان بالعامية تظل القروية واعادة تكوينها نادرة لانها تصطدم بصعوبات كبيرة . وان غلط التجميع القروي في الشرق يستعصي ليس فقط على التدخل الأجنبي ، وانما ايضاً على القابلية للاقتراب من الافهام . وقد حصلنا على الاعتراف بهذا الامر . ففي مفهوم « القرية » ذاته تتفاعل - بصورة تدل على التناقض الظاهر في نظرنا - القيم المنسحقة التي تتعلق بها طبقة الفلاحين والمثل العليا المنهارة التي كان البدو يؤمنون بها . وبالنسبة للكثيرين من الداعين للاصلاح في الشرق ، تتضمن كلمة « قروي » معنى « بدوي » ايضاً . وربما كان علي الوردني ، في تحليله لنفسية الشعب العراقي الوحيد بين أقرانه الذي يفصل في هذه الكلمة المبهمة بين الفرح الجشع الذي يميز البدوي والصبر المهان من زمن طويل الذي يتحلى به الفلاح .

(١٨) « الحكومة المحلية » * . الخرطوم ، ١٩٤٥

(١٩) موت « دنيا » * ، نشر بالتعاون مع عبد الحلیم محمد .

وعلينا ألا ننسى أيضاً أن كل هذه الحكومات قد وضعت سياسات لتحضير البدو ، بصورة تتفاوت في فعاليتها . وعبد العزيز آل سعود نفسه ، الذي كنا لا نرى فيه ، في نظرنا الرومانسية ، غير ملك الصحراء ، قد ركز عمله على « مدن القوافل » وعلى الواحات . وهذا البدوي المزعوم كان يصب جهوده على خلق مناطق مروّية . ولكن هذه الازدواجية في المعنى (الالتباس) غدتنا بالدروس . وهي ترجع الى الماضي البعيد لأن مفكراً مثل ابن خلدون كان يدرج تحت تسمية البدو الواحدة ، قبائل بني هلال البدوية ، وسكان جبال الأطلس العالية ، العريقين في توطنهم الحضري !

ومها كان الامر ، فان مصيراً مشتركاً ينعقد من جديد بين النمطين الانسانيين ، في الفترة الحاضرة . فالفلاح والراعي منكوبان بالمصائب نفسها ويقعان فريسة المصائد نفسها . وواحداهما والآخر يجدان جذورهما مع أرضهما تجتث شيئاً فشيئاً . والتجمعات العمالية الكبرى ، والمدن التي تضطرب بالعجيج تمتص دوت توقف أو ملل كل ما يدور حوالها من هذه الانسانية القديمة ، المتحدرة مباشرة من عهد التوراة والتي تعيش وتتكاثر بصورة مدهشة كالطفيليات وعدم الاستقرار يمتد اليوم الى الجماهير القروية التي تتدفق ، بعشرات الآلاف على ضواحي المدن الغارقة في البؤس . والبدو الذي تناوله التدجين والتأيس في الظهران يستطيع ان يعقد اليدين مع الفلاح المنهزم في « صرايف » بغداد وفي ضواحي القاهرة .

وحتى في البلد الذي بقي فيه الاستقلال الذاتي للقريّة على أشده ، وحيث لا يزال يرسي أبنية هي في الحقيقة أبنية دولة ، في لبنان مثلاً ، حيث الضيعة الجبلية تقيم التوازن السياسي مع مدينة الساحل . انا لاحظ التيارات نفسها للانفلات والهرب خارج النمط القروي . وهنا تعاني الحيوية التي كانت تتصف

بها حياة العامية من جاذبية المهن في المدن . وفي الوقت ذاته من الانفراج المفرط على الكوزموبوليتة (أي من الحياة المنفتحة على العالم كله والكون بأسره) ومن الاواصر الطائفية التي تربط بين العناصر المتناثرة بين القرى المختلفة والتي تقيم الحواجز والتنافس بين الاحياء داخل التجمع العمراني الواحد . أكيد أن المهاجرين يبذلون جهوداً رائعة في سبيل الابقاء ، بوساطة رؤوس الاموال التي يوظفونها على الرمز القروي ؛ الذي كان في الماضي شجرة التوت ، والذي اصبح اليوم شجرة التفاح ، وفي كل آن شجرة الأرز . ولكن الكثير من التطورات يهدد هذا الوفاء للقرية .

وفي بعض الحالات أيضاً ، اسهم تاريخ التحرر في الحفض من سمعة أهل الريف وبالرغم من مشاركتهم في حركة سعد زغلول ، ورغم قيامهم بثورات عاتية ؛ مثل ثورة جبل الدروز ، أيام الانتداب الفرنسي على سورية ، نجحت الحركة القومية في المدن في بلورة الجانب الاكبر من قوى المقاومة ، ولا يدهش أحداً أن تنعم هذه الحركة باستقلال انتزع بثمن باهظ ، على الاقل في مرحلة أولى . وهذا ما يفسر ان الطبقة الفلاحية بخلفيتها البدوية ، تبدو بالنسبة للكثيرين من الشرقيين كطبقة في حالة بدائية وفي حالة انحطاط ، في الوقت نفسه ، وناقلة لقيم جد قديمة وكذلك لشروط مهددة ، على كل حال هي تبدو عرضة لتناثر اخلاقي واجتماعي . ومع ذلك ، ففي المرحلة التالية التي بدأت تلجها بلدان أخرى ، والتي ستتأخر في مواضع أخرى تبدو دلائل تحمل على الامل بأن أوساط الفلاحين ستستعيد - ومعها الكثير من الحقائق الأخرى - نصيباً كبيراً من الحياة القومية . الا اذا كانت حركة التصنيع قد انقصت قبل ذلك الحين ، عدد الافراد العاملين فيها عمشياً مع ظاهرة داوجة ومشاركة بين كل البلدان . فهي

ستعرف ، اذ ذاك على الصعيد الكمي ، تدنياً من النطاق نفسه الذي يقوم عليه
التدني الذي فرضته عليها ، على صعيد الصلاح النمطي تسويات الفترة
السابقة .

لذلك نحن نحبي الجهود التي تبرز للضوء هنا وهناك وخاصة جهود « التربية
الاساسية » (٢٠) . وليس ذلك بسبب النتائج الملموسة التي بدأت تسجلها في
دجيلة (العراق) وبخت الرضا (السودان) وسرس اللبان الخ ... ولكن
خاصة بسبب التوجيه السليم الذي بدأت تفرضه على شبيبة مثالية . ومن هنا
أيضاً كانت الاهتمام بمحاولات مثل محاولة « الوحدات المجمع » في مصر (٢١) .
وانه لمفهوم كثير الدلالة انه يرتكز على امسك حكيم بالطابع الاجمالي . ولكنه
يهمل التقسيم « الطبيعي » الى خلايا عند القاعدة . اذ أنه لتناقض ظاهر في
الشرق - ومنتظر في الحقيقة - أن تسبق الحقيقة الوطنية الحقيقة البلدية ، العامية ،
خلفاً لما نعهده في التاريخ الاوربي . فلقد سبق لنا أن لاقينا الكثير من هذه
التناقضات والانعطافات العكسية .

وكل جهد من هذا القبيل يثير في الشرق صعوبات ضخمة ، ونحن نحمد
للكثير من هذه البلدان سعيها لان تنفق ، على قدر هذه الصعوبات ، طاقات
تختلف حسب الفترات والانظمة والطبقات . ولئن كان ضخماً أننا نجد اصلب
المحاولات لحاقي الحقيقة البلدية أو الامامية في المناطق النائية من العالم العربي ، في

(٢٠) ادب اصبح غزيراً ويشتمل على مجلة يصدرها مركز سوس اللبان (مصر) ومجلة
اخرى يصدرها مركز بخت الروضة (او بخت الرضا) في السودان . انظر ايضاً علي فؤاد
احمد في كتاب « النهوض بالمجتمع المحلي » - القاهرة - ١٩٥٧

(٢١) عباس عمار، محاضرة تجديدية، عام ١٩٥٣ . تنظيم القرية المصرية (فمنشورات)

السودان ، يمكن القول أن هذه الطرافة تذهب نحو التناقص كلما اقتربنا من المواطن القديمة للمدينة الشرقية : من القاهرة ، القلعة العريقة لنظام الدولة الشديد المركزية ، ومن دمشق ، هذه الطغراء المطبوعة على وجه الصحراء . وبالفعل فإن الثقافة العربية كانت تقوم « بتصعيد » الحقائق الأساسية لكي ترفعها إلى مرتبة الأيمان التي هي أيضاً مرتبة الأناقة ، والشهامة ، والمروءة . وهذا الترتيب ينعكس وينقلب ، اليوم . فليس يترتب على الإصلاح أن يقوم بتصعيد الحقائق الجافية ، الخام بقدر ما يترتب عليه أن يذهب نحوها ، وإذا شتاً الأحسن ، أن يستوحى منها ، أن يُقبل منها . فالإسلام ، والحال هذه ، يحول النبرة في الطابع الأرستقراطي والمتسامي الذي كان بوسع نظامه أن ان يستبقيه ، لينقلها إلى قيم أخرى من قيمه ، ملائمة لآتاحة الديمقراطية . ولكن تحويلاً من هذا النوع يميز بالنتائج الخطيرة . اننا أتكلم حتى عن التبدلات الضرورية التي يقتضي كل إعادة بناء محبة للعدالة والمنطق ان تفرضها على الأوضاع الفعلية . وازاء أخطار العنف والتسوية التي تفرض ذاتها على الإصلاح الاجتماعي ، في البلدان العربية مثلما في البلدان الأخرى ، يضاف نزاع حول المثل العليا . وكل مجتمع ، وربما هذا المجتمع أكثر من غيره ، مجبر اليوم على أن يختار بين قيم متنافسة وأحياناً تطرد بعضها البعض^(٢٢) وعلى هذا المجتمع أن يعتبر نفسه سعيداً لو استطاع أن يقف عند اعتداءات مدرة للربح القليل أو الكثير ، ضد البعض من قيمة . أو ان يتعاشى مثل هذه التضحيات بصورة ثابتة .

(٢٢) تنتزع التصفية المؤثرة لقيم الماضي صرخات رائعة من ريشة ميشيليه متناثرة هنا وهناك في كتابه « تاريخ الثورة » انظر خاصة طبعة ١٨٤٧ الجزء الاول ص ٢٢٠

هذه هي الصعوبات التي يلاقيها الشرق الأدنى ، مثلما تلاقىها المناطق الأخرى ولكن ربما أكثر من المناطق الأخرى ، في بحثه « عن جذور السماء » .

وإذ نصل إلى هذه النقطة من بحثنا ، لنلاحظ مرة أخرى أن الجانب الاقتصادي ، عندما تجري أقل محاولة لتعميقه ، يكشف عن علاقات لا يستطيع تحليل خارجي مجرد أن يستشرفها . ولئن الحجت رغم ذلك ، كل هذا الإلحاح على جوانب من علم الاجتماع الاقتصادي ، فذلك لأنني أولاً كنت أترك نفسي منقاداً بمقولات معاكسة (انتيتاز) مألوفة للشرق على قدر ما نألفها نحن ، حول مثالية عربية مزعومة يعسر عليها أن تقوم بتسويات مع المادية المزعومة للعصر الحديث (١) : هذا هو الذي كان من المهم أن يدقق فيه وأن يوضح . (وعلياً أن أضيف أنني ورغم انسيابي مع هذه المقولات المعاكسة ، لم أكن مخدوعاً بها . وفوق ذلك فإن الجانب الاقتصادي كان يعطي للتحليل المرتكز الأسهل وتقريباً علامات تجريبية حول تطور الحوار بين الإنسان الشرقي وطبيعة يستعيد غزوها واسترجاعها من الآخرين ، شيئاً فشيئاً . مثلاً يتطور في داخله .

(١) هل ثمة حاجة لأن أقول أن كلمتي « المثالية » و « المادية » تستعملان هنا بالمعنى الساذج ، وليس استناداً إلى نظام فلسفي ؟

واكن تطوراً مماثلاً يزوج بظواهرات اكثر لطافة (٢) : تغير في العلاقات بين الجنسين ، بين فئات ذات طرق مختلفة في التعبير وفي الدلالة ، وعلى العموم . تحرك جماعي وفردى في الذكاء . وفي الحساسية وفي الارادة . هذا هو ما تحاول الفصول اللاحقة ان تلتقطه وتنقله .

(٢) بين المحاولات الحديثة ، بلزمننا أن فذكر دراسة دانيال ليرنر Daniel Lerner لنقيس كلاً او بعضاً من هذه الظواهر بواسطة معيار كمي ، يسمى « معيار التعاطف مع الخارج » « Empathy » ، كلة (انجليزية) يمكن ترجمتها بالانفتاح على الخارج « او بالشعور بالمشاركة مع الخارج » ، عنوان الدراسة : « زوال المجتمع التقليدي » ١٩٥٨ انظر خاصة ص ٤٣ وما يلي (عرض النظرية) ، وانا نرى دراسة ويلفريد كاتويل سميت Wilfred Cantwell Smith بعنوان « الاسلام في العصر الحديث » عن دار المكتبة الاميركية الجديدة ، ١٩٥٩ ص ٩٧ الى ١٦٤ اكثر عمقاً وان كانت اقرب للاسلوب التقليدي .

الفضل التاسع

توسط المرأة

ليس من مجتمع يتأكد فيه وينطبق عليه ، أكثر من المجتمع الاسلامي ، قول الفيلسوف القبطي رينه حبشي حول المرأة « الجوهر الذي لم يمسسه سوء الوجود المحطم » . على الاقل في التطبيق التقليدي الذي كان يعدها للأمم وللذة الذكر . الامر الذي لا يمضي تماماً دون تعويض . فالشهوانية الشرقية تزخر بغنى لم ينته الغرب بعد من الانفعال ازاءه . صحيح ان الاهتمام المتطرف قد اخلى المكان عندنا ، ليفسده للخوف التي يوحىها تزايد في عدد السكان دائم الركض . ولا شيء يمثل على تغير العالم ، افضل من هذه المخاوف الماثوسية التي تعقب المخاوف التي كانت على العكس ، توحىها لصاحب العمل ، لثلاثين سنة خلت ؛ احتمالات النقص في اليد العاملة . وموضوع العجز في الاستخدام محل في احاديثنا ، محل موضوع لا يقل عنه اهمية فاصلة ، وهو موضوع الهجرة من الارياف والقرية . والغرب ، تقنع بقناع الرسول الصالح . وقام بقباض بين الحشرات الرعائية والتخوفات العلمية التي يبدىها الاحصائي وقد توصل حتى الى إشراك صاحب العلاقة بهذه التخوفات ؛ فأخذت هذا الأخير موجة فزع من

انخفاض مهدد في نسبة الدخل الفردي .

والعربي الذي يخضع هكذا لنظرات القرين لا يرى دائماً أن رد فعله ضد التبعية كان اولاً القيام بقفزة عنصرية جديدة . 'وان خصب نسائه ، واخلاقه الجنسية والعائلية قد اسهمت في تحريره : بفضل ضغط الجماهير المتزايدة الى ما لا نهاية له . وفي الوقت ذاته بفضل الشبيبة التي ترى دون انقطاع معدل العمر يتدنى وتؤكد هوة اندفاع الصيروره ، وتسرع تصفية الماضي .

واسهام الزوجة في الحصول على التحرر الوطني هو القفا السياسي لطواهر اكثر لطافة . نود ان نعاول اكتشافها . فاستتبع ذلك ان مصيرها في الفترة ذاتها يتغير مثلما يتغير مصير الرجل . بفعل التبدل والانقلاب اللذين طرأ على مساكن يحرکه حتى الآن . وبعد ان تم تجاوز عتبة الاستقلال اصبح التزايد في عدد السكان يبدو شيئاً مثل العاهة فالتابع القديم يريد ان يرتفع الى المستويات العليا التي يقوم فيها بالتنافس والتبادل : تبادل السلع ، والتقنيات والافكار . انه ينبغي ان يتعد عن مستوى التكاثز الخيف العتيق . وبصورة موازية ، تطورت المرأة من حالة الام والزوجة حتى أدركت مرحلة تطالب فيها بلعب دور فردي .

وما يسمى بالحركة النسائية في الشرق ليس اذن ، غير شكل من اشكال تعميق العلاقات بين المجتمع من جانب ، والطبيعة والتاريخ من جانب آخر .

الرجولة
على الرغم من وقائع تقنع اكثر فأكثر بحدوث التطور ، لا تزال هناك وقائع متهدرة من عالم جد عتيق ، في الكثير من المواضع في العالم العربي : سجن المرأة (فيما يسمى بالحجاب أو الحدر) ، حمل الحجاب ، وختن الصينيان ، وعبادات السحر والشعوذة ، كالزار ، والطلاق المتكرر ، الذي هو اكثر ضرراً من تعدد الزوجات ،

والمساومة حول الدوطة أو ما يجمعه الزوجان (وخاصة من ممتلكاتهما العقارية)
لدى زواجهما . وهناك أدواء أخرى أيضاً ، لا يمكن وصفها بأنها استثنائية
أو ترسبية ، تصيب المجتمع بقوة متفاوتة . ولكنه ينكرها ويشجبها بعنف .
وهذه الأدواء تنحسر وتراجع كلما انتشر التعليم وارتفع مستوى المعيشة .
وضعفها ، بل وقوتها أيضاً كمنان في أنها ترتبط بماض كاد ينهزم في كل مكان على
صعيد المبدأ ، ولكنه يقارم أكثر الاحيان في الوقائع . وبالطبع يقتضي الذهاب
الى المناطق النائية البعيدة المزار . لتقصي الملامح التي تبعث على الاسى
لدى الوطنيين الواعين بقدر ما تثير فضول العلماء المختصين بالسلالات والقبائل .

وقد قام باحث عراقي بالتنقيب عن هذه الملامح (٢) . ففي منطقة «الأهواز»
(وهي مستنقعات شط العرب) لا يزال الكثير من العادات يعكس عهود
البربرية القديمة : ومن ذلك تبادل الخطيبات . الذي شجبه الاسلام بعنف بالغ
تحت اسم « الشفار »* . واعطاء النساء بثابة دية القتل . وهناك عادة أخرى ترجع
الى تراث مشترك من الانظمة يمكن تتبعه الى ما قبل الاسلام . وهذه العادة
قد تجاوزت العالم البدوي لانها تشكل احدى الصفات الارستقراطية في
عالم المدينة ذاته . تلك هي عادة الزواج « التفضيلي » الذي يؤهل « ابن العم »*
اكثر من الآخرين للحصول على يد ابنة عمه . وهذا المظهر من مظاهر تفضيل
النسب المتحدر من الذكور يبرز في منطقة الأهواز بقوة الى حد أن قيمة المهر
تتدنى بنسبة درجة القرابة التي يكون عليها طالب الزواج ، وان للعم حق الفيتو
(الهوة) * عند زواج ابنة الأخ ، وأن بوسعه انزال العقاب ، في حال تجاوز
ارادته (٣) وبالطبع ان بيئة مثل البيئة الدمشقية تجعل هذه المبالغات التي

(٢) شاكراً مصطفى سليم : التشيبايش (الكبايك ؟) بغداد ١٩٥٦ ، ص ٩٧ وما يلي

* « لاشفار في الاسلام » والشفار هو ان يزوج الواحد اخته على ان يزوجه الاخر اخته ولا
مهر الا ذاك (المترجم)

(٣) عباس المزاري « عشائر العراق » الجزء الاول ص ٤١٤ وما يلي .

تشكل في نظر الأخلاقية الاسلامية ، مخالفة للشرع لا يمكن الدفاع عنها .
ولكن العائلات الكبرى في المدن تعطي أيضاً الافضلية للزواج بين أبناء
العمومة وبناتها (٤) . ولكنها تعطيها ليس بطريق نظام أساسي وإنما بطريق
العرف والمودة . انه الشرق العربي بأجمعه الذي يؤكد في هذا المجال ، تفرداً
طريفاً خليقاً بأن يلهب حماس الباحث المختص بعلم السلالات ، وهو يؤكد ذلك
بصورة مضادة للمغرب (ومهما كانت أسباب مثل هذا التضاد) .

وبالفعل ، فإن الزواج مع « ابنة العم » لا يوسع الحلقة العائلية ولا يعقد
دورة تبادلية ، فعلاقات القربى تبقى نظاماً مغلقاً . وبقدر ما يكلفني العرب
بالبقاء عندهم هذا الحد ، هم يعتمدون عن قواعد المصاهرة (أو القربى بين الانساب
أو قرابة الارحام) المنتشرة انتشاراً أدى الى اعتبار مبدأهم في الزواج من
الغرباء نوعاً من الاضافة الابتدائية للمجتمع على الطبيعة . وهذه الظاهرة الغريبة
ليست خاصة بهم ، على كل حال ، ويمكننا أن نتبين فيها شيئاً مشتركاً كان
قائماً بالنسبة لاقليم ثقافي واحد ونجد فيها احد الشواهد على وجوده . فكانت
للعرب الفضل في حفظ هذه الشهادة أحسن حفظ ونقلها بصورة غير مباشرة (٥)
ومثلما في ميدان اللغة ، هم ، بهذا الشكل ينقلون الينا التراث القديم جداً
« لسامية » يمكن صياغتها هكذا: يظلم الجانب الاجتماعي بالجانب «الطبيعي»
تقريباً الى الحد الذي ينحل فيه (ويندمج معه) . وفي الواقع فإن الفئة
البدوية ، كما غناها الشاعر الجاهلي والتي لا يزال بالامكان ملاحظتها
اليوم في حالتها شبه الصافية ؛ تمثل على نوع من الشعور المفرط بشخصيته لدى

(٤) تقليد تزداد كل يوم الثغرات التي تحرقه .

(٥) نحن مدينون كثيراً في هذا المقطع ، للافكار التي تبودلت بمناسبة حلقة دراسية حول
انظمة القرابة عند العرب ، مع كل من ليفي شتراوس ، الذي تتضمن مؤلفاته اشارات مقتضبة ،
ولكنها موحية الى انظمة الشرق القديم .

البناء الاجتماعي . وفيما هي عرضة ، في كل لحظة ، لأخطار قربي الدم الشديدة ، أو لأخطار الحرمان والجفاف ، هي تحسني نفسها ، في صورة رد فعل معقول ، بهذا الالتصاق بالطبيعة ، وهذا العمل على تأهيل الشيء المباشر ، الذي رأيت الأبياءات عنه على كل مستويات حضارة وحتى في آخر تطوراتها الحديثة .

وهكذا ، فان الشهوانية العربية ترتبط بالطبيعة ارتباطاً صميمياً لحد انها تنقل عنها أقل الرعشات . وان فرحها هو عيدُ المحلِّ واليبس والنضوب ، انه الارتواء بعد العطش . فالإنسان يحيلُ عريته الى غنى ، ورقة حاله الى عظمة . والتخمة ونهب الملذات لا يخرجانه من حلقة كبريائه التي تعزله داخل تمجيده لمحتده ونسبه ، مثلما يبعدُ شعره أقدم الجذور للكلمات (٦) .

فالحرمان والتصعيد يمنحان عاطفة البدوي عنفاً يتصف بالفوران والانفثاء المفاجئين . ولكن ما كانت تتحلى به هذه العاطفة من امتياز جمالي (اسطاطيقي) جعل من هذا العنف اسلوباً باهراً وثابتاً . وعلى هذا النحو ، فرض عمق أثر الصحراء مثله الاعلى على المدن المزدهرة . وقد باركت الثقافة الاسلامية ذلك ، الى حد ما ، ولكن بعد ان زودته بالضمانات الروحية ، وبعد أن وضعت حوله القيود والتحديدات التي تقتضيها ضرورات الشرعية .

ولندعن هذه الانطباعات ، طالما ان تحليلها ذاهباً نحو الأعماق ، على طريقة علم السلالات والعروق لم يكشف عن أشياء تتبدى للملاحظة ، وعن أخرى لا يدركها الا الحدس ، دون ان يكون بالوسع ، حتى الآن ، إعطاء تفسير علمي لها . ولكنني اعتقد انه ليس إغفالا بالقسا في المباحكات الفقهية ان نحاول اظهار كيف يستطيع نظام القرابة والنسب في هذه المجتمعات ، نظام يمكن تتبعه بوساطة إمارات بالغة الوضوح ، ان يعين على فهم التصرفات العامة

(٦) وهنا ايضاً تمثيل على القيم الاجتماعية لفة اللغة العربية ، ولغة ذاتها « كنموذج »

ووجوه السلوك التقليدي ، في هذه المجتمعات . واذا كانت العروس المفضلة ، بالنسبة للعديد من العرب ، لا تزال ابنة العم ، اي الذات الأخرى للعريس ، فلأن الذكر لا يزال يطلب من الزواج تأكيد ذاته اكثر مما يطلب التبادل (٧) ويمكن ان يقال ، في هذا المعنى . ان الاسلام هو دار الرجولة الدائمة (٨)

وبالطبع ، ينكر على هذه الصيغة افراطها في الطابع الاحادي الطرف . فكل مجتمع يسعى لاقامة توازن لذاته بوساطة نظم او اندفاعات متعاكسة . ومن جوانب كثيرة ، يرتبط الشعر العربي بالذي يتوازن مع اخلاقية الانعزال بالتجواب والمغامرة التي تحمل امرىء القيس (الشاعر الضليل) المضيّع الملك ، الى بيزنطة ، اكثر مما يرتبط بهذاه الاخلاقية . والاسلام يرتفع ضد أبطال الحياة البدوية الثلاثة : الامير ، والشاعر ، والرثي ، وضد عالم المشاعر الذي كانوا يمثلونه أو يمثلون عليه . وفي حياته الخاصة ، يشعر النبي (صلعم) متأثراً ، بعدم كفاية الزواج من المرأة القريبة ، لأن المرأة الوحيدة التي تعطيه ولداً هي بالذات المرأة الابعد اليه بالدين والعرق : ماريا القبطية . وفي المدن التي يُشيدُ نطمها بشكل منافس من وجوه عديدة للحياة البدوية ، تتضمن اخلاقية العائلات الكبيرة التي تحتجز ابنة العم للاعراس الاحق ، مبالغات في البذخ كانت تثير استنكار أهل التقوى .

لكنها نظام القرابة والنسب ، والسلوك الذي كان يوحى به ؛ والوجوه

(٧) ابو المرأة « زوجها » * « دليل المفردات العربية » الوارد في « دائرة المعارف » لفؤاد البستاني .

(٨) ولو قبض لنيثشه ان يبعث ، لحيا عند البدوي ، هذه الاخلاقية الارستقراطية التي « تولد من التأكيد الظاهر للذات » وهذه النزعة الهجومية المرتكزة على ادراك الشخص المتباين وحتى التمتع بمرآه . وعند العرب الاقدمين كانت تتصل بهذه النزعات علوم مثل علم الانساب ، والفراسة ، والسلاح ، والاسماء .

التأنقة أو المتشاخنة التي كان يلقي بظلالها على الشاشة الخلفية للحياة الحضرية ، كان أيضاً القفا للنظام التجاري « الماركنتيلي » . فالإنسان العامي كان يجسد الاغراءات لتزويج ابنته من الرجل الذي يقدم أفضل عرض ، في المواقف التي يراعي فيها رجل الخاصة والصفوة ، من السراة قواعد دقيقة تفرضها أصول المصاهرة ، ويفضل نبل المحتد والنسب على الغنى . والتيار القومي الذي كان يسود فيما بين الحربين في دمشق وحمص وحماء ، مثلاً ، كان يرجع الى حد ما ، الى ثورة الشرف الارستقراطي على الاذعان للامر الواقع . وكان يجند الجماهير بتحريك عوامل المهابة والكبرياء التي لا تزال من بعض الوجوه ، تجد رواجاً لدى بعض الزبائن من الشعب . فهو يستبدل ، في تحقيق هذه المهام ، القوى الدينية التقليدية التي يتهمها بالقبول بالتسويات قبل ان يأتي من هو اكثر منه ثورية فيرميه بمثل هذه التهمة . وعلى هذا النحو تتصادم في بيئة معينة الاساليب ، فيغلب أحدهما او ينهزم ، وفقاً لتقلبات التاريخ .

امهات وبنات
ولنجأ للخيال لنستعيد صورة ما كان
يمكن ان تكون عليه حياة المرأة في القصور
الارستقراطية ، قبل الحرب العالمية الأولى ، بقليل . فالزوجة لم تكن شخص ، حتى
ولا مولدة ، بقدر ما كانت وحشاً تنصب عليه الاوصاف والتحريمات . وهناك
نادرة مشهورة تبين الى أي حد كان الجانب الاجتماعي يغلب عندها على الجانب
العاطفي الذاتي : انها قصة الدعوى التي أقامها ضد عائلة امرأته الشيخ علي يوسف
مدير صحيفة « المؤيد » : فان الزواج من عائلة غير كفاء او من أصل وضيع كان
يسبرر إذ ذاك ، فسخ عقد الزواج^(٩) . أكيد ان المرأة تستطيع ان تكون

(٩) احمد بهاء الدين ، « ايام لها تاريخ » ١٩٥٥ من ٤٣ وما يلي .

متداداً للطبيعة ، بفضل اللذة التي كانت تمنحها أيام صباها ، والاولاد الذين تنجبهم ، والطعام الذي تعدّه وبالجمال الذي تتحلى به ان كانت جميلة ، وبقدرتها التدينية او السحرية . فهي تتنفس حيوية بدائية خبأ عنا العهد الاستعماري بعض السوء فضائل استقرارها ، ودون شك ، رزانتها . ولكن وجوهاً هائلة من وجوه التحريم والتقديس حددت قدرتها على ممارسة نفسها . فهي تعزلها عن العالم وعن المجتمع وهي تحقق فيها بصورة متناقضة ، نوعاً من فردية التخلي عن الذات في خضم الاجماع داخل المدينة . فالحجاب ، ودار الحريم والاخلاقية تنفي الى عالم الانقطاع هذا الكائن المحاط بالقوى الخفية المرعبة والذي يطلب منه تأمين استمرار النوع .

وبالطبع تتدفق الحياة الاسلامية في المدينة كما في موجات دائرية ، انطلاقاً من المنزل حيث تجثم قوة الرجل . ولكن حول المرأة تضرب اذنية الرجل ، والافكار المسبقة ، وخبث الجيران ، حجاباً وتقيم منطقة من الفراغ والبطلان . وهذه المهمة للمعركة ، بالمعنى القوي لهذه الكلمة ، في وضعها هذا المنقطع عن العالم الخارجي ، لا تجد حتى في ثقافة اولادها وتهذيبهم الوسيلة لتعيد لصالحها تتابع الكائنات والأشياء المتصل . وحياتها تهوي من جيل الى جيل الى النقطة الموات ، الى الشلل . وفي ترابط عادل مع الجهود الاجتماعية ، الذي يغلب على العصر ، هي تجعل من نفسها مستودعاً لحفظ ماضٍ أبقي بشراة في منجى عن « الصفات المكتسبة » وعن مغنم ومكتسبات تجربة الرجال . وهكذا مرّ عليها العهد الاستعماري مثلما مرت العهود الأخرى دون ان يزعزحها من موضعها .

لقد جعلت رواية نجيب محفوظ المثلثة^(١٠) مألوفة لنا حياة الطبقة البورجوازية الصغيرة في القاهرة ، فيما بين الحربين . فالأم ، متجسد الاتضاع السني ، تحترق في الانتظار وفي الخدمة . وسلطة الأب التي لا تنازع ، تعزلها في نوع من الحياة السرية . ويخرج الولد باكراً من دار الحریم ليذهب الى المدرسة الدينية ، ثم يدخل تقريباً دفعة واحدة الى مجتمع الرجال . ومن هناك تبدأ التمزقات وكل شروق الصبا وادوائه التي ينكب علماء البيكولوجيا على دراستها في عصرنا الحاضر . وقسم كبير من الاضطرابات العقلية ، الميزة لطفرة متسارعة ، يعود هنا الى عمليات حرمان عند الطفولة ، والى نقص من الاساس ، في الحنان مرده دون شك إبعاد المرأة ونفيها من حياة الرجال . فأية هوة لا تنفتح بين الاجيال ، في مثل هذه الاحوال ! بل ويمكن القول أيضاً ، أية هوة لا تنفتح بين الام وابنتها ، أكثر مما تنفتح بين الأب وابنه ا

في مسرحية صدرت سنة ١٩٥٢ ، يضع يوسف العاني^(١١) (وليس يوسف العاني كما ورد في النص الأصلي - في غلطة مطبعية ولا شك - المترجم) سكرتير اللجنة الفنية للمسرح العراقي ، يضع العقليتين وجهاً لوجه في حالة صراع . وعنوان المسرحية الهزلية : « حرمل وحبوبة سودا » . والعائلة البغدادية التي ترفع قصتها الى المسرح تبدو وقد تفجرت من داخل . فالام الجاهلة تؤمن بالسحر ، وهي تلجأ اليه في كل اللحظات المسيرة . اما البنت سعاد فقد تخرجت من مدرسة ثانوية ، وتكسب عيشها من العمل في أحد البنوك .

١٠) كشف الاب جوميه le P. Jomier عنها للجمهور الفرنسي في مجلة M.I.D.E.O.

عدد ٤ عام ١٩٥٧

١١) الذي ابرز الدكتور صلاح خالص ، بحق عن اهميته

والأب ، وهو موظف سابق مخيب الآمال . والابن فخري وهو خريج دار المعلمين ، ينتظر مثل الكثيرين من المتخرجين ، مركزاً في إحدى الدوائر الحكومية . نحن في العشية . الام تبخر الغرفة وتشمم بعض الادعية . وتقبل البنت ، وتظهر دهشتها لذلك فتقول لها الأم : « لقد ذهبت هذا اليوم لرؤية الملا » . فاعطاني « هرمل » * (١٢) وفلفلا . ويكفيني أن أحرقهما بعد ان أمزجها ؛ حتى يجد فخري وظيفة »

سعاد تتمنى من كل قلبها تعيين أخيها . لكننا هذا الاخير يحمل اعتبارات صارمة من أخلاقية جديدة . فقد ترك المحل التجاري الذي يديره أحد أصدقاء ابيه : التاجر رزوقي الذي جاء يكلم الوالد . ويثور العجوزان لرؤية الولد دون وظيفة ودون همة في السعي للحصول على وظيفة بالوسائل الملائمة . وكل انواع الملامح تجعل الجيلين في تضاد : فالام ترى ابنتها وهي غارقة في قراءة كتاب : « ولكن ما الذي تجدينه في هذا الكتاب ؟ - انني أجد العالم . - وكيف يمكن للعالم ان ينحصر في مجلد بمثل هذا الصغر .

وفخري يتعاون مع بعض الصحف . والعمل في صحافة يفرج فيها عن النفس ، يعوض عن الكثير من اسباب السخط عند هذه الطبقة من المثقفين . وقد كتب مقالا تخاطفته ايدي الشبية ، وهو يقول فيه : « ان للفتاة وللشاب الوزن نفسه في المجتمع » ويسأل الوالد ، وفي صوته ضحكات عالية : « لو وضعتنا ، انا والدتك في ميزان واحد ، من منا الذي يمكن ان يزن اكثر ؟ » انها ، ولا شك ، اشارة الى ألعاب مسرحية والى الشكل الجسدي للمثليين : واخيراً يفضل فخري المسكين العمل

(١٢) نبات يسمى باللاتينية Peganon Harmaia وله فضائل طبية وسحرية وينبت في كل مناطق السهوب من الاطلسي الى دجلة .

في شباك للتذاكر في احدى صالات السينما بدلا من العودة الى دكان صديق العائلة ،
التاجر البغدادي ، الذي يملك كل حيل التجارة في المدن ، واذ يصبح في السينما ،
يدخل فخري ، ان صح القول الى نوع من البناء الفوقي الكامل ، والى احدى المهن
الفكرية التي تلعب دوراً كبيراً في بلاده .

ولا نعرف كيف ينتهي كل ذلك . والذي يهم هو التضاد بين الام والبنات ،
بين الاب والابن . تضاد ينعكس حتى في لغتهم ، الى درجة ان الوالدين العجوزين
يتكلمان على الطريقة البغدادية ، بينما يمزج الاولاد هذا الكلام بكلمات وتعابير من
العربية الفصحى (١٣) . فالعربية « الحديثة » تنتشر في حديثهم ، كما في جريدة
فخري ، لغة أخرى ، عالم آخر .

وبالرغم من ان اللوحة تبدو على شيء من الارتباط بالماضي ، وان مشاكل
من هذا النوع لا توجد الا في البيئات الاجتماعية المماثلة في القاهرة ، ودمشق
وبيروت ، فلا يمكن القسم بان هذه المشاكل ، المتهاوية من صعيد النظم الاسامية
او التعبير ، لم تأو الى عادات متفاوتة في طابعها اللاواعي ، ومميزة لأساليب في
الكينونة تتعارض فيها البنات دائماً عن امها . والكتابة اللبنانية الناشئة ليلي
البلبكي ترثي لأمها وتكرهها (١٤) وهي تلاحظ ، برعب ، هذا التخلي عن ذاتها
الذي يحدث برضاها ، والذي لا يعرف من انواع الثورة إلا ثورة الاحشاء .
« ان ضحكة امي ، ضحكة الحيوان الذي يذبح ... » ، لا شيء حتى الآن ، في
الأدب ، ذهب الى حدود أبعد في الفظاظ . « انا احيا »* هذا هو عنوان
كتابها .

وفي الشرق ، ان يجي المرء ، شيء يدخل في باب الافكار الجديدة .

(١٣) ملاحظة لألبر نادر ؛ الذي انا مدين له بالوثائق المتعلقة بهذا المقطع .

(١٤) « انا احيا » ، بيروت ١٩٥٨ ، انظر المقطع الذي ترجمه ف. مونتيه V. Monteil
جريدة « الاوريان » عدد ١٧ ايار ١٩٥٨

النهضة النسائية في العراق ففي العراق (١٥) ، تأتي المرأة
من أبعد ما يكون البعد ، ان صح
القول . « فالحضرة » لم تصب العراق بقدر ما أصابت سوريا ومصر . والعراق
لم ينعم ، مثلما نعمت مصر ، بالتقاليد التربوية التي بدأت بالظمطاوي . حتى مجدد
من الباشوات ، مثل مدحت باشا ، يفكر بتربية الرجال فقط . وعلينا ان ننتظر
أحد خلفائه ، ناصر باشا ، لنرى تأسيس اول مدرسة للبنات في بغداد . ذلك ان
« مجدداً » * قد ارتفع حينذاك من صفوف الجماهير . وانه لوجه فريد وجهه
جميل الزهاوي : واحد من كبار المجددين الذين عرفهم الاسلام في العصور
الاخيرة ، بسبب عظمتهم وسلوكه الباعث على الشعور بالفضيحة (عند الرجعيين)
ولد جميل الزهاوي في عام ١٨٦٣ : فكان تقريباً ابن الجيل الواحد مع
سليم أمين . هو ينتمي الى عائلة دين وتقوى . وبصفته ابناً لمفتي ، انقضى عهد
طفولته وصباه في جو من مجالس العلماء ، « والمحافل » * ، والاعباد والولائم .
وقد لمع نجمه في هذه المحافل بذاكرته العجيبة وبقدرته على ارتجال الشعر .
فارس الى برلمان عهد الحميد (مجلس المبعوثان) حيث قام بدور أحد الرسل
الأول للعروبة . ومن اسطنبول توجه الى مصر ، حيث اتصل ببيئة متدللة
بالروح الحديثة ومتطبعة بالطابع الغربي .

فنتج عن ذلك انه ، لدى عودته الى العراق ، أخذ يساند لدى ناصر باشا
الاقتراح القاضي بانشاء مدرسة للبنات . ولكن ناصر باشا ، ككل اداري عثماني ،
فضل التريث . وكتب للباب العالي بالأمر . فوافق هذا الأخير . ورغم ورود
جواب بالقبول وحسب الاصول ، فان الحاكم يعتقد اجتماعاً دعا اليه الاعيان
والوجهاء لاثارة القضية . فطالب اصحاب العمائم ، المشائخ الذين كانوا ممثلين في
الاجتماع بان ترفع اسوار المدرسة عالياً جداً حتى لا يستطيع الجيران ان يباغثوا

(١٥) خضر المباسي « تحرير المرأة العراقية » ص ١٨ وما يلي .

البنات في خطر اتهم داخل الحوش . عند ذاك يلقي جميل الزهاوي بكلمته :
« ولكن ليس من بناء يستطيع ان يرضيكم : غير منارة سوق الغزال » (فمن
تلك المنارة نثر رماد المتصوف الحلاج) . وانتهى الحوار بالضحكات . ولكن ،
بالفعل ، اختيار لبناء المدرسة بيت عالي الاسوار ، لا تنفتح فيه الا نوافذ ضيقة
وجد قليلة . ودون ضحك ، وهذا الحادث قد وقع عام ١٨٩٩ هذه هي الانطلاقة
الاولى لتعليم البنات في هذه البلاد . وقد اثارت المبادرة روح المنافسة بين
الطوائف : فتأسست على التتابع مدرسة مسيحية ثم اسرائيلية ، ثم بروستانية .
كل ذلك تم قبل حرب ١٩١٤ ففي ذلك الحين كان العراق يعد است او سبع
مدارس للبنات : في بغداد والموصل والبصرة .

ولسوء الحظ يرسل الشاعر المجدد الى احدى صحف القاهرة مقالاً حول
تحرير المرأة (١٦) . فيدوس بقدميه في هذا المقال تقريباً كل الاشياء المتوارثة :
مبادرة الأب في تزويج بنته ، لبس الحجاب الذي يتمسك به الكثيرون من مدعي
التقوى . وعندما يرجع المقال الى بغداد ، مع كل المهمل التي يأخذها البريد ،
وكانت ضخمة اذ ذاك ، ينادي الاتباعيون انصار التقاليد بالويل والشبور لهذه
الاقوال التي يعتبرونها فضيحة كبيرة . وفي اجتماع حاشد عقده لهذه الغاية ،
يطالبون الباسا باقالة جميل الزهاوي ، الذي كان ، في تلك الاثناء ، قد عين
استاذاً للقانون . وتثير القضية نقاشاً ترجعت اصداؤه على صفحات كل صحف ذلك
الوقت ومن بينها صحيفتنا « مجلة العالم الاسلامي » .

وبالطبع ، تلاقي افكار الزهاوي ، في القاهرة ، تأييد انصار التجديد ،
وخاصة جماعة المقتطف ، وعلى رأسهم شبلي الشميل وصروف ، ومدير « الهلال »
جرجي زيدان ، وعلية القوم ، مثل الشاعر الأنيق ولي الدين يكن . ولكن
بين خصومه تقف ، بصورة غريبة بعض النساء ومنهن « باحثة البادية » ، ابنة

(١٦) حول قضية الحجاب انظر « مجلة العالم الاسلامي » الصادرة في فرنسا الجزء الثالث عشر
١٩١٠ ص ٤٦٣ وما يلي

حفني ناصف باشا . فهي تتخذ ، في المناسبة ، موقفا متحفظا . فالوقت لم يكن بعد ، في الشرق ، للانتفاضات النسائية الكبيرة .

ويحسر الزهاوي منبوه التدريسي ، بعد ان تحلى عنه اصدقاؤه وخصومه . وهو لا ينعم بطمأنينة نسبية الا بفضل علاقاته العائلية التي يحترمها الباشا التركي . وفي نهاية المطاف ، هو يغادر بغداد التي ألبتها عليه اشعاره الهجائية . ولكن في لبنان يجد لبنان كثير التقبل لأفكاره . فجوليا طبعه ، زوجة رئيس البلدية ، (بدر) دمشقية ، تنادي بتأييد الحركة النسائية . فهي تدير مجلة اسمها « المرأة الجديدة » (١٧) ويستقبل الزهاوي كما يستقبل الفاتحون المظفرون ، في لبنان . ولكنه يستقبل ، في القاهرة ، بحفاوة اكبر ايضاً .

هكذا تطورت حركة تحرير المرأة في العراق . وهي تتخذ لونا ادبيا وشعريا عميقا ، الأمر الذي لا يدهش ابدأ . وفي نوع من انعكاس السير الذي نوهت بعده أمثلة عليه ، تطال الحركة اولا هذه المناطق العليا في الروح والمجتمع الشرقيين التي تقبل فيها الافكار الجديدة او تحارب بأشد ما تملكه العبقرية المحلية ، في ذلك الوقت : بالكلمة . وليس من تشويه يحدته التضخيم اللفظي إلا ويؤدي الى انعكاس الانتقال التاريخي للحساسية ، هنا وهناك ، في تطور الموضوع .

وهكذا كان الحال فيما يتعلق بموضوع الأم . فهو يعكس اللحظة التي يكتشف الشخص فيها ذاته مرتبطة بالكائن باستمرار المرأة الحي وليس فقط بالاعلان المتعالي للنسب . والصوفيون قد أحسوا ، هم ايضاً ، بعمق وابطة الرحم ، الارتباط بالأم . فالصوفية من جانب ، والروح العصرية من جانب آخر : انها ارهاصان ، متوازبان الى حد ما ، للروح الواحدة .

(١٧) محمد جميل بيهم : « فتاة الشرق » ص ١٣٢ وما يلي .

ويصرخ الزهاوي : اين امي ؟ أعيديا الي أمي . انا لا اريد شيئاً بديلاً لها .
انا أحيا بعيداً عنها ، فتبدو الحياة لي ثقيلة بائسة . انا بحاجة لحب امي . ايها
الناس ، اسفقوا عليّ !

فامي هي التي فتحت عيني ، ووجهها تجلى لي بكل جماله . أعيديا لي أمي .
لا تخونوني بهذا الكذب . وليكن الصبر معاذي !

فان كان هذا حقاً ، فاذهبوا بي الي قبرها ، بمثابة اكليل علي ضربها . وان
صح ان امي ترضى ، اجعلوني اكليلاً ، وتاجاً علي قبرها ! « (١٨)

وينتقل الالهام من الام (١٩) الي مواضيع نسائية اخرى : موضوع الحببية ،
والزوجة . وأغلبية الكتاب يناضلون في سبيل تحرير المرأة ولكن بعضهم يعترف
ببعض الكره للمرأة . وهكذا يقر شاعر معاصر ، الناصري ، بانه يكره
المرأة : ولا شك بسبب خيبة أمه لديها : « حيل المرأة ، هذه المرأة التي تبدو
كالزوبعة ، كاعصار يتلع الفكر ... والتي هي قريبة جداً من الشيطان » والتي
هي مخادعة وعاقبة . ايها المرأة ، يا هبوب العاصفة في البحار « تقبل لابتلاع
الفكر ! » هذا النفور من المرأة يرتكز على موضوع لم يطرقة الفكر الاسلامي
التقليدي إلا قليلاً ، موضوع حواء والحطيئة الاولى : هذه هي علامة تاريخية من
اهم المواضيع . والمؤلف العراقي الذي استعير منه هذه الفقرة في الشهادة على ما

(١٨) احمد فياض المفرجي « المرأة في الشعر العراقي الحديث » ص ٣٠ . والزهاوي الذي
كان ، في اعوام ٣٠ يثير البهجة لدى قراء « السياسة الاسبوعية » لصاحبها محمد حسين هيكل ،
يبدو اليوم بعيداً عن اذواق القراء الشباب ، مخلصاً المكان لمعروف الرصافي . انه يبدو نسخة عن
سولي بروودوم في الشرق .

(١٩) (قد تكون حافلة بالمتعة) محارلة درس دور الام ، دراسة مقارنة ، في الكثير من
السير العربية المعاصرة والمذكرات . مثلاً مذكرات كرد علي . انظر مذكراته : الجزء الاول
١٩٤٨ ص ١٤ و ٣٦ وما يلي . وانظر ايضاً ، فيما يتعلق بدور النساء تصريحات منصور فهمي
في مجلة الهلال الجزء الثامن والثلاثون ص ٦٢٩ .

أوردت ، يبدي غضبه . فهو يستشهد ، بزهو ، لتأييد قضية النساء ، شخصيات مثل مدام كوري وجان دارك وجميلة بو حيرد (٢٠) ، اللواتي جمعهن هكذا في الحملة الواحدة ، في نوع من محارلة التوفيق بين الافكار المتنافرة . وهو يستنكر ايضاً مواقف عدو آخر للمرأة ، حسين مارديني ، وهو وجودي فطبع من بغداد . ولكن ، باستثناء هذه الاصوات النشاز ، كل المؤلفين يتواطون على تأييد تقدم المرأة .

وببادرة من الزهاوي تأسست أولى الرابطات النسائية . فقد أسست اخته أمما ، وقد ظلت عانساً - وهو امر نادر ، في تلك الايام ، لدى العائلات العريقة - « جمعية النهضة النسائية » عام ١٩٢٤ . ومنذ ذلك الحين ، اخذ تاريخ الشرق يرجع اصداء هذه المؤتمرات التي اخذت تتتابع بوتيرة متسارعة . مؤتمر عاليه عام ١٩٢٩ ، ثم مؤتمر ١٩٣٠ في دمشق . ثم مؤتمر ١٩٣٢ في بغداد واخيراً المؤتمر النسائي الكبير في القاهرة عام ١٩٤٤ ، الذي يشق الطريق لعهد جديد (٢١)

الحركة النسائية في مصر

وفي مصر ؛ يعود الاتجاه الجديد

بعيداً في الماضي (٢٢) . وقد أثار

مرات عديدة المناقشات الكلامية . مثلاً المناقشة التي اثارها ، عام ١٩٠٨ ، كتاب قاسم امين . فهذا الرائد للحركة التحريرية قد رأى في جملة «-ارضيه مجدداً في الحقل الاقتصادي مثل طلعت حرب وعلى العكس كانت هدى شعراوي ، الحليفة والمعاصرة لحزب الوفد الاول . وتتجلى الحركة في تكاثر الجمعيات

(٢٠) الفرجي ص ٥٠ وما يلي و ٧٦ وما يلي .

(٢١) خضر العباسي ، السابق ذكره ص ٦٤

(٢٢) درية شديق : « المرأة المصرية » . بحث هو تاريخ ، ومطالعة اتهامية ، ومجموعات احصائية - القاهرة ١٩٥٥ . وقبله بحث احمد بدوي : « المرأة المصرية بين الطهطاوي وقاسم امين » مجلة « المجالس » ١٩٥٧ ص ١١٣ وما يلي .

والعصابات تكاثراً مخيفاً : انها الطفرة المفاجئة في الشعور الاجتماعي ، التي تعود بدورها الى تفجر الاطارات القديمة ، ظاهرات بدأ الناس في تحريكها ، منذ ما قبل الحرب العالمية الاولى . وتتهم « المرأة الجديدة » بالتشقيف المنزلي ، بهذا « التدبير المنزلي » الذي يدخل اليوم في كل برامج التربية الاساسية . وتعنى رابطة اخرى بزيارة المرضى ، واخرى تعنى بالصحة العامة ، واخرى ايضاً ، وهي « جمعية الهلال الاحمر » قد لعبت دوراً خيراً في مقاومة الشكل المتروجع من داء الملاريا في الصعيد . ورابطة « بنت النيل » الكبيرة ، التي أسستها درية شفيق قد أثار الكثير من الكلام حولها .

ففي ١٩ فبراير ١٩٥١ قام فريق متحمس من النساء اللواتي تجتمعن في احدى قاعات الاجتماعات ، بالتوجه الى البرلمان والوصول اليه بغتة . وقد دخل النساء مبنى البرلمان ، متحديات الحراس ، والموظفين ومواجهات خطر تلقي الرصاص ، الذي كان من شأنه ان يثير ولا شك ازمة سياسية . وفي سبتمبر ١٩٥١ ، نظمت فرق النساء المتجنندات : تلك كانت الفترة التي كانت تمز فيها مصر حركة عنيفة لتحرير القنال . وقد خرج عشرة آلاف متظاهرة ، عام ١٩٥١ ، بالذات ، في جنازة مصريين وقعوا في المعركة ضد الانجليز . ولكن تجب ملاحظة ان جمعية دينية تدعى جمعية « شباب محمد » ترفض المشاركة في الاحتفال لانه يضم افراد الجنس اللطيف هذا على الأقل ما تقوله درية شفيق (٢٣) .

وفي ٢٢ يناير ١٩٥٢ تجمع على باب بنك باركليس جمهور من الفتيات ؛ وكاهن من الطبقة العالية ، مصقولات الاظافر عند أرقى المانيكوريست ، ومصففات الشعر ويُحسن بأغليبتهن اللغة الفرنسية التي تتكلمها الراهبات الطيبات . فيقمن بلطف ولكن مجزم بمنع الموظفين من الدخول ، وهذه هي طريقة خاصة لمقاطعة

(٢٣) درية شفيق : المصدر الذي سبق ذكره ص ٢٢٣

المؤسسات الاجنبية في مصر . ويساندهن الجمهور ، رغم ابدائه ملاحظات لاذعة . ولكن الامور تفسد بعض الشيء عندما يطالب الاتحاد بحق المرأة في الانتخاب ، مستنداً الى نصوص الدستور . وبالفعل ، فان الدستور كان يمنح حق الانتخاب للمصريين ، على العموم ، دون ان يوضح ان هذا الحق محصور بالرجال . وتقدم الاتحاد بشكوى الى مجلس الدولة . وكانت مناورات تدخل فيها ، على ما يبدو ، الملك نفسه . وينفجر آخر حادث عام ١٩٥٤ عندما اجتمعت تلك السيدات ، في نقابة الصحفيين (مبالغة في التخفي ؟) ويبدأن اضراباً عن الطعام . وترجع الصحافة أصداً هذه الحوادث . ودون تجايب ، هي تقرب بين الاضراب وعمليات الريجيم لمحاربة السنة التي عممتها الاساليب الاميركية في البورجوازية العالية . ومهما كان الامر ، فان العلاج اظهر انه ناجح لأن المرأة المصرية تملك الآن حق الانتخاب . وهي ، على كل حال ، لا تبالغ في ممارسة هذا الحق .

ولكن لا يزال ، هناك ، الكثير من المراحل التي يقتضي اجتيازها . وتفضح درية شفيق ، التي استعير منها هذه الوقائع ، وواسب من الماضي لا يشكل تعدد الزوجات أخطرهما (ثلاثة بالمائة في مصر ، حسب الاحصاءات) . فالخطر الأشد خطورة هو عملية الطلاق الشائعة . وبالنسبة لعدد عمليات الزواج ، في السنين الاخيرة ، يبلغ عدد حالات تسريح النساء الثلث تقريباً . وبالموازاة ، تعد حالات الزواج بعد الطلاق ، عند الرجال والنساء اكثر من نصف العدد الاجمالي . وهذا اللااستقرار العائلي يستدعي تدابير تشريعية كفيلة بتثبيط عمليات الطلاق . والكثيرون من المشترعين المسلمين قد دخلوا في هذا السبيل ، رغم امتنكار الاوساط الدينية . ولكن اصلاح العادات الاخلاقية لا يزال امامه الكثير مما يجب عمله ، على الرغم من انه ، في مصر وسوريا ، ولبنان تعمل النساء كطبيبات مهندسات ، ودبلوماسيات واساتذة وان عراق الزهاوي ، بمناسبة

الذكرى الاولى للثورة ، رأى تنصيب امرأة كوزيرة للمدنيات (١٤ تموز ١٩٥٩) .

ثورة القلب والجسد وهذه القضايا ، المتحولة الى ترجيعاتها البسيكولوجية الاكثر حلاوة ، كانت يوماً موضوع نقاش اشتركت فيه اربع فتيات كان بحار حالم يقودهن في نزهة بزورقه على مياه دجلة^(٢٤) . وتعلن احدهن ان الروح فوق الجسد . فتصرخ رفيقتها : « وهل لا تزالين تؤمنين بالروح وبالمعجزات ! ألم تتعي من هذا الضرب من الاوهام ؟ » وتقص ثالثة حكايات عن الاشباح ، ولكن تختم حديثها بلطف قائلة انه يلزم تحدي « الخرافات » . فالخرافات والتقاليد قد عصرت شبابهن . ألم يبق لديهن كثير من هذه الخرافات . انهن يلاحظن ان اسماءهن الاربعة تبتدىء بالحرف « ش » مما ينبىء بالشؤم . ويلزمهن نقاش حاد لطرده هذا الانطباع السيء . ما اعسر اقتلاع هذا الماضي ا انك تريدن ان نقتلع من ذواتنا اسرار قلوبنا ! وهذا الصباح أحسست بعيني تطرف . وقد قامت أمي بتأويل ذلك على انه نذير شؤم . ولكنني اريد تصديقها ! ، هذه المعتقدات ، اخذت الروح العصرية الطاغية في السياق الاجتماعي الراهن تتبرأ منها شيئاً فشيئاً وتعيد وأدها في حمية « الكتمان » . وهذه المعتقدات ولت لتلاقي في تلك الاعماق اشياء اخرى تم وأدها ايضاً : الاحقاد التي خلفها القهر والامتهان الطويلان ، ولكن ربما ايضاً الحنين الى الايمان . فهل تقدر طرق التحقيق الاميركية القائمة على توجيه الاسئلة وأخذ الاحاديث ، والمقابلات ، ان تنبش هذه الاشياء المطمورة في داخل النفوس ؟ يا للأسف ! اننا نحس انه يلزم ، للحصول على مثل هذه النتيجة ، ان نستخدم عمليات التحليل النفسي الملحة . فالتحقيق^(٢٥) الذي تم في بغداد ، عام ١٩٥٧ ، بين الفتيان والفتيات اليافعين

(٢٤) ناجية حمدة ، « اربع نساء » - بغداد .

(٢٥) ابراهيم عبدالله ماحي ، « مشكلة المرأة في البلاد العربية » بغداد ١٩٥٧

واليافاعات ، من تلامذة السنة الرابعة الثانوية او طلبة السنة الجامعية الثانية ؛ لا يستطيع ، اذن ان يعطي إلا بعض مناظر خارجية . فكما يورده الاستاذ ابراهيم عبدالله ماحي ، يبدو انه قد اهل بالذات الامر الجوهري : الدور الذي تعتمز هذه الشبهة ان تضطلع به والذي يوحي اليها دائماً على وجه التقريب ان تتخذ امام المحقق مواقف وعظ او ان تعلن عن عقائد مشوهة بوقوفها في الوسط . ومهما كان الامر ، فان عملاً من هذا النوع يعين بصورة مجدية على تمييز النقاط التي تمس فيها المرأة حركة الدخول في الحياة العصرية ، في بلاد مثل العراق ، وفي وقتنا الحاضر .

وقبل كل شيء ، في ميدان تأنيث المنزل . فان الاثر الظاهر للتطور ، يبدو في تزويد المنزل الشرقي بأشياء معدة لإشاعة الراحة والرفاهية : البراد الذي يشيع الديموقراطية في شكل صودا ، و « البوظة » المصنوعة في البيت والتي كانت في القديم ، تسبب تكاليف باهظة . بسبب تجليدها بالثلج ، « والشعريات » (السياج المعدني المشبك على النوافذ) المضادة للبعوض ، التي ربما تبعد عن الفتاة بمعونة مادة الـ د . د . ت ، حادث « الحبة الحلبية » الذي كان في الماضي ، داءً عاماً وشاملاً . وان يعود بإمكان شعراء بغداد ان يتغنوا بالحدود المتأكلة . وهذا الامر سوف يضيّع على الرغبة لونها المحلي ... انه لشيء نافع اذن ، ولا يجادل فيه احد : ولكن ايضاً مموم ومخادع . وانه لتمويه من الدرجة الثانية ، ان صح القول ، ان الامر لا يتعلق إلا بما يحمله ، من مكاسب غير مباشرة ، تيار المهر بالطابع العصري ، تيار يتلقاه الذكور او يفرض عليهم اكثر مما يارسونه .

واكثر عمقاً ، وأكثر التزاماً تبدو المواقف في الحقل التربوي . فان ٩٥ بالمائة من هذه الفتيات يطالبن بالتعليم والتثقف . ويجرؤ المحقق حتى على معالجة الظاهرة الدينية . فهو يلحظ عدم انسجام غريب . فان ممارسة الطقوس الدينية ، ان في الديانة المسيحية او في الديانة الاسلامية ، هي وقف على الذكور اكثر مما

هي من شغل النساء . ٢٥ ٪ من البنات ، و ٤٠ ٪ من الفتيات . وقد نقول :
ها هي الاشياء تبدأ بالانقلاب . بلطف كافٍ . ويفسر المزلف هذه الظاهرة
بقوله ان الممارسة الدينية تتخذ ، في المرحلة التي يجتازها الشرق ، صفة التحدي :
انها جزء من النضال السياسي . انها تعطي قيمة المقاومة . وعلى هذا القدر ،
ينطمس الطابع الميتافيزيقي الخاص . ويعترف صاحبنا العراقي ، بكثير من
المداورة في القول بحدوث وهن تدريجي وربما بحدوث شيء من شأنه ان يثير
ايضاً قلقاً اكبر في نفس المؤمن : ألا وهو كون هذا الوهن والإضعاف لا
يثيران نزاعاً بين الجيل الجديد والجيل القديم . فبين الابن والاب ، حتى ولو كان
هذا الاخير متمسكاً بالتقوى ، خلاف حول كثير من الاشياء : الاقتصاد ،
وطرق الكلام ، والسياسة الخ . . . ولكن ليس من خلاف حول الدين او حتى
حول مراعاة الطقوس والشعائر (٢٦) . ولا شك ان هذه المراعاة تعرف نوعاً
من الارتخاء ، وان المناقشات نفسها التي كانت تغذيها لثلاثين سنة خلت أخذت
تبدو بالية وتخف كثيراً . وهكذا فان ٧٠ بالمائة من الفتيات الملمات و ٥٠
بالمئة من الفتيات المسيحيات يشجبن الرقص . وفي هذا ما يثير الدهشة ، بالنظر
الى تكرار عدد اماكن الرقص وتنوعها في المدن الشرقية . ولكن ردود فعل
الحشمة تتأجج ، في هذه الحالة ، بتضاعفها مع ردود فعل الكرامة القومية التي
تستهجن ارتياد اماكن الرقص وتروى فيها شكلاً متطرفاً من التقليد للحياة الغربية
وربما ايضاً مظهراً طبقياً .

والملاحظة الأهم ، في هذا التحقيق ، هي ، دون شك ، تلك التي تسجل ان
٥٠ بالمائة من هؤلاء الفتيات ، بسكس الطالبات الاميركيات اللواتي استشارهن
المحقق نفسه ، لا بشأن الاقرار بصفة الفتيات فيهن . فيقول ابراهيم عبد الله
استنباعاً لهذه الملاحظة العبيقة ، « ان المجتمع الشرقي هو مجتمع رجال ، وهؤلاء
المراهقات لا يتسردن بعد على هذا المجتمع ، حتى على الصعيد المثالي .

ومن هنا كان العديد من المشاعر بالحرماني ، وعدم الرضى التي يلزمنا الذهاب للبحث عن الاعترافات بها في ما تكشفه لنا منها كتابات الادب الروائي وهي ايضاً من ثمرات العصر الحديث ، لاننا لا نستطيع الاعتماد على التحقيقات المتصفة بالنفاذ ، فهي منعدمة .

وتشتمل آخر روايات هيكل (المتوفى عام ١٩٥٦) . على تاريخ حياة امرأة . « هكذا خلقت » . فالبطلة المترددة تتعذب امام صعوبات البيئة التي لا تنتهي . فهي تقول : « انا غارقة في الحيرة التي هي في آن واحد أحد الاسباب في المرارة التي تسلمت الى حياتي والوحشة التي تفصل بيني والرجال » ، انه لموقف مرتبط بعلم الجمال وبفن الغوص في اعماق الذات (٢٧) وفي الجيل السابق اقدمت مي زياده ، احدى الرائدات في التربية العاطفية في الشرق العربي ؛ على التراسل مع الشاعر جبران (٢٨) . ولا شك ان فيض العواطف المتحدقة المتدفق في هذه الرسائل يضايق بهذا الجانب الذي يشبه « بريد الهوى والقلب » الذي شرع الشرق نفسه في التحول عنه . ولكن هذه الحذقة لا يسعها ان تقلل قيمة المبادرة . فان موضوع الصداقة الحذونة هذا يبعث عند جبران موضوع الام . ويروي الشاعر انه بعد ان تجاوز العشرين من عمره ، سمع امه تقول له : « كان مقدراً لك ان تدخل الدير . ولو لم اخترك ، لبقيت ملاكاً - ولكنني لا ازال ملاكاً - اينها جناحك ، اذن ؟ - هاهما . » وقالها الفتى وهو يمد يديه الى كتفيه : وتجيبه امه : « ولكنهما متكسران » وهذه الكلمة تعطي الشاعر عنوان روايته الاولى « الاجنحة المتكسرة » * وفي هذه الرواية يتلاقى ، في عملية بوح يتسم بطابع رومانسي مريض ، حنان جبران الكئيب

(٢٧) ف مونتيه ، Monteil . V. جريدة الاوربان عدد ٣ كانون الثاني ١٩٥٨ .

(٢٨) جميل جبر : « مي وجبران » بيروت ص ٢٦

نحو الام التي غيبها الموت ، وحنين الى الوضع الملائكي ، والتحرير الفكري الذي ادى الى تحقيق مجموعة آثار ادبية تعتبر احدى شواهد التجديد في الدنيا العربية المعاصرة . فنحن نرى النصيب الذي تحتله النساء في هذه الآثار . وهن نساء من طراز متجدد بصورة بالغة بالنسبة لطراز النساء اللواتي ألهمن الشعر الشرقي القديم ، او حتى بالنسبة للطبقات البورجوازية الكبيرة التي أعطت ، منذ نهاية القرن التاسع عشر ، في بيروت ودمشق ، وحلب كما في القاهرة ، النموذج النسائي « لنهضة » * المرأة .

وما القول في انماط نسائية احدث ، في الانماط التي نصطدم بها في جامعات القاهرة والاسكندرية ، او تلك التي تنازع بأشعارها (مثل اشعار نازك الملائكة في بغداد مثلاً) اشعار نزار قباني سعة الشهرة بانفتاحها على التيار العصري التهجيمي ؟ في الجزء الثالث من ثلاثية نجيب محفوظ التي ذكرناها نجد فتاة ، تمشي مع صديقها في احدى الحدائق العامة ، معطية صورة تتناقض في كل من ملاحظتها ، مع صورة المرأة الحاملة والمضحى بها التي كانت شائعة في اعوام ١٩٢٠ . « وكان ماء الحوض يبدو كالزمرد السائل . وكانت نسمة بليلة من نسجات يونيو تهب لطيفة حية . وطائر التم كان يسبح ماداً منقاره لتلقف بعض الفتيات . وتشعر بأنك سعيد . ولكن صديقتك المرهقة كانت تبدو ألد من الطبيعة (٢٩) » وبالطبع انها لذينة . ولكنها ايضاً متدفقة بالمواعظ . ها نحن امام شيء جديد ا ففى كل مرة يروي لها الشاب لواعج حبه ، هي تجيبه باعلان مواقف عقائدية . فالحبيبة لا تكف عن الاشارة الى المبادئ : « وعندما احدثها عن الحب ، تحدثني عن الاشتراكية » . انها لا تغفر للشباب انتباهه لتلك

(٢٩) ف . مولتبه : جريدة الاوريان ، عدد ١٧ كانون الثاني ١٩٥٨ .

العائلة التي نعلم ان الاب كان يمثل فيها دور السيد المرعب ، وتاجر الاحياء القديمة ، الغارق حتى اذنيه في الجو المعافظ المتهافت على الملذات . ولكن هذا الاب قد ابتلعه الماضي مثلما ابتلع امراته الطبيعة . والنمط الذي يتأكد اليوم ، ويفرض وجوده هو نمط هذه الفتاة والفتى . ولكم تبدو مشاكلها هجومية حتى على ريشة كاتب معتدل هو نسخة قاهرية للكاتب بول بورجيه .

ولكي نعثر على التعبير الحي عن هذا النمط ، علينا البحث ليس في الرواية والقصة القصيرة ، اللتين تنزعان دائماً نحو التسميق ولا في مراسلات قارئات يعرضن ذاتهن من اول صفحة في المجلة الى آخرها ، وانما في الحوادث والوقائع المختلفة ، وفي محاضر الدعاوى القضائية ، أو أيضاً في هذه المقابلات والريپورتاجات التي جعلت الصحافة المصرية منها اختصاصاً والتي ينكشف فيها ، بفجاجة ، الكثير من الاشياء . فان احدى الممثلات الشهيرات بجمل الرجال مسؤولين عن الامراض العصبية ، عند النساء ، التي ترجع في نظرها ، الى عدم ارتواء رغباتهن . ووجوه التضاد الاكثر اثاراً للانفعال تتفجر (٣٠)

وها هي اولى المهندسات من النساء : انها تسهم في أعمال التخطيط المدني في كورنيش القاهرة . وأخرى مجازة بالفلسفة ، تفتح وكالة للزواج . ولكن ، في الوقت ذاته ، يكشف محاوره كلامية عن استمرار عادة ختن الفتيات ، على الاقل في الاوساط الريفية ، ويدافع اشخاص يتصفون بالعلم ، عن العادة ، التي تجري بالطبع لمصلحة الجماعة النسائية . وتحتج فتاة على المضايقة الشهرية (التي ترافق الميعاد ؟) فتنتظر من العلم ان يحررها منها . انه لمظهر تعالم لا يخاف من

(٣٠) ريبورتاج في الصحافة المصرية .

الشطط . ولكنه مظهر ترمز حافل بالدلالات أيضاً .

وبالوسع متابعة هذه العملية الى ما لا نهاية له ، بجمع آلاف الملاحظات ، التي تبدو منها ثورة عميقة تعصف بالروح وبالجسد .

المرأة العربية
والتأويل
تعمل المرأة العربية باجرائها تحويلاً في ذاتها ، على تحويل شريك عمرها ؛ في الوقت الذي تتحول فيه مواقفها المتبادلة بالنسبة للخارج وبالنسبة للمتعالى . قليلى البعلبكي ، « كوليت » الشيعية (كذا) الصغيرة لا تقتصر على شهادة فردية مغيظة ، أكيد انها تطالب بالحقيقة النابعة « من اغوار نفوسنا » * ولكن ايضاً « من حاجات بلادنا » * (٣١) . فهي تلتزم بالنسبة لقضية الله ، وبالنسبة لقضية البلاد وبالنسبة للانسانية . ولا يمكن الشك في اخلاص هذا الالتزام ، وفي سخائه . ولان تبليغ المرأة ، في آن واحد ؛ الى تمجيد الفردية والى الشعور بالمسؤولية الوطنية والمدنية ، فذلك لا يدهش احداً . ولا ان تبليغ هذه الدرجة بعد سير استنفد نصف قرن من تطورها .

وهل يلزمنا ان نتحدث عن تتابع الانماط ؟ فالتطور لم يمس حتى الآن المناطق النائية او الطبقات الدنيا من الانسانية الشرقية الا بصورة غير مباشرة ومتأخرة ، ولكن لامراء في حقيقة حدوثه ، على الرغم من عدم التناسب في تجليه ، وهي قد ألفت الضوء بالتتابع على ملامح تغير وجه شخص ما وحتى تغير معنى هذا الشخص . ومنذ جيلين تبدو المرأة المتجسد لسير الزمن في العالم العربي .

وبالامكان تقدير ما كان لبّوح « مي » العاطفي من اضافة الجدّة على وضعها الشخصي والاجتماعي وعلى دورها . ولا شك ان الامر لم يكن يتعلق ، في

(٣١) محاضرة القيت في الندوة اللبنانية ، عام ١٩٥٩ : « نحن بلا اقنعة » *

ذلك العين ، الا بمبادرة منعزلة : ولكن فترة ما بين الحربين هي التي عرفت انتشار الاساليب الجديدة في الاحساس وفي التعبير وقد زودت المرأة « بنماذج » عاطفية تغذت بها وغذتها هي بخلجات نفسها ، بفضل النمو المتلازم للاذاعة والموسيقى العربية ، في الوقت الذي كانتا ترحلان فيه ، الى قلب المنازل المحرمة ، انفعالات شديدة النفاذ بالغة التطواف وتمثل على عملية الانضاج العاطفي هذه مقنيات اصبحن الآن نسبياً منسياً مثل المغنية المغناج سوسن التي بادلتها المازني رسائل عذرية وتتردد الممثلة بين آيات الاعجاب التي كان يغدقها عليها طلاب متزلفون ، وكلهم من اعيان المدينة ، ومن « الافندية » الكرماء ، ونداء الدبير وفنانة اخرى هي اسمهان ، تدشن ، في نهاية تلك الفترة ، مصيراً معقداً لم ينقصه زيادة في اثاره الفضول ، حتى عنصر الجاسوسية الروائي . اذ ان البلدان الشرقية كانت في فترة ما بين الحربين ، تضطرب في نزاع حاد مع السلطات الانجلو فرنسية . فكان ان ظهر التاريخ ، بمجموعه الكامل ، في قلب دور الحرير ، ترافقه الموسيقى التعبيرية ، وفردية ذات ونات مديدة .

انها الفترة التي تمتد اليها جذور الشباب من حياة المؤلفين المشهورين في ايامنا الحاضرة والفنانين المعروفين مثل ام كلثوم ومحمد عبد الوهاب . فترة قد انقضت اليوم ، لان تطور المرأة ، الذي ادخل التسارع في وتيرته التحرر الوطني ، وتقدم التعليم قد تجاوزها ولا يزال يذهب الى ابعد . واليوم تتفجر هذه الرعدة في القلب والحواس وبموازاتها يتفجر تبدل وظيفي . وان مشاكل الحد من تزايد السكان تشغل أذهان الحكومات ، وبدأت « مراقبة الولادة » Birth Control تنتشر في الطبقة الموسرة . يضاف الى ذلك تبدل في الوضع الاقتصادي للمرأة ، بالقدر المتنامي الذي تلج فيه المرأة الحياة المهنية ، وتحوّل في أشكال المجتمع ، يؤدي الى التقلص التدريجي في أحجام الجماعات . فأبناء العائلات الكبيرة يهجرون مساكنهم العائلية في الأحياء القديمة ، التي اصبحت تقسم الى عدة

مساكن ذات غرفة أو غرفتين ، فهم يفضلون بعد الآن السكن ، في الأحياء الجديدة ، في شقة لم تعد « الدار » الخاضعة لسلطة الأب أو الجد ، وإنما أصبحت عش الزوجية ، والزوجان ينشطان لتدبير شؤونها ولمواجهة مصاعب حياة تفرض عليهما فيها الحاجات المتزايدة أبدأ أن يدفعاً غالباً ثمن الرفاهية على الطريقة الغربية . والشاب الأعزب والفتاة العانس ، أصبحا يشكلان نمطين يتكاثران شيئاً فشيئاً . وهذان النمطان كانا في الماضي غير معروفين ، ولا يزالان حتى اليوم أمراً مناقضاً للمنطق . وكذلك بدأ نمط الأم (المهيمنة ، المتسلطة على البيت) يختفي كمثل أعلى ، وثمة هبوط في الاقبال على الرقصات - المغنيات ، وازورار عن رقصات البطن التي كن يجتذبن بها ، واستنكار يزداد كل يوم قسوة للبقاء . ولا يزال بعض المراهقين يندرعون الارصفة بصورة خطيرة . ولكن البوليس يسهر . والمحافظون على الاخلاق يستهجنون من اختلاط الجنسين على البلاجات ، هذا الاختلاط الذي يوحى به ، على العكس ، علماء النفس^(٣٢) وموضة الحُط المربع المنحرف (الترابيز) تثير مناقشة كلامية لا يترفع عن الخوض فيها فقهاء الازهر . وبينما هي تبدو ضرباً من الفضيحة في نظرهم ، وموضع احتقار الشعب الذي تعرف فيها الى شكل كيس القطن « شوال القطن »* ، كان هذا الزي للفساتين ، بالنسبة لأنيقات القاهرة ، طيلة عدة شهور ، رمزاً لتحررهن^(٣٣) !

اذ ان المرأة أخذت تنتزع ، بعنف كل يوم أشد حقها في الوجود كشخص وكمواطنة ، ويتحققها ذلك ، استعادت عمليات الاستمرار الطبيعية والاجتماعية

.....
 (٣٢) الذين يتكاثر عددهم بصورة متوازية . انظر تيري بروثرو Terry Prothro ول ميليكيان L. Melikian : « البسيكولوجيا في الشرق الاوسط العربي » النشرة البسيكولوجية Psychological Bulletin الجزء ٥٢ العدد ٤ تموز ١٩٥٥

(٣٣) ريبورتاج في الصحافة المصرية ، في يوليو ١٩٥٨

التي كانت النظم القديمة تبعدها عنها . وثورتها مع طابعها الذاتي من وجوه عديدة تتدرج في ثورة الرجل . وهذا الأخير كان يبيع لنفسه ، في النظام التقليدي ، الامتياز باقامة العلاقات ليس فقط مع المجتمع الذي يحيط به ، وانما ايضاً مع الطبيعة ذاتها . فكان الجانب المذكر يجلب الجانب الأنثوي ، ويغتصب حقه ، من وجوه عديدة . وقد وصفت كلمة رهيبه هذا الوضع بقولها : « كانت المرأة في المنزل الزوجي ، الضيفة الغريبة الأولى » (٣٤) . لقد كانت ، بصفتها مصدر الحياة ، مستنفدة ومنبوذة في آن واحد . وفي الاوضاع الحاضرة ، لم تعد الحال كذلك ، فالمرأة في الوقت نفسه الذي ترمم فيه شخصيتها تعيد اتصالاً دائماً الطراوة مع المد الابدي للأشخاص والاشياء وقد أعادها التاريخ الى الاستمرار ، والرجل يطلب منها وساطات جديدة وضرورية .

(٣٤) ل . ماسينيون . مقدمة لاعادة مؤلف ف موتيه : « النشرة السنوية للعالم الاسلامي » ١٩٥٥ ص ١٤ .

الفصل العاشر

مُفَامَرَاتُ الْكَلِمَةِ

الكلمة العربية تتلاءم مع ارض^١ الناس اكثر مما تنتمي اليها وتدخل في ملكيتها . وتتميز مادتها دائماً تقريباً ، عن لغة الحياة . فالعلامات اليومية التي تمنحها تحمل الحياة اليومية ، فهذه العلامات تحلق فوق الارض ، وتظل وفيه لتحديد ما الذي يتضمن النزول^(١) الى الارض ، بدلاً من الانتباق منها على الاقل ، هذا هو المبدأ ولكنه ايضاً حالة تمكن ملاحظتها تاريخياً في كل الدنيا الاسلامية المحيطة بالبحر المتوسط ، لمائة سنة خلت ، قبل « النهضة ، البيرونية والتغيرات التي طرأت ، منذ ذلك الحين ، لا تزيد غير الكشف عن هذه الظاهرة بصورة اوضح .

كيف سمعت « اللغة » « الفصحى » ، الامينة للقرآن الكريم ، الذي يشكل نموذجها الأعلى غير المخلوق ، لان تتحول من سبيل لهبوط الوحي وللاتصال مع الله جل وعلا ، الى اداة لتبادل الشؤون الدنيوية ، ووسيله للثقافة ، والانباء والتعبير ، وما هو المدى الذي نجحت فيه ببلوغ هذه الغاية : ان بحثاً من هذا النوع يقوم بالذات في صلب دراستي .

(١) انظر كلمة « التنزيل » (في المعاجم اللغوية) بمعنى هبوط الوحي .

رواد النهضة

« اللغة » (الفصحى) ليست اللغة الام

لاي أحد (٢) . انها تكتسب بعاشرة

النصوص الكبرى ، وخاصة بأرفع هذه النصوص ، القرآن الكريم .
وتقليدياً ، يندمج هذا الكتاب المقدس مع كل تمس بحرفة انسانية . وفي
دار الاسلام لم تكن جماعة ، بالغاً ما بلغ فقرها ، ولا من دسكرة ، بالغاً ما
بلغ جديها ، الا وكان يبقي على استمرار الكتابة والترتيل فيها متعلم أو عدة
متعلمين ، مهما كان من ضالة مظهرهم أو من قلة علمهم . وهذا الامر يتبع
لنا اليوم ، أن نؤكد في ضرب من ادارة الظهر للزمن الحاضر ، ولكن باحساس
حقيقي ، ان التعليم الابتدائي كان يزدهر في البلدان العربية قبل الاستعمار .
وكان الأمر يتعلق بامتلاك الطفولة للمطلق أكثر منه تعليماً . فالتناس يحفظون
القرآن عن ظهر قلب ، ولا يوجهون لفهمه غير نوع من الاحتقار المتعالي
ففضيلة كلماته تقوم في الشكل وفي النغم ، أكثر مما تقوم في آية من عمليات
التطابق مع الوقائع اليومية . وهذا الامر لا يزيد هذه الكلمات الارسوخاً في
الاذهان والخواطر . فالكتاب المنزل ، الذي يحمل صفة مجموعة الحكم ،
والمواعظ والقصص . يشكل بالنسبة للرجل البالغ ، وعلى الدوام ، الحكم الذي
تطرح على محك التجربة الدنيوية ، والينبوع الذي تستقى منه كل معرفة .
وهذا الينبوع يحتفظ بندارته على قدر قريبه من طفولة صاحبنا ، ومن طفولة
العريق ، ومن جنات عدن .

وبعد هذا يسعنا أن نفهم لماذا تعطي اللغة الكبرى ، التي ظلت مكتومة في
مستودعها الطفولي والالهي ، رمزاً اجتماعياً هائل الفعالية والعمق . والانحطاط
المعنوي ، والتشتت السياسي ، والتدهور الاقتصادي للعالم الاسلامي في القرن

(٢) هي ، ربما عكس ذلك ، لان الذي لا يحسن الكتابة والقراءة يدعى في هذا المجتمع
« الامي » * أي « المنسوب للام » اذا شئنا .

التاسع عشر ، ذلك يجعل من هذه اللغة الرمز الوحيد لهذه الشعوب . وبالفعل فان صعودهم من جديد على طريق الانبعاث قد بدأ بالبعث اللغوي ، وبفضل محاولة اعتداء أولى ، والحق يقال ؛ اذ ان المسيحيين هم الذين يتخذون وجه الرواد (٣) ، بصورة تبدو مناقضة للمنطق الظاهر . ففي افواههم وتحت اقلامهم تفقد « اللغة » * من بداية اللعبة النصيب الديني من قدرتها الرمزية . وهي تكسب الحاحاً مقابلاً ، وبالقدر نفسه على الجانب الاجتماعي وحتى الوطني : فتريد لذاتها ان تكون عربية (٤) اكثر منها اسلامية . وكان ذلك يحتوي البذور لشتى التطورات اللاحقة .

وثمة ملامح آخر هو ان التجديد ظل بعيداً عن التحدر من مؤثرات كان بوسعنا ان نسميها طبيعية . فهو يعود الى مربين ورجال أدب ليس لنشاطهم في ذلك الحين . ولم يكن بالامكان ان يكون له - أي ارتباط مباشر مع الحياة الراهنة لبلادهم . ولا شك ان هناك ترابطاً زمنياً على الاقل ، بين نمو بيروت كمدينة وكمركز تجاري ، خاصة منذ شق برزخ السويس ، ونموها كمركز

(٣) واذا لم نفوه الا بالمصادر العربية ، فلنذكر الابحاث الكلاسيكية التي كتبها الاب شيخو : « الآداب العربية في القرن التاسع عشر » الطبعة الثانية ، الجزء الثاني ١٩٢٦ ص ٣ وما يلي . وحول الوضع العام في حوالي سنة ١٨٨٠ انظر ص ٦٤ وما يلي انظر ايضاً تاريخاً ثميناً لينايبس الصحافة ، هو ايضاً تاريخ للنهضة ، الفه الطرزي « تاريخ الصحافة العربية » جزءان - بيروت ١٩١٣ وسير الشخصيات الادبية بقلم يوسف أسعد داغر « مصادر الدراسة العربية » الجزء الثاني بيروت ١٩٥٦ عند الاسماء الواردة .

(٤) لقد اوضح انطوان غطاس كرم ، في اطروحته التي لم تنشر بعد ، بصورة دقيقة ، دور الترجمات العربية للتوراة في الهام جبران ، بدلا من الالهام القرآني .

ثقافي ولكن هذا الترابط لا يمكن تحليله وتفسيره بأي شيء واضح (٥)

وهناك أكثر من ذلك . فالانطلاقة الادبية - ونجد هنا ثالث الملامح - مدينة كثيراً ، ومنذ البداية ، للتأثير الغربي . فان عملية اخصاب وتلقيح تتحقق على اللغة القديمة التي تستعير من اللغة الفرنسية المواضيع الفكرية والاصاليب اللغوية التي لا نملك حتى الآن أية دراسة منظمة عن تفاصيلها . فكيف يمكن الفصل بين ذكرى بطرس البستاني و ذكرى صديقه كورنيليوس فان ديك Van Dyck أو تجاهل دور الاب بيلو Le P. Belot في المطبعة الكاثوليكية ؟ واكثر المتعلمين يقومون بصورة جد طريفة ، ولكنها أحياناً ناجحة ، بالتوفيق بين الكوزموبوليتية وشعور التأصل الراسخ في الوطن المحلي الصغير . ومن هنا كان ازدواج (في الهوية) يذهب الى حد تغيير المذهب وحتى الى تغيير الدين (٦) . وسوف يتجلى هذا الازدواج ابتداء من عمليات التنكيل

.....
(٥) ان اعوام ١٨٩٠ التي تأخذ فيها بيروت انطلاقتها النهائية ، المرتبطة بانشاء المرفا وبمد الخط الحديدي الذي يصلها بدمشق وبتوظيفات رؤوس الاموال الاوربية هي بالضبط اعوام الانحدار الثقافي . فتتناثر « النهضة » ، منذ ذلك الحين ، الى خارج لبنان . واللائتظام في هذه التدخلات المتعاكسة بين السباق الاجتماعي والانطلاق الثقافي في الشرق ، من شأنه ان يطرح امام « تاريخنا الادبي » الكلاسيكي مشاكل بالقدر نفسه ، يحدد العالم الاجتماعي فيها مفاهيم لبعثة ... شرط ان يصار الى الكشف المنظم عن عمليات الترابط هذه ، أو عن فقدانها .

(٦) وأشهر قضية تغيير الدين كانت قضية الاخوين الشدياق ، فمات أحدهما بعد أن ادانته طائفته كإرث من الدين ، والثاني (احمد فارس) ، اصبح مسلماً . والمعلم بطرس غير الكنيسة التي ينتمي اليها . وابراهيم سركيس ، كذلك يعتنق البروتستانتية ، وميشال مشاققة ينكر انتماءه للروم الاوثلوكس الخ ... ويجفل الشرق بحالات من هذا النوع ، يصير فيها انتقال في هذا الاتجاه او ذاك . ولكن اقترابنا التاريخي والبيسيكولوجي ليس من الدقة بحيث يسمح لنا بتعميق دراسة هذه الحالات ، أو بتفسيرها .

التي قام بها السلطان عبد الحميد ، في الهجرة . وقد أعادت الطبقة المثقفة (الانتليجنسيا) البيروتية ، حينذاك ، بناء مركز ثقافي في القاهرة . ولكننا نجد ممثلين لها في كل مكان : في باريس ولندن وسان بطرسبرج ، وكاجلياري ، وتونس ، وطنجة ، والقسطنطينية وحتى في زنجبار .

والتعبير الأدبي يفيد ، شكلاً ومحتوي من هذا الانفتاح المتعاضم . والحق يقال ، علينا ألا نطلب من مجلة « الجنان » لا الطلاقة اللفظية ، ولا النبوة العاطفية التي عودتنا المجلات العربية الحاضرة على الغلوف فيها . فالهامها كان لا يزال يستقي من القديم . واخبارها المحلية كانت فقيرة ، وكانت « جملتها السياسية » * ملجومة ومبناها كانت لا يزال في حالة التمتعة ، فهنا مديح بأحد مشائخ آل الحازن ، وهناك قصيدة لعبد الهادي الرفاعي يشكر فيها علماء بيروت ، على الحفاوة التي لاقوا بها كتابه عن أحد أجداده الأفاضل ، ومقالات ثرية مسجوعة بصورة مملة ، وقصيدة لأمين الجميل الذي وضع شعراً مختارات من الابحاث القضائية ، وأخيراً هناك مدائح مقلقة في ناصيف اليازجي تشيد بذاكرته وبراعته في البلاغة اللفظية (٧) .

وقد كان عملاً أكثر اتساماً بالروح التجديدية ، ما قام به المعلم بطرس البستاني بإصداره دائرة المعارف ، وما يتضمنه من اتصال واعٍ مع العالم ، وكذلك تجربة لويس صابونجي المتدفقة كالسيل العرم ، فالأول يخترع واقعاً ظل طويلاً خافياً على الأفهام ويحاول أن يهب إخوته الشيء وفي الوقت ذاته الكلمة التي تحتويه ، وكثير من نبذاته حافظت على قيمتها ، وبالاختصار ، لزمنا الانتظار حتى يومنا هذا للرى سعياً لمتابعة هذا المجهود ذي الطابع العملي واللفظي ، في الوقت الواحد .

(٧) « الجنان » الجزء الذي صدر عام ١٨٨٥

أما الشخص الثاني ، فهو رحالة ، ومحاضر اجتماعي ، ومخترع فنون وحرف . وهو يفاخر بأنه « كاتب شعبي وليس لاعب ألقاظ » الامر الذي لم يكن يُسمح بمثله في وقته وفي أمته . ولبناني آخر ، هو أحمد فارس الشدياق ، أسهم كثيراً في هذه العملية بالتمرس الانسيكلوبيدي ، فقد كان غير مستقر ، دائم التمرد الثوري ، متحذلقاً ، وأحياناً إباحياً ، وكان لاذع السخرية ، ذا لسان قارص وقدرة تدميرية . ولكنه كان يتمتع بفضول رائع . إنه يشبه الى حد بعيد ، رجال نهضتنا (٨) . وهناك أيضاً شبه بين هؤلاء والمفكر ابراهيم اليازجي ، على الرغم من أنه كان من مزاج يختلف تماماً عن مزاج الشدياق . فهذا الكاتب كان عالم لغة ، ومولعاً بالتحصيل العلمي ، وضارب عود وصائغ مجوهرات وساعاتياً ورساماً وخطاطاً ومنجماً ، وعاملاً في صب المعادن ، ومخترعاً لأحرف المطبعة . هذا الابن للالهة يجرؤ ، سنة ١٨٧١ ، على مقارعة الشدياق الخيف ، وهو يترجم التوراة ويوجه للمغتصب التركي قصائد وطنية ، ويشترك في تحرير مجلة « الطبيب » التي تهتم بصورة غريبة بالنسبة الينا بعلم النحو قدر اهتمامها بالعلوم الطبيعية ، وفي سنة ١٨٨٢ ، يهرب من حملة الارهاب الحميدية ويلتجئ الى مصر التي كانت حينذاك ترفع المشعل . فيقوم الى حد ما ، بتأمين الاتصال بين « النهضة » * الأولى والفريق الذي نجده بعد ذلك في القاهرة عام ١٩١٠ (٩) .

هؤلاء الرجال الكاملون يدهشون بجملة اندفاعهم للفهم وللمثل والمضم وبتسجيلهم في اللغة مكاسب الحياة العصرية ، هم يسهرون بحرص على هذه المكاسب ويجدون في فضح الاسلوب الصحفي في اللغة . فهل كانوا ينشدون المستحيل ؟ على كل حال ، لقد أحسوا بضرورة التغيير ولكن أيضاً بأخطاره

(٨) انظر في مجلة آخرين شفيق جبيري في مقاله « السخرية عند الشدياق » في «مجلة المجمع» * الجزء الرابع والثلاثون ١٩٥٩ ص ٢٠٩ وما يلي .

(٩) انظر النبذة الحية التي يكرسها له فؤاد البستاني في مجموعة « الروائع »

وبصورة مناقضة للمنطق الظاهر ، في نظرنا ، لم يكن العمل الروائي ميداناً يحسنون التحرك داخله ، فهذا الفن الروائي سوف ينمو ويتطور في مصر ، بفضل نجدة الترجمة ، وسوف تقوم صحف مثل الهلال « والرواية » بتعميمه ، حتى يومنا هذا ، بنجاح لا يكف عن التزايد . فهؤلاء المفكرون كانوا مستقيمين ، وبالغني الدقة . والتطور الاول « للغة » الفصحى المهيبه قد تحقق بفضل الاحتكاك المباشر بين خفاياها والمكاسب المادية التي حملها الغريب . وقد كان منطقياً ان يحصل ذلك . فالاختلاج العاطفي لم يسعه أن يجد ترجمته الا في وقت متأخر ، مع جبران وشعراء المهجر . وحتى في وقتنا الحاضر ، يبدو للمصلحين العرب ان من اللازم ان يكون للاتجاه نحو العلوم المضبوطة الغلبة على التعبير اللغوي ، مثلما يلزم ان تكون الأولية للفعل بدل الحلم .

ولكن هذا الحلم ، بقدر ما يعبر عن نزعة للالتفات نحو حياة داخلية ، لا يزال هو نفسه أكثر فعالية وأشد حسماً ، من الوجهة الاجتماعية ، من التقدم التقني . أو بالأحرى ان هذا الأخير لا يصلح الا في إطار من النزعة للالتفات نحو الحياة الداخلية . فمنذ المعلم بطرس ، أمتد الصراع بين النموذج الاعلى والحياة المصرية ، بصورة كبيرة جداً . ولم يحدث ذلك بواسطة التكيف المعجمي فقط . فالعرب يطلبون من الكلمة ليس فقط أن تستوعب أفكاراً جديدة وأشياء جديدة ، وانما أن تعبر عنهم ، عن انفسهم ، في أشواقهم وعذاب انبعاثهم .

اكتشاف الطبيعة (١٠)

الطيب السراج ، من أم درمان ، هو

صاعقة من القول ؛ وهو في مظهره الغريب ،

المتعالي ، وفي نظره التي تومض فيها الصواعق ، يستطيع أن يسرد لك الآلاف من ابیات الشعر وان يعلق على عشرات الآلاف من الكلمات . وبالنسبة لهذا الدون كيشوت اللغوي ، تمحى الانسانية أمام الاسلام ، ويمحى الاسلام أمام العروبة ، والعروبة أمام علم المعاجم . وقد كان يروي لي العديد من الأشعار التي تصف الصحراء ، أو الحيوانات ، وخاصة صورة اسد في شعر حرملة بن المنذر . وقد كان فخوراً بذلك . ولكنني أبدت رأيي في الأمر ملاحظاً أن الحدّ في دقة التعبير في هذه القصيدة تتضاد مع محتواها الشعوري الذي يبدو تقليدياً ، متواضعاً عليه ، ففي رأيي أن هذا الشيء بالذات المتواضع عليه في هذا الشعر القديم ، يفيض جمالاً لأنه يحدث نوعاً من ارسال العلامات الحافلة بالإيحاء بمواضيع مألوفة للجماعة ، الامر الذي هو كلاسيكية نموذجية ، ولكن هل من التجديف أن نقولها : لا في الأدب العربي (١١) ، ولا في عهد الكلاسيكية الاصلية عندنا ، لا تنكشف الطبيعة حقاً بالنبش العميق عنها . فالحاجة ذاتها الى عادة خلق هذه الطبيعة في الكلمة ، اذ تفترض على السواء توفر أدوات الوصف من جهة ، ويقظة حساسية جديدة من جهة ثانية ، تفترض تجديداً في العلاقات بين الفرد والمجتمع والعالم ، وعندنا ، لم يحدث هذا التجديد الا منذ روسو وبرنارد دوسان بيير .

١٠) هذا المقطع مدين كثيراً للأفكار المتبادلة ، في ندوة انعقدت في شباط ١٩٥٩ ، مع ريجيس بلاشير Régis Blachère وابنياس مييرسون Ignace meyerعن . ولكن هل علي ان اقول أن آرائي لا تلزم غير نفسي ؟

١١) الا لا اجهل ما يمكن لمثل هذا التأكيد ، المتسرع ، ان يثير من تناقضات ، فابن الرومي ، والبحري وكثيرون غيرهم يستطيعون ان يقدموا شهوداً ضد هذا التأكيد . ولكن لتتلق على الكلمات ، فهناك عالم بكامله يفصل بين « طبيعة » لافوتتين وطبيعة روسو ،

لتصفح كتاب جميل صليبا حول « الاتجاهات الثقافية في سوريا » . انه يكرس ، بالضبط ، فصلاً للاحاساس بالطبيعة . وهو يقدم فيه عدة أمثلة خاصة شعرية . مثلاً صوراً للغوطة . ويبدو له ، كما يبدو لنا ، أن الطبيعة ، في نهاية المطاف ، لا يحس بها هؤلاء الشعراء وبالأحرى ، هؤلاء الناثرون الا كآثار يعرضون فيه ويلصقون عليه انفعالاتهم الانانية (١٢) . وهل يختلف الامر بالنسبة للشاعر التي أوحى بها النيل (١٣) في شتى العصور ؟ أما المهجر ، فعلى العكس ، قد حمل احساساً جديداً واغاني جديدة . فكان العربي يبدأ حقاً بالتعبير عن الطبيعة ، حالما يحدث النفي التفتيت في اطاره والزلزلة في حساسيته . فجبران يتوحد مع الارض ، في هلع ووجل مقدس ولكنه يعلم ان تلك الارض قد فقدها . وهذه هي اللحظة التي تنفجر فيها الكلية القديمة في الكثير من الازهان العربية ، لتخلي المكان امام النشاطات المقسمة في العصر الحديث . تأمل "مجرد" ، و"فن" متخصص ، وفكر هملي بسود الحقل الصناعي . وهكذا يغني فوزي المملوف وايليا ابو ماضي عواطف وصوراً تقودهما على اجنحة الروح الوجدانية القديمة الى مثل المسافات البعيدة التي تقود أجسادهما اليها الهجرة من بكفيا أو من زحلة . وقبلها رفع الريحاني صرخته :

« أيتها الام الطبيعة ، لقد أقبلت اجدد فيك آمال الحياة وأفراخها ، وفي قلبي اليوم قليل من قلب جاري . وفي قلب الغابات خفقات تنطلق مني . وثمة شيء من قلبي في عقل الفلاح ، وشيء من عقل الفلاح في الصميم من قلبي . وما يراه من الارض ، ومن ضياء الكون ، أنا اراه في انحناءات الخطوط بالوردة أو في براعم الياسمين . واوراق التوت تحدثني عن الاسرار الالهية المكنونة . وفي

(١٢) لقد أبدى الشاعر التونسي رأياً مماثلاً .

(١٣) محمد عوض « نهر النيل في الادب » « المجلة » : نوفمبر ١٩٥٧ ص ٣ وما يلي

عبير اشجار البطم ، وتحت قناطر السنديان ، انا أشيد هيكلًا للايمان (١٤)
ولكن هذه الاندفاعات تنبع من قلبٍ فقد طمأنينة الايمان الذي كان
للحدود . ففي أوروبا سبقت عمليات البوح والكشف عن سرائر الذات التي تميز
المدرسة الرومانسية المتفتحة الى الطبيعة ، اقول إنها سبقت تحويل المجتمع
والتقنيات ، على الرغم من انها تشترك مع هذا التحول في الانبثاق من الزلزلة
نفسها ، « فالنهضة » الاولى التي كانت معاصرة للعهد الفيكتوري تجتاحها
زلزلة من هذا النمط . ولكنها لم تخلقها . فهي تتلاقها من الخارج . وهذا
الامر يحدث في النفوس الشرقية التواءات مؤلمة .

اعادة الاعتبار
للفن الشعبي

لقد اضاع العرب وقتاً طويلاً - مدى
جيلين على الاقل بعد « النهضة » - قبل ان

يلتفتوا لكنوزهم الخاصة بهم .

ولم يسبق قبل اليوم ان ابدى الناس ، مثلما تبدي طبقة بكاملها من الاهتمام
بالفنون الشعبية وبالشعر العامي . وهذا الاهتمام يحس بنفسه ويريد لنفسه ان
يكون ثورياً (١٥) فبالفعل كان الفولكلور محتقراً تقليدياً لأنه يهرب ،
في الوقت نفسه من الثقافة الكلاسيكية ، ومن النماذج الاجنبية .
وبدر نشأت ، وهو أحد الصحفيين الاكثر التفانياً لاعادة الاعتبار للفولكلور

(١٤) « هتاف الاودية » . وقد كتبت القصيدة عام ١٩١٠ ، في الفريكة ، قرية صغيرة
تابعة لبلدة بيت شباب .

(١٥) ان الجهد الاغنى بالدلالات . في مصر هو جهد احمد رشدي صالح في كتابه :
« الادب الشعبي » ، وقد شكلت الحكومة المصرية مجلساً للفنون الشعبية ومكتباً كاملاً لهذه
الفنون يعمل تحت ادارة يحيى حقي . انظر بحث الدكتور حسين مؤنس « الفولكلور » في مجلة
« المجلة » المصرية (مع دليل خاص) عدد نوفمبر ١٩٥٨ ص ٩٣ وما يلي .

ليس بعيداً عن اعلان هذا الامر ، وعلى عكس الموسيقى والتصوير الحديثين ، اللذين غزتها الى حد بعيد مبادرة الغرب ، واللذين يزخران بتعقيدات حياة المدن الجديدة ، يظل الفولكلور القروي متصلاً بالحياة الابدية . فالطبيعة تشيع فيه بحرية ، فالفولكلور هو الثقافة السفلى l'Infraculture أو الثقافة الاساسية ، ولكن لا يمكن تصور الفولكلور دون تصور اللغة العامية مرتبطة به . ومعلوم أن اللغة العامية كانت حتى الان موضع ازدراء و كبت ، ومن جهة أخرى يتضمن مفهوم الفولكلور موقفاً يتجاوز حدود « الادب » وأسلوب المدينة وحتى الدين ويعني اقامة مبادئ ومواقف ؛ ونظام اخلاقي تقريباً تتنافى مع النظام الاخلاقي والمبادئ والمواقف السائدة في المدينة .

ومهما كان الامر ، فان الفولكلور يبلغ اليوم حد الموضة (١٦) ومؤخراً ، ذهب مندوبان من مصلحة الفنون الشعبية الى بور سعيد لتسجيل اغان شعبية . ولكن بالضبط لم يعودوا يغنون في بور سعيد. وفي هذه الظاهرة نرى الى أي حد تتداخل الفنون الشعبية في حياة الجماعات . فالعائلتان اللتان ينتمي اليهما المغنيان الرئيسيان ، يفصل بينهما نزاع ، فاضطر الموظفان للجوء الى حيلة . لقد لبسا البدلة العسكرية ، وتقدما على التناوب من العائلتين ، زاعمين أنها جاءا من قبل « المدير » أو من قبل سلطة أعلى ، وان هذا الموظف الكبير يطالبهما (اي العائلتين) باسم الشعب ، وباسم الأمة ، بأن تقيا الصلح بينهما على كل حال ، فقد توصلا الى التوفيق بين الجماعتين . عند ذلك يقيان عيداً كبيراً ، وصدق ان أحد الضابطين المزعومين كان مولعاً بالغناء ، وأنه انفق ما يقارب المائتين او أو الثلاثمائة جنيه ثمناً لآلة تسجيل كان مجهزة بها !

وكان الموسم ، على ما يبدو ، جد خيّر . فهو ينبع من أرض لا تنضب .

(١٦) التحقيقات العديدة في الصحف .

ولكن المجهود الذي يبذل لحصده يرفض الكثير من المواضع الاجتماعية ، فالظهور الفجائي للفنون الشعبية يزيح العديد من الاوامر بالتحريم . ومن هنا كان طابعه الهدام . فهو يعيد الاعتبار لقيم كانت حتى الآن مشبوهة أو على الاقل مضيقةً عليها ، وفوران الفولكلور ليس فوران الفرد بقدر ما هو فوران الطبقات المحترقة ، ضد وجاهة الأدب البلاغي ، وجمود التقاليد الاجتماعية . وفي هذا ما يفسر ان مبادرات من هذا النوع في مصر بدت اكثر الاحيان من الاشتراكيين ، وفي مواضع أخرى في لبنان مثلاً ، يأتي الشعر العامي من الجبل ، الماروني او الشيعي ، الذي يفرض وجوده ويتجلى على هذا الشكل ، ضد مدن الساحل (١٧) . وبالرغم من أن هذا الفن يبلغ هنا ، اكتمال صياغة مدهشاً ، ويفذي عدة مجالات ويلهم كتاباً كباراً (مثل رشيد نخلة) ، فالتقدم الادبي لا يلجم فيه المعنى الثوري . والفولكلور يلعب في لبنان ، ومنذ زمن طويل ، دوراً سياسياً ، انه يتحرك في مجال التاريخ ، فالأحزاب ، في خلافاتها تتحاور بلغة « القرادي » * واثناء الحرب الاخيرة ، كان اليساريون يحتفلون « بالقرادي » بتقدم الجيش السوفياتي ، والحركة النقابية نفسها تلجأ (للزجل) وكل هذا يلتصق بالجبل ، لان بيروت تبقى على جانب كبير من العقم من هذه الناحية . فالسنيون مغرمون بنظم الشعر الفصيح . وهم لا يستطيعون أن يعدوا ، في باب الشعر العامي ، غير الزعني ، صاحب الاغنيات الشهيرة . وحتى هذا الأخير يستعمل خاصة ، وربما من قبيل الازدراء ، اللغة العامية المصرية . (كذا)

ويمكننا ان نقول الشيء نفسه تقريباً ، عن العراق ، وعن أغانيه ومواويله

(١٧) انظر اطروحة جبور عبد النور : « دراسة حول الشعر العامي في لبنان » ١٩٥٧ وخاصة ص ٦٠ وما يلي . وهذا المقطع مدين له كثيراً .

« العبودية » (١٨) وعن شعرائه الشعبيين مثل الحاج زاير الذي سبق لي الحديث عنه . وعلي ان اذكر ، في السياق نفسه شاعراً غنى في الطرف الآخر من العالم العربي ، في السودان ، هو الشيخ حردللو (١٩) ، الذي غنى ايجاد قبيلته الشكرية ، وافراح الحب ومباهج الصيد والقنص .

خلف المسرح
واذا كانت الحركة التي قادت الى بعث
الفولكلور تفترض زعزعة الكثير من أوضاع
التراث ، الجمالي والاجتماعي ، في سبيل اعادة اطلاق حقيقة شعرية مستقلة
عن كلاسيكية الفصحى ، الامر الذي هو في الواقع ، بالنسبة لهذه الشعوب
طريقة جديدة للعناية بنفسها وبكلمة اصح للقبول والرضى بنفسها ، فان
المجهود الذي يبذل لخلق مسرح لا يكون مجرد لعب لفظي يتلمهى به الابداء ،
يشير صعوبات أشد . اذ ان المسرح العربي هو خلق من العدم ، فالترجمون
الكبار للأغريق ، في القديم ؛ في تصارعهم مع نص « فن الشعر » مثلاً ، قد
اختاروا كلمة « هجاء » لنقل كلمة « كوميديا » ، وترجموا كلمة « تراجيديا »
بكلمة « مديح » والمعلقون الذين نشر مؤخراً ترجمة لهم عبد الرحمن بدوي ،
كانوا يرتكبون الخطأ نفسه ، وابن رشد نفسه أجهد نفسه كثيراً في سبيل دعم

.....
١٨) انظر المقال الرائع الذي نشرته نازك الملائكة في مجلة الآداب ، عدد آب ١٩٥٧
ص ١١ وما يلي بعنوان « الشخص الآخر في الاغانى المراقية »

١٩) مبارك ابراهيم ، وعبد المجيد عابدين : « الحردللو ، شاعر البطانة » الخرطوم ،

هذه الالتباسات في معاني الكلمات بالشواهد الكثيرة (٢٠)

وعلينا أن نصل الى أواسط القرن التاسع عشر لنجد في الشرق محاولات مسرحية حقاً . وهنا لا يسعني ان أعفي نفسي من الاشارة الى رائدين مجددين ، في هذا الباب : احدهما لبناني والآخر سوري ، وأولهما في الزمن هو : مارون النقاش ، وقد كان ينتمي الى عائلة من أصل الباني كان لها نصيب كبير في البناء العمراني لمدينة بيروت . وقد أخرج مارون سنة ١٨٤٨ ، تمثيل مسرحية « البخيل » التي كانت والحق يقال ، مستوحاة كثيراً من مولير لا منقولة . وتظل لغتها خليطاً تلتقي فيه اللغة التركية واللهجة العامية اللبنانية واللهجة المصرية !

أما محاولات القباني ، السوري ، فتذهب أبعد في طريق الفن ولكن صاحبنا يصطدم في محاولاته ، بمعارضة المحافظين ، فقد نظموا مواكب تهتف ضده وتقرع أذنيه ، في شوارع دمشق ، وينتهون بفرض منعه من التمثيل مما اضطره للنزوح الى مصر ، وعلينا أن نقفز فترة طويلة من الزمن لنصل الى محاولات شوقي التي هي ، والحق يقال ، أدبية صرف .

وهذا الشاعر ، الذي سموه « امير الشعراء » ، والذي يطلق عليه جانب من النشء الجديد ، بخبث ، بدلا من ذلك ، لقب « شاعر الامراء » ، كان يقيم حينذاك في فرنسا ، حيث كان كثير الاعجاب بتجربتنا المسرحية . ومنذ نهاية القرن الماضي ، هو يضع المشاريع لمسرحيات لن ينشرها الا بعد ١٩٢٧ . وكلها كانت فصيحة رفيعة الاسلوب ، ما عدا واحدة ، هي « الست هدى » التي كانت معدة للاوساط الشعبية في القاهرة .

ولنقفز ، مرة أخرى ، مدى جيل . فان مسرحية « الست هدى » تمثل في

(٢٠) محمد مندور « المسرح الحديث » مجلة « المجلة » المصرية - القاهرة ، يوليو ١٩٥٨ ص ١٦٢ وما يلي .

الكويت ، تحت اشراف رئيس الفرقة ، أحمد حمروش . وقد أضر لان يعتمر عمامة ضخمة ولان يغطي بمثلاته بحجاب يجللهم حتى العنق ، لان بيئة الكويت هذه اكثر تشدداً في قضية التمثيل المسرحي منها بقضية العائدات البتولية . ومهما يكن من أمر ، فإن المسرحية كما رأينا ، لم يطل أمدها . اذ ان ما فرضت نفسها به طويلاً هو الاتجاه نحو الاويريت المضحكة التي هي شيء هو بين المسرحية الهزلية والاغنية . وهذا النوع الفني قد عرف نمواً هائلاً في القاهرة بين ١٩٢٠ - ١٩٢٥ . فلولوصول الى المسرح الحقيقي ، اقتضى الأمر ان يتم ، بطريقة ما ، الالتعام بين التقاليد المقبولة من الجماهير الشعبية ، والانماط الادبية الراقية . وليس بالوسع القول أن هذا المجهود قد حقق حتى الان نجاحاً كاملاً ، باستثناء بعض المحاولات الموفقة .

ومع ذلك فاية حماسة بذلت في هذا المجال ا فمصر قد أنشأت فرقة قومية لا تساوي اكثر ولا أقل من الفرق الاخرى . وهي قد أسست معهداً عالياً للدراسات المسرحية ، وفي سنة ١٩٤٨ ، مسرحاً شعبياً كان ينعم عام ١٩٥٧ بميزانية تبلغ حوالي الخمسين مليوناً (من الفرنكات القديمة) . واقلنت الاقلام الناقدة من عقابها . فتلاحظ ان ٩٥ بالمائة من الاعتمادات تتلعبها الرواتب والاكراميات ، بينما لا تشكل النفقات الخاصة بالتمثيل اكثر من ٥ بالمائة ، وهي تلاحظ أيضاً ، فيما يتعلق بالمواضيع المطروقة ، انه ليس بالوسع ان 'يعد' بين سبعة وثلاثين مسرحية تم تمثيلها ، أكثر من ثمانية مقبولة ، وكلها تدرر بالتناوب حول ثلاثة مواضيع : موضوع الاخذ بالتأثر ، وهو موضوع بدوي مثالي ، وموضوع تحايل النساء ومكرهن ، وموضوع النشاء الجديد وما يلاقبه من مشاكسات وعنت لكبت رغباته وحاجاته ، وليس من مسرحية تخرج عن الدروب المطروقة ، فلماذا عدم التعرض لمواضيع الساعة للعمل الوطني مثلاً ؟

وبالامكان الاعتراض على هذا القول أنه ، منذ زمن طويل ، في أوروبا الأقل ، لا يخلقون مسرحاً طيباً بالعواطف الطيبة ! ومهما كان الأمر ، فإن هناك ازدهاراً لا جدال فيه ، وابداعات متنوعة ا وكل شيء يسهم في التثقيف لخلق الحس المسرحي ، الشعبي الارجوز (او الدمى المتحركة) ، والأوبريت - المسامر وتكليف المسرحيات الكلاسيكية أو المترجمة لجعلها مقبولة من ذوق الجمهور . وحالياً يعمل اكثر من مائة ممثل في المحاولة (٢١)

وبين الافراد الذين يحتلون واجهة المسرح ، والذين كانت محاولاتهم وشخصيتهم ذاتها ، بدت غير معقولة بالنسبة للجيل السابق ، لنذكر علي باكثر . فهو قد ولد في اندونيسيا ، من ام ماليزية ، وأب من حضرموت عاد به الى مسقط رأسه حيث تلقى العلم على يدي شيخ محافظ . ثم يتابع دراسته في الحجاز ، ويصل الى القاهرة عام ١٩٣٣ . ويبدو انه اكتسب في الجامعة ؛ صبغة شكسبيرية قوية فيكتب عدداً كبيراً من المسرحيات التاريخية والخرافية ، والوجدانية والسياسية ، والتي يبدو ان الجانب الكمي يغلب فيها على الجانب الكيفي .

وتبدو المحاولات الاخيرة التي كان مسرح الازبكية اطاراً لها ، اغنى بالدلالات ، وهي عبارة عن مظاهر جد شعبية ، يغطي فيها صوت الممثلين ، احياناً كثيرة ، بالقطعة التي يحدثها تقشير البزورات الجافة . واثناء قضية السويس ، كانوا يصفقون فيها لكل انواع التثليلات الوطنية ، حول دنشواي وحول المقاومة ضد بون-ابرت ، وحول مواضيع أكثر آنية ، مثلما يمكن تخمينه . وقد اعطى يوسف ادريس : « جمهورية فرحات » وملكة القطن . وتجد واقعية القصصي الشاب ، بالطبع ، في الفن المسرحي ، تعبيراً أصبح بصورة راقية ، غنياً بالوعود للمستقبل (٢٢)

(٢١) حسب تحقيقات الصحف

(٢٢) محمد مندور ، « قضايا » * ص ١٤٥

وتنتمي مسرحيات اخرى ، اكثر الى المنجم الادي الذي دشنه احمد شوقي .
وهي تنفتح على محاورات ذات سيرة انسانية اكثر رحابة . ومثل قطع رينان
« الدراما » ، هي تريد لنفسها ان تناولها القراءة اكثر مما يتناولها التمثيل .
وهذه هي حال اكثر مسرحيات توفيق الحكيم . وهي جاءت تثير خلافاً لا
يخلو من مغزى بين طالب شاب واللجنة المؤلفة للنظر في اطروحاته . فعندما
ينتقد توفيق الحكيم الكسل والتواكل باسم القضاء والقدر ، يجيبه الفتي ان ما
يقتضي لومه وتحميله المسؤولية هو البطالة . وعندما يقترح اندفاعاً نحو حياة
اكثر مثالية ، يرد الفتي عليه قائلاً ان الشرق الحديث يحتاج الى العمل اكثر مما
يحتاج الى الروحانية . ويلاحظ محمد مندور ، الذي كان عضواً في اللجنة الفاحصة ،
ان « التوق الى حياة افضل قد غزا شباننا بقوة لا تقهر . وانهم يبعثون ، من
الطرق « الارادية » * ، (والتطوع) عن فن يستطيع ارضاء جوعهم واطاعة
الامل بالمستقبل ، في ابصارهم (٢٣) .»

ويقوم مقال ضخم ، سبق لنا الاشارة اليه ، بقلم محمود امين المعالم ، (وهو
احد المخططين النظريين البارزين لهذا الاتجاه) بالرد على توفيق الحكيم وعلى
تأرجع افكاره في « رحلة الى الغد » ، ويمدح التقنية والآلة القادرتين وحدهما ،
في نهاية المطاف ، على اعادة بناء انسان كامل .

وفي نظرنا ، لا تنحصر الاهمية التاريخية للمعارك التي تثيرها آثار توفيق
الحكيم ، ككل الآثار الكبيرة ، في هذه النزاعات بين الاجيال والمدارس
المتنافسة . ففي ملحق لمسرحية عنوانها « الصفة » هو يعرض نظريته حول لغة
المسرح . وفي هذا البحث ما هو كثير الاهمية بالنسبة لدراستنا . اذ ان المسرح
العربي قد استوقفنا خاصة بصفته انتصاراً (خارجاً عن الدين) على الكلمة .

.....
(٢٣) المصدر السابق نفسه ص ١٣٣ وما يلي

من الكلمة الى اللغة

كانت التقاليد العربية تجهل التعبير

المسرحي ، لانها لم تكن تستطيع التسليم له بلغة ثلاثة . وبالفعل فان كلمة مسرح تعنى وجود جمهور وكلمة جمهور تقترض وجود لغة مفهومة من الجميع . وفي اوربا ، في القرن السادس عشر ، ينضب فن المسرح الرفيع المدبج باللغة اللاتينية ليخلي المكان امام مسرح شعبي سوف يصبح شيئاً فشيئاً مسرح كورنيه Corneille وراسين Racine . وثمة المشكلة ذاتها في الشرق . ولكن حلها أصعب ، بالنظر الى المسافة الضخمة التي تفصل اللغة الفصحى عن اللغة العامية . لذلك يقترح توفيق الحكيم استعمال « لغة ثلاثة »* (٢٤) . وهي تشكل نوعاً من التسوية فتكون قابلة لأن تقرأ وتلفظ على التوالي ، باللغة العامية ، كما يفهمها البوابون (الفراشون) في القاهرة ، وكذلك باللغة المقبولة من حيث قواعد الصرف والنحو : أبة براعة بهلوانية ! انما النقاد ، وهم قوم سريعو التهيج ، يصرون على الكيد لتوفيق الحكيم ، ولا يغفرون له صيغته الموفقة . فينكر احدهم على اللغة الثالثة سهولتها : فهذا الاسبرانتو الجديد لن يستطيع ان يفرض نفسه افضل مما فرض الاول . وناقده ثان يتهمه بتجدي التطور الراهن ، فيقول : ومعلوم ان كل اللغات تولد بالتطور التاريخي وليس باختراع اعتبارطي . ولا شك ان هناك تعاوناً بين المبادرة المتجهة للفصحى والواقع الجماعي . ولكن لغتك الثالثة تضعف ، اكثر من اللازم النصيب العائد للجانب الشعبي . ويقول ناقده ثالث اخيراً ، ان اللغة لا تشتمل فقط على كلمات تحمل كل منها معنى خاصاً بها ، عندما يؤخذ على حدة ، ولكن ايضاً على عمليات تداعي ، وعلى كنايات وتلميحات مجازية ، وايماءات واستعارات تختزنها الالفاظ . وعمليات الاختزان هذه ، يغذيها الماضي وحده . ووحده ، هو يثبت فيها قيماً روحية وجمالية . انك لن تنتج الا مسخاً اصطناعياً لا يشتمل الا على الهيكل العظمي . ان لغتك الثالثة

(٢٤) المصدر نفسه ، ص ١٣٣ وما يلي

لن تكون لا أدبية حقاً ، ولا محكية حقاً .

ويمكن توجيه الانتقادات للكثير من المحاولات الموازية ، بصورة غريبة ،
لهذه المحاولة ، في الشرق : لمحاولة انيس فريجه (٢٥) ، مثلاً ، فهو ايضاً يقترح
تعميم لغة تستطيع ان تكون لغة الناس المتوسطين ، وتقف على منتصف الطريق
بين الفصحى والعامية . ومحاولة اخرى قام بها عبد العزيز الاهراني (٢٦) ، وهو
احد خصوم الفصحى الأشد جرأة . وفي الوقت ذاته احد الدارسين المصريين
الاطول باعاً ، والأكثر رسوخاً في التبصر العلمي . وكثير من المحاولات الاخرى
ايضاً تثير الفضيحة ، من وقت لآخر ، وفي الأعم ، يعترف انصار الفصحى
بالرابطة المناقضة للمنطق الظاهر التي تجعل من تاريخ العرب الحديث ، في الوقت
نفسه ، النتيجة والمناسبة والسبب لبعث « العربية »* . وهم يلمحون ايضاً الاصعدة
الخلقية الدينية التي تضمنها ، طالما ان القرآن باقٍ ، كالنموذج الاعلى للكلام
الرفيع ، وهم ، اخيراً ، يفضحون ، عن حق ، ولكن دون مغالاة ، مساويء
تقليد الغرب الذي يدفع نحو الازدواجية والالتباس في اللغة ، ان لم يكن نحو
محو الشخصية . وبهذا القدر ، هم لا يستطيعون تجاهل العلمانية المتزايدة المفاهيم
الاكثر اتساماً بالسحر والمهابة ، مفهوم الوطن ، ومفهوم الامة مثلاً . ومن
جانب آخر ، هم يظهرون حماسة كبيرة لتعريب كل ما امكن من مجموعات
المفردات والابحاث الكامنة في العلم الاجنبي . فوقفهم لا يعيبه اذن التقصير (٢٧) .
ولكن ينقصه حتى الآن لوحة شاملة عن تفسير تاريخي بلقي الضوء على ضرورات
هي احياناً متنافسة .

وعلى عاتق اللغة القى الجانب الرئيسي من مهام التعبير والتحرير التي يفرضها

(٢٥) انيس فريجه : نحو عربية متيسرة .

(٢٦) مجلة « الآداب » ، نيسان ١٩٥٦ ، ص ٢٠ وما يلي .

(٢٧) الامر الذي لا يسع المرء ان يتحاشى التفكير فيه لدى دراسات صدرت مؤخراً ،

مثل دراسات امين الخولي وامين نخله الخ ..

مجتمع ، في حالة الصيرورة ، على نفسه او التي تُفرض عليه .
اما الانواع الاخرى فتبقى دون هذه الرسالة الجبارة . فالفنون التشكيلية ،
في الشرق كما في المناطق الاخرى ، تتطلب تحقيقاً جسدياً ، لانها تدخل في
المتحف الخيالي دون ان تخرج من عالم الاشياء فتقدمها قد تأثر ، عند العزب ،
بالتأخيرات المادية . وهو مرتين بالتأثيرات الخارجية اكثر مما ينبغي حتى لا
يبقى سطحياً من عدة وجوه . وعلى العكس ، فان الموسيقى تغرق في حالة من
الحمية تجعل منها ، في هذه الايام ، في الشرق العربي ، نوعاً من الباكيات
النادبات على التحول الاجتماعي ، كما سنرى في فصل لاحق . وفي احدي الحالتين
مثلاً في الاخرى ، يلزم مبلغ الاداء والدلالة والتقنيات الكفيلة بتحسينها أن
يتعلم الكثير من الغرب ، الامر الذي يهدد امكانية ادراك الروح العصرية مع
المحافظة على الاصاله .

اما الكلمة ، بمراجعتها فوق الحسية ، وبقيها المشاعة بين افراد الجماعة بأوسع
معانيها ، وبعينها الذي لا ينضب من المفردات وبمرونتها التعبيرية ، فقد كانت ،
على العكس ، قادرة على الاضطلاع بهذه المهام كاملة . وقد سبق لمنطق علم النحو
الصارم ، المتشدد ، الذي تركز عليه ، والذي يتميز بتشبعه بالعقلانية ، ان
وضعها في حالة استعداد لنضالات العصر الحديث ، والدنيا الجديدة . وفيما كانت
مسلحة ، في الماضي ، بكل القدرات على البيان والتبيين ، هي لم تكن ، بالمقابل ،
تجرد من الطاقات الغنائية والنغمية . والمعارك الاستقلالية لم تؤد هذه القدرات
والطاقات إلا نمواً . فكان ان اضحت اللغة العربية مهيأة لمواجهة كل الظروف :
تنافس الثقافات العالمية ، لطاقات المساومة السياسية او الحركة الملهبة للحماسة في
المعارضة السياسية . لقد اصبحت اللغة العربية الوجدان الخطابي للشرق .

التخاطب الجماعي
ولكن لاجل ذلك ، لزمها ان
تعدد ليس فقط الاسلوب ، ولكن

الأداة ، وليس فقط المعدات ولكن الذهن والفكر ، وقد تكثرت بفضل الصحافة ، والاذاعة ، والاتصالات المستمرة التكرار بين عرب ذوي لهجات مختلفة ، هذه اللغة العربية التي تسمى العربية والحديثة ، والتي أورد تسميتها العربية الوسطى ، أي وسيطة بين الشعوب ، ووسيطه بين الأدب والحياة . وهذه الوساطة تتضمن خطر فشلها ، وهذه القدرة تتطلب ضريبتها . والرأي العام لم يقبل ، دون مقاومة ، تغييرات جذرية إلى هذا الحد . وهو ، بهذا الموقف ، يبدو كثير الجحود لأنه ، في سبيل خدمته ، تحولت الكلمة إلى كلام ، إلى لغة تخاطب . ولكنه كان حصيفاً جداً كذلك لأنه يحدث ، على هذا الشكل ، انقلاباً في الوظائف والقيم ، لم يسع مجموعة الأهلين إلا أن تشك ، بصورة غريزية ، بقدرتها على أن تظل بمنجى عنه .

وتدخل الصحافة العربية في هذا الحوار الدقيق بين الفعالية والاصالة ، الذي يختصر به كل تاريخ العرب المعاصر . وقد كنت أشير أعلاه ، إلى الهوة الأخاذة التي تفصل ، في تطوراتها الأولى ، بين العمل المعجمي والعمل الروائي ، بين الإعلام (الإنباء) والتعبير . وحتى اليوم ، تعني الصحيفة اليومية العربية أكثر مما لا يجد ، بشؤون العالم الفسيح أكثر مما تعني بالأخبار الداخلية . وعدم التناسب هذا يتفجر حتى على سطح المجالات المخصصة للواحد أو الآخر من مصادر الإنباء^(٢٨) . ولكن في هذه العناية الحافلة بالاهواء ، كما لو بفكرة ثابتة ، التي تركزها على الآخرين ، تكن الملامح الكبرى لتوجيه هذه الصحافة نحو الداخل ، وربما تكن الضمانة لانضباط سيرها الرظيفي . والدور

(٢٨) الأمر يتعلق هنا بالصحف اليومية فقط . أما فيما يتعلق بالمجلات الأسبوعية اللواتي تستعير دراستنا الكثير من بعضها ، فالنسبة تنعكس . فالكثير من هذه المجلات كان نوعاً من الفرائب التاريخية والاجتماعية التي تهتم قبل كل شيء بالأخبار المحلية . وهذا الاتجاه يتجلى في مجلات دار الهلال التي تصدر في مصر منذ ١٩٢٥ ، فلماذا هذا الاختلاف في التوجيه المرتبط بالاختلاف في الوثيرة ؟ هذا هو موضوع دراسة في المستقبل

الرئيسي الذي لعبته منذ نصف قرن او منذ ثلاثة ارباع القرن ، والذي تلعبه بقوة متزايدة ، مع الايام ، يقوم على محاولتها امتلاك العالم وتفسيره للعرب . وبهذه الطريقة هي تضطلع ، لاجلهم ، وعلى طريقتهم ، بمهمة الإعلام هذه التي كانت تقنية الغرب المتعسفة ، وحدها ، تستطيع ان تقترحها على العرب ، مندجة في نزعة انسانية من طراز جديد (٢٩) .

ولهذا السبب ، يجري الاتصال ، في الوقت الحاضر ، بواسطة الصحيفة والميكروفون اكثر مما يجري بواسطة الادب ومفهوم لإجماع « الامة » القديم يمكن التعرف عليه ، اليوم ، في الاعلان ، والتصريح ، والخطاب ، والمقالة ، اكثر مما في القصيدة او الرواية . ومع الوظيفة ، ترتبط الأبهة ومهابة النفوذ بالصحافة والراديو . فهما يثيران الشعور بانها المنافسان للقيم والوسائل القديمة . وعندما بدأت الوسائل العصرية للانباء تعم ، فكانت مرحلة المطبعة ؛ ثم مرحلة الصحيفة ثم مرحلة الميكروفون ، اظهر الكثيرون من المحافظين نفورهم من فكرة التسليم بقدرة هذه الوسائل على نقل النصوص المقدسة ، واذاعتها ، فهم كانوا يتصرفون هكذا ليس خوفاً من ظهور الجديد فحسب ، ولكن ايضاً انسياقاً مع غريزة لا تخطيء تتحسس حدوث نوع من انتهاك شيء مقدس . فاللغة ، وعملية تأجيج الحماسة في المجموعة الانسانية التي تدبرها والتي تساندها ، قد بدأت ، بالفعل بتغيير وظيفتهما ومعناهما . فعلى الاقل كان لهؤلاء الرجعيين فضل اشتتام هذه التغييرات .

واليوم قد بعد الزمن عن الفترة التي كان بالوسع ان ترتفع فيها مناقشات

(٢٩) لعبت الصحافة العربية هذا الدور الضخم القائم على تأمين الموازنة ، ان صح القول ، والذي يقترحه ج . سيموندون J. Simondon . على وظيفة الاعلام ، بصفتها مرممة الجانب الانساني بعد التمزقات والانحرافات التي يجدها التوسع الآلي « حول طريقة وجود الاشياء التقنية » ١٩٥٨ ص ١١٩ وما يلي .

من هذا النوع دون خطر وقوعها في جو من السخف او البشاعة . وقد بُعد الزمن ايضاً عن الوقت الذي كان فيه العلم المتعالي ، والذي كان يضمن بالكلمات فلا يرسلها إلا بالتقدير ، يعلق على النصوص المقدسة بجمل شحيحة ، ولا يتجاوز في خطبة الجمعة ، حدود المواظ الضيقة ، والمكتوبة مرة في العمر ، ولكل المناسبات . فالخطيب السياسي والصحفي ، يستطيعان ، افضل من الكاتب ، بما يملكانه من فيض مدهش من الكلمات ، ومن قدرة هائلة على التضخيم ، ان يجر كل ما تبقى عند الشعب من قابلية للاجماع . وكل زعيم كبير يعرف كيف يمزج روح التكافل والتضامن عند « الامة »^(٣٠) . ويخفي سلطانه شيئاً من مهابة الامامة . لهذا هو يشارك ، من بعض الوجوه ، في ازدواجية الحرمات المقدسة . وسيد الكلمة ، هذا يستطيع ان يغدو خيراً طوراً ، وبلياً طوراً آخر .

وفي الحالة الثانية ، تتحول الهتافات والتصفيق الى لعنات . والمعلق الصحفي يشارك هو ايضاً في هذه الازدواجية ولكن بصورة أدنى ، ولصق الجماهير ، ان صح القول . فهو رائع بالنسبة للبعض وبالنسبة للآخرين شيطان رجيم . فسحر افتتاحيته الجارف ، ولذعة تعليقاته الماكرة يبدوان بالنسبة لأهل الضفة الاخرى ، ضرباً من المكيا فيلية والديماغوجيا . وكما من هؤلاء الصحفيين لا يستحقون لقب « التائه » * الذي اطلقه احدهم على نفسه ، بكل معاني هذه الكلمة . فهذا الافراط في تلقي آيات التكريم او التشتم لا يعني ان الصحفي الشرقي يملك ؛ حتماً ، من العيوب او المواهب اكثر مما يملك زميله الغربي . انما هو يعكس ما يتعلق من قيم بارزة على ممارسة اهل مجتمعه للغة التخاطب . وهو ينعم بكل حسنات هذا الموقف مثلما يتحمل كل أذاه . ولهذا السبب تتصف اكثر الاحيان ، المحاورات بين رجال المنابر ، وحتى بين اصحاب الاقلام الصحفية ، في الشرق في الوقت الحاضر ، بالحرارة والحدة اللتين تتصف بهما الحروب الدينية ، انما معارك الدلالات ، وحملةها ، خدماً كانوا او منتفعين .

٣٠ رينان ، تاريخ اللغات السامية

وهذه الازدواجية الالتهابية ، وهذه الحرارة ، وهذه التعريفات الملقاة في البداية على استعمال وسائل جديدة لانها تضاعف قدرة الكلمة وطاقاتها ، على نطاق الجماهير وبأصدائها تظهر سلطانها الفذ . واذا كان علماء دين ، قد داخلتهم الخشية ، دون ان يقرروا بذلك ، من ان ينبعث من الراديو نوع من السحر المضاد لسحر الدين الاسلامي ، فلأن اطلاق الانفعال الكامل ، الانفعال الجماعي كان يحتفظ دائماً ، في نظرهم ، بنصيب من الصفة الدينية . ولهذا السبب ، لا تزال اجراءات التعرف ، والعثور من جديد ، وتلك التي تخلق نوعاً من التوافق السيمفوني بين كل الاجزاء المؤلفة ، اقوى كثيراً ، واكثر تضيقاً ، في مجتمعات من هذا النوع ، مما هي في مجتمعاتنا . وهكذا نجد التفسير لكون « الحشمة » * تحتفظ ، في هذه المجتمعات ، بهذا القدر من القيم . أكيد ان الاقوال حول البعث والتجديد تضمر ، في هذه المجتمعات ، قدرة غريبة على اذكاء لب الحاشية وعلى التأليف وجمع الصفوف . ولكن هي نفسها عليها ان ترضي احتراماً انسانياً يلائم النفاق الاخلاقي . وكالاتباعية لحرفية النصوص ، « والتقاليد » * عند المصلحين الدينيين ، يقيم الاحترام لعمليات تواطؤ وكتان ماذجة عراقيل ابدأ متجددة في وجه الجرأة السياسية . والمتفقون العرب يعلمون ذلك جيداً .

الواقعية والرمزية ولا تزال ضرورات استفتائية

تشوب نمو التجديد . وهذا هو الحال في الفنون مثلها في الاقتصاد ، وفي اللغة كما في الاخلاق . ذلك ان التمرس العملي لا يطابق دائماً دلالة المعنى . ففي مجال القول ، ينتهي ما يتعلق بالتبادل النغمي ، والذي تكبر الضرورة اليه ، في الحين الذي تبرز شرعيته ، بمقدار ما تستعيد هذه المجتمعات حياة زمنية في العالم الحديث ، ينتهي بان يتجاوزها ، ويغلب عليه وأحياناً يعاكسه ما يتعلق بالاشارات الدينية اولاً ، والاجتماعية من ثم ، التي يتطلبها أهل المجتمع ليتعرفوا على ذاتهم . ومن

هنا كان نزاع بين الإعلام والتعبير والدلالة يمكننا تتبع نتائجه في تطور الاسلوب العربي وفي التقسيم الوظيفي الذي يحدث شيئاً فشيئاً بين الانواع الفكرية . ومن هنا ايضاً يتأتى ان الادب الحديث ، بقدرته على التعبير عن خلجات الفعالية الجديدة ، وحتى بتسلحه بتقنيات تعبيرية اكثر لطافة ودقة ، بفضل نماذجه الاجنبية ، يلقي قبولاً من القراء أقل بكثير من الادب القديم الذي كان يعبر بصورة أقل ، ويحفل اكثر بالدلالات .

وفي الشعر خاصة ، ظلت النخبة مثلما ظلت عامة القراء وفيه « للمنارات » الكبيرة ، رغم ان تطور المجتمع والمواطف يكذبها (ينكرها) بصورة اعمق يوماً بعد يوم . فطه حسين ينكر على الواقعيين الشبان دوسهم لقواعد « اللغة » * كما ينكر العقاد على الرمزيين قطعهم الروابط مع عبقرية اللغة . وفي الوقت ذاته ، تعم وتوسع ، بواسطة الاذاعات ، والصحافة ، والتعليم ، هذه اللغة العربية الوسطى ، التي لا تزال فصيحة بينائها النحوي والصرفي ، وبالفعالية في مفرداتها . ولكنها تبعد شيئاً فشيئاً عن الفصحى بذهنتها . لانها فقدت هذه المقامات المتناغمة داخل الفن الديني التي كانت تجعل منها صوت عالم كلي . لانها تبتعد عن الرسالة التوحيدية ، وهذا هو ، بالفعل ، المعنى الذي كان يعطيه الصوفيون للفظ « القرآن » بعكس لفظ « الفرقان » .

أکید ان اللغة العربية لا تزال تحتفظ بهذه القدرات ، ونحن هنا نردد ما قلناه سابقاً ، بمقدار ما تبقى امينة للنموذج الأعلى الموحى به . ولكن تبداً هائلاً قد تحقق داخلها . والوحدة التي تبشر بها لم تعد غيبية ، ميتافيزيقية . فهي تستشهد شيئاً فشيئاً بالتمرس الانسيكلوبيدي في العالم وبنضالات الانسان في هذا العصر .

لا شيء يمثل على هذا التطور افضل من مجهودين ادبيين معاصرين ، يحمل كل منهما ثقلاً احصائياً واهمية جمالية ومعنى سياسياً يختلف عما يحمله الآخر ،

ولكنهما ظلا على جانبي الخط الواحد .

فالمدرسة الواقعية قد اعطت ، في السنوات الاخيرة ، في مصر ، روايتي الشرقاوي القويتين ، وقصص يوسف ادريس ، الذي سبق لي ذكره ، وقصص احمد رشدي صالح ، واضع نظرية الفولكلور . وسوف اؤكد الآن على كاتب عمالي أصيل ، هو محمد صدقي . فهو قد ولد في دمنهور ، من عائلة فقيرة . وقد طرد من المدرسة الابتدائية ، لانه لا يستطيع ان يدفع رسوم دراسته . فيتابع الحضور ، مدة من الزمن ، في معهد ديني ، كان يتركه كل بعد ظهر ليكسب عيشه بقوة يديه . وها هو ، اثناء الحرب ، عامل زراعي وطيلة سنين ، هو يقوم بري الحقول ، وبنقل الزبل (أروث الحيوانات) وبطاردة دودة القطن . ثم يتصل بكل المهن : النجارة ، والنسيج ، ولحم المعادن ، وصنع القناديل المعدنية ، ومع ذلك ، فهو يناضل كقنابي .

واخيراً هو يشعر بالحاجة للتعبير عن حياة يغزوها الجانب الشجي³ من عصرنا : قسوة العمل ، والآمال المرتكزة على النضال ، وهذه اللفحات من العذوبة التي تأخذ بتلابيب نفسك احياناً بفعل الصداقة الانسانية او بتأثير الجمال النسائي . هذا هو الجو الذي تؤكده مجموعتان قصصيتان : « الانفار » * « والأيدي الحثثة » ويروي عامل عجوز متاعبه لجاره في الاوتوبيس : فان ابنه ، الموظف الصغير ، ينجل من مهنة والده . وعامل في احد المصانع التعدينية يضطر ، كي يدفع لابنته ثمن فستان جميل على طراز « كلوش » ، (أي بشكل الجرس المقلوب) وقد انتقلت اللفظة الفرنسية الى العربية ، يضطر لأن يلعب بقتدومه وهو يطرق انبوباً معدنياً ، بعنف يفوق الحد اللازم ، فيصاب بتمزق في أحد عضلاته ويبقى مقعداً منذ ذلك الحين : وانه لدرس عميق بالنسبة للرفاق . ويعود طالب من المدينة الى الريف ، فتضمه امه الى جسدها الذي تغطيه ملاءة سوداء ، فيشم رائحة امه الفلاحة . ثم تدفع اليه بطبلة واطئة تضع عليها طبق الملوخية

وارغفة الخبز المستديرة . واكن لماذا تبدو هذه الأرغفة بألوان مختلفة ؟ وفوق هذا وأين والده ؟ فلا يجيبه غير صمت محير . وبدأ المثقف الفتى بمحذس الحقيقة الرهيبة . فلقد عاد الوالد أخيراً . وألقى على الأرض بكيس حقير أخرج منه الأرغفة التي ذهب يستجديها . ويتصور الابن ، وهو يشرق بالنعيب ، يدي والده الحشتين يدي الفلاح الأمينتين ، وهما ممدودتان في طلب الخبز .

هذه الصور المزلزلة لا تتلاءم بالطبع مع أسلوب الفصحى ولا مع مفرداتها . ففي كل جنبات الحوار ، تتسلل اللغة العامية . ويجد الكتاب الذين بلغوا الشهرة في هذه الظاهرة الأسباب لتقريع هؤلاء الناشئين . وبصورة غريبة ، يستهل كتاب « في الثقافة المصرية » وهو مجموعة . صدرت عام ١٩٥٥ في مقدمته ، بنقد لطفه حسين الذي يتكرر على المدرسة الفتية أخطاءها النحوية وينتهي بمقال لمحمود أمين العالم ، هو نداء حرب بقدر ما هو مرافعة دفاعية . والمدرسة الواقعية المصرية تنبذ كل فن تجرده الاثنية من المهوم الاجتماعية . وهذا الموقف جاء كرد فعل ضد كل ما سبقها ، وانسياقاً مع تيار التأثر خاصة بدروس زولا وموباسان وتشيكوف . وقد حدث شيء غريب جداً : فان الحس بالراهن ، والضغط الاثامي من قبل الاشياء - قوة جاذبية المطرقة (٣١) ، وبؤس الفلاح ، وحنين الحرفي - يغزوان البرج العاجي الذي سجت الكاتب فيه التقاليد الأدبية وسلطان الفصحى وسحرها . « لقد اختلط الجوهر بالشيء » وبالطبع ، هذا النوع من الانتهاك للحرمان يشكل عملاً ثورياً . فهو يدعو الى مواقف تشبه مواقف تحطيم الاصنام ، هؤلاء المؤلفين الشبان الذين هم ايضاً مناضلون سياسيون

(٣١) وهنا يبدأ بالتدخل ، لأول مرة دون شك ، في التعبير الأدبي العربي هذا النوع من العواطف والانفعالات الذي يصنعه ج . باشلاز J. Bachelard . في كتابه « الأرض واحلام الارادة » .

اكثر الاحيان ، واحيانا هم لا يتجاوزون الثلاثين من عمرهم . ومنهم مثل رجاء النقاش « الذي عاش كما نعيش جميعنا ، موزعاً بين القرية والمدينة ، بين الثقافة والطبيعة ، بين الحلم والتجربة ، بين الاندفاع والعمل » . وطبعاً هو يختار الطرف الثاني من هذه المقولات المتعاكسة (الانتيتاز) : ولو اختار العكس لكان عجبنا اكثر ، بالنظر الى عمره ، وبلاده ، وزمنه .

واختيار « الرمزيين » هو ، مع ذلك ، شيء آخر تماماً . ولكنه يتحدر من رد فعلٍ من قوة مماثلة ، ضد النظم الشعري والشعر القصصي الذي كان رائجاً لدى الجيل السابق (٣٢) . وقد ظهرت ، في مصر ، المدرسة الشعرية التي دعيت باسم مدرسة « ابولو » ، على اسم المجلة الرئيسية التي كانت تنطق باسمها . وقد جاءت هذه المدرسة تحاول ان تحل محل شعر « الندوات » والصالونات الادبية ، الذي كان يطفئ حوالي اعوام ١٩٢٠ ، والذي كانت تغلب عليه البلاغية ، والمدائح واشعار المناسبات . وقد مجدت مدرسة « ابولو » الذاتية العاطفية المستوحاة من « الوجدان » * والتي يدينها اليوم الواقعيون بسبب ابتعادها عن الواقع ، مثلما ينكرها جماليو الطبيعة الجديدة بسبب قلة عمقها وسطحياتها . وهؤلاء الشعراء المشبعون في اكثريتهم بالثقافة العلمية ، وبالثقافة الفرنسية العميقة ، قد انجسوا نحو سيمياء الكلمة التي تلتقي فيها ، حسب الحالات ، رسالة بودلير منع رسالة ريمبو والسرياليين ، او ايضاً نهج ملامرمة مع افكار فاليري . وليس هنا مجال اظهار الى أي حد ، يبتعد هذا الفن ، تحت ريشة شاعر مثل نزار قباني ، عن التقاليد الكلاسيكية . فهو ينبد الازان والقوافي ، وينقل موضع النبوة من الاصل المؤلف الى اللامألوف ومن الرعشة المطبوعة على الجذور الدائمة

(٣٢) انظر سرداً تاريخياً لهذه الحركة ، جديراً بالناية في كتاب محمد مندور « فضايا جديدة » ص ٧٨ وما يلي .

هو يحاول ان يلقي جسراً بين لذة اللحظة ، « ان كل لحظة هي عروستنا ، هي امرأتنا » ، والتاريخ (٣٦). والأمر الذي لا يخلو من مغزى ومن غرابة ، هو ان هذا الساحر الكامل في الآداب العربية ، هذا المفكر والاديب المتبحر الضليع ، هذا الرائد لثورة الجمال ، يوصي باستعمال اللغة العامية . وبالرغم من أنه يذهب ، بدعوته هذه ، الى نقيض ما يذهب اليه عالم موثوق في فقه اللغة ، مثل بشر فارس ، فهو يتحالف معه في مؤامرة واحدة .

وينضم اليها في هذه المحاولة التونسي مسعدي الذي يعبر بلغة راقية ، في مسرحيته « السد » ، التي نتبين فيها ملامح «ابسن» ، عن رسالة الروح العصرية الثورية التي لا يزال الشرق يتردد في التعرف على ذاته فيها (٣٧)

المقدس واللامقدس في اللغة والمؤامرة التي تواطأ فيها هؤلاء

المؤلفون هي في مطالبتهم اللغة ، ان

تحمل قيمة الرمز ، بصورة صريحة ، بينما هي كانت رمزية من نفسها ، منذ نشأتها حيث كانت مرتبطة بالحق الالهي حتى ايامنا هذه حيث تلعب دور التأليف الاجتماعي .

أكيد انها مجرد شيئاً فشيئاً حالة الشيوخ الاصلية التي كان كلام الله يتوحد فيها مع مصير الانسان ومع سلوكه المألوف . وقد شرعت في وصف الطبيعة ، بالثر وبالشعر ، بالقدور نفسه الذي بدأت تنفصل فيه عنها ، متبعة بذلك الطريق الذي اتخذته الآداب الغربية في العصر الصناعي ، وهي توسع دورها ، كمعرضة

(٣٦) سعيد عقل .

(٣٧) رغم ان طه حسين قد حيا القيمة الكامنة في هذا الامر ، وبصفته مغريباً ، تأثر محمد مسعدي بهزات جذرية اكثر ، اصابت عبرية أرض ذات قوى هي اكثر تأججاً بالحياة . والا لا اذكر هنا آثاره إلا لانها واحدة من مجموعة الآثار النادرة التي تندرج في نطاق رهزية عربية حقيقية ، وهي ، مع ذلك تمكس ، طرقاً ومناهج تختلف عن تلك التي احلها في هذا الكتاب .

ومكيفة ، هذا الدور الذي جعلها تتلقى في مجموعة مفرداتها ، وفي جهايتها ، وفي ذهنها مزيداً كل يوم متنامياً من التأثيرات الاجنبية . وفي الوقت ذاته ، عرضت نفسها كأداة لاحداث التأثير على الخارج وللعمل ضد الخارج ، وكوسيلة لصنع التاريخ الاسلامي او لاعادة صنعه . وقد سلحتها الصحافة والاذاعات ، وأدب محاورات بكامله ، بسلطات الفصاحة الخفيفة-الفعالية في المعركة السياسية . ولم يتم ذلك ، دون ان تُشرك بواسطة اللغة قدرة نغمية قديمة وسحر كامن في تراث ماضٍ كبير ، وان تظل مشاركة في مبارزات اصبحت شيئاً فشيئاً بعيدة عن القضايا الدينية . ولكن هذه المبارزات تتطلب تطابقاً مضبوطاً بين الكلمة والشئ ، اللذين اصبحا منذ الآن ، منفصلين عن بعضهما .

ونرى العرب يقومون ، في آن واحد ، باستنكار « البلاغية اللفظية » وبمحاولة اغناء معاجمهم بضم المعانم التقنية ، في نظرم ، التي حملها الغرب اليهم . والتعالف المميز لهذه النزاعات التي كانت تقوم بين سلطان الكلمة والفعل الراهن ، هو بدوره موضع اعادة نظر واستنكار . فنحو اللغات العامية ونحو الآداب الشعبية تتجه انواع تتجرد شيئاً فشيئاً من خجلها وخفرتها . فالرواية ، والمسرح يحملان ثورة في وظيفة الادب ، هي ذاتها ، طبعاً ، مرتبطة بثورة في النفوس ، اكثر مما يحملان تجديداً في الانواع الادبية القديمة . وان محاولات حقيقية للبحث عن اساليب جديدة تخرج للضوء وهي ، بالرغم من اعلان ذاتها قريبة من كلاسيكية الفصحى ، تبعد عن انجاه الفصحى الحقيقي اذ ان كل محاولات سببها اللفظة ، ذات الالهام الرمزي ، او الشكلي الصرف لا تشكل غير واقعية مولعة باللغة العامية واعتداء على القيم المتلقاة .

واللغة تضطلع شيئاً فشيئاً بدور الإعلام والتبادل العملي . انها تريد ان تقصر نفسها على تقديم آيات واسارات يكفل حيادها ملاءمتها المضبوطة وتوافقها الحقيقي مع الشئ الراهن والاضطلاع بهذا الدور التطويري ، كما يضطلع به

الاشتراكيون المصريون بتبجح كبير ، او القيام بعمل مضاد عكس هذا التطور ،
بمحاولة تزويد اللغة الكلامية بامكانيات وقوى ايجائية جديدة ، مثلما يعمل
الرمزيون - يتضمنان ، في الحالين ، اعترافاً بان لغة الكلام معدة لان تفقد
هذه الامكانيات ، وبذلك تندرج هاتان المحاولتان الادبيتان مع توسع الصحافة ،
والابحاث التكنولوجية ، وحملات الترجمة ، بين العلامات ، التي هي عوامل ونتائج
في آن واحد ، لعلمنة متزايدة .

ومع ذلك ، يلزم وقت طويل لكي يصبح تطور من هذا النوع ناجزاً ،
ويلزم ، هنا ، التمييز بين الاقاليم الجغرافية والبيكولوجية ، بين الافراد
والجماعات ، مثلما حرصنا على تمييزها في كل جنبات هذا الكتاب . فكل الشرق
يضطرب في حرب استعادة سياسية وفي جهد لتجهيز المادي والفكري ، وفي
ارادة للتكيف طيبة للغرب ومعادية له ، في آن واحد . وهذا الامر لا يسعه
ان يتحقق دون احداث تباينات بين شعوب متفاوتة التطور ، وفي داخل الشعب
ذاته ، بين طبقات اجتماعية ، وبين اشخاص . وحتى بين حالات نفسية مختلفة
عند الفرد ذاته . وان امكانية ادراك وثيرة عامة تزداد صعوبة ، بصرف النظر
عن هذه التنوعات والتباينات ، بقدر ما تتعقد الحركة وتتضاعف بردات
غريبة ، وبمركات مقابلة عجيبة .

فالشرق ، ولفنته ، ينتقلان ، في الفترة المعاصرة ، من الطابع المقدس الى
الجو التاريخي : ولا شك في تطور من هذا النوع . ولكن بعد ان سار الشرق
شوطاً كافياً على طريق الانعتاق ، أعني على طريق تحقيق وتأكيد الذات ضد
الخارج ، بواسطة الخارج ، وفي نطاق الخارج ، هو يشعر بالحاجة ليعيد بناء
نفسه من الداخل . انه بدأ يخشى ان يكون قد اضاع اصلته ، في محاولته
الافلات من استرقاق الذات . وهو يطلب ، من اللغة ايضاً ان تعيد وصل
الاستمرار مع ذاته ، مثلما عهد اليها بالدور الاول في التكيف مع الآخرين .

ولهذا السبب يسبق القول ، في التاريخ الحاضر للعرب ، كل أشكال التّعبيير
الآخري وكل فئات السلوك . وهذا السبق يخلق وضعاً مناقضاً للمنطق الظاهر .
فاللغة تعتزم البقاء وفيه لرسالتها القديمة ، في الوقت ذاته الذي تضطلع فيه بجهد
جبار لادخال الروح العصرية . وبمقدار ما تدرك هذه الغاية ، تبقى هذه المجتمعات
في دائرة لم يقتحمها بعد نمو الغزو الاجتماعي المندفِع من المركز وازدياد
الموضوعية في النقد .

وهكذا بدأ العرب بانتهاك حرمة رموزهم . ولكنهم يحسون عملية الانتهاك
هذه وراء رموز جديدة . ومن هذه الرموز تبقى اللغة أزخرها بالحياة . انهم
يطلبون من لغتهم ان تكون سيطرة على العالم وأداة لسحر نفوسهم ، أي ان
تكون في الوقت الواحد تمرساً عملياً وهرباً من الواقع العملي .

الفصل الحادي عشر

زُخْرَفٌ عَرَبِيٌّ ، وَمُوسِيْقِيٌّ وَوَلَعٌ بِالتَّارِيخِ

كانت واجهات الخرطوم ، في هذا الصيف تحمل صوراً ناطقة تمثل : ثوراً ومجرفة تدلُّ على هذا أو ذاك من المرشحين للانتخابات : وهكذا كانت الرمزية تشارك في اللعبة البرلمانية . وبعيداً عن هذا الحاضر السياسي كانت أكداس من الحجارة تعلوها عيدان من القصب وخرق ملوثة ، تقوم بمثابة « بيانات » ، تعطي الاشارات بالتجلي الالهي ، بعيد الظهور . وعلى الجانب الآخر من النيل ، حلَّت قبة المهدي ، المطلية بلون رصاصي مربع ، في تاريخ قريب ، محل القبة التي دمرها كيتشنر . فالقاتح (البريطاني) كان بالطبع بدير ، لصالحه لعبة مظاهر التفاوت التقنية التي كان ينعم بها بالنسبة للدراويش . ومع ذلك فهو كان يستخدم أيضاً السلاح البسيكولوجي ، وكان يسعى لان يحدد لنفسه موضع الصعيد الديني السحري الذي كان الخصم يتحرك في نطاقه . ونزولاً عند نصيحة أحد السودانيين الخائنين لقومهم ، على ما يبدو ، قسام بنسف الضريح بالمدافع ، فاستولى على أهالي أم درمان نوع من الذعر المقدس الذي لا يزال يذكره الشيوخ . ومنذ ذلك الحين ، حولت الساحة المربعة الفسيحة التي تحيط به الى ملعب . فكانوا

يلعبون في الموضوع ذاته الذي كان المهدي الكبير يجمع حوله ، تحت سقفة خفيفة من أوراق الشجر جماهير المصلين والتابعين . ولكن جاذبية خاصة لا تزال تتحصل بهذا الموضوع الذي لعبت فيه الأقدار ، لقد تدهورت العمليات الرياضية فيه . وهم يفكرون اليوم باقامة مقام فيه .

وفي هذا الجو ، البالغ الافريقية ، من العنف والايان يتابع مثقف كبير ، وجامع مخطوطات نادرة ، هو الدكتور تيجاني^(١) تجاربه . فهو يعلق ، عن صواب أهمية كبيرة على هذه الطرق العلاجية القائمة على عادات الرقص والغناء ، والتي تسمى « الزار » في كل وادي النيل . وهو يرى فيها نوعاً بربرياً من الدراما النفسية . والنزاعات بين العبادات التقليدية والعبادة السنية « الارثوذكسية » ، بين الاتجاه الوطني السوداني والقوى الاجنبية تمنح الحالات التي يعالجها مراجع تاريخية محددة . وهو يفتش عن مراجع أخرى أكثر غمطية ، في تجربة الأحلام وحتى في الاستعارات والامثال القرآنية . وقد سبق لابن سيرين ، لسبعة قرون خلت ، ان أظهر الروابط الغريبة بين الاحلام والرؤى ، والدين وحكمة الشرق القديمة^(٢) .

وللدكتور تيجاني الفضل في أنه حاول مواجهة هذه الدراسة القديمة مع المعطيات الحديثة لعلم العلاج (الاقرباذين) ومحاولته هي ، ولا شك ، واحدة من الاكثر تقدماً ونفاذاً ، وفي الوقت ذاته ، من الاكثر اندماجاً والتحاماً في

١ (الدكتور ماحي النيجاني ، مؤلف : « مقدمة في تاريخ الطب العربي » الخرطوم ١٩٥٩ النظر خاصة بعثه ؛ « أعمال الصحة العقلية في السودان » في مجلة الصحة العقلية العالمية ، World mental Health الجزء التاسع عدد ١ شباط ١٩٥٧ .

٢ (ابن سيرين : « تعبير الرؤيا الصغير » الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٣٦ . وهو أثر منحول ولا شك .

العالم العربي ، حيث تؤدي تحولات البيئة الاجتماعية ، بصورة كلاسيكية ، الى إحداث موكب من الامراض العصبية والنفسية . ومن هنا كان تعدد العبادات ، ولسوء الحظ أيضاً ، لكثرة المتاجر للمعالجة العقلية : مائة وخمسون في القاهرة وحدها (٣) .

وفي هذا ما يفسر ، في حالة السودان ، أن هذه التخوم لعبقرية الرؤيا ، ذات التناقضات المحرقة ، تعطي بوضوح أكثر من أي مكان آخر تمثيلاً على حالات التطابق ، وفي الوقت ذاته حالات التنافر التي تسود عالم العمل ، وعالم الايمان وعالم الجمال ، وتجربة الاحلام ، وحالات المرض والالهام ذاته لا تفيد الا بتقديمها اشارات اضافية وبعيد جسور بين الفئة والأخرى . وعمليات الترابط ، هذه بالرغم من أنها أقل افصاحاً ، تلتقي على صعيد « الاوضاع العادية » . ومع ذلك يقتضينا بالنسبة لكل بيئة ، ولكل ظاهرة نعالجها ، أن نحدد ، باقصى ما يمكن من الدقة ، الى أي مستوى ، وفي أي اتجاه ، ومع أية قوة تذهب هذه الارتباطات .

والتطور المتقابل للغة والمجتمعات العربية قد حمل الينا ، حول هذا الموضوع ، اشارات مقنعة ، وسأدرس الآن كيف ، وبأية طريقة تتصرف بالنسبة لبعضها البعض ، وبالنسبة للتاريخ أداتان أخريان للتعبير وللدلالة : الفن التشكيلي والفن الموسيقي وأنا سأدرسهما في الشرق الحديث الذي يميد اليوم بالرجعة البسيكولوجية ، ولكن أيضاً بالتقدم المادي .

(٣) مع تقدم مترابط للدراسات البسيكولوجية ، وانا أفكر بالدكتور عبد العزيز القوسي ، ويوسف مراد . وزيور ، وهوروس ويصاواصف ، وعبد المنعم المليجي الخ . . انظر الفهرست المفيد الذي وضعه ا . تيري بروثرو E. Terry Prothro وليتون ميليكيان في بحثهما « البسيكولوجيا في الشرق الاوسط العربي » في النشرة البسيكولوجية Psychological Bulletin المجلد الثاني والخمسون ص ٤ تموز ١٩٥٥ ،

الفن العربي ولفوره

كان عصر النهضة الاوربية يجب

من التصوير

الرموز الى حد جمعها وتصنيفها في

فهارس^٤ ولكنه كان يبحث عن المراجع لها وعن نهايتها في الجسد الانساني . وهكذا يبدو هذا العصر كمأدبة هائلة من الرؤوس الانسانية . وكل شيء يقدو فيه وجهاً . أو بالأحرى ، يقدو الجسد فيه ، بكليته هيكلًا ، ففيه ، وبه ولاجله يسمى عصر النهضة لأن يجد الحل^٥ لمخاوف يجرها منذ أمد ؛ الاندفاع نحو العلوم المضبوطة والاكتشاف العلمي للكون . ولتذكر لوحة دورر

Dürer «الكآبة السوداء» La Melancholia

ويعقابل هذه المعارض الهائلة للصور ، يبدو الاسلام انعداماً للوجه المرسوم ، وبحيرة من ضياء أسود ؛ أو من اللون الاخضر ، اذ ان الاخضر هو لون « الخضر » ، هذا النبي المتوسط ، الذي وصفه ل . ماسنيون « بالخضرة » والذي يطوف عبر التاريخ ، ولكن دون التاريخ ، بين الانسان والاله ، الفن العربي ينافس الواقع . لقد أصبح نصف الهي ، وهو ربما يتحدر من المحاولة للاستفقاء أو لارواء الغليل « Assouissance » كما يريد مالرو Malraux ، ولكنه يتوق أيضاً الى اعادة صنع العالم . وهذا الصنع الجديد للعالم ، وخاصة للكائنات ، هو ما لا يريده الاسلام . وبذلك تنشب المعركة العقائدية الابدية والقديمة التي تجعل جميع مفكري الاسلام يهبون ضد تصوير الوجوه . هل للفنان الحق في التشخيص والتمثيل ، والتصوير ، وخاصة هل له

٤) انظر مثلاً الانسانية والرمزية Umanesimo et Symbolismo في محاضر مؤتمر البندقية « ١٩٥٥ » وهيلين لوكليير Hélène Leclerc في بحثها « من الترمه الافلاطونية الى اعياد عهد النهضة » في « مجلة تاريخ المسرح » نيسان - حزيران ١٩٥٩

الحق في تشخيص وتصوير الجسد الانساني ؟ هذا هو ما نشبت حوله معركة
« التصوير » *

ولنسأل اللفظة . الجذر هنا غني . وهو أغنى بكثير حتى من الكلمات التي
تتعدر منها باللغة الفرنسية أو الانجليزية لفظتان مثل «Representantion» و
« Image » اذ ان لفظه « صور »^(٥) * تعني أكثر بكثير . ولفظة «المصور» *
هي من أسماء الله عز وجل . فكيف ، والحالة هذه ، يمكن حمل اسم « مصور »
عندما يكون الكائن انساناً ؟ وحسب المفردات نفسها ؛ لو رجعنا الى أصول
المعاني ، ان مجرد طرح قضية « التصوير » يشكل نوعاً من الكفر . فهذه
القدرة ، أو هذا الفن لا يستطيعان ، اصلاً وحسب تعريفهما اللغوي ، ان
يكونا من اختصاص الانسان .

ومع ذلك فاننا نعثر ، على طول التاريخ الفني في الاسلام ، على الكثير من
التشخيصات التي تمثل بعضها كائنات حية . وهكذا انا اذكر لآراء موجوداً في
متحف بغداد ، ويشبه بصورة غريبة آنية مدينة بومبي ، وعليه نقوش تمثل
حيوانات خرافية وفتيات تحمل القرابين ؛ وزخارف تمثل فواكه مؤسفة ،
واباريق عليها عصافير . عثر عليها في الكوفة (من القرن الثالث عشر والرابع
عشر) وتماثيل صغيرة تمثل واقصات وجواري ، حملت من مدينة واسط . صحيح
ان هذه الآثار تبقى قليلة السهولة : وهو الشيء البارز الذي سبق له ان لفت
نظري في مصنوعات من الفن الشعبي : من القصدير في القاهرة ، ومن العاج
في الخرطوم والتفاوت بين هذا التشخيص ذي الجانب المرتبط بالسرد القصصي ،
والتماثيل الجبارة التي توجد في متحف بلاد ما بين النهرين القائم في بغداد نفسها ،

(٥) لسان العرب : النظر اللفظة المعنية .

من شأنه أن يذهل المتفرج . وما يمكن العثور عليه في الفن الإسلامي من التسجيلات للكائنات الحية يبقى قليلاً ، وكأنه مضبقت عليه عند الزوايا : انه يبدو تصويراً تابعاً من ضمير غير مطمئن^(٦)

وقد أعجبت بمنظر باب من البرونز من عهد المماليك ، معروض في المتحف الإسلامي بالقاهرة . ففيه نقوش منحنية عربية الخطوط ، انها تبدو لا عيننا مجرد اعمال زخرفية . ولكن من يتطلع اليها عن قرب وبامعان يرى ان هذه الخطوط ، على غرار الرسوم - الالغاز : قد افسحت في الفراغ الذي خلفته المجال لطيوف حيوانات : حمام ، وسباع ، وطواويس ، وغزلان . لقد اختبأ الحيوان وراء شهادة الخط . تماماً على عكس الفن الغوطي الذي يريد ان يدل على الجانب الروحي بواسطة التصوير للواقع . أكيد انه لو شئنا الارتقاء الى ما هو أبعد وأقدم لرأينا أن التناقضات تنطس بين شرق يبقى استمراراً للقديم (الانسجة القبطية مثلاً) وغرب لا يزال هو نفسه بعيداً ، الى حد ما عن التشخيص . وعلماء الآثار المصريون يعزون صنع الحزف السيراميك الى العصر الفاطمي^(٧) . وهم يكتشفون فيه الكثير من الامثلة على التصوير . صحيح انه يبدو ان نوعاً من التراجع قد حدث في العصور التي تلت ، بفعل كربة المذهب المتزمت ، فمنه نحن نحس اذن نمواً ذا سيرٍ واسع التعاريج ، بدلاً من استمرار الرفض في خط مستقيم .

و كذلك يلزم أخذ النوع الفني بعين الاعتبار . فهذه مخطوطة « عجائب

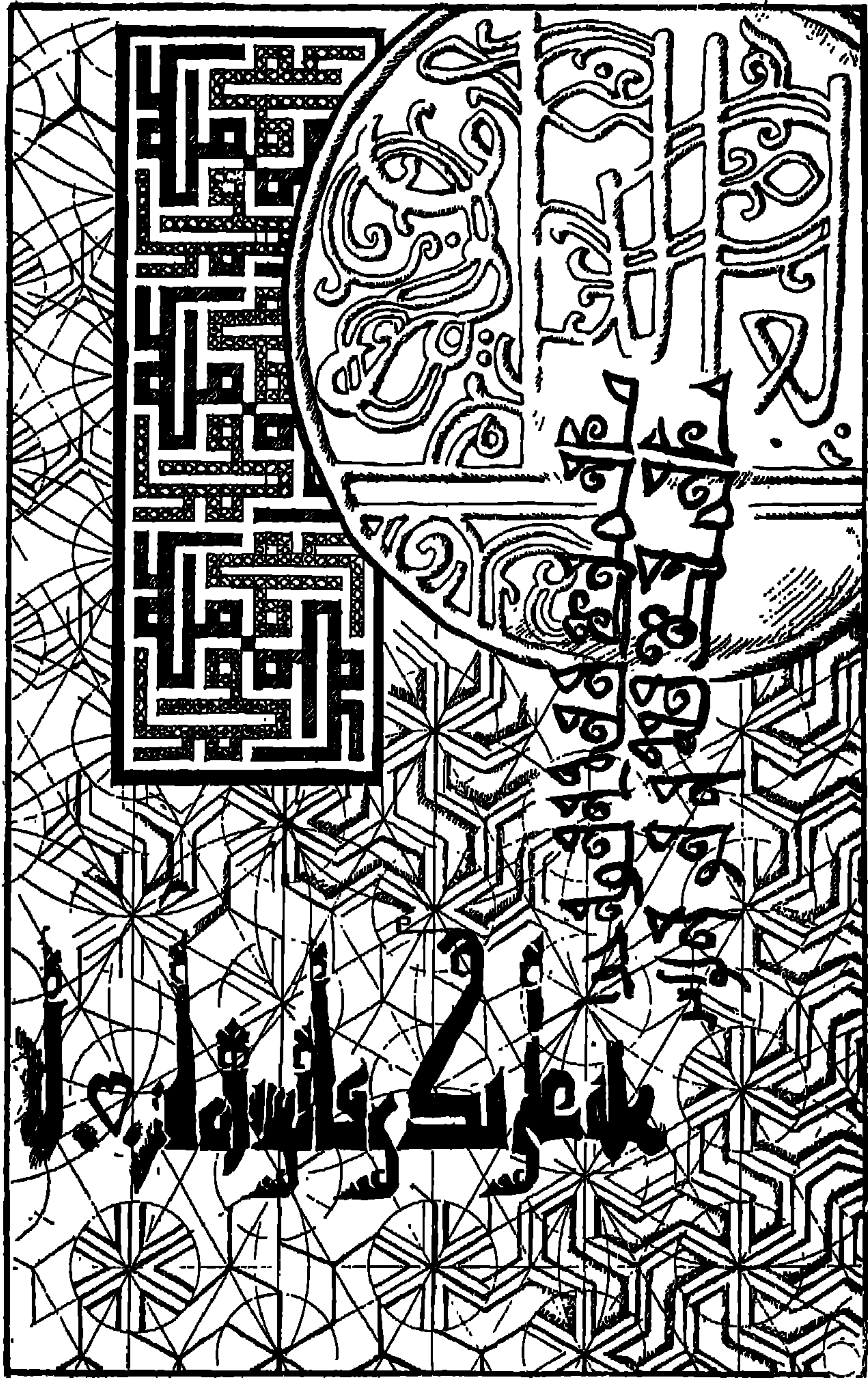
(٦) وبالطبع يمكن تقديم الكثير من مجموعات الوقائع لدحض هذا الرأي . فالغرب قد استورد من الاسلام فن تشخيص الحيوانات والناس على النسيج . انظر قطعة اللباس التي تعود الى القرن الثاني عشر والتي تسمى : مسوح القديس توما بيكيت « والتي نقلها مقال د . س . رايس D . S . Rice في مجلة Illustrated London News عام ١٩٥٩

(٧) عبد الرؤوف علي يوسف « المجلة » سبتمبر ١٩٥٨

المخلوقات ، للقزويني (٨) لا تخشى من توشية حواشيتها بطيوف انسانية . ومن الطبيعي جداً ان يكون الحظُّ بالعثور على هذا التشخيص الواقعي اكبر في هذا النمط من الكتب : كتب الطب ، والطب البيطري ، والحيوان ، والنبات ، والفروسية . وفي هذه المجالات التقنية كان الغرب اكثر الاحيان مديناً للشرق . ويبدو أن تأثيرات متبادلة قد لعبت في الاتجاهين . او هل ياتوى هي بالحري ، مبادلات حقيقية ؟ وهذه المبادلات ألم تكن تتسلسل في نهاية المطاف ، من خطوط سير مشتركة ؟ مثلاً ، بإمكاننا أن نتساءل عما اذا لم يكن هناك من صلة بين هذا الموقف العقائدي الذي وقفه الأسلام ، في رفضه الصورة ، وعملية تحطيم الأيقونات التي اتبعت في بيزنطة والتي دامت اكثر من قرن (٩) صحيح ان الطرق ، بعد ذلك ، بدت مفترقة ، فنشاهد في اوروبا غزواً بطيئاً وخفياً من قبل تصوير الكائنات الحية . وتندرج الحياة شيئاً فشيئاً في الأيقونات الروسية مثلما تندرج في رسوم مدرسة سيينا l'Ecole de Sienna

(٨) صلاح الدين المنجد، المجلة مارس ١٩٥٧

(٩) من عام ٧٣٠ الى عام ٨٤٣ انظر في الصفحة المقابلة من الخط الكوفي الى الفن التجريدي: في اعلى الى اليمين خزفيات عراقية سورية



رسم بريشة ل . بيوك L . Berqne

في سلسلة « وثائق عن الدراسات الشرقية للمعهد الفرنسي في دمشق الجزء
الأول - باريس ١٩٣٢ .

في أعلى إلى اليسار : فسيفساء ، مرمر وصدف ، من ضريح ابن قلاوون نقلاً
عن فييت وهوتكور Wiet et Hautecour

« مساجد القاهرة - الجزء الثاني صور اللوحة الى اليمين في الوسط الى اليمين :
« خطوط ورسوم على الورق » فيينا - مجموعة الارشيدوق رينر ، نقلاً عن
ادولف جروهمان Adolphe grohman في بحثه « Floriated Coufle » في مجلة
« Arts Orientalis » ١٩٥٧ المجلد الثاني ص ٢١٤ اللوحة ٦

في اسفل : نقلاً عن ادولف جروهمان (في المقال ذاته) : « قطعة تطريزية
صنعت للخليفة المطيع لله » ، موجودة في المتحف الاسلامي بالقاهرة .

نسيج القرار : نقلاً عن الافريز المستطيل لشباك مدرسة بيبرس الأول عن
فييت وهوتكور « مساجد القاهرة » - الجزء الثاني صور اللوحة ٥٣ .

وشيئاً فشيئاً يتجاوز الغرب ويقاوم مذهب الجمود الشكلي .
ولكن ، بصورة مناقضة للمنطق الظاهر ، ألم يشجع في هذه النزعة بفضل بعض
الملامح في الفن الاسلامي ؟ هذا الذي كنت أتساءل عنه ، في معرض حديث
أقيم في المكتبة الوطنية أمام كتاب صدر في مقاطعة اللانجيدوك في القرن
الحادي عشر والذي تعزى زخارفه المفصنة والمفرعة الى تيجان كنيسة سان
فيتال - دي - رافن (١٠) ولكن هذه الرعشة المذهبة التي تذكر ، بمساعدة

(١٠) هذا الذي يسمونه « مدرج الي Le graduel d'Albi انظر ايضاً المواضيع التي
اخترعها بلتروسيتيس . Baltrusaitis في كتابه « عهد العصور الوسطى العجيب » : ١٩٥٥
ص ٧٥ الى ١٥٠ .

الالوان ، بالقيشاني الاندلسي ، جعلتني أتساءل اذا لم يكن ثمة تأثير الزخارف العربية بكل بساطة ؟ ولتذكر بأية دقة ، وضمت رسوم لوجوه الشرقيين في كتاب « الساعات الفنية لدوق دي بيري » من أواخر القرن الرابع عشر ، فهل كان هذا الاهتمام من قبيل حب الاشياء العربية فحسب : الا يغطي أيضاً تأثيراً صار تلقيه من الشرق ؟

في الواقع ، لا يسع الجدل أن ينتهي بنتيجة الا عندما يكف عن ان يعزو صوراً منعزلة في سياق كبير أو غارقة في هوة الزمن . ومن جهة أخرى ، يلزمنا أن نكون واثقين من أن هذا التصوير الشرقي لا يكشف عن أثر بعض المسيحيين من الاقليات (في دار الاسلام) . نحن لا نعلم شيئاً عن هذا الامر ، ومع ذلك فان بشر فارس قد اكتشف شيئاً مؤثراً : صور قضاة مسلمين (١١) . وهو قد عثر حتى على صورة للنبي ، (يا للفضاعة !) وكذلك على نص لابي علي الفارسي يؤكد فيه أن تصوير الله (عز وجل) ، وحده هو المحرم ولكن ليس تصوير الناس ، حتى أقدسهم واكرمهم عند ربه . ويجلو لبشر فارس اذن ، أن يعقب على ذلك بافتراض قيام حقبة من التسامح الفني . ولكن الاتباعية المتزمتة عادت فقضت على هذا الجو من التسامح ، فكان من نتيجة ذلك أن أصبح الزخرف العربي والتوشية الشكلين المفضلين .

والزخرف العربي يجمع التتميق والموعظة . والطبيعة لا تبقي فيه على الحياة

(١١) بشر فارس : « الفلسفة والقضاء كما صورهما العرب » في « دراسات شتى لتكريم ماسينيون » « Melanges Massignon » دمشق ١٩٥٧ ص ١٠٩ . انظر أيضاً من المؤلف نفسه « الفن المقدس عند احد المسلمين الاوائل » القاهرة ١٩٣٥ ، وفي نظر بريون Brion يشكل الفن الاسلامي الفن التجريدي الامثل . مجلة « ديوجين » العدد ٢٤ ، اكتوبر - الى ديسمبر ١٩٥٨ . انظر دراسة شاكر حسن سعيد عن كالدبنسكي في مجلة « الاداب » بيروت تشرين الثاني ١٩٥٨ .

الاصفاة الى ما لا نهاية له : ربما في هذه الانحناءة الشبيهة بالحناءة الاملود ،
وربما في هذا الاتلاع الذي نحدس فيه اتلاعة نبتة الافستتا (شوك الجمل) .
ولكن الخط الكوفي يفرض على عاجني الملائق وناقشيه هندسة اكثر دقة
وأمانة ومصاريع الجص والخشب ، ورقائق النحاس الجميلة وصفحات المخطوطات
تغني وتمجد ألعاب الخطوط حيث يقم الجمال في بهاء النصوص المقدسة الفريد ،
فالتصوير المرافق يتوحد مع النص ، المكتوب ، والنص المكتوب يتوحد مع
الحقيقة . ، كل شيء يجري كما لو كان الاسلام ، والاسلام العربي ، وفي
الاسلام العربي الاسلام السني خاصة ، يعلن عن مثل اعلى من السموالمجرد ، خال
من الصنمية ، وحيث يقتضى ان تكون الاشكال الاجتماعية ، والاشكال
الجمالية لا شيء غير جمال مجازية موجزة تم عن الاسم الذي لا سبيل للافصاح
عنه ، (١٢)

الشعور الموسيقي يقول المعجم ١٣ « طرب » * تعود
التقليدي الى « خرب » * اي حرك ورعزع
و « طرب » : حرك ضوته مثل « هجأ » * احدث تكراراً في حركة الحلق
ملائمة لاحداث السحر والترتيل . ونحس الامكانيات « الصوفية » لمثل هذا
الجذر (او هذه المادة اللغوية)

وفي مادة « لحن » ، نستلذ ايضاً طعم الالتباس وازدواجية المعنى المميزين
لهذا المفهوم ، فاذا استطاع فعل « طرب » * ان يثير الكتابة أو الفرغ ، فان

(١٢) ل. ماسينبون : « عشتار » باريس ١٩٥٨ رقم واحد ،

(١٣) لسان العرب : انظر في مادة المفردات المعنية .

« لحن » يستطيع ان يكون في آن واحد حسن الترتيل والغناء ، او الخطأ في النحو . وقد كرس معجم مثل لسان العرب عدة صفحات للتمييز بين هذه المعاني . وحسب الطريقة في نطق الحرف الصوتي : « لحن » او « لحن » ، يوحى المفرد معاني متعاكسة : فالمصدر يوحى مثلاً بمعنى خطأ في البلاغة او النحو ، ولكنه يستطيع ايضاً ان يعنى « اللغة » ، اي بالمعنى الذي ورد عندما جاء ان القرآن انزل بلغة قريش ، وبالاختصار هناك التباس لا يستطيع اللغوي ان يخرج من مأزقه بسهولة ، بواسطة فقه اللغة وحدها ، فلنستبعد بعلم العروق والسلالات الذي جعلنا نألف وندرك المفهوم الفني لآزدواجية المعنى . « لحن » * هو لغة التخاطب الثانية ، مثلما « الرمز » * هو ايضاً لغة تخاطب ثانية ، قابلة لآذن ، لان تحملك نحو الخطأ او الصواب . وقد يكون غناء تستطيه الحساسية الشرقية : وقد يكون ايضاً خطأ في النحو او التركيب اللغوي يمزق آذن الرجل المثقف ... » (١٤)

ونداءات الموسيقى الشرقية لا تقتصر بالطبع ، على حاسية حتى ولو كانت بدائية وعميقة ، انها لا تحسن النزول الى درجة مماثلة من الاستبطان (من الحياة الباطنية) دون احداث تأثيرات معقدة ، في الوقت ذاته ، تأثيرات تذهب من الدرك البيولوجي الى الصعيد الروحي . ففي بعض المدن ، كانوا يعالجون المصابين بالامراض العقلية بسماع بعض المعزوفات الخاصة ، وكانت المدارس الصوفية تختار ايقاعاتها . فكان انسجام نغمي لطيف ودقيق يوحد

(١٤) هذا واحد من ضروب « الاداء » في اللغة العربية : ولكن هذا الضرب يلقى تفسيره مثل الكثيرين غيره ، ان لم يكن كلها : فيكون غناء ، ولحناً ما يقوم ، في القول ، « بالاداء » و « الدلالة » ولا يقوم « بالالاء »

بين القول والغناء . وقد وصف ل . ماسينيون ذلك ، بسطور لن يمر عليها النسيان ، الدلالة الموسيقية والدلالة اللغوية تنطلقان من الابنية نفسها (١٥) فاللغة تفترض الجذر الثلاثي الاحرف الذي تمهده اضافة الاحرف الصوتية بالتنظيم الوظيفي ، والموسيقى تعتمد على الايقاع الذي يضرب على الدف او المزهر ، والذي تأتي « الانغام » * والمدات فتلوننه : وهي اكبر عدداً واكثر تنوعاً من انغامنا ومداتنا . وكل منها يتضمن قيمة عاطفية محددة . وهنا نفهم ان اذن القلب تسمع في هذه او تلك من الاغنيات اصواتاً فكرية * وكان سيد درويش يقول : « وان تنغمياتها كانت تترجم « باهتزازات » * يتجاوب معها القلب كما تتجاوب الأبرة مع المغناطيس » (١٦) . ان العاطفة الدينية تستطيع اذن ان تقع احياناً في منافسة مع الانفعال اللاديني .

ومن هنا أيضاً المناقشات التي انكرت على امواج الاذاعة الحق في نقل القرآن وذلك في بداية نمو الاذاعة ، فبين القراءات التقليدية والترتيل الجديد أحسن المتفقهون والعلماء المتمسكون بالاصول (الارثوذكسيون) بمسارب عدوى زائفة ، وقد قلت أن ثمة تنافساً بين وسائل التعبير ، ولكن أيضاً تنافساً بين أنظمة الدلالات وطرق اداها تنافساً جدياً يميز لتلك الحقبة . واحدى هذه المناقشات قد اثارته في الوقت ذاته المشرق والمغرب (١٧) فعلى اثر صدور عدد من مجلة شرقية مكرس « لتلحين القرآن » * كتب علماء جامعة الزيتونة التونسية الى الشيخ حسن مأمون ، مفتي الديار المصرية ، ليطرحوا عليه القضية .

(١٥) ل . ماسينيون (الاحرف الصوتية السامية والدلالة الموسيقية) في السيكلوبيديا الموسيقي عن دار باسكيل للنشر - باريس ١٩٥٨ ، ص ٧٧ وما يلي .

(١٦) ريبورتاج في مجلة « اخر ساعة » ١١ ديسمبر ١٩٥٧ .

(١٧) الصحافة المصرية

فأجاب معلناً « تحريم التلحين » * وكانت ضجة كما لو شاعت فضيحة اقسام
البعض بإيراد الحجج المأخوذة من « الحديث » لشجب التلحين ، وقام آخرون
يشتون الرأي المضاد باسناد علمية مماثلة ...

وقد ذهب النقاش بعيداً . وكل ما يهمنا منه هنا ، هو أنه اظهر الى أي
حد تطلق الهزة الموسيقية « الطرب » * أو اللحن * ، في هذه المجتمعات من
انفعالات وتمس من ردود فعل عفوية !

وقد أجرت صحيفة « البلاد » البغدادية مؤخراً ، حديثاً مع موسيقي
سوري ، وقد بدأ هذا الاخير حياته بالعمل في دكان في أسواق دمشق انتهى به الى
الافلاس ، ثم طوف من دمشق الى القدس فالقاهرة ، ومن القاهرة الى بيروت ،
مجرّباً مهناً شتى ، منها مهنة المهرج والمغني والمدرس ، وقد كان مختصاً بالآلة
الموسيقية التي تسمى « القانون » * وهي الآلة المفضلة لدى اهالي الشمال السوري
وخاصة في مدينة حلب . ويبدو انهم كانوا في القديم أيام الاعراس والاعياد ،
يجمعون بطاريات عازقة قد تتألف من ستين قانوناً تعزف كلها بصورة موحدة
في دائرة ضخمة من الهواة المنتشرين . وقد تغيرت الاشياء كثيراً منذ انتصار
الاذاعة التي لا يشكل صاحبنا العازف على القانون ، الا مساعداً متواضعاً فيها ،
ويسألونه من اين يستقي الهامه ؟ فيجيب : « ان الموسيقى لا يستطيع تحديد مدة
الهامه أياً كان نوعه ، فالالهام ليس محدوداً ، او محصوراً في الزمن . فهو يأتي
عندما يشاء » وهكذا دخل صاحبنا في جوقة فيحس بنفسه وقد أخذها . الحال
فينفصل عن الجوقة ، ويأخذ بالغناء مدة ساعة او ساعتين ، ويبدو ان بهذه
الطريقة استطاع الكوكب محمد عبد الوهاب ، الذي كان يعمل في احدى الجوقات

ومن هنا كانت مناقشات جديدة ترجمت أصدائها في عدد آخر من مجلة « المجلة » (١٩) . فالدكتور فؤاد زكريا يظهر بأسه من الموسيقى الشرقية التي يعتبرها أدنى من الموسيقى الغربية على صعيد التأليف ، والعزف ، والاداء والسماع في الوقت نفسه . وهو كاتب متمرس بتحليل الاعمال الموسيقية . وقد نشر هو نفسه مؤلفاً حول « التعبير الموسيقي » * . وهو لا يجد مشقة في اظهار ما تستطيعه مقارنة بين الالهام الغربي والالهام الشرقي من ابراز عدم التساوي بينهما « نحن بحاجة الى جيل جديد من الموسيقيين » . وهو في بأس من الحاضر ومن الغريب ، ان هذا هو الموقف الذي يقفه احياناً كثيرة العديد من العرب وعلى صعيد الاداء ، هو يذهب الى ابعد بكثير أيضاً : « كيف تجرؤ على تفسير الاغنية الغربية (ولنلاحظ ، فضلاً عن ذلك ، انه يرتكب شيئاً من الخلط بين الاغنية والموسيقى نفسها ، وان هذا الخلط يكشف عن حالة ذهنية بكاملها) كيف تجرؤ على الخلط بين هذه الاغنيات ، وهذا الصراخ ؟ اذ ان القسم الاكبر من هذه الاصوات الغربية ليس الا صراخاً (بالنسبة اليك) وعلى صعيد «الكلام» * نفسه هو يقول : « ان اصواتكم تذهب الى امداء أقصر مما تذهب اليه الاصوات المثقفة في الغرب . انها في غالبيتها اصوات ميكروفونية » (كلمة مولدة يخترعها ليقذف بها دون شك عبد الوهاب الذي توجه اليه منذ سنوات تهمة الضعف المتزايد في الاداء الصوتي) . « وفي الحقيقة ان ما نحتاج اليه هو العلم ، والعلم دائماً » . فبعد التشاؤم عند المنطلق ، ها نحن نصل في نهاية الشوط ، الى الدعوة للعلم .

(١٩) « مستقبل الموسيقى في مصر » * المجلة يونيو ١٩٥٧ ص ١٠٢ .

وجواب محمد فتحي يستند الى الشيء الذي كنا ننتظره ، أعني الى الماهية النوعية العميقة الخاصة بالموسيقى الشرقية . « كيف تريد من موسيقانا ألا توافق اذواقنا وحاجاتنا ؟ وهذا صحيح لدرجة اننا نحب سماع الموسيقى الغربية البحتة اكثر مما نحب سماع هذه المحاولات الشرقية الرديئة للتكييف مع الالهام الغربي » ، وهو ، هنا ، ربما يكون على صواب . ولكن حيث يجد صعوبة في الرد هو عندما يصل الى قضية الاداء : ضعف الادوات وقلة تنوعها ، وأصوات لا تلقى التمرين ولم تذهب الى حدود قدرتها ، كما يجري في الغرب ، بصورة اجبارية . ولنسجل هذا التعريف باللغة الموسيقية . فهي ، حسب المؤلف ، ترتبط بثلاثة اشياء ، بثلاثة اعضاء : الأذن ، العقل ، والقلب . الاذن لأننا عرضة للتأثر « بجلاوة » * الغناء . فهذا التأثر هو حد "لبصرنا « والعقل » * الذي يكمن فيه الاحساس بالفصاحة ، بحسن البيان الذي يركز عليه مجد مثل مجد ام كلثوم مثلاً . ومعلوم ان هذه الفصاحة ، قد حطمت الموسيقى الغربية رقبها منذ زمن طويل ، وقبل الزمن الذي قام فيه الشعر بتحرير نفسه منها . واخيراً القلب : انه يحس « بروح » * الغناء ، وما سكبته الفنان فيه من عاطفة رقيقة ومن انفعال لطيف دقيق . وبالاختصار ، فان ما يعيب التعريف هو ، على ما يبدو ، هذا الامر . فالسيد فتحي على صواب ، بكل تأكيد ، عندما يعتبر ، في مهاجمته لتيار تقليد الغرب ، ان من واجب الموسيقى ، قبل كل شيء ان تنبع من الشخصية . ولكنه لا يقوم ، لنقص في المعلومات دون شك ، بعمليات التمييز التي يقوم بها خصه ، والتي تذهب بعيداً . وهو على حق في التأكيد على ضرورة محتوى او « مدلول » شرقي ، ولكنه لا يرى ، او لا يجب ان يرى رداءة « الدال » او المؤدي ، الذي هو ، دون ريب ، اقل ثقافة وأضال سلاحاً بما اعتادت تقاليد تقنية هائلة ، في الغرب ، ان تزود به (أمثاله) . ففي المادة الموسيقية ، كما في كل شيء آخر ، يتميز الغرب عن الشرق بالقدرة على الافادة من كل ما

هو تقني ، ومتقدم ، ومتراكم .

ويمكن ان يطرح السؤال حول موافقة « المدلول » او المحتوى التقليدي لحاجات الشرق الحالية . اذ ان هذا هو في الواقع ، صميم النقاش . وما كان للمجادلة ان تكون على هذه الدرجة من الحدة والحرارة ، لو لم يكن الكثيرون من العرب يتبرأون من موسيقاهم ذاتها وينكرون قيمتها كوسيلة للتعبير ، بينما هم لم يحسوا ابداً ، مثلما يحسون اليوم ، بضرورتها الوظيفية .

ففي الكويت على إثر التدهور في صناعة مصائد (المولوث) التي حولها غزو الثروة البترولية الى نوع من حطام الماضي ، هبط عدد الفطاسين من ٣٠٠٠٠ الى ٣٠٠٠ . ولكن هذا التدهور قد أدى ، بالمقابل ، على ما يبدو ، الى ازدهار هائل في الاغاني (٢٠) . صحيح ان الامر يتعلق ، هناك ، بمستوى فني ، وبيئة اجتماعية بعيدة عن بيئة الناس المتقدمين . فالانتقال يتم مباشرة ، فيها ، من ايقاعات العمل ، مثلما يجري في حالة الفلاح ، او من اللوعة على هذه الايقاعات ، الى الابتكار النغمي . ويمكن تطورات فن مرتبط بحياة المدينة ، وبالعشيات في الجنائن والبساتين على ضفاف بردى ، مثلاً ، او بتجمعات السامعين الذين يمدون معاً بالنشوة تحت مكبرات الصوت . اقول ان تطورات فن مثل هذا هي بالضرورة ، اكثر لطافة وتعقيداً .

واننا نفتقد ، لدراسات بسيكولوجية معمقة بما فيه الكفاية ، تستطيع ان تسل من عقدة النشابكات في نفس السامع ، مثلما في نفس الملحن والعازف او المغني ، النصيب العائد لمصادر العواطف والحلجات المختلفة . ومع ذلك ها هي احدى الملاحظات التسجيلية .

(٢٠) حسب صديقي بشر فارس ، والدكتور حسين فوزي قد تلقى انطباعاً مماثلاً .

يضع الكاتب العمالي محمد صدقي ، على ضوء المسرح ، في احدي قصصه القصيرة ، احد ابطاله من ذوي الايدي الحشنة ، فهذا الميكانيكي الشاب ، المتحدر من الطبقة الفقيرة في القاهرة ، هو من اولئك الذين يظنون « ملتصقين بأرض الواقع الذي يعيشون فيه * » ، انهم يظنون مغروسين في التربة المصرية : انها ذكرى الاصول الفلاحية التي سيمضي وقت طويل قبل ان تتحرر الطبقة العمالية ذاتها من أسرها . ولكن صاحبنا الشاب يطمح لأث يصبح موسيقياً . فيسرع نحو الجامعة الشعبية ، في شارع القصر العيني ، بعد انتهاء عمله اليومي . وها هو يجلس في صف السولفاج ، ولكنه لا يزال يلبس ثوب عمله الأزرق . وقد وصل متأخراً . فينتهره دون هوادة ، المعلم الجالس وقد غرقت عنقه بين كتفيه ، وبان عليه الازدراء ، انه نموذج لهذه الفترة من التطور . فهو يرى ان هذا الكادح الذي يكسب عيشه بيديه يشكل نشازاً بين المثقفين . وفي اليوم التالي ، حين يصل العامل متأخراً مرة اخرى ، يقف المعلم الصارم عن رسم صور غريبة على اللوح : صور احرف النوطة : دو ، ريه ، مي . . . وكل شيء يلقي تفسيره في لغة عامية متبجحة ، ثم يهب في وجه القادم « ماذا تعمل في الحياة ؟ » . - سيدي ، انا اعمل في لحم المعادن . وكانت موجة ضحك عامة . وأرخى نصف المعلم شفته السفلى باحتقار . ولكن كان في الصف طالبة تقوم بالدفاع عن بطلنا : فيخرجان سوية . وهو يجرد في التحالف مع هذه الفتاة ، النابعة من الشعب ، مثله ، وعداً بالمهادنة . والرجاء في قيام موسيقى ليست موسيقى المعلم ، البورجوازي الصغير ، ولكن موسيقى تعبر عن روح الغناء وفي الشعب الذي اقام المصالحة بينه وبين نفسه .

وعلى الطرف الآخر من السلم الاجتماعي ، ها هو الدكتور حسين فوزي . فهذا الطبيب ، الباحث في علم المحيطات ، سندباد العصر الحديث (٢٢) يذهب ،

(٢٢) هذا هو عنوان كتبه : سندباد الغرب والسندباد العصري .

عن معرفة وقصد ، ابعده بكثير مما يذهب اليه ، غريزياً ، ميكانيكي القاهرة .
فهذا الاخير كان يحدس ، في الموسيقى الغربية ، مغزى ثوريا يجمله الاستاذ عبد
الوهاب . اما الاستاذ الكبير فيرى فيها المادة لانسانية كونية . وهو ينكر على
الموسيقى التقليدية في بلاده « عجزها الكامل عن «التعبير» وخاصة عدم اهليتها
للبناء . ويتفنن كتابه الصغير عن الموسيقى السمفونية في الدفاع عن هذه النظرة
ضد الاعتراضات والآراء المسبقة . وكثير من الشرقيين الذين يهتزون طرباً امام
موسيقاهم الخاصة يعززون ، بالفعل ، للموسيقى الغربية ، التي تحيرونهم ، قدرة
تعبيرية مجردة . انهم يجعلون منها فناً تصويرياً فحسب . فيظهر الدكتور فوزي ،
دون عناء ، ان السيمفونية ترتفع الى ما هو ابعده من التصوير البسيط ، حتى ولو
كان تصويراً لحالات النفس ، وانها تفيض من كل الجوانب ، بصفتها نداءً نفسياً .
وتتجاوز الاغنية الشرقية التي ليست غير « دغدغة للشعور » * (٢٣) . وفي
الاساس ، لا يطلب الناس من هذه الموسيقى غير شيء واحد ، الزلزلة العاطفية ،
التي هي بدورها مزدوجة القيسة . هذا « الطرب » الذي يدفع بك الى الفرحة او
الى الدموع .

ومنذ ١٩٥٨ ، اخذت اذاعة القاهرة ، تقوم بتجربة ، جديرة بالعناية في
نظري ، على موجتها الثانية . فهي تعطي برنامجاً من الموسيقى الكلاسيكية .
وفي الوقت ذاته سألت المستمعين عن ردود الفعل عندهم ، بواسطة اسئلة موضوعة
مسبقاً ، وفي يدي التحقيق الصحفي الدقيق جداً الذي أجرته جريدة « القاهرة »
حول هذا الموضوع . فكل « المثقفين » تقريباً مجذبون هذا المجهود ،
وآخرون ، على العكس ، يحتجون باسم التقاليد الوطنية . فهم يعتبرون هذه
الموسيقى غريبة ، وغير متفقة مع الذوق الشرقي . اما يوسف مراد ، وهو عالم
نفسى محترف ، فيدرك ما يكمن من عمق واهمية في التجربة . « اننا بحاجة كبرى
الى ثقافة عالمية ، ثقافة تخرجنا من داخل نفوسنا . ان علينا ان ندرس وان نهضم

(٢٣) دكتور حسين فوزي . « الموسيقى السيمفونية » . ص ١٧

تراث كل الأمم وكل اللغات . اذ ان احدي التهم القاسية التي وجهها جانب من الرأي العام الى هذا النوع من المجهودات ، هو انعدام الطابع المصري فيه ، وانصرافه الى الكوزموبوليتية . وفي بعض اللحظات ، يصبح لزاماً ان تملأ الهواجس نفوس مدراء البرنامج ويضطرون لان ينتهبوا لمثل هذه الانتقادات التي تستطيع ان تصبح خطرة .

وردود فعل الشبان هي اكثر حدارة بالعناية ايضاً من ردود فعل المتعلمين الكبار . وها هي بعض آراء طالبات الكليات ، فتجيب احدهن التي كانت يفترض فيها اطلاعها على الموسيقى الغربية : « انا لا استمع الى برنامجكم ، لانني لا أحب غير الاغاني ، فانا لا اطلب من الراديو غير الاغاني ، وهذا ما يطلبه الشعب ، بخلاف الطبقة المثقفة . وانه لتمييز خبيث بين اذواق النخبة واذواق العامة . وكل فنان ، او كل رائد او كل مصلح في الشرق ، عليه ان يدخل في حسابه ، باستمرار ، هذا النوع من الاخطار . ومستع آخر يقول : « أقلوا من الموسيقى الكلاسيكية » . وثالث يقول : « انكم لا تعطون حظوظاً كافية لموسيقانا الوطنية » . ومع ذلك ، فان رابعاً يطالب على العكس ، بمزيد من الموسيقى الغربية . وهو يدخل فيها خاصة الموسيقى الروسية التي اصبحت موضة رائجة ، على الأقل فيما يتعلق بأساسها الفولكلوري . اما مجيى حقي ، مدير مصلحة الفنون الشعبية ، فقد كان انطباعه اكثر تحفظاً . فهو شخص لا مجال للطعن في معرفته ، وان كان ، في الوقت نفسه ، غني الثقافة . بالطبع هو لا يجد في شوبان او موزار هذه الضمانات للون المحلي الصحيح التي يفوقها قلب مؤلف « قنديل ام هاشم » * ، عن حق ، ولكن هل يستطيع ان ينتظرها من عبد الوهاب ؟

الواقع هو ان إلهاماً ذا طابع وطني يستطيع ان يبحث ، عند جانب الفنون الشعبية ، عن المواضيع والانغام ذات الحيوية الغنية التي تستطيع هذه الفنون

ان تقدمها اليه . وفي مصر خاصة ، يعيش الفلاح في جو زاخر بالاغاني ، بينما هو مشدود الى الارض باوتاره الخفية . ففي « حرانية » حيث يستحث رمسيس ويصا واصف الهام ياقعين ويقعات قاموا ، داخل منزل ذي قباب من طراز قبطي ، بعملية تمييز صور النباتات والحيوانات في سجادة جدارية ذات ألوان زاهية ، اخذوا يكتشفونها شيئاً فشيئاً ، دون سابق تصور ودون استعمال الاقلام ، ، سمعت الاغاني تنطلق من حناجرهم ، دون عناء او دهشة . فان اتصالاً غامضاً ، مبهماً كان يربطهم بهذا الصنيع الذي يبعث من العدم هذه التصاوير القديمة التي تمثل العرق والمنظر الطبيعي ، البالغ الصفاء ، والانسحاق . . .

واليوم يحاول مجلس الفنون الشعبية ، في القاهرة ، جهده ان يستغل هذه الينابيع الابدية التي يبعث فيها ، منذ الآن فصاعداً ، المؤلفون والملحنون ، من انصار التفكير الغربي ، عن الهام واع . ولكن ليس في نيتنا ان ندرس هذه العمليات الحسية من الترابط وما تستطيع ان تسبح بالرجاء به من تطورات في المستقبل . ولنرجع الى تحقيق الدكتور فوزي . فان محاولته تصطدم بردود فعل اكبر مما كان منتظراً . فان جامعياً كبيراً يعترف : « الموسيقى التي تعطينا اياها تتجاوز مداركي : انها أعلى من مستواي الثقافي ، بينما تعليقاتك هي ، بدورها ، أدنى من هذا المستوى ! » واننا نحسد الابن سامة التي ترسم على شفقي الرجل المثقف . فهي تعبر تعبيراً جلياً عن الاغراءات ، وفي الوقت ذاته عن مشاعر النفور التي توحى بها الموسيقى الغربية ، وفقاً لخط فاصل لا يمكن التنبؤ به . ذلك انها تصطدم ليس فقط بتقاليد قديمة ، وبذوق أصيل ، وانما ايضاً بضرورات لا تستطيع ان تستجيب اليها إلا عندما تبلغ مستوى اعتمق من الاندماج مع حاجات هذه الشعوب ومع روحيتها (٢٤)

(٢٤) مقاطع من مطبوعات سلت ، بتلطف من قبل وزير الثقافة في مصر .

المراحل الكبرى ،
للموسيقى المصرية
كل هذا لا يعني ان الحساسية
الشرقية لم تتطور ، ولا تزال تتطور
منذ جيل ، ففي اوائل القرن العشرين ،
كانت هذه الحساسية تعرف نوعين كبيرين من الموسيقى : من جهة « الموال »
بمذوره الشعبية ، والوفى لالهام الفلاح ، الغزلي والحكمي ، السياسي والهجائي ،
ومن جهة اخرى ما كان يسمى « بالدور » وهو نوع من الفن الارستقراطي
النموذجي . فقد كان « التخت » يجتمع في منزل البيك . وكانت لازمة «مذهب»
تعود في فترات منتظمة وبصورة جد رتيبة ، بالنسبة لذوقنا ، على الرغم من انها
جذابة جداً ، وساحرة بالنسبة للهواة ؛ ان لها شيئاً من السحر الذي يستطيعه
الاتباعيون التقليديون ، في المغرب ، لدى سماعهم الرسائل الاخيرة الباقية من
الموسيقى الاندلسية . فالدور يستقي قوته من تكرر رجوعه اللامتناهي .
« دولاب » وبصورة ذات دلالة ، هو « طرب » خالص ، أعني انه يخلط في
الفرح والحزن ثملاً ازدواجياً ، ملتبساً . وهناك من يدهش ، اليوم ، لأن يكون
قد اظهر مثل تلك اللامبالاة تجاه الموضوع او الحكاية ، او الحادثة . ذلك ان
سحره كان يفعل على مستوى يقوم دون مستوى الادراك : على مستوى هو
مستوى المواقف « الشرقية » في تلك الايام ، الباعثة على دهشة الناس في عصرنا ،
والمعبرة عن شهوانية قلقه ومنتخمة في الآن الواحد .

وقد تناولت هذه الأوركسترا القديمة ، « التخت » تبدلات جبارة . واكثر
هذه التبدلات وضوحاً أتى للتخت من شكل مصري خاص ، انتصر حوالي
١٩٢٠ وبلغ ذروته في عام ١٩٢٥ : انه شكل المسرح المصري ، المرتكز على
التواشع والهجاء . فقد ظهرت ، في القاهرة عام ١٩٢٥ حوالي العشر فرق بقيت
كلها شهيرة : فرقة رمسيس حيث بدأ يوسف وهي الذائع الصيت وروز
اليوسف التي تركت اسمها على مجلة كانت ، في ذلك الحين ، في جانب المعارضة ،

وفرقة سلامه حجازي المتخصصة في الاوبريت والتي سيعمل فيها الناشء عبد الوهاب ، وفرقة جورج ابيض ، تلميذ ممثلنا سيلفين Sylvain ، والذي كان يُعتبر ، ويعتبر نفسه ، كبديل محلي لفرقة الكوميدى فرانسيز ، حتى الاشهر الاخيرة (التي توفي فيها) وفرقة الاخوين عكاشة التي بدأ فيها حياته الفنية الرائد الكبير سيد درويش ، وفرقة نجيب الريحاني الخ .

وبين الماضي والحاضر ، في عوام ١٩٢٠ ، يتتابع عدة اسماء في حلقة متصلة ، مثلاً كامل جلعي الذي ظل ، في القسم الاول من حياته الفنية ، يهتم بهذه الاغنيات القديمة التي يكثر فيها الترداد والتكرار ، والتي لا نهاية لوصلاتها الرتيبة . اما في الشطر الثاني من حياته ، فقد ألف ألحاناً شعبية . ولنذكر ايضاً (بعد ان نقفز الكثيرين) سعود حسني ، و ابراهيم فوزي ، الخ .

وعندما يروي الشرق كلمة قالها سيد درويش ، بجيل الينا اننا نستمع الى كلمات مروية عن مولير : وبالفعل فان درويش ينسب نفسه الى الهام شعبي ، الى اختيار جماعي ، وهو يستخلص الالهام من الطبيعة ضد الفن . فقد كان يستمع الى عمال كانوا عائدين من عملهم ، وهم يغنون ؛ ويصرخ متسائلاً : « وما نحن الى جانبهم ؟ ان الطبيعة هي فوق الفن » . وعند وفاة سيد درويش ، عام ١٩٢٣ ، كتب العقاد عنه هذه الكلمات الغريبة : « كان سيد درويش يطلق ألحانه في شكل قطع مسرحية ، وقصائد ، او طقاطيق قصيرة ، وكانت اصداؤها تدوي في كل انحاء البلاد ، فكان الناس يتمتمون بها في العاهم . وكانت المغنيات ترفع حناجرهن بها في الاعياد العائلية ، وكانت الشبيبة تعيدها في الأزقة والاسواق . و « مصر السامعة »* اصبحت مثل اوركسترا واسعة هائلة الأبعاد ، كان يديرها من مقعد » .

فلماذا قبلت هذه الثورة ؟ « انه هو الذي أدخل الحياة والبساطة في التأليف الموسيقي والغناء . بينما كان الفن ، قبله ، مثل المظاهر الاخرى من الحياة الثقافية ،

منسحقاً تحت طابعه « التقليدي » * الفظيع ، والمعادي للحياة . هذا العبقرى
الملمهم أتمى ليقم الاتصال بين الكلمات ومعانيها ، بين الإشعار والحالات
النفسية ، (٢٦)

ومع سيد درويش ، يخرج الشرق من التسلية المجردة ، ايلج الى موسيقى
معبرة ، معبرة عن بعض حالات النفس ، ليس فقط عند الفرد ، وانما ايضاً عند
مجتمع . ومن هنا كانت اهمية هذه البادرة . ان سيد درويش قد أطلق الموسيقى
الشرقية في سياق التاريخ . انه يجعلها تعبر ليس عن نوع من التلذذ والتلذظ ،
ولكن عن مسيرة . وعلى هذا ، فهو « الواقعي » * الاول . وبصفته هذه ، هو
يعطي للعقبة الحاضرة رائدها الذي شق الطريق امامها . وفي سنة ١٩٢٢ ،
ركتب بنفسه ، وبمعاونة أحد الحرفيين ، آلة بيانو تستطيع ان تعطي ارباع
النغمة التي يتميز بها السلم الموسيقى الشرقى عن سلم موسيقانا . وهو ينشر ايضاً
كتاباً لتعليم الموسيقى . وقد نشرته جريدة « النيل » بصورة متسلسلة . وتعتبر
محاولته لاصلاح التقنية الموسيقية ، التي لا أستطيع ان ادخل في تفاصيلها ، تعتبر
على جانب كبير من الجرأة . فهو يحمل منطقاً ، وحركة في تتابع الفقرات
واللازمات الموسيقية ، ويقدم المفاصل في النغم الذي كان يجري في الماضي باستمرار
لانهاثي .

وقد تتابع ، بعد سيد درويش الكثير من الموسيقين ، سأختار فقط واحداً
منهم ، سبق ذكره : « الاستاذ » * محمد عبد الوهاب الذائع الصيت . انه ابن لأحد
المؤذنين . فهو يتصل اذن بالجذور الدينية للموسيقى : لقد كان والده مؤذناً
لمسجد سيدي الشعراىي : وهذا الامر يذهب بنا بعيداً في التاريخ وفي الصوفية
الاسلامية . وها هو يدخل الى الازهر : فقد كان والده يريد ان يجعل منه

(٢٦) محمود المقاد : « البلاغة » ٢٧ ايلول ١٩٢٧

الوسط ، وهذا النوع من « البهجة » من التأوهات الجريجة ، والرعات
المكلومة في الصوت عندما يصل الى اللحظة المؤثرة . وقد اعطتها الدراسات
القرآنية الجديدة التمرس باللغة النبيلة ، بالفصحى . ومع ذلك،ها هي قد أصبحت
فنانة محترفة . فتذهب من عيد عائلي (فرح) الى عيد عائلي ، ودائماً في زي
الصبيان . وفي سنة ١٩٢٤ ، تتركز في القاهرة . وفي عام ١٩٣٤ تظهر في
الراديو . وبانتظار ذلك كان الشرق قد اكتشف أميركا . أعني استخدام الاذاعة
التي دشنتها سوسن عام ١٩٣٢ . وشيئاً فشيئاً، أصبحت أم كلثوم الوحش
المقدس الذي تزحف الجموع اليه . فتغني ليالي بكاملها مقابل أتعاب تقارب الألفين
أو الثلاثة آلاف جنيه ، ولا تسجل اسطوانة بأقل من ألف جنيه . ولكنها
تظل وفيه « للحشمة » . انها رمز خلقي في الوقت نفسه الذي هي فيه فنانة
تحدث الجلبة حول نفسها . وعندما انتقلت الى السينما، أصرت على ان ينص (في العقد)
على انه لا يجوز تقبيلها على شفيتها . ان اقصى ما يمكن أن تسمح به هو ان تعطي
يـدها للتقبيل . فكل شيء اذن ينسجم عندها : الصوت الذي لا ينضب ولا
يغضب ، واستعمال « اللغة » * الفصحى والفضيلة والحشمة ! ويكتمل التألف
(السانتيز) أيضاً عندما تعلن بعد ذهاب فاروق ، انها حفيذة حقيقية للرسول :
انها « شريفة » * . انها تجمع ، حينذاك في نظر الجماهير الشرقية كل ما
تستطيع الآية النسائية ان تملكه من قدرة على الاثارة للحماسة ، وكل ما
يملكه المجتمع من اكتمال .

وليالي « أم كلثوم » ، التي يعلن عنها مسبقاً بوقت طويل تحشد التشكيلة
الكاملة من الطبقات والافراد، من الاستاذ الجامعي الى الفلاح . والبعض يستأجر
أجهزة راديو في السوق السوداء للاصغاء اليها . والذي لا يملك التيار الكهربائي

يسرق سلكاً ليحول به تيار جاره اللحام . اما الوجيه فيوزع الدعوات بالجملة محاولاً ان يقني على طريقته مهابة الطريق الواسعة . والزوجات اللواتي تأكلهن الغيرة بذهبن للنوم عند جارائهن . والصبيات يُطلن في ذلك اليوم وقت قبولتهن ، حتى يستطعن اطالة السهر . وبعض الهواة الذين يستمعون لام كلثوم منذ عشرين او ثلاثين سنة قد اكتسبوا بفضل ذلك سمعتهم ، كقوم مهووسين ومستثيرين : وهكذا فان ملاكا معروفاً في مصر العليا لا يعرف كيف يمنع نفسه ، في اللحظات التي يتأرجح فيها الانفعال العاطفي في صوت ام كلثوم من اطلاق الزغاريد المدوية .

اتجاهات موسيقية
جديدة
واكن الاشياء تمضي في سيرها المعتاد . فالفنانة الكبيرة بدأت هي نفسها ايضاً ، بأن يولي عهدها ، ولتصفح مدرسة النقد الفنية النازعة الى اليسار فرجاء النقاش (٢٨) ليس على اي شيء من الطراوه بالنسبة لام كلثوم . انه ينكر عليها انها طلقت قضية بلادها ، وانها لم تعد تعبر عنها الا بصورة مصطنعة ، وانها اصبحت محترفة جشعة لا تبتغي غير الكسب .

لقد وقعت عام ١٩٥٥ ، مشادة كبيرة حول تأخر الموسيقى... المصرية وهم يقولون « تخلف » * الموسيقى المصرية - فالتقدميون يفضحون هذا التخلف في الموسيقى ، كما يفضحونه في التقنية ، والسياسة الخ... وكل منهم ينحني على الموضوع ، ويهز رأسه مقترحاً وصفات علاجية . اما النقاش فيقضي بأنه لا

(٢٨) رجاء النقاش « في ازمة الثقافة المصرية » بيروت ص ٧٦

وصفة علاجية تنفع رغم ان الشعب مريض . فهذا المرضي ، هذا المعطل ،
ينحصر في ان الشعب المصري ، والشعب الشرقي على العموم لا يعيش في حالة
من التبلي الموسيقي ، لان هذا الشعب يتألم . وليس بالوسع اصلاح نقصه الفني
النسبي الا بحمله على التقدم في كل الميادين .

والفنانون بدورهم ، يطرحون على انفسهم المشاكل نفسها ، هل يلزم اختيار
الالهام الغربي ام الالهام الشرقي ؟ ويعودون دائماً الى المحاوره بين
مستعمي الدكتور فوزي : ومعلوم ان اغلبية الموسيقيين يميلون نحو الاتجاه
الغربي ، وعلى راسهم عبد الوهاب نفسه . اكيد ، ان هذا الطابع الغربي لا يزال
يبدو لنا منحللاً فيما يشبه الافيون أو الشراب المقطر . ومن جانب آخر قنحاز
ام كلثوم الى الجانب المعادي للتيار الاوربي وخاصة لتقليد الاتجاه الاوربي :
« انا لا اهتز ابدأ لسماع الاوبرا او الاوبريت الغربية وما يلزمنا هو ان نوسي
موسيقانا على اساس من تراث جدودنا ، وان نحضر اصواتاً جديدة ، اصواتاً
ملائمة لتطور لاحق مقبل ، وان تقتصر على آلات العزف الشرقية . » انها اشارة
الى محاولات عبد الوهاب فيما يتعلق باستعمال الآلات (الغربية) . ولكنها
تبدو وجهاً يزداد كل يوم ايغلاً في عزله . وتعكس الصحافة عمليات
استجواب تبدو اكثر الحاحاً يوماً بعد يوم ، فلنصغ الى هذا الفتى الاسكندري ،
الذي يصيب كبد المشكلة : « الموسيقى الشرقية ليست الا دعوة للاسترخاء ،
ونداء الشهوانية الجنسية المنحطة . أما الموسيقى الغربية فتروي ، وتصور ، وتمثل
وترجع الى حركات فكرية ، والى مدارس ثقافية . هذا الشاب قد عضه
الفضول الارتكاسي (المندفع بعيداً عن المركز) ، ان صح القول . وانا اغضي

عن النقد العنيف الذي يثيره حالياً في اوساط المثقفين ، فن تقليدي جعل منه السائح الاجنبي فناً شرقياً نموذجياً ، أعني الرقص الذي يسمى الرقص العربي ، على صفحات الاعلانات ، او رقصة البطن ، ان كان لنا ان نسمي الاشياء باسمائها . فهذا النوع من الرقص يثير استهجاناً كل يوم متزايداً من جانب « المثقفين » * وحتى فنان مثل محمود الشريف رفع الصوت ، مؤخراً في مناظرة بينه ومحمد عبد الوهاب ، احتجاجاً على هذا الاسلوب العربي المزيف ، وهذا النوع الشرقي المشبوه ، الذي يعتبر مضرراً على قدر الضرر الناتج من تقليد الغرب وفي نظره ، هذا الاسلوب ليس في الواقع غير بقايا التراث التركي الفارسي ، وليس عودة الى الاصول الحقيقية . والحقيقة في البلاد العربية ، هم يبدأون بالبحث عنها في عملية سليمة للانقاذ ، في الفولكلور ، اي في الهامات الرجل العامل . وان مراسلين يذهبون اليوم لتسجيل الاغاني الشعبية ، وحتى هذه الدقات الايقاعية على الطبول التي يطلقها صيادو الأسماك على البحيرات لمطاردة السمك : ويبدو أن هناك ايقاعاً خاصاً لكل نوع من الاسماك . وهنا أيضاً ، تدهشنا مصر ذات الزجاجيات التركية والتخاريم المصنوعة على الطراز الايطالي عندما تنحني بيديها هذه الاشياء المستعارة التي حملتها اليها القرون والاجيال ، وتذهلنا بما تدعنا نتبينه من أغوار تراث لا نهاية لقدمه ورسوخه في الماضي السحيق . « الزار » * نفسه يغري هذه الوجوه من الفضول . وربما يكون في هذه التراتيل نوع من الشفاء للنفوس ، كان أفلاطون يعرفه جيداً وتطمح السيفونية الى استعادة سلطانه الغريب .

لقد بدأ المثقفون المصريون بتأطير كل هذا التطور في الخطوط الرئيسية للملامح التاريخية التي يقدمها التسلسل الزمني لعملية الانعقاد . ويميز فتحي

غانم (٢٩) مثلاً ، مرحلة أولى من تاربسخ الموسيقى التقليدية : تلك مرحلة « الدور » و « الموال » . انها تتفق مع حياة الأعيان وأبناء الذوات الذين كانوا يبحثون عن الملمات الرفيعة . وتبتدىء مرحلة ثانية مع ظهور الطبقة البورجوازية الصغيرة : فكان طه حسين في الادب ، ومختار في النحت ، ويوسف وهي في المسرح ، وام كلثوم في الفن ، وكلهم يملكون في نظره الخاصة المشتركة ، وهي أنهم ابتعدوا عن المجتمع القروي وقاتلوا على جبهتين في آن واحد : ضد التقاليد القديمة وضد جمالية أبناء الذوات . انهم يشكلون نوعاً من القوة الثالثة في الفن . ولكن ثورتهم تنحل وتبتهت مع نجاحهم . فالاحتراف والدعاية يغزوان كل شيء ، كما يسيطر الانسياق مع الطابع الشكلي . ولم يعد مجال التفاخر ، الحسب والنسب وانما امتلاك سيارة ضخمة والحصول على اشتراك في نادي الجزيرة . وهكذا عاد عبد الوهاب . بفرديته الاناوية ، وفريد الاطرش بتفاهته كمراهق مسن ، القهقري بالنسبة لسيد درويش .

وفي كل مكان آخر تطورت الموسيقى ، هكذا يقول هؤلاء النقاد الذين يستولون في تشاؤمية مميزة : اما عندنا ، فقد بقيت الموسيقى مكانها ، انهم الفاشلون ، والطلاب المرفوضون من معهد الموسيقى عندنا الذين يعتبرون افضل الملحنين : مثلاً ابراهيم حجاج ، انور مرسي ، وعطيه شرارة . يلزم ، اذئ ، ان يكون النظام رديئاً . اننا لا نستقي كفاية من الأغاني الشعبية ، من أغاني الفلاحين ، وأغاني العمال الحرفيين . ان من الضروري احياء الفولكلور عندنا ،

.....
(٢٩) فتحي غانم (وليس غالم ، كما ورد في النص الاصلي المترجم) : سلسلة مقالات في مجلة « صباح الخير » اكتوبر ١٩٥٧ .

بفضل تقنية مكيفة من الغرب ، : انه اعادة بناء الذات بوسائل مستوحاة من الاخرين . ولنعترف بفضل هؤلاء النقاد . وحتى لو اظهروا بعض الجور والقسوة بالنسبة للذوق الوطني ، وحتى لو ذهبوا أحياناً الى حد تشويه الشيء المتميز بالطابع الخاص ، فان لهم فضل طرح المشكلة واثارة الحوار . ونتيجة الحوار مرهونة بحركة قد تنبع من الاعماق ، فان حركة فولكلور تنشأ بوصفات أجنبية غريبة لن تخدم غير الدعاية . ولكن اصالة يبحث عنها ، حتى في اقصى جذورها ، وتبنى وفقاً للإبداع الموسيقي العظيم ، تستطيع أن تعمل الكثير في سبيل ترقية الفن في هذه الشعوب وفي سبيل ترقية هذه الشعوب بواسطة الفن .

في ١٩ يناير ١٩٥٩ ، قدم مسرح الاوبرا في القاهرة ، وهو شهير بتقاليده في فن المغناة le Bel Canto ، سيفونية لمؤلف موسيقي شاب يؤلف على الطريقة الغربية : انه ابو بكر خيرت ، وقد يكون في سيرة حياته مساهم جدير بالاهتمام ، فقد بدأ يدرس الطريقة التقليدية ، على يد استاذ هو موسيقار تركي ثم يذهب الى مدرسة العمار . وفي باريس هو محرز جوائز في فن العمار (فن الرياضة) ويتقدم في التمرس بالتأليف الموسيقي وتكوين الاركسترا ويتبع هذه السيفونية الفولكلورية : المؤلف ٢١ Opus 21 الذي يسمى فيه لاستبعاد ثقل التقاليد ، على ان يعيد ، بناء حقيقة بسلاسه ومجتمعه ، بالاستعانة بموارد وبامكانيات نظام الاوركسترا الغربية : « ان طابعه الشرقي مرسوم بوضوح : فهو في بعض اللحظات يوحي برقصة القضبان الفلاحية الشهيرة : « التحطيب » * وهناك حركة أخرى تستعير من فولكلور الاسكندرية « رقصة المناديل » ، التي تدخل في رقصات الاعراس ، ثم وصف لجريان النيل . وبعد ثغرات طويلة على الآلات الوترية تشير الى صعود النهر ، تحيي الآلات النحاسية الوصول الى

السودان » . وان نشيداً عسكري الطابع والنبوة يوميء ولا شك من قبل المؤلف ، وفي نفوس السامعين ، الى الامكانيات المقبلة التي يعد بها السد العالي (٣٠) .

المحاولات والتقصيات التشكيلية
قد يكون من العبث البحث عن سير متوازٍ تماماً بين تطور الفن الموسيقي في الشرق وتطور الفنون التشكيلية . انما يشعر التحرك العصري ، هنا أيضاً ، بضروراته ومقتضياته . وربما بصورة جذرية أكثر مما في الميدان الموسيقي : اذ ان التقنيات ، ومصادر الالهام ، والاهداف المنشودة ، وفتات الجمهور التي تتوجه اليها هذه الفنون ، تتحدر بصورة كاملة تقريباً ، هذه المرة ، من الاتجاه الغربي . فالمصور والنحات العربيان يلزمهما الكثير من اللطافة والدهاء للاقناع بانتمائهما للماضي . أكيد انهما يستطيعان الذهاب للبحث في فن المنمنمات وفي توشية الكتب وتنويرها عن السوابق البعيدة لتأنيقهما في رسم الخطوط والالوان ، وفي المبدأ الاسلامي القاضي بحظر التصوير ، قد يجد ان الدعوة للتعبير التجريدي . ولكن المفاهيم التي أحاول ان استقصي عن العلاقات بينها تخضع في وقت واحد للتغير التاريخي ولعمليات اختيار دائمة . فالنشاطات الفنية تتأطر داخل مجموعات هي لا تشكل الاجزاء من كلها . وهذا الكل يتضمن مقتضيات الفعل مثلما يتضمن حاجات الشهوانية . فالكلاسيكية في التصوير ، او دروس المدرسة الباريسية ، التي تلتقتها غالبية هؤلاء الفنانين او تقصبات الحريالية والمدرسة التجريدية تحمل تشكلات من هذا النوع وعلم

.....
(٣٠) وبالامكان التحدث هنا عن محاولات الموسيقى اللبناني توفيق سكر بالحديث نفسه .



اطلالة على القاهرة القديمة، من خلال فرجة في مأذنة بجامع طولون كليشه للسيدة



٤ برك على كورنيس النيل بالقاهرة صورة فوتوغرافية لروجيه فيوليه

تفسير دائم التجدد ، وتقترح وسائل لم يسبق نشرها . ظاهرياً ، وليس بالوسع كذلك ، فهم اثرها دون الرجوع الى التغيير الذي يتناول ، في هذه البلدان ، بفعل الأبداع الصناعي ، الحوار بين الطبيعة والمجتمع .

ويندرج سير « واقعي » بالمعنى المبتذل للكلمة ؛ في حوار بسيط بين تعبير مطابق والممارسة العملية الاجتماعية ، وكلاهما مستوحيان من العقل المتعقلن ، « ام المدنية الآلية وأختها » . والشيء في هذا الاصطلاح ، الشيء التقني مثل الشيء الجمالي ، يستطيع ان يحدد نفسه كصدام العقل مع عالم يفتته ومع مجتمع يتباين ويتميز . ومعلوم ان العصر الحاضر يوحى الى البلدان العربية مثلما للبلدان الأخرى اندفاعاً هائلاً نحو التغيير والتحول . فالسدود فوق الانهر ، وارتفاع مداخن المصانع تشهد على تغيرات يسمي لترجمتها وخدمتها كل فن ذي تعبير مباشر والتزام جماعي . وعلى العكس ، فهناك اتجاهات اخرى تنبذ هذه القابلية للفهم والادراك . وهي تبحث عن مبادلات أكثر لطافة ودقة بين الشيء - الشيء الخارجي أو التحفة الفنية - وعالم الاعماق . أي العالم الباطني ، في نظر أنصار السريالية ، ولكن يمكننا القول أيضاً انه عالم الشعر الصافي ، او عالم الفكرة ، اذ ان العالم الباطن والعالم المتسامي المتقابلين بالنسبة للحياة العادية ، يقيمان فيما بينها علاقات تراسل وتصادي ، وان التضاد الحقيقي الذي يضع عمليات الاختيار الفنية في مواجهة بعضها البعض ليس تضاداً بين العالم السفلي والعالم الفوقي . انه التضاد الذي يواجه ويناقض بين هذا البحث الاكتشافي المجرد عن الالتزام أو المنسلخ عن الالتزام وفن لا يعزف عن الاسهام العملي . انه الفن - الوظيفة ، اذا شئنا (أكثر بما هو فن تعبيروي) او الفن - الدلالة .

وفي هذا الامر ، نجد التفسير لواقع ان الفن التشكيلي الشرقي ، على غرار الادب ، يتجدد في اتجاهين متنافسين . ففي مواجهة « الواقعية » * المصرية في القصة القصيرة والرواية تقف عمليات الاستقصاء اللازمية التي تقوم بها الرمزية . وسوف تتركز عمليات التقصي التي يحاولها فنانون عرب في الرسم والنحت ، سوف تتركز هي أيضاً ، على هذه المسافة او تلك من الموقفين القصويين اللذين يشكلهما المذهب التجريدي والمذهب التعبيري (أو التصويري) ، تبعاً للازياج الرائجة في الفترة المعنية ، وللاستعداد الشخصي عند كل فنان .

لقد أسست في القاهرة ، عام ١٩٠٨ ، أكاديمية للفنون الجميلة ، بفضل معونة ورعاية الامير يوسف كمال . (٣١) ولذلك الجيل الذي أصبح قديماً ، كان ينتمي فنانون مثل محمود سعيد باشا الذي كرس الدكتور هنري القيم مؤلفاً موحياً له ويبدو محمود سعيد في جوهره امرءاً يترجم العالم ويعكسه ، ولكنه أيضاً يسعى لتحويله واحداث ما يشبه الطفرة عبره ، انه واقعي يحاول ان يتجاوز نفسه . ويكتب القيم : « الحدائق هي هنالك . وقد تعرضت زرقة السماء لكل انواع العنف وهدأة الضحى هي تعب ، واذا كان الرسام يرقد في غرفته بالطابق الاول (بالدور الاول) فان أحلامه تحمله الى المنظر القديم ، نساء واقفات ، وصدورهن مشرثبة في الريح يتلعن كبرياء واعتزازاً بكونهن مرضعات هذه الارض ، (٣٢)

(٣١) حول تاريخ هذه الحركة الفنية ، انظر ، الدكتور ارشوت Dr Arschot «الرسامون والنحاتون في مصر المعاصرة» بروكسيل ١٩٥١ ، وايمي عازار : « النساء المصريات العاملات في الرسم » القاهرة ١٩٥٣ .

(٣٢) هنري القيم : لوحة حول « محمود سعيد »

هؤلاء الفنانون الذين شقوا الطريق ، أو بالأحرى هؤلاء الفنانون الذين وصلوا اليوم الى عمر النضج ؛ قد تبهم آخرون ، وظهرت مدارس كثيرة ، دامت مدات متفاوتة في الطول . وفريق الفن المستقبلي ، الذي تأسس عام ١٩٣٩ ، بفضل مبادرة جورج حنين ، لم يبدُ عليه انه أحرز انتصارات على الصعيد التشكيلي . ه لم يظهر لنا ان السريالية قد فتحت للفنانين المصريين ، في ميدان الفن التشكيلي ، الدرب الى آفاق جديدة . والفنانون الذين تركوا أنفسهم ينخدعون باغراءات هذه المدرسة ، لم ينضموا اليها بصورة سطحية ، فان في باطنهم عقداً دقيقة لا تستطيع السريالية ان تمتصها مثما استطاعت في الغرب ، ووجدت لها الحلول . ولكن هنا ، انا أسجل انكاري لهذا القول : ان للباطن الشرقي عقده الدقيقة . ولكن العالم المتسامي او دون العقلي ، الذي تستحضره السريالية عندنا له أيضاً عقده ! واذا كان الاختيار السريالي لا يبدو عليه حتى الآن ، انه اثار في الشرق نجاحات في الفن التشكيلي ، فان سبب ذلك لا يعود الى عجز في الالهام ، ولكن الى نقص في مرتكزه المادي . الصورة والنتوء . فالشرق لم يحقق حتى الآن ثورته حول حقوق الشيء ، ان جاز لنا القول . ففي الوقت الحاضر ، هو يهدف اليها بالاحرى بواسطة الانتاج الصناعي ، أكثر مما يهدف بواسطة الابداع الفني . انه يرع الى الجانب الذي يتطلب عجلة أكثر .

صحيح ان هذا التأخير ، هو يعوض عنه بواسطة امتياز ، انه امتياز فن الزخرف العربي الذي عرف تيوفيل جوتيه الطيب ان يتبين فيه ملحماً شرقياً للرومانسية ، ففن الزخرف المصنوع من الكلمات والخطوط ، أي من « المادة السماوية » لو كان للسماء مادة ، كان يقود بصورة جد طبيعية الى التقصيات التجريدية ، وهذه الاخيرة لا تنفي لعبة الألوان كما يقول الرسام العراقي جميل حمودي ، وهي لا تنفيها بصورة خاصة في نظر الشرقي الذي لم يفرق أبداً بين

الشكل واللحم . ويدعم حمودي رأيه بالمثل ، انه يعيد تكوين زخرف عربي ذي خطوط عريضة متواجبة ، وهو يلوح بالمعنى الحرفي تحت متاهات من الخطوط وهوامش من الالوان : ولكن ذلك ليس الا ذريعة ونتيجة . فان دلالة الاثر تذهب الى ابعد . انه تجديد في نطاق الامانة (٣٣) . لان الشرق بتقاليد القائمة على فن الخط الجميل ، يستطيع ان يضع الفنانين بمنجى من المحاورات العسيرة التي تسيطر عندنا في تجربة تشكيلية بكاملها ، بين مادة مفرطة في طواعيتها للتشكل ، وعالم الدلالات .

وعلى نقيض جميل حمودي تقوم جهود القبطي رمسيس وبصا واصف (٣٤) ، الذي اشرت اليه في عدة مواضع ، فقد أسس في ضواحي القاهرة ، مشغلاً للنسيج حيث لا يستخدم غير أطفال ، وعبر هذا الفن العفوي ، هو يدعونا الى الطبيعة ، وهو لا يستخدم اي نموذج . واحيانا كثيرة تبدو كائنات حية فجأة

(٣٣) يقتضي أيضاً عرض الخطوط العامة لتاريخ المدرسة العراقية : انظر جميل حمودي : مجلة « الفنون » « Arts » في ٢٨ نيسان ١٩٥٠ ، فقد عقب تأثير فناني المنمنمات الاتراك ، تأثير « عودة » الطلاب (المدرسة الباريسية ، التعليم الانجليزي ، وحتى المدرسة الانطباعية البولونية) وفيكتور حكيم ، في المجلة اللبنانية (لاريفودي لبنان) الصادرة بالفرنسية . بيروت - ٩ تشرين ثاني ١٩٥٧ يصف بصورة تلفت الانتباه بعضاً من هذه التطورات التي لا تنتصر فقط على الرسم وانما تتناول أيضاً النحت . ومعرض الفن العراقي في قصر الاوليسكو في بيروت (انظر جريدة « الاوريان » ٨ تشرين الثاني ١٩٥٧) قد اثار الاعجاب . بصورة خاصة ازاء تمثال الشرجوية . من صنع الفنان خالد الرحال .

(٣٤) معروضة في « تجديد » كراس مصور : « الكلية » الجزء التاسع والعشرون الرقم ٢ وفي مقال « حول الفن القبطي » ، في مجلة « L'art Sacré » سبتمبر ١٩٥٦ .
انظر الرسم على الصفحتين ٢٢٨ و ٢٢٩

تحت أنامل هؤلاء الاطفال ، والمعروض الذي فتح في السنة الماضية ، في زوربخ ،
والذي اشتمل على أجل ما صنع من سجاجيد في هذا المشغل قد أظهر ، في ألوان
ساذجة ، طواويس وطيور بط تغطس في الماء ، وديكاً وسط زهور والطيور
حارسة الابقار ، وهدهداً وغراباً ، وطيوراً وسط شجيرات ، وكان اهم أثر
يمثل جنة عدن ، فنرى حيوانات تضطرب داخل دغل يمكن حسبانه سابقاً
للأشجار وتتعلق حول بقعة قرمزية : جسد وعلين ، والصبي القبطي اليافع
الذي نسج هذا المنظر غرق في النيل * بعد ذلك بقليل .

وفي نيسان ١٩٥٩ ، حول معرض الرسام « ندى » جمع فريق صغير من ابناء
الانتلجنسيا الرفيعة بعضاً من وجهات النظر الاكثر إنارة حول الحوار القائم في
الشرق الحديث ، وقد جمعت هذه الآراء في كراس : « المهول أيضاً » . فلنصغ
الى ندى يتحدث عن نفسه .

« ان فناً خالياً من السريالية ليس من الفن . انا اعني ان التعبير العفوي ، من
اي نوع كان ، والى اي اتجاه انتمى ، لا يستطيع ان يتجرد من جوهر الفنان ،
بصفتة عملاً صادقاً وصريحاً . وهذه الرابطة مع الجوهر ، هي الى حد ما ، رابطة
مع العقل الباطن .

« فهناك نوعان من التجريد ، أحدهما يستخدم أشكالاً مستقاة من حقيقتنا
اليومية بينما يقدم النوع الآخر أشكالاً لا توجد الا في الحساسية الداخلية للفنان ،
التي تعطي شكلاً متحرراً ، وفي الحاضر ، أنا أرتبط بالاتجاه الأول ، ولكنني
أقبل الشكل الثاني ، رغم أنني أحس به غير قابل للتحقيق .

« والتجريد المطلق هو القمة التي يريد الفن التجريدي ادراكها عندما

انظر الرسم على الصفتين ٣٤٤ و ٣٤٥

يتحرر من الأشكال العادية ، الهندسية والأخرى ، فكل فن تشكيلي يشخ
الواقع اليومي يفشل على الصعيد الخيالي (٣٥) .

ففي نظر ندى وبعض فناني آخرين ، يستعيد الشرق على هذا الوجه ، إيصاله
عاكسها، زمناً طويلاً، تعلق بتقاليد بالية وتقليد سطحي للغرب .

الموسيقى والفعل
ولنتقبل منه هذه البشائر . ولكن ،
علينا أن نقولها ، فهذه المحاورات لا تهم ،
في الشرق غير نخبة لها من القيمة على قدر ما هي قليلة ، أما الظاهرة الكبيرة ،
التي تثير كما رأينا ، المنازعات بين الجهابذة المتضلعين مثلما تثير عواطف الجماهير ،
فهي ظاهرة تقدم موسيقى يريد لنفسه أن يكون هو ذاته مرتبطاً بالتاريخ .
ولا شك في ان ارتباطاً من هذا النوع يتحدى التفسيرات الموجزة ويتأكد في
حوار ببيكولوجي أكثر مما يتأكد في تتابع المراحل الزمنية ، ولكن هذا لا
يمنع ان تخرج منه تأثيرات وأسباب ايجابية .

فان صدمة المدينة الصناعية قد أحدثت في الشرق أيضاً من الأغاني ؛ وقد
تحولت الموسيقى من كونها قلنداً شهوانياً ، فأصبحت ترمساً عاطفياً . فاكسبت
بهذا الفعل ، وبفضل الاذاعة خاصة مغزى جماعياً ضخماً ، وأكد ان خطوتها
||

(٣٥) مقتطفات من كالتوج نشر بمناسبة هذه المظاهرة للاتلجنسيا المصرية الرفيعة التي كانت
فيها لمبادرة جورج حنين الاثر الحاسم ، وبما انه قد يكون من الحافل بالدروس ان يقارن بين
هذا المعرض ومعرض نظم في الوقت ذاته تقريباً في دمشق ، حول المعلم الحرفي ابو سليمان
الخطاط الذي حقق زخرفة البرلمان السوري والذي يعمل كوريث أمين للاسلوب التزييني في عهد
الايوبيين ، وفي هذه اللحظة في دمشق ايضاً كان وزير الثقافة ينظم اول معرض للربيع للرسم
والنحت الذي كان يسيطر فيه الفن التصويري للواقع . وقد قابلت ابن ابو سليمان الذي يعمل
وفقاً لاسلوب والده ذاته ، وذلك في القاعات الجديدة للمتحف الدمشقي . « تشرين الثاني ١٩٥٩ »

لدى الجماهير تغلب عادة على نوعيتها، وان محاورات عديدة تدل على انها منذ الحرب العالمية الأخيرة ، وبصورة متزايدة ، تحمل قيمة كونها تعويضاً اكثر من كونها شهادة ، وبالنسبة للكثيرين من الشرقيين ، هي تبدو متأخرة الآن عن الانواع الاخرى عن الادب مثلاً ، وكثيرون ينكرون عليها تكرارها الكسول ، المترخي ، وشهوانيتها السهلة ، وقد بدأ الاثراكيون باتهامها بالبورجوازية او بالرجعية ، وهي اذ تشعر بالانبهار امام مجرى التاريخ ، وباعتزازها عن حق ، بمساهمتها في التطورات الداخلية التي حدثت عند جيل كامل من العرب ، تتعرض بدورها وفي حالتها الحاضرة ، لنفي التاريخ . ولقد ولدت بنموها الضرورة ، لاستبدالها هي ذاتها بأشكال اكثر ملاءمة . ومطابقة ، ومع ذلك اذا كانت الموسيقى الغربية رغم انتصارات حقيقية لها قيمتها ، لم تحل مكانها حتى الان ، فذلك لانها لا تستجيب لنداء الارواح نفسه .

ان السلم الموسيقي عندنا لا ينزل الى ادنى من نصف الصوت ، من نصف النغمة . ان السلم الصوتي يرتقي بواسطة درجات يعتبرها الشرقي كثيرة الفجاجة ، وهذه المجموعة من التضاريس ، يعرض هذا السلم على العالم . وان الاكتشافات الايقاعية التي قام بها موسيقيونا الكبار قد انتهت بأن جعلت من هذا السلم اداة خارقة للسيطرة ليس فقط على الحلم والرؤيا وانما ايضاً على الواقع ، بحيث يؤكد واحدهما الاخر ويثبت اهليته وقيمته ، فنتج عن ذلك انه يبدو شيئاً خارجاً بالنسبة للشرقي . وهو يجيب امله بمنطقة المضلع الزوايا وبنهمه للمحسوس ، اما موسيقاه هو ، فهي عاطفية كلها . ففي قلب « الطرب » * تسيطر الازدواجية الفرحة او الأسى ، اثاره الحواس وحرمان اكثر حسية ايضاً : هذا الذي كان يحمله « الموال » * القديم ، والذي لا يزال يحمله رغم الغلوفي الحكاية او في الانسياق العاطفي غناء ام كلثوم ، انها موسيقى ذات « لزوجة » خانقة ، إن جاز لي القول ، معطياً لهذه الكلمة معناها السارترى (نسبة الى جان بول

سارتر) فعليه ، انظر كيف تثير هذه الموسيقى انفعال هذا المستمع العربي الذي تخضعه كل ثقافته لمقولات « الحلال » * و « الحرام » * المتعاكسة لأنتيتاز خير وشر متعاكسين ، ومتواجهين على طرفي نقيض .

اذ ان الانفعال الموسيقي يحرك بحق ارجاء في الكائن تتركها الاخلاقية في الظل ، وهكذا في مجال الجنسية الفسيح ، كل ما يتجاوز النزاع بين المشروع واللامشروع : هذا الجانب الواقع بين الضوء والعتمة من المتعة التي تبدها تحديدات الكلام والاخلاق التقليدية ، ان موسيقى من هذا النوع تدغدغ عالما داخليا يزداد سرية بمقدار ما يلزم كل فرد ان يصونه من حدود الكلمات ، وفي الوقت ذاته من تصنيفات علماء الدين . وهؤلاء الاخرون لا ينفون سلطان ندائها وجاذبيتها ؛ والدليل هو تصديهم لها . انهم يرهبونها بمقدار ما تثيره فيهم من انفعال ، اي بمقدار كبير ، انهم يبعدون عنها قدر طاقتهم الى خارج حقل الضمير الاخلاقي ، وبعملهم هذا هم يقيسون سباجاً بين الانسان الداخلي وامتداداته ، بين وجوده الحميم ونشاطه . فالموسيقى والكلمة يقومان امتداداً لبعضهما البعض ، ان صح لنا القول ، في الجانب والآخر من شريعتيها القاهرة .

وعلى هذا يسمى العربي لان يقبض على العالم بواسطة القول ، بينما هو يتلقى كينونته في أعماق أغوار غنائه ، واذا لم نشأ ان نحدث تحويراً في هذا الوضع المتوازي بالذهاب الى حد الغلو في رسمه ، لوجدنا في التطور المعاصر للفصاحة السياسية من جانب ، وللموسيقى العاطفية من جانب آخر ، العمليتين الكبيرتين من ردود الفعل عند هذا الانسان ازاء تاريخه الجديد : احدهما داخلية وثانيتهما خارجية . انما يثير هذا التاريخ حركة اعتراض على كل شيء

فبالنسبة للكلمة ، هو ينكر عليها عدم قدرتها على الفعل ، وبالنسبة للموسيقى هو ينكر عدم ملاءمتها للحاجات التي اصبحت ملموسة منذ الآن، وبالنسبة للاخلاقية هو ينكر مثاليتها ، ووراء المحاكمة تطرح للنظر والمناقشة الابنية الاجتماعية كلها . ومع هذه الابنية تطرح الملامة على ما كانت تحمله ، حتى الآن لهؤلاء القوم من حماية ومباهج .

الفصل الثاني عشر

قيمة الجانب السياسي

ان ما يثير انتباه الاجنبي عند العرب اليوم ، وما يحتمل اكثر ما يكون من المكائنة في اقوالهم وكتاباتهم ، هو عودتهم لأخذ مقعدهم في الحياة الدولية ، وهذه العودة التي لا تهم بحق العالم النفسي ، والمؤرخ مثلما تهم رجل السياسة ، تتسارع في هذه الايام ، فقد قطعت مسافة اقل بين انصاف المستعمرين قبل ١٩١٤ الى اصحاب المطالب القومية في اعوام ١٩٢٠ ، وبين هؤلاء وثوراه ١٩٢٥ من المسافة التي قطعت بين الذين انعتقوا في ١٩٤٥ ومواطني ١٩٦٠ وبما سوف يقطع دون شك انطلاقاً من هؤلاء الاخيرين في السير نحو عرب المستقبل ، فعلى كل الجانب الجنوبي من البحر المتوسط ، يغطي استقلال يزداد جذرية شيئاً فشيئاً ، ولكنه اضحى اليوم شيئاً بناء ، بصورة واهنة ، واحيانا مستعداً للتعاون ، يغطي هذا الاستقلال منطقة تمتد من المغرب الى العراق باستثناء الجزائر وحدها ، منطقة كانت لثلاث قرن خلا فقط تابعة او خاضعة (للاحتلال الاجنبي) . فعليه يصبح مناقضا للمنطق الظاهر ان تهمل في دراسة حول صيرورة

هذه المجتمعات الحركة السياسية التي تبشر بهذه الصيرورة او تدعمها تبعا للحالات المختلفة ، ... هذا اذا لم تعمل على احداث انعطاف فيها ، انما هذا الامر يشير امام التحليل مشاكل علمية ونظرية (١)

السياسة العربية
والتقدم الاجتماعي
أولا ، نجد مشكلة الاحداث اليومية
وصخبها ، وان ندرة الوثائق التي يمكن
بلوغها وصعوبة إعطاء حكم هاديء واحتمالات
مستقبل تبدو هنا أكثر من اي مكان آخر مرهونة بتعقل الناس أو بالاحرى ،

(١) هذا الفصل قد دمج عدداً من المقاطع المأخوذة من دراستي المنشورة في « الانسيكلويديا الفرنسية » الجزء الحادي عشر ، ١٩٥٧ ، تحت عنوان : « عالم العرب السياسي » وحيث يمكن الاهتداء الى عناصر من المراجع « التي حضرت بمعونة ن . توميش N. Tomiche » استغنيا عن ذكرها في هذا الفصل الذي لا يحمل الا صفة التفسير . الباقية تضيئي ان اذكر بين المنشورات الاخيرة التي استطاعت ان تحمل اليها اما اطاراً اجمالياً ، واما وقائع او تخريجات ومقابلات موحية : الاجزاء الاخيرة من مجموعة Les Cahiers de l'orient Contemporain التي يحررها ن ، توميش . و و . لاقور W . Laqueur في مقاله : « الشيوعية والقومية في الشرق الاوسط » في مجلة « صحيفة التاريخ الحديث » « جورنال أوف مودرن هيستوري » عدد سبتمبر ١٩٥٧ ، ص ٢٨٠ - ٢٨١ ، و ب . روندون P. Rondot في مؤلفه : الاسلام والمسلمون اليوم ، ومصير الشرق الادنى » . و ا . حوراني A . Horani ، في مقاله : الشرق الاوسط وازمة السويس عام ١٩٥٦ في « ميدل ايست افيرز Middle East Affairs » او كسفورد ١٩٥٨ ، ص ٩ وما يلي ، وقسطنطين زريق : « أي غد ؟ » بيروت ١٩٥٨ ، وحسن صعب في كتابه : « الوعي العقائدي » بيروت ١٩٥٩ الذي يستعمل عن صواب ، التعبير الصيرورة العربية ص ٦٣ وما يلي . ومحاضر موررو بيرجر في « وولد بوليتيكس » تموز ١٩٥٨ ، تعليماً على عدة اثار حديثة صدرت باللغة الانجليزية .

بلا تعقلهم وبعمليات التنافس الداخلية والخارجية ، وبأخطار العنف أو دقة المناورات ونعومتها ، كل ذلك يمنع في هذا الميدان امكانيات القاء تقديرات تظل عرضة لتكذيبات المستقبل . فالتاريخ ذو الوتسيات الرحبة والأوتار الطويلة ، هو الذي بهم وحده ، العالم الاجتماعي (٢) . فهو يوفق الى حد معين بين التذبذب الفوضوي للاحداث ومنطق الأعماق . وان موضوعه العام الذي هو منذ نصف قرن ، وبصورة تتأكد كل يوم بقوة أكبر ، تحرير الشعوب المستعمرة ، يتطابق مع موضوع تحرير الانسان شريط ان ينظر اليه في مجموعة كبيرة وعلى مراحل طويلة ، مع موضوع تحرير الانسان . بصفته مادة سياسية ، هذا أكيد ولكن أيضاً بصفته انساناً . وهذا هو السبب الذي يحملنا على ان نتعاون في ذلك . ولكن التوافق لا يتم دائماً في تفاصيل الازمان والاماكن .

فالحركة النقابية ، وتحرير المرأة ، رغم تلاقيهما مع حركة التحرير القومي ، تصطدمان احياناً بالحركة القومية . فان حزباً يرتكز محور نشاطه على المطالب الاجتماعية ، مثل الحزب الشيوعي ، يتبع ، منذ جيل ، خطوط سير تجعله طوراً في تحالف وطوراً في تضاد مع قادة النضال . والخلاف يذهب ، احياناً ، كما نعلم ، الى حد النزاع العلني . وبالمقابل ، اذا كان بالوسع ، في الفترة التي سبقت مباشرة ، توجيه التهمة للجمعيات الدينية ، وبصورة عامة للفوارق الدينية بتضامنها مع السلطات القائمة ، التي

(٢) ف . بروديل F. Broudel . في بحثه « التاريخ والاعوام الاجتماعية ، المدة الطويلة » في مجلة « حوليات Annales » S.E . C . العام الثالث عشر ، رقم ٤ - اكتوبر - ديسمبر

كانت تابعة ، حينذاك ، للاجنبي ، بصورة تتفاوت في شدة الصلة ، يجب الاعتراف ان الدين الاسلامي عند بورجوازيي المدن ، وتزمت الداعين للاصلاح الديني ، قد عرفا كيف ينحازان الى صفوف المعارضة . فقد انتهى الدين الاسلامي الى ان يرمز ، بواسطة اللغة ، الى ما « يتميز » به العرب ، أي الى « ما هم عليه » ، من وجوه كثيرة ، وفي وقت كانوا فيه معارضين خاصة للاستعمار الامبريالي ، ولكن على العكس ، في جيل ما بين الحربين ، كانت مواقف اللايمان تعلن احيانا كثيرة انفصال النشء الجديد وقطيئته مع تبعية لم يعرف المؤمنون القدامى كيف يتفادونها .

وان على دراسة نمطية للمقاومة ان تحدد خصائص ردود الفعل الاولى عند الجهاز الاسلامي ازاء تمرکز السلطات الاجنبية . ان هذه الردود قد توحدت ، حينذاك ، وفي كل مكان تقريبا ، مع التيار المحافظ ، الديني والاجتماعي : بصورة الجهاد المقدس وعصيان القبائل ، وتمرد أهل المدن وان عمليات الاسهام الحاسمة ، المجلوبة والمتواضعة رغم ذلك ، التي قدمتها المرحلة الاولى من التبعية : الامن المدني ، والاصلاح الاداري ، واستصلاح الموارد ، وتوسع الثقافة الصناعية واللغة الاوربية ، كل ذلك يصيب هذه الاشكال الأولية بصفة البقاء القليل الأمد ، فمنذ ذلك الحين ، من تمثل هذه العمليات الاسهامية المجلوبة ، والجديدة ، الذي جرى بوعي لدى الانتليجنسيا ، وبصورة غير مباشرة عند الطبقات الاخرى ، تولدت القيادات التي كان لها الدور الفعال : زغلول ورفاقه الوفديون في مصر ، ورسل الكتلة في دمشق وحلب الخ .. والتعابير التي تتسمى بها واحدتان من اشهر هذه الحركات : الكتلة السورية والوفد المصري تدل على انه لم يكن الامر يتعلق ، في ذلك الحين ، إلا بتجمعات دون عقيدة محددة . ان كل فترة القومية المناضلة تعمل قيمتها وتصلح بالضبط خاصة بهذا اللأوضوح .

ومع ذلك ، فان مقاومة من هذا النوع ، اذ تحمل ميسم النضال الذي تخوضه ، وحتى ميسم الانجذاب والنفور ، في آن واحد ، على كل حال ، ميسم المثل الذي يوحى به الآخرون . ان مقاومة من هذا النوع تخضع ، طبعاً ، لضرورات تكتيكها مثلما تخضع لأخطار القمع . وهي لا تبهر بالتحليل ، مثلها مثل القمع ،^(٣) ومن هنا كان عدم الانتظام في ردود فعلها تجاه الظاهرة الاجتماعية الصافية التي تشكل في نظرنا ، الشيء الذي يهم ، ولكنه لا يظهر كذلك إلا بعد وقوعه . وعدم الانتظام هذا يستطيع الذهاب الى حد تغيير الآية الدالة . وبالرغم من ان الحرية واحدة فان وحدتها تظل احياناً كثيرة وقتاً طويلاً قبل ان تدرك الأفهام ، ووقتاً أطول قبل ان تتحقق . وفي اوربا ، يضعوث اليوم ، وبصورة كلاسيكية ، الديموقراطية الاقتصادية والاجتماعية على نقيض الديموقراطية السياسية . وعليه يجمع تيار القومية العربية الى الكثير من نواقص اخرى تميز بها عادة حالات الطفولة ، عمليات تردد محيرة ازاء فئات لا يتبينها عن قرب كافٍ لانها تخرج عن نطاق الحدث الى مسافة بعيدة جداً .

ويمكن تفسير الكثير من هذه الملامح بالوتيرة المتعجلة والتي لا تترك تسارع في سير هذه القومية . والتبعية تعطي عنها تفسيراً اوضح بمقدار ما تفرض على التصرفات والسلوك ، حتى بعد تجاوز عتبة الاستقلال ، التردد او الغلو . أكيد ان عرب الشرق الادنى لم يعد يتحكم في بلدانهم « مندوبون سامون » اجانب ، ولكن هؤلاء العرب لا يزالون ، في اكثر الاحيان ، يحدّون ، في نظر بعض الاجانب ، وليس بين اقلهم شأناً ، على أنهم قطع الغيار البشرية لأبار البترول ا

(٣) التأخير المتعلق بتحليل العالم العربي ، تحليلاً اجتماعياً ، من الاشياء التي تلفت الانتباه كذلك ، أية كانت اسبابه ، ولكن رد فعل خصب بدأ ينضج ، ويرتسم .



« جنات عدن » سجادة جد ارب محترف رسميس ويصا واصف.

وعلى الأقل كموضوع التنافس بين الشرق والغرب . وطالما الأمر هكذا ، يظل تاريخ العرب خارجاً عن محوره المركزي ، وشخصيتهم التي هي موضع تجاهل ، تبحث عن تأكيدها في نوع من الثأر الغيبي (الميتافيزيقي) أكثر مما في العمل الإيجابي . ومن هنا كان بهاء ما يسمى بحركتهم القومية وتعاليمها ، هذه الحركة القومية التي تتضخم فيما بين الحربين وتبلغ ذروتها بعد الحرب الأخيرة وتقودهم ، من حالات رضى جرى تأجيلها الى حالات فشل مؤلمة ، ومن خيبات أمكن التغلب عليها الى انتصارات ناقصة ، تقودهم ، في نهاية المطاف الى الانعتاق السياسي شبه الكامل . ولكن هذه الحركة القومية مهددة بان تعجز عن تحمل مهام مسؤوليتها ، لفقدان التجديد في طرق عملها ، ولانعدام العمق في تحليلاتها .

ونرى بذلك كل ما يستطيع الموضوعان الكبيران اللذان يتركز عليهما هذا البحث ان يحتفظا به من حتمية الحدوث الوشيك في خضم الاحداث الأكثر إثارة لهزة الانفعال . وقد حاولت ان اتابع في هذين الموضوعين ، وعلى مستويات عديدة ، حوار العرب بين الرمز والصيغة ، بين الكوني والتاريخ . ولكننا نرى ايضاً كم يؤثر بطور الاطار السياسي ، السطحي ومغذي الالتباسات على واقع الاعماق ويجدده . ومن هنا كان هذا القدر من اخطار أخطاء تهدد الدراسة كما تهدد الفعل : فكل شيء يوجد في الظاهرة العربية . فتتميز الأقباط ليس أقل وضوحاً من تميز الاكراد ، انما وجه التعقيد في الموقف ، هو ان الاقباط يوافقون على عملية تعميم تنسف كل الحواجز ، في بعض الاحيان . هذا الذي تعامت عنه سياستنا ايام الانتداب على المشرق . وان تقديراً سليماً ، وان كان مشبوهاً للتيار الوحدوي العربي قد أعطى دون شك السياسة البريطانية حتى ما بعد ١٩٤٥ تفوقاً على سياستنا . ولكن هذا التفوق قد استبعد بسبب نمو عوامل سبق

للسياسة البريطانية ان لعبت اوراقها ، « فالثورة في الصحراء » قد اثارت حمية
اهاشمين ، ثم أرهقتهم عندما اصطدمت بثورات اخرى آتية من أعماق أبعاد .
فالزعماء تصيبهم الشيفوخة كما تصيب الافكار لأن المنطق يُفل ولأن الاوضاع
تتغير

وفي هذه الاوضاع ، تم ، وحدها ، ليس العناصر والتفاصيل ، وانما
الكليات والاتجاهات . وحياة كل مجموعة تُصنع من عمليات قياس وموازنة
داخلية ، ومن دورة لانهاية بين الكائنات والاشياء . وبما انها تستعصي
على التوضيح العلمي ، فاننا ندرك انها تظل بعيدة عن فهم الرجل السياسي . او
بالأحرى ، هذا الاخير ليس سياسياً الا بقدر ما يحس بها ، بالغريرة ، ويعبر
عنها . ولهذا السبب طاب الشرق ، حتى اليوم ، زعماءه . بان يختصروا في
شخصيتهم وان يحملوا في اعمالهم دلالات الحوار الذي يضرر الواقع الحي لهذا
الشرق . وهذا الحوار هو الذي يهم ، ايضاً ، الدراسة الحالية .

التشكيلات الضيقة

ان كثيراً من المشاكل يتضح ،

و كثيراً من المعضلات الزائفة ينهار

حالما نلاحق هذا الواقع الاجتماعي في ألطف تصاميمه وأدقها ، تاركين صعيد
المجموعات الكبيرة . فالعالم العربي يضم ، على أمدائه الشاسعة ، المتطورة بصورة
متفاوتة ، مجموعة نماذج من أشكال ، وفي المجتمعات نفسها ، ولنقلها دون
خوف ، ظاهرات ذات اعماق وأعمار مختلفة . وهو ، في اضطرابه بأحداث
مزلولة لم تؤثر على جميع ارجائه بالصرامة والشدة نفسها ، يكتشف ليس فقط
سلام واسعة من الانماط ، وانما احياناً كثيرة جميع مراحل تطور الانماط نفسها :
فهو لا يبدو متحفظاً فقط ، وانما مختبراً ايضاً .

بين الأشكال الموجزة من التعاون السياسي ، يعرف الشكل الذي تغذيه
المهاتبات الشخصية ، هنا ، اتساعاً استثنائياً . اكيد ، ان ذلك لا يعني ان « شرعية »
الزعيم خاصة بالبلاد الاسلامية بل على العكس ، في هذه البلدان ينحصر عمل سيد
المنابر ، في قواعد ضيقة ، تليها التقاليد . وان احترام القيم القديمة ، والتحديدات
القديمة ، متقدم فيها بمقدار ما يريد المجتمع ذاته محافظاً على التقاليد . ولكن أبة
قاعدة ، وأي استقرار لا يمكن تصوره في الشرق إلا في داخل نوع من «توازن
بين سوائل » حيث تعلق ، هنا وهناك ، قوة شخصية ونجاح مغامرة إبهام
الأشياء لفترة من الزمن . وهذا الشيء الذي هو صحيح ايضاً على نطاق القبيلة ،
هو احياناً صحيح على نطاق الامم . ومما لا شك فيه ان هذه العلاقات تعبر
عن اوضاع ، وتعكس قوى ، بل ربما هي لا تستقي خطورتها إلا من هذا
الامر . ولكن هذا لا يمنع أن ابعاءات هذه العلاقات ، او اغراءاتها تعرف في
هذه البلدان اهمية لا تعرفها في البلدان الاخرى . واكثر الاحيان ليست السياسة
فيها إلا نوعاً مما يسمى نعومة المداورات والمناورات في البلدان الاخرى .
وهذا الامر هو صحيح لدرجة ان الاختصاصيين الاجانب يساقون باستمرار الى
القيام بعملية تشويه خطيرة . فهم لم يعودوا يرون أي شيء إلا من زاوية العلاقات
الانسانية ، او كما كنا نقول ، من زاوية ، السياسة « المحلية » او سياسة اهل
البلاد الاصليين . فتصرف « الوجهاء » الذي تحملت فرنسا اللوم بسببه فيما لا
يقدر ، وانتخاب اناس معينين مسبقاً ، الذي تحملت بريطانيا بسببه ما لا يقدر
من الملامة ، بشكلان النواة والخيرة لسلوك العرب أنفسهم . وبالرغم من ان كل
هذا يفرق في عتمة وومانسية ، يتحتم عدم الذهاب الى بعيد ، حتى في ايامنا
هذه ، لنجد الامثلة على طرق سميت « انسانية » ، وبالغة الانسانية » ، لا يشبها ،

التشبيط الكافي ، عدم ملاءمتها للزمن الحاضر (٤).

وفي مواجهة هذه الخاصة السائلة تقيم الأسرة الشرقية استقرار عاداتها .
ويحشد العملاء جماهير ، احياناً بالغة القوة ، حول بطاركة او زعماء سياسيين او
على الأقل حول سمسرة انتخابات . وقوة هذه التكتلات المرهونة بالارضاع
قد سيطرت زمناً طويلاً على الحياة البرلمانية في العراق . وفي الفترة الاخيرة ،
قامت ، في سوريا ، حملة لفضحها . وفي لبنان ، ايقظت حوادث ١٩٥٨ ضراوة
هذه القوة التي كانت خامدة . فقد تشابك أثرها مع تأثير الخصائص الذاتية
لمختلف المناطق والأقضية ، ومع فعل المنافسات الطائفية . وفي مصر سجلت
فترات عديدة تراجع (او تقلص) هذه الوسائل القديمة للعمل ، فترات تخللتها
نكسات شتى . فقد خلف « ابناء الذوات »* الحكام الاتراك والشركس .
وابتداء من ١٩٢٣ ، فتح حزب الوفد المجال للخدمة أمام ابناء فلاحين ، ولكن
اكثر الاحيان ، كان المسيطرون على مقاليد الحكم لا يزالون يخرجون من
صفوف الابناء البارزين لطبقة اصحاب المهن الحرة ، والذين كان كل شيء يفصلهم
عن الجماهير . وزمناً طويلاً بعد زغلول ، ظل زعيم مثل اسماعيل صدقي في الحكم
مدة لا تقل عن مجموع الفترات التي قضتها في الحكم الوزارات الوفدية الاولى .
ومعلوم ان هذا الزعيم قد استطاع ان يحكم فقط بفضل حنكته وأواصر النسب
والتعالف التي تربطه بالطبقة الارستقراطية . والديكتاتورية العسكرية قد
قلبت هذه الاوضاع ، ورفعت الى الحكم أناساً من منشأ اكثر تواضعاً : انهم
مصريون حقيقيون ، بلا مرء ، ومنبثقون من اوساط ريفية . ولكن هنا

.....
٤) فهذه هي التهم التي توجه بالفعل ، الى كل الزعماء المخلوعين ، دون استثناء : الشيشكلي
في سوريا ، والنحاس في مصر وخاصة نوري السعيد في العراق . ولكن دون التنويه بهذه
المناقشات ، فان مما له دلالة هو ان فترة ما بعد الحرب الثانية قد شهدت نمو بل ونجاح التوسع
البترولي او « الغزو » البريطاني ، انطلاقاً من عدن ، نجاحاً متناقضاً للمنطق الظاهر ، رغم
عدم ملاءمة هذا التوسع مع ظروف الزمن الحاضر ، في الشرق الاوسط « انسانيون »
وانسانيون اكثر من اللازم ! » .

ايضاً لا يزال باقياً بعض الشيء من النظام القديم المرتكز على سلطة كبير العشيرة ، وقد بقي مع تنظيم القيادات القروية ، الذي اصبح موضع جدل متزايد . والقربة المصرية لا تزال تحتفظ ، ليس فقط باحزابها المتناحرة ، وانما ايضاً بالهيئات الاسامية لهذه الاحزاب ، التي يعود أصلها الى أزمان صحيحة : مثلاً « الدوار »* او منزل الشرف او البيت الكبير (المضافة او بيت الضيافة) وهو مركز حياة تختلط فيها معاني السباحة والكرم مع معاني الاستبداد والتعسف . أكيد ان هذه الابنية المترتبة تسير نحو التدهور والانحطاط ، وان « العمدة »* المصري لا يحمل سمعة أفضل من سمعة « القايد »* الجزائري . ولكن أليس من المستحسن معارضة « العمدة » مواجهة .

والمدهش ليس في كون مثل هذه العوامل لا تزال تفعل فعلها (وفي أي بلد هي تخلق من الاثر) وانما في كونها تفعل في ظروف من التعقيد النسبي ومن التقدم الثقافي ، دون ان تتجرد من اسلوبها العشائري القديم . ففي سوريا ، مثلاً ، تعود سلطة حزب مثل « حزب الشعب » باكثريتها الى نفوذ عائلة الأتاسي الذي يهيمن على مدينة حمص . ولكن ، على العكس يتقلص هذا الحزب امام الخصائص الذاتية المنافسة في مدينة حماه . ولبنان ، حين ينظر اليه من خارج يعرض حياة سياسية نثيرة ومعقدة : وهي تجد احياناً مشقة في التغلب على مشاركة من نمط جد قديم : هي « الطائفية » التي يشجبها الجميع والتي لا يتغلب عنها إلا الأقلون . ويلزمنا القول اننا نرى تاريخ العائلات ، والتاريخ المحلي على العموم معروفين ، في لبنان أفضل معرفة . ونحن لا نملك في الحقبة الحديثة ، وفي أي بلد عربي ، ربما باستثناء المغرب ، دراسات احادية الموضوع حول عائلة او منطقة صغيرة مثل الدراسات حول عائلي الشدياق والمعلوف مثلاً . ولكن في أي موضع آخر نحن ، ايضاً ، لا نلاحظ حياة دستورية مرتبطة ، على مثل هذا الوثوق ، ومثل هذا الانفتاح ، بالتوازن بين المذاهب الدينية وبين الفئات

العشائرية . وبالطبع ، هذا التوازن يحدث أحياناً طقطقة (حلل فيه) . فنفرذ عائلات الاسياد المبسوط على هذا القضاء او ذاك وسلطان الطائفة على النفوس ، يقومون بتسويات فيما بينها ويتألقان في أشكال عدوانية . وكلنا نعرف الحوادث الأليمة التي وقعت في إهدن ، في حزيران ١٩٥٧ . وقد اظهرت وقائع ، حدثت مؤخراً ، ما يمكن ان تكون النزاعات الطائفية قد احتفظت به من ضراوة في هذا البلد النير . ولكن الحس السليم انتهى بالتغلب ، وروح المهادنة والتنازلات المتبادلة التي كانت تميز الميثاق الوطني المعقود عام ١٩٤٣ عادت فتجددت . ولكن ، بعد ان عاد الهدوء ، أليس طريفاً ان نقرأ في مذكرات زعيم جد موهوب ، تيجيد المساندة التي أظهرها حزبه لعمله السياسي ، وفي الوقت ذاته ادانة قاسية للحزبية العمياء عند خصومه ؟ (٥)

صحيح ان هذه الوقائع ليست إلا مظاهر منعزلة ، تم تجاوزها وان المسؤولين يكذبونها دائماً . واكثر الاحيان ينحل النزاع وهو لم يكديبين : وفي هذه الظاهرة ما يدعو للثناء على النضج السياسي للبلد . ولكن ما يعطي هذه الملامح ميزتها ، وخاصة اهميتها بالنسبة لدراستنا ، هو استطاعتها الظهور في آن واحد مع تجلي مثل هذا النضج . وهذه المظاهر من عدم الانسجام الداخلي ليست نادرة في البلدان العربية : فالطائفية في لبنان ، وبقاء الجماهير على ذهنيته القديمة ، في مصر ، والنزعة للقتال عند القبائل في العراق مثلاً ، كل ذلك يشاهد متواجداً ومتشابكاً مع ظاهرات وخصائص أخرى تشهد هي ؛ على الاندفاع نحو الضياء . وعلى تطور أخذ يرتكز على التجهيز ، وعلى تقدم النقد .

إذ ان هذا التباين أو التمايز الذي يُغري كل الذين يفيدون منه : الاقطاعيين ، والديمقوجيين (اي الذين يتملقون الجماهير) ، والاجانب - يسود ليس فقط العشيرة الريفية ، ولكن أيضاً احياء المدن ، فالحي أو المحلة يؤكد أحياناً استقلالاً في

(٥) كمال جنبلاط : حقيقة الثورة اللبنانية ص ٧٦

السلوك يكاد يكون تاماً ، ويسهم في ذلك نمط التخطيط العمراني ذاته : هذا الفن السكني الذي يكندس المساكن حول « دروب » معقدة ، لا سبيل للأجنبي أن يهتدي فيها ، وفي هذه المجموعات تولد بين الجيران ، روح عائلية يهيم فيها نفوذ بعض العائلات الكبيرة من جانب ، ومن جانب آخر نشاط الفتية الاشرار « قبضيات » * بيروت أو دمشق ، « وفتوة » * القاهرة .

لقد جعل الروائيون المصريون الحديثون هذا الجو مألوفاً لنا ، هذا الجو الذي يحمل آلامه ، ولكن يحمل مباهجه أيضاً . فإلى جانب القبضيات الذي يضع نفسه في الصفوف الامامية من كل مظاهرة سياسية ، ومن كل عملية جمع أموال لحساب هذه اللجنة أو تلك ، ومن التجمعات التي يحييها هذا السياسي أو ذاك ، إلى جانب هذا القبضيات ، قد نجد حسناء الحي ، آتسة ، « الدرب » ، « فتاة الدرب » ، التي يلقي غنجها ودلالها المرح على اللوحة القائمة من الايام المتعاقبة ، ويستطيب الناس لذة القيل والقال ، والعلاقات مع الجيران والاعباد : دوامة كاملة تؤدي إلى حمل الشبان الذين تشد بهم قوى أخرى إلى الشعور بتجاذبهم بين نفور هو أكثر الاحيان عاجز كليل ، وادمات عادات تمد شيئاً فشيئاً سلطانها . وفي هذا الجو من حياة الحي أو المحلة يظهر من وقت لآخر المرشح للانتخابات فيقيم « سرادقا » * ويلقي خطاباً مدوياً ، يظهر فيه حرصه على التوفيق بين القوى المختلفة التي تسيطر على هذه الحياة المغلقة ولكنه يكتفي بدغدغة هذه الحياة . وان تهيبجا أكثر معرفة وذكاء يستطيع أن يطلق من هذه الحياة قوى أخطر وأرهب .

وهذا هو ما يطمح إليه الزعماء والاحزاب . ففي سوريا ، حافظت (الكتلة الوطنية) الهرمة زمناً طويلاً ، على شبابها بفضل العناية في اللفتة التي كانت توجهها إلى « احياء » دمشق . وأحياناً كثيرة كانت تنظم اجتماعات في الاحياء ،

وكان ذلك مناسبة لخطب مشبعة بالتقاليد الدمشقية ، وما من احد أحس بذلك أكثر من لطفي الحفار الذي جمع في « مذكراته الكثير من هذه الخطب فهو يقول : ان زيارة احياء المدينة كانت تنفحنا حياة جديدة . وكل واحد يوحى الينا بفكرة ، وكنا نقتلع هذه الافكار من روح الحي : فنؤلف من اشتراكها مع أفكار اخرى تأتينا من الاحياء الاخرى فكرة واحدة هي فكرة المدينة ، فكرة قوية ومثالية .

ويعود كاتب المذكرات احياناً كثيرة الى انجاز يعبر عن احدى الحاجات الاكثر قدماً في المدينة العربية : التمرين بالماء . فقد اتاحت له جهود عشر سنوات ان ينجح في جرّ مياه الفيحة الى دمشق دون ان يكون للرأسمال الاجنبي أي نصيب في المساهمة . وقد استوحى في هذا العمل من مجهودات مؤسسة بنك مصر . ولكن ما يهنا هنا ، هو الرابطة العميقة والمؤثرة على مشاعر الجماهير التي تقوم بين هذه المنشأة ونظام المدينة ، اكثر مما يهنا التيار القومي على الصعيد المالي . وانه ارتباط يرجع الى عهود سحيقة ! فان موالية رومانية من دمشق تمثل على احد وجهيها نبع الفيحة تقريباً بالاسم نفسه .



(عملة من دمشق مصكوكة باسم
الامبراطورة اوتاسيل Otacile زوجة
فيليب العربي (عام ٢٤٤ الى ٢٤٩
بعد المسيح) . موجودة في خزائن
المجموعات العلمية الفرنسية . تمثل
اصطلاحاً لمغارة تخرج منها مياه نهر
صغير ، وداخل المغارة تستلقي جنبة
ماء حاملة في يدها اليسرى قرن البركة
والوفرة في الغلال وفي يدها اليمنى سنبل
قمح رمز الحصب . والى يسار المغارة

يقوم مذبح للقرابين يدل وجوده على الطابع المقدس للمكان. وفوق المغارة او على منحدر الجبل، كما يحتمل يقوم بناء صغير يضم تمثالا للمارسيا وهو واقف ويمثل من جانبه الايسر. وتمثال مارسيا كان يرمز الى المستعمرات الرومانية التي حصلت دمشق على وضعيتها في عهد فيليب العربي. تعني الاحرف - دمشق عاصمة المستعمرة. وتحت المغارة كلمة «اليتايغ» (نقلًا عن هنري سيريج H. Seyrig الذي تلفظ بتسليمي القطعة النقدية الاثرية وبتفسير رموزها)

لكنما التكتلات الحزبية وعمليات حشد الانصار كانت واصبحت بحق . عرضة للهجمات المتزايدة يوماً عن يوم . وقد بدأت تظهر - حتى بالنسبة لمستغليها المتظاهرين بالطيبة والشفقة، او بالقسوة - بمثابة قوى ترمسية معدة ليس للخدمة وانما لتحريك في خدمة افكار اوسع . انها اللحظة التي تخضع فيه للتفتت : ولكن سير العملية في هذه الظاهرة سوف يدوم طويلاً . وما من احد يستطيع ان يقول عنه انه انتهى حتى في اكثر البلدان تقدماً . ففي كل مكان ايضاً نرى ان عمليات الانتقال المعقدة من تكوين الى آخر هي التي تمنح الغنى في سلام التدرج البسيكولوجي وعنصر المفاجأة في اللعبة السياسية في الارياف وخاصة في المدن . وهذه العمليات الانتقالية ، التي يمكن للدرس ادراكها ، والتي هي عزيزة على القلب وأثيرة اليه بصورة خاصة ، وفوق ذلك ممتعة للعين ، تشكل اللوحة الخلفية للسياسة ، بلي وتجدد ، راديكالية التطورات ولكن طنطنة الحدث اليومي : هذه بعض ملامح من الحياة العربية تعطيها في ايامنا هذه ، خاصيتها القصوى .

وعلى كل من يحللها ان يأخذ بعين الاعتبار لوحات هي اكثر ما يكون

اتصافاً بطابع مألوف ، ومنذ ١٨٥٠ كان فلوير^(٦) يتأمل بأعجاب في دمشق ،
« الافندية » * وهم يشغلون انفسهم حول اولى طاوولات البليارد ، وبالفعل فان
المقاهي قد لعبت دوراً كبيراً في بناء الامة العربية وتكوينها ، منذ تلك
الايام . وتشير مذكرات عبد الرحمن الرافعي الى اهمية حياة
المقاهي في مصر : فهناك بين طاوولات النرد ، وتحت تأثير المشروبات
المنبه ، تسيل الاحاديث التي تحمل المستقبل ، وتقرأ الصحف وتطلق
التعليقات على كل احاديث القيل والقال . والانفصال بين الجنسين الذي كان
لا يزال سائداً . يعزل الرجل عن المرأة لسهرات طويلة : وتلك كانت طريقة
اخرى للافلات من الخلية الاصلية . وللانفصال عن « العصبية * القديمة ، اذ أنه
في المقهى يتلاقى أناس من كل اصل ومنشأ . وكل رابطة فيه هي الاهتمام
الذي يحمل بصورة مشتركة بهذه الفكرة او تلك . والتفضيل المشترك لهذا
الزعيم او ذاك . ومن قبل كان احد ابناء الاسكندرية المغمورين الذي تقلب
في عدة مهن وضيعة ، عبدالله النديم الذي اطلق عليه فيما بعد لقب « خطيب الثورة »*
يجد اول جمهور للسامعين في قهوة المطرية على ساحة العتبة الخضراء بالقاهرة .
وكان يلاقي فيها جمال الدين الافغاني كل مساء . و« كما كانوا يقولون » كان
هذا الاخير يوزع الدخان بيده اليمنى ، بينما كان يوزع الثورة باليد اليسرى
وكان عشرات من الاتباع يحيطون به . وبينهم ازهري طويل الباع سوف
يصبح سعد زغلول .»

وكان لا بد من ان تخرج من هذه الاجتماعات شخصيات مدعوة لمستقبل
على مثل هذا الاشراف . وهناك ايضاً مقاهٍ لا تضم غير الفاشلين الذين هزمتهم

(٦) رحلة الى الشرق : طبعة بوده Budé باريس ١٩٤٨ الجزء الثاني ص ٢٤٥

الحياة . وتظهر مقاهٍ أخرى ، أكثر تواضعاً في القرى ، وهي ستسهم في النشاط الأول لحزب الوفد . ومن كل مكان تهب روح جديدة من التجمع ، « روح الكتل » * . ويبدأ الناس بالانفضاض عن الابنية القديمة ، ويشرع الانسان في هز روابط العشيرة ، والحزبية ، واواصر الطائفة المذهبية ، أو القرية ليرتبط مع اناس آخرين تحت رموز اخرى . رموز على اشد ما يكون تنوعاً واحياناً كثيرة اتساماً بالطابع التجريدي ، بالرغم من مخاطبتها القلب بقوة : مبادئ كبيرة يضيف اليها اسم عربي جميل القه ويزيدها توهجاً ، (٧) وتزدهر « النوادي » * والكلمة قديمة « ندوة » * « ونادي » * . والشيء كذلك اذ انه في مدينة مكة ، ايام الرسول ، كانت تعمل « اندية » كانت تسيطر عليها العائلات القريشية الكبيرة وانما اليوم ، تتعلق القضية بأهداف جديدة تماماً ، وفي سوريا ، يشكل خصوم حركة تركيا الفتاة اندية في كل مكان . وتنتشر الرابطات العديدة لغايات التقوى ، او الاحسان وعمل الخير او الدفاع عن هذا المثل الأعلى او ذاك ، او من هذه الآية او تلك الدالة على الامة الباحثة (عن نفسها وعن العالم) .

والحلقة التي يلتقون فيها لقتل الوقت ، بصورة بائسة في العاصمة هي على العكس في مدن المناطق احياناً ، اماكن لالتقاء اعضاء الجمعيات والرابطات المعدة لمستقبل هام . وهكذا تتكاثر عدة من التجمعات التي تعكس كل الحركات الرائجة او على العكس ، كل النزعات التي لا تزال تعمل في الخفاء . اذ ان الحلقات واللجان تحمل بين مزايا عديدة ، مزية انها تعطي السياسة شهادات براءة تختفي وراءها مثل اعمال البر والاحسان ، وعمليات التقى والنشاط الفني ، وابتداء من

(٧) وفي ذلك أيضاً، لجوء الى الطابع المقدس.

١٩٢٧ ، اخذت تُسجّل في مصر ، حركة ازيداد متصاعدة في عدد المنظمات الدينية ، واهمها هي حركة الشبان المسلمين التي ستظهر بصورة لاحقة . وعلينا ايضاً ان نذكر نمو الحركة الماسونية التي لم تخلُ من احداث آثار ذات طابع سياسي في مصر ، وخاصة في لبنان . واخيراً فان من اللازم ان توضع هذه النزعة للنشاط الاجتماعي في سياق الانتقال من مفهوم للعالم الى مفهوم اخر .

وبالطبع كل هذه الطاقة ملزمة احياناً بأن تلوذ بالحياة السرية ، فالتأمر هو موضع جاذبية ويمكن اخطار بالنسبة اليها ، مثلما يقيم عالم الجيم ، الذي يزداد حرارة بسبب ما يلاقي من اضطهاد ، علاقات اخوية بين اعضائها . واسهام الجمعيات السرية هو ، اذن كبير في كل التاريخ الحديث للقومية العربية . ولننصت الى الرواية التي يسردها مناضل قديم بلهجة من بردت همته :

« في تلك الايام ، التي كانت مغلقة ومستعصية على كل حركة وطنية او قومية وكل فكرة حرة ، كنا على مقاعد الدراسة ، بمتلئين حماسة لاعادة مجد العرب ، وعز لغتهم ، وفيما بيننا داخل البيوت ، او في ذرى الجبال ، كنا نعود دائماً الى دراسة اوضاع الوطن العربي وتذكر رجاله العظام وشعرائه الكبار والى ضرورة التجمع حول الايمان الوطني . وكل ذلك كان يعتبر جريمة كبرى ، في ذلك الحين ، ويحدث الرجفة في النفوس » .

هذه الحركات قد بعثت الثورة العربية ، اثناء الحرب العالمية الاولى . وبالاختصار تكذب فعاليتها التي لا جدال فيها محتواها المشحون بالاهواء والجدل الكلامي . وان فيها ما يدهش كل من يجهل او يقدر بأدنى ما هي عليه القوى الاولى ، القوى الانطلاقية التي تعمل من وقت لآخر ، على « انضاج

الخيرة « اللازمة لظهور « زعيم » *

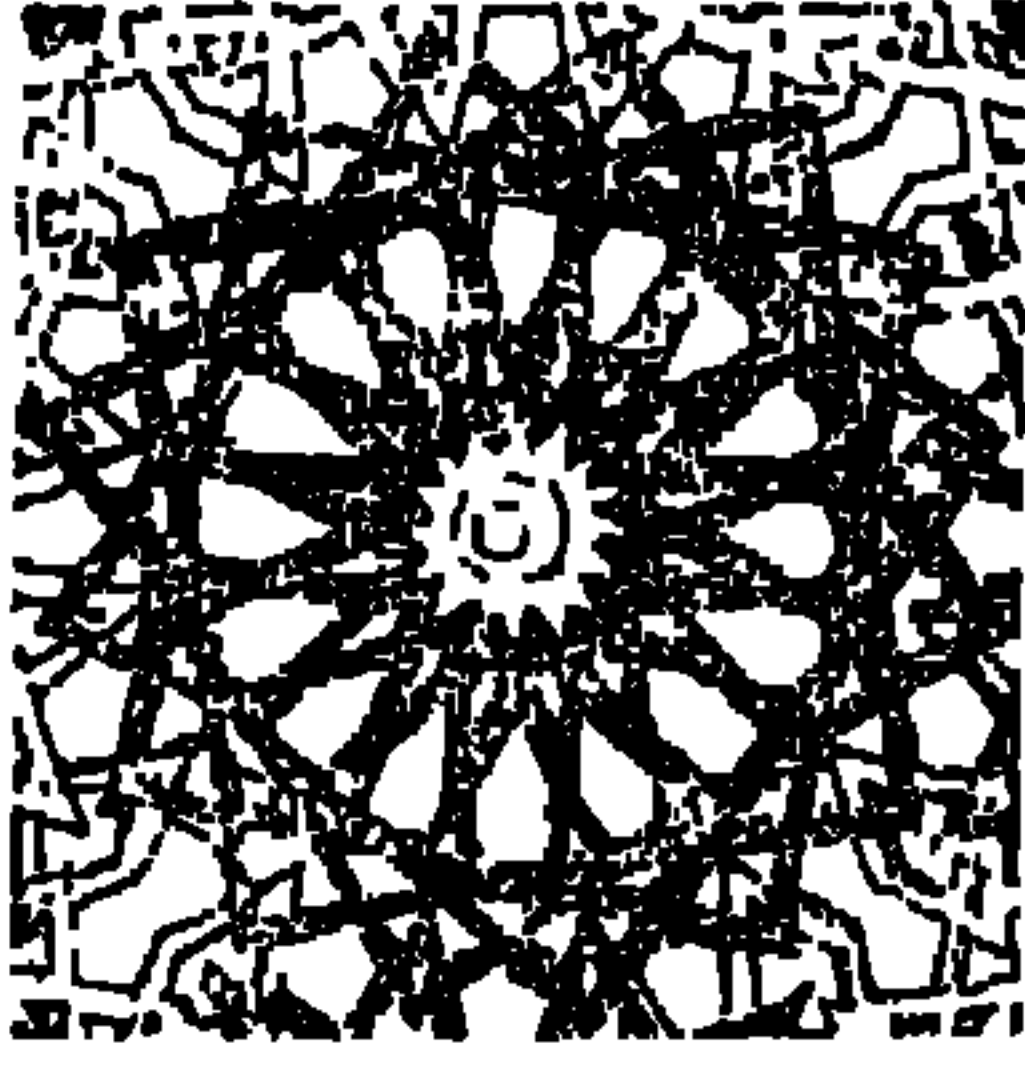
تشكلات واسعة

« فالزعيم » * الذي يرتفع الى نطاق

الوطن القومي العربي ، يتسع بمهايات

تنقل لحسابه التقليد القديم القائم على اجماع « الامة » * انه يحتفظ ببعده لاهوتي ، ديني ، على الرغم من ان دلالاته هي زمنية تماماً . ومعلوم ان انزلاقاً متزايداً يفصل بين القاعدة والهيئة العليا ، (او قمة الهرم في المجتمع) ، المتطلعة ، حكماً واضطراباً الى الحياة العصرية والمشدودة حتماً الى جوار مستمر مع الخارج فهذه القاعدة لا تزال تخضع بصورة متفاوتة القوة ، للاشكال المألوفة والضيقة من النزعة للنشاط الاجتماعي التي وصفتها قبل قليل : فهناك حقاً ، حياة الضاحية والحي ، والمحلة والمدينة وحتى حياة القبيلة او الطائفة . ولكن لم تظهر بعد المؤسسات البلدية الراسخة ولا اجهزة الادارات على نطاق المحافظات ، الموضوع على طراز عصري : فكل شيء يجري كما لو ان عصارة قوية ، لكن باقية على وفائها للمثل العليا التقليدية ، تندفع نحو ذرى تزداد ارتفاعاً وسمواً يوماً بعد يوم ، متجاهلة أو مهمة السفوح المعتدلة للنمو ، فان اكثر ما افتقر اليه الشرق ، حتى الان بصورة بالغة ، هو الاعتدال في المواقف تجاه تيار الحياة العصرية ، والتنظيم الاساسي أو حتى تجاه الاندفاع الاخلاقي ، فالاندماج لا يقوم الا على مستوى اوضاع عتيقة لن تنقذها اصالتها من البلى ، أو على مستوى وطني ، هو نفسه خاضع لتأثيرات معارك العهد الاستعماري ، وهو على كل حال شديد التأثير بندايات حركات وحدوية اوسع : وحدة عربية او وحدة اسلامية ، و وحدة افريقية - اسيوية الخ ...!

وفي الأساس ، كل شيء يبدو متعادراً من اشعاع حول مركز قوة (٨) المهابة التقليدية المنبعثة من الجدود ، بطولية المجدد الذي هو أيضاً منشيء ولواء يمشي باسمه الناس .



فالواقع يضطرب حوله ، كما لو كان يضطرب في دوائر وخطقات محيطة ببعضها البعض ، الى ان يجد هذا النظام من الامواج ، ان صح القول ، نظاماً منافساً يستطيع ان يعاكسه. والاسلام يقترح ، حلاً لهذا التناثر. مقولاته المتعاكسة (انتياز) العنيفة ، وتصنيفاته الجذرية وتحريماته التي تترك الطبيعة « تمر » بصورة حرة (ليبرالية) ،

شرط ان تخضع للقواعد الاساسية (٩) ، فأي فرق مع ما نثبينه ونجدسه تحت الحياة الاجتماعية والاخلاقية في الغرب. أن بناء ما يسمى بتكونه ابتداءً من الخارج ، متحولاً الى رقعة أرض خاصة ، أو الى بلاد ، أو الى توافر ظروف تاريخية ، يسمى الى عكس واقع ملموس مستقى بعيداً من حواليه ، والى ترسيخه ، وهناك الفرق نفسه في مجال المناقبية والاخلاق . ففي الغرب تسعى القاعدة أن تفرض

(٨) ليس من قبيل الصدف ، ان يكون اكثر الرسوم تكررأ في النقوش والتوشيات العربية هو السطح المتعدد الاضلاع . انظر الصورة المدرجة في النص اعلاه ، رسم على شكل نجمة منقوش على خشب محفور على منبر مدرسة الغوري في القاهرة ، نقلاً عن فييت وهو تكور في كتاب « مساجد القاهرة » الجزء الثاني ، صور اللوحة ٢١١ ، ولويس ماسينون : « المناهج الفنية في الاسلام » مجموعة « Syria » ص ١٥٠ كان قد نوه بهذا « الرقص للاشكال المعلقة » المميز للاسلام في نظره .

(٩) ومن هنا كان السبب في ان « الفقه » * يستطيع ان يمتقني عن الاستناد والرجوع الى مفهوم الحق الطبيعي ، الالهي ، والموحي به ، وقد كانت عملاً جديداً وظرفياً إشارة القانون المدني السوري الذي صدر مؤخرأ الى الحق الطبيعي كمصدر ثانوي من مصادر التشريع ، وهو الجالب الذي تجاهله الفقه ، شكلياً وبصورة تامة ، انظر ادمون رباط في مجلة « الابحاث » ايلول ١٩٥٨ ص ٣٣٩ و ٣٧٣ رقم ١٥ .

نفسها من داخل ، وليس من خارج . انها تجهد لتلاحق الخطيئة حتى اعماق قلب الانسان التي تلوث أقصى زواياها وأكثرها تخفياً (١٠) . فالغرب ، في الوقت الذي تغلب عليه النزعة الحميمة في نظامه الاخلاقي ، يريد نفسه ذات اتجاه موضوعي في العمل . اما الشرق فهو شرعي في اخلاقه (أي متمسك بحرفية اوامر الشرع) ولكنه بقي ذاتياً في مسلكه : الذي يشبه دائماً وتقريباً مسلك الخيال العصبي والعفوي الحركات .

وفي هذا ما يفسر أن دمج الأشكال السياسية يبدو فيه حياً بقدر ما تبقى هذه الأشكال قريبة من المركز ، وان هذا الدمج هو خلاق بمقدار ما تبقى الاشكال وفيه لتخصص بالغ القدم . وهو ، على العكس ، محظوظ بمقدار ما هي تبعد عن المركز ، بالحجم او بالادراك والتصور . وقد سبق لي ان سجلت النواقص المتعلقة بتركيبه على نطاق العامية (الكومونة) . ويمكننا ان نقول ايضاً بتركيبه على نطاق المحافظة او الاقليم ، مع العلم انه لا يمكننا ان ندرج تحت هذه التسمية فوارق ذاتية حية الجذور في تعلقها بالماضي على قدر عجزها ، حتى الآن ، عن التعبير عن ذاتها والتجسد في صورة كيانات ادارية من خط حديث (١١) مما ينتج عنه ان درجات السلم الوسطى تقع دائماً في الغلو او التقصير . غلو طالما يُحافظ على استقلالها الذاتي او يراعى جانبه . وهذا اذا لم يحظّ بالتشجيع ، وتقصير حالما يتعلق الامر بعكس خصائصها ، ليس بصورة تميز تعمل على التفرقة ، وانما بصورة تباين شريف وشهم وبهذه الملاحظات نجد التفسير لجانب كبير من

١٠ (انظر نظرية النزعة للبحث عن الملذات المرتبطة بنمطية قائمة على الحس بالفاجعة كما ابرزها ل . جولدمان L. goldman : « الاله المخفي » ، ص ٥٠ وما يلي . وبمواجهة هذه النظرية يقوم المفهوم الاسلامي حول « الفطرة »*

١١ (يظهر ان الاصلاح الزراعي الذي تقرر مؤخراً في سوريا قد ترك خارج نطاق تنفيذه جبل الدرروز الذي ليس ابدأ « عمالة درزية »

الخطأ الدولة المنتدبة في المشرق ، وبالمقابل التفسير لتقصيرات التنظيم الاقليمي او المحلي في الاوطان العربية ، حتى أيامنا هذه .

وفي مرحلة معينة من التقدم في طريقة سير التوسع والتمسيم ، يظهر الكيان الوطني مثلما تومض الشرارة . ولكنه لا يُحس به إلا كمرحلة : كعملية توقف يفرضها الاجنبي الى حد يزيد او ينقص . فالناس يريدون انفسهم عرباً ، لا مصريين او سوريين او عراقيين ، الخ . . . وهذا رغم الادراك او حتى المطالبة بفوارق أكيدة في اللهجة ، والسلوك ، والوجوه ، عدا عن التعارض في المصالح . والواقع ان الجمهوريات او الملكيات ، الواقعة فرائس لضغط الواقع الآني وتضييقاته ، والمعرضة لارتجال الزعماء ولثقل الشارع لم تكن ، حتى يومنا هذا ، تعطي غير فكرة متشائمة بصورة بالغة ، وعلى كل حال ناقصة عن التنظيم السياسي عند العرب ، رغم نجاحات متفاوتة (في هذه الكيانات الجمهورية او الملكية) .

وقد يكون من المفيد ان يشار في هذا الموضوع الى الاتجاه الانحادي او الوحدوي الذي يعبر عن نفسه بصورة بليغة والذي يستجيب له انشاء الجامعة العربية لو لم يكن يتجاوز كثيراً جداً ، بندهاته الانفعالية ، العاطفية ، حدود الانجازات المموسة . ولكن في الاساس ، أليس هذا السعي المسير للمطابقة بين زخم الاندفاع والشكل ، بين المثل الأعلى والنتيجة ، هو الذي يتصل ، عن كسب ، بمحدثنا هنا ؟ وكلنا نعلم ان الجامعة العربية أصبحت مجالاً للمشاحنات والمجادلات القاسية بين البلدان المشتركة فيها . ذلك ان فيها ، وبواسطتها تتواجه كل الميول والاتجاهات وكل المطامع والمنافسات . ومن هنا كانت بوادر عديدة على نفاذ الصبر لدى الرأي العام والملاحظة المليئة بنجبة الامل . ان هذه الهيئة لم تستطع

منذ ولادتها العسيرة عام ١٩٤٦ ، ان تحمي اعضاءها من خسارة فلسطين ، ولا ان تقيم من المناورات الدائرة في داخلها ، ولا ان تمنع توقيع حلف بغداد ولا حدوث التوتر بين العراق والجمهورية العربية من جهة ، وبين الجمهورية العربية وتونس من جهة اخرى . فالتهم المتبادلة بين « البلدان الشقيقة » أصبحت شيئاً مألوفاً . وانفضاض جانب كبير من الرأي العام عن تأييد الجامعة يبعث على الخوف احياناً من انحلالها او من ضياع هيبتها ضياعاً نهائياً . فبعد احدى دوراتها الاكثر صخباً ، أجاب عبدالله ابراهيم ، ممثل المغرب على سؤال وجهه اليه احد الصحفيين اللبنانيين :

سؤال : « هل تفكرون كعربي او كغربي »

جواب : « أنا لست عاطفياً واحتفظ دائماً برباطة جأشي . ودون ان اقصد جرح أي كان ، انا أجد ان الرأي العام في الشرق الأدنى ميال الى النزعة التجريدية . فالناس يفرقون في مهارات خيالية (طوباوية) ويفقدون رؤية الوقائع الحاضرة . وأنا لا أؤمن بالاستقرار في بلد اذا كان الحكم فيه ليس مرتكزاً على معطيات علمية » .

وفي الواقع ، ان ما ينكره اسلام الجانب الغربي او المغربي هو أسلوب العمل اكثر مما ينكر سياسة معينة ، ولكن ، مع كل ذلك ، فان الجامعة العربية لم تخلُ من الاسهام ، بقوة ، في تثبيت وتقوية الشعور العربي . وقد استبعدت طبعاً المساعي الحميدة التي كان الاجنبي يقدمها ، في بداية عمل الجامعة وهي الهيئة التي لم يكن مولدها غريباً عن وحي فردوس عدن ، والتي عرفت ، مع ذلك ان تمنعت ، باكرأ ، من اصولها المشتركة . واذا كانت مصائرهما المضطربة قد أثارت أحياناً في الرأي العام الضيق ، والشكوك ، واهياناً كثيرة خيبة الآمال ، فانها بهذه الامور بالضبط قد أرست الأسس لتقدير مفيد وقوت الشعور بوجود كيان عربي ، أسس من القوميات التي يتألف منها ، وبصورة

مناقضة للمنطق الظاهر ، كانت الجامعة ، اذن ، تدفع الى الامام ، الحركة العربية ذات الرسالة الكونية ، بخلافيتها التي يرتسم عليها التيار الاسلامي ، وفي الوقت ذاته المفهوم الحديث للأمة ، او حتى لجمعية الامم !

واخيراً ، فان الجامعة العربية تقوم بعمل لا جدال في قيمته ، بسعيها للتقدم الثقافي العربي ولتنمية البحث العلمي (١٢). ويبدل معهد الدراسات العربية في القاهرة ، بقسمه المختص بالافلام الوثائقية ، وبمؤتمراته العديدة التي تتناول مشاكل التربية ، والتقنية والمفردات ، جهوداً غنية بالوعود . فالجامعة مثل الكثير من الأشياء والمؤسسات ، في هذه المرحلة من تطور العالم العربي ، تقدم خليطاً هو غاية الاتسام بالطابع الانساني ، من الآمال ومظاهر الفشل والضعف والنجاح . وهي رغم خضوعها للمنافسات الداخلية والمبالغات التي تتضمنها المرحلة الحاضرة من حياة مجموعات السكان ، تشكل مرحلة تاريخية . فهي على كل حال ، تحتل من الصدارة من المسرح مكاناً يتجاوز بكثير فعاليتها الحقيقية . وهذا التغيير في طريقة الانارة والقاء الضوء يستطبع لوحده ان يتيح قياس التقدم الذي حققته دينامية المدينة العربية انطلاقاً من العهد الذي ليس بعيد ، الذي لم تكن لتتجلى فيه الا في نطاق السرية او في المنفى

وهكذا تبدو الجامعة في العصر الحاضر شكلاً من أشكال تملك « الامة »* بمفهومها القديم أي مجموعة التركيبات المتعددة القوميات ، او الدواية . انها تبدو شكلاً انتقالياً ، يعود ضعفه الى الشيء ذاته الذي يعطيها قيمتها وصلاحتها : أعني أهليتها لاحداث تسوية بين ما هو خاص بالعرب وما يلزمهم استعارته من الآخرين ، تحت طائلة الالتحاط . ويمكننا ان نقول الشيء ذاته عن الاحزاب والمجالس البرلمانية وحتى الحكومات الى حد كبير ، فمن الظلم ادن ان ننفي

(١٢) السادة شفيق غربال ، وصلاح الدين المنجد الخ .. والمجموعات الثمينة التي استعان بها هذا البحث على نطاق واسع .

انبثاق منظمات تاسيسية ارحب وأشد وعياً وأكثر اتصافاً بالمسلك العصري، انطلاقاً من الاشكال المحسوسة ، ولكننا البدائية ، لسياساتهم الصغيرة ولكن هذه المنظمات التأسيسية يبدو عليها انها تفقد من عفويتها بمقدار ما تكسبه من الرحابة والاتساع ، اذ كلما نمت ، تعرضت بصورة اكثر إلحاحاً لتأثير الغرب الجذاب والمنفر في آن واحد . ولأن يؤدي اتساع الاشكال السياسية وموها الى مسح طبيعتها ، ولأن تكون كل حركة تحول الى النهج العصري ملزمة بان تحرص على ابقاء اتصال يزداد صعوبة شيئاً فشيئاً مع الجماهير ، ولأن تكون الفعالية مضطرة لان تدخل في حسابها الامانة (للماضي وتقاليده) ، كل ذلك يطرح امام العرب مشاكل لا يسعهم حلها إلا بفضل نضج مستمر او عمليات توافق ومطابقة تتم بصورة دورية . والطريق الثانية تسمى طريق الثورة . عند ذلك يصبح «الزعيم» هو المطلب بان يعيد بعث الاصاله في الانظمة المكيفة او المستوردة . وهو ينجز تحقيق هذه المطالب بنجاح يتفارت في الدرجات ، دون ان يبخل الشعب في منحه حماسه ، ولا السلطان المطلق في تعريضه لكل اخطاره . على كل حال ، فان على الزعيم ان يُبليغ اكثر من ان يقوم بمهمة التمثيل ، ودوره ، وعمله وحتى وجهه وكلامه ، كل ذلك يبشر بالانتقال من واقع رديء الى غدٍ افضل .

ونجد التفسير للكثير من الظواهرات المميزة ليس فقط للحياة البرلمانية ولكن ايضاً للحكم ، وللنظم الاساسية السياسية ، على العموم في بلدان الشرق ، في كون الشيء المحتمل الوقوع ، الشيء في حالة القررة هو دائماً اكثر حقيقة من الشيء الحالي ، الواقع فعلاً ، وانه يحس به بعمق اكبر ويُقبل بصورة افضل ، في الشرق .

فالاستبدال السريع للاجيال ، بعضها ببعض ، وأولية الحماسة على الحكمة والتعقل ، وأولية الأمل على التجربة والخبرة ، والمرجو على المكتسب : وتأخر

كل ما هو كائن عن كل ما سيكون . كل هذه الملامح يمكن تفسيرها دون شك بنوع من عمل الهدم الذي يقوم به تعاقب الزمن . فمنذ نهاية القرن التاسع عشر ، قامت شعوب ، كانت في السابق متجهة بكليتها ، ولا تزال حتى اليوم متجهة جزئياً نحو ماضٍ هو بالعبارات الحرفية ، نقطة اتصالها مع المطلق (هبوط الوحي بالقرآن الكريم ، غير الخلق) قامت هذه الشعوب تحول على المستقبل طاقات شعدها حرمان طويل . ولكن العلة في هذا الامر تكمن في أنه بين هذا الماضي الذي يغمس في الجوالألهي ، وهذا المستقبل الذي يفرق في ضباب الاحلام ، ينتصب « الزمن التاريخي » ، الذي هو من فعل اوروبا ، هذا الزمن الذي يلزم أياً كانت ينبغي ان يتكلم كلامه ان يخضع لنواميسه . ومن هنا كانت الكثير من حالات سوء التفاهم ، وخطر خطير ومن وقت لآخر هزات عنيفة . ولكن ايضاً ، كان الصمود لاعتلاء التاريخ بواسطة الآخر وضده .

حضور الآخر وفي نظر العرب ، الآخر هو

شخص مألوف . ودون ان نعود بعيداً القهقري حتى نصل الى « الحديث »* عن هرقل ، يمكننا ان نذكر باسهام « اهل الذمة »* في نقل التراث الروماني البيزنطي . وكما يلاحظ رينه حبشي ، كانت أسبقية التفكير الفلسفي واللاهوتي والقانوني في الغرب تطرح ، من وجوه عديدة ، ومنذ القرنين التاسع والعاشر (ميلادي) مشكلة تكيف وتجاوز . والأسبقية ذاتها . في الترتيب الزمني ، تشير اليوم على صعيد ادخال التقنية العصرية ، الصعوبات نفسها والامكانيات نفسها . انما بسبب أن نقطة الإنطلاق للحقبة تتفق مع انطلاق التوسع الأبريالي

تلقى جيل الفتنة الثانية (١٣) المدنية الصناعية او خضع لها قبل ان يارسها . وهو يعاني من عمليات وابعادسوقلة حظوة يتعذر البعض منها على الأقل من حقيقة ان الاسلام المرتكز على مفهوم الحسول في الانسان ، او على الاقل على معنى الالتحاق بالكون ، يعرف هذا العالم في نظر هذا الجيل ، كوجود ، قد قام « الآخرون » باحصاء محتوياته وبامتلاكه وباعادة صنعه . وفي اكثر ايام التبعية حلقة ، اصبح هذا الجيل ، هو ذاته ، شيئاً يخص الآخريين . فكل شيء فيه وحوله قد استعاد « شيثيته » .

وفي هذا الوقت فقد العربي زمام قبضته الحارة على الكائنات والاشياء . فكل شيء تقريباً مسدود بوجهه : المنظر حوله ، الذي تحوله « عمليات تقييم » لا يسهم فيها إلا كعامل منفذ ، او على أفضل تقدير ، كزبون ، وتسلسل نتائج وأسباب ، لا يدرك نوااميسها الداخلية لأن آخريين يجر كون هذه النوااميس ، ومعرفة تاريخه وانتمه وحتى روحه ، لأن العهد الاستعماري قد نقل قضية فعاليته وأحياناً مسألة تحزبه وعصبيته الى صعيد التحقيقات الخاصة بالدراسات حول العروق والسلالات . وعندما يؤخذ بعين الاعتبار كل العناصر ، لا يبقى للعربي الا القليل من القطاعات الذاتية الخاصة به . وحتى هذه القطاعات لا تغلو من تحولات في وظائفها وفي محتواها . فالدين ، وقد أصبح رمزاً للرموخ في الطبيعة النفسية ولعدم القابلية للتساهل ، يتأرجح بين قطبي التقوى الشعبية والممارسة الرسمية للعبادة والطقوس ، او يتأجج حمماً مثلما منذ آلاف السنين ، الى ان يأتي تيار التجديد فيقترح عليه ، مع العالم الحديث ، تسوية متفاوتة المشاركة مع الحركة القومية . والعائلة ، وقد أصبحت المنطقة الحرام التي يتردد

(١٣) أنظر في اعلى ص ٢٨ وما يلي .

الاجنبي نفسه في اقتحامها او انتهاكها ، تنغلق على المرأة التي يمنح امتلاكها ،
المتعسف والشهواني في الوقت نفسه ، الرجل آخر مظهر من مظاهر ممارسته
لسيادته ، ان صح القول .

انا اعلم جيداً ان الاشياء قد رسمت هنا ، بخطوط فاحمة السواد وان وجود
المستعمر في كل الوجود لم يستطع ، في أي مكان من الشرق الأدنى ، ان ينفذ
بعيداً بما فيه الكفاية ، لتقتحم الانسانية العربية حتى هذه الاماكن من عزلتها .
ولكن حيز التحرك نفسه ، المتروك ، هنا ، على عكس ما يلاحظ في افريقيا
الشمالية ، للجهاز المحلي يلهب مرارته ومخاوفه . والجهاز الاجنبي المسيطر ، وخاصة
فيما يتعلق بالجهاز الفرنسي ، لا يكتفي بتغذية هذه المخاوف والمرارات ، انه يعطي
ايضاً الاسباب للثورة ، ويزودها بلغة وبمثل أعلى . فنذ ١٩٢٤ ، قام مثقف
شاب من حلب هو ادمون رباط ، وهو احد الذين زودهم العلم الغربي المتعدد
الجوانب بأغزو الينابيع وأغناها ، يدعو الى اعادة بناء سوريا ، أي لبعث
النزاهة ليس فقط النزاهة السياسية وانما النزاهة الفكرية^(١٤) وفي تلك المرة ،
فشلت مرافقته ، اذ ان القضية تتعلق هنا بأحد اسباب المحاماة في الشرق ، ويختصر
مصير الانتداب في عملية تبذير قاتلة ولا شك وتبديد للفرص المضیعة (وللخدمات
اللاجدية) وفي العراق رغم حالات المرونة الحادعة للعين ، والقرارات المتخذة لمواجهة

(١٤) ادمون رباط : « الوحدة السورية والصيرورة العربية » ١٩٣٧ . ولكن من قبل
صدرت نشرة : الولايات المتحدة السورية « حلب ١٩٢٥ . انظر ايضاً : « التطور السياسي في
سوريا تحت الانتداب » ١٩٢٨

الظروف او لمشاكسة الخصوم التي تحسنها السياسة البريطانية (١٥) فان عملية نزع الشخصية لا تقل (عما في سوريا) وهي ترهق المثقفين (١٦) فلننظر مثلا أولئك الذين يضعهم الروائي ذر النون ايوب على المسرح في جهدهم للعودة الى وطنهم وفضح التسوية الحكومية . وبالامكان الاستشهاد بعدة امثلة اخرى على جميع هذه البلدان ، فالأكتشاف المشترك الذي يقومون به هو المناخ المتسم ليس بالاغتراب النفسي وانما بالكثافة بالقدرة على حجب (كل اشعاع جديد) . الذي يفرق فيه كل من يحس او يناضل او يفكر في الشرق الادنى . انه الانغلاق والابتعاد بالنسبة للتاريخ والعالم والذات : وهذا هو الذي يثور النشء الجديد ضده ، منذ الحرب العالمية الثانية بعنف متزايد .

اذ ان المقاومة هي اولا ظاهرة شباب وهي تتناول الاجنبي اكثر مما تتناول القدماء (ابناء الجيل السابق) فان القدماء لم يكونوا حقاً يظهرون حزمأ كافيأ تجاه التدخل الاوربي في الشؤون الداخلية . ولكنهم كانوا يفصلون وبحق بين بقية اشكال التعسف والاضطهاد ، التدخل الابعادي او التنازلي الذي كان يقوم به القادمون الجدد . فان رفضهم المناقبي للمدنية الاجنبية كان يمنحهم راحة نفسية قابلة اكثر الاحيان للتوافق مع طواعية ذات تضييقات ذهنية ، وان مقاومتهم الباعثة على الاحترام اكثر الاحيان . كانت تركز على المحركات البالية في الروح الدينية المحافظة ، وفي معنى الشرف الارستقراطي . ولم يكن

(١٥) حول التجربتين المتوازيتين ، التجربة الفرنسية والتجربة البريطانية ، انظر المؤلفين اللذين صدرا حديثاً من تأليف لونجريج . Longrigg . ولكن كل شيء لم يبلغ الافهام بعد ..

(١٦) والبرت حوراني في « سوريا ولبنان » طبعة ١٩٥٤ يقول اصوب الاشياء حول هذه المحاولة لاستعادة الذات التي تسعى اليها حركة النوض القومي . انظر ص ٧٠ و ٩٦ وما يلي .

عالم الجوهر الذي كانوا شديدي التعلق به . يبدو لهم ابدا عرضة للانتهاك
بعمليات الاغتصاب الزمني الذي كان الاشراف يتظاهرون بالاكتفاء به . وقد
كانت عمليات مراعاة جانب مفاهيم واسس من مثل العبادات والحريم والسلطة
الابوية تكفي للمصالحة والتوفيق بين هؤلاء المعارضين الغيبين (الميتافيزيقيين) ،
على الاقل حول الشؤون الدنيوية فهم قد رأوا دون اي اغتباط منذ سنوات
١٩٣٠ ، انتقال الرئاسة من أيديهم الى أيدي شبان تلقوا ثقافة غربية ولا
يظهرون الا احتراماً ضئيلاً نحو الاخلاق القديمة .

أما المحدثون فقد قاموا غريزياً بنقل الثورة الى الصعيد الزمني ، اللاديني .
صحيح ان هذه الثورة تنعم بكفالات و ضمانات آتية من بعيد . فهذه الثورة
تتغذى من هذا النهم الجنوني للوجود الذي يضيق عليه ويعصره بصورة متزايدة
تفجر النظام السياسي والاجتماعي . ومع ذلك فهي تجد سلطتها في عالم الجوهر
هذا الذي يقوم الشبان بحراسته بدورهم دون ان يعلموا ، أو ان
يريدوا دائماً ، وبالفعل فاي شيء يستطيعونه دون المساندة الشعبية التي تجند في
نهاية المطاف ، اجماع « الامة » * لصالحهم ؟ فقوتها تكمن ، بالضبط في القدرة
على التوفيق بين الاشياء التي يبدو عليها انها غير قابلة للتوفيق : الاصاله
الاسلامية والفعالية الغربية ، الرجوع الى « الشعب » * الذي هو على طريقته ،
شعب « مختار » . والاستناد الى المبادئ الديموقراطية . وانه لهن عسير ، وتحد
او رهان لا سبيل الى القيام به تقريباً ، ويحمل في داخله وعلى التناوب أقدار
العنف والتسوية ، والاندفاع والانكفاء بعد الفشل .

والسياسي يحاول ان يوحد هذه القوى المتنافسة او ان يواجهها بعضها
ضد بعض ، وكل ذلك لصالحه . ولكن عليه ان يحسب الحساب لرأي عام

تسوده الالهواء وسريع الانقياد ، ولكنه لا يغفر له خطأه . فالاعتدال اصبح موضعاً للشبهات . « والدعوة اليسارية للظاهرية ، تجد مستغلين حاذقين . والمغالاة تؤدي من وقت لآخر ، الى الكارثة . وأكثر الاحيان لا يقوم الاختيار على معطيات ايجابية . ولانعدام العقيدة ، ولانعدام التحليل ، يتضمن نشاط الاحزاب قسماً كبيراً من الاندفاع الالهوج : فهو طوراً غير واقعي ، وطوراً انتهازي . ومن هنا كان ضعف هذه الاحزاب ، الذي كان بإمكانه أن يجعل غير قابل للتفسير نجاحها لو لم يكن فوق العمل السياسي وعبره ، وجل يناضل لتحويل اتجاهاته .

الحالات الثلاثة يشير الانطلاق القومي والوطني الاول ،
للحركة القومية الذي تعاكسه قوى من الداخل ومن
الخارج ، تركيبات واسعة على العموم ،
ذات مادة بورجوازية وشعبية في آن واحد . وانها لمدرسة للذكريات والحقد
والعنف ، ولكنها أيضاً مدرسة لعمليات ارتجال ممتازة . وفي كل مكان تخرج
منها أناس أكفاء : أمثال ابراهيم هنانو وسعد الله الجابري في سوريا ، ورياض
الصلح في لبنان ، وكثيرون غيرهم أيضاً ، يمثلون عن جدارة هذه الحقبة من
الارتجال والمساومة البطوليين . « والوفد » في مصر ، كان كما رأينا ،
« تجمعا » أكثر مما كان حزباً . واحد اصدقائه الاوائل كان يشبهه « ببجيرة
يقتضي ان تصب فيها كل الاقنية ، وكل السواقي وكل الانهر ، ولاول مرة وأيننا
ملاكي الاراضي الكبار والتجار ، والموظفين ، والمتقنين ، يقاتلون جنباً الى
جنب . والفلاح نفسه يمد بالرعشات . وكان اقباط في عداد الرجال الذين كانوا
موضع ثقة الزعيم . « وكان علماء ازهيون يخطبون في الكنائس ، وكان قس

أقباط يخطبون في الجامع الأزهر ، . وحتى بعض الأمراء قد انضموا للحركة ، وهذا الأجماع الشعبي كان موضع اعتزاز الحزب ، ولكن أيضاً نقطة ضعفه العقائدي . وبصورة موازية ، كانت حيوية هذه التجمعات تعكس توازن قوى مرتبطة بواقع آني مريض أكثر مما كانت مرتبطة بدينامية شعوب في حالة الصيرورة وكان التنافس قائماً بين أفراد ، مؤججاً احقاداً راسخة تحت قناع أسماء مشابهة لبرامج مخيبة للآمال وقعقة الكلمات الطنانة . وتعمق الهوة الفاصلة بين شكل الحياة السياسية ومادتها المجهولة من الغضب والوعي المتنامين . وكلاهما في حالة بحث عن فعالية مضيئة منذ زمن طويل .

وانا اود ان استعير من احد الكتاب العراقيين بعض الملاحظات المشعونة بغيبة الرجاء ، والتي لا يمكن نعتها مع ذلك ، بأنها كثيرة التشاؤم ، فهو يقول : « وانها لصفة من صفات العرب ان يكونوا سريعى الفهم ، وان يدركوا خفايا الاشياء . ولكن هذه الصفة تتحول الى كارثة اذا لم تتعهدا توجيهات حكيمة من قبل الحكام والقادة . فانه لم يكن يخفى على العراقيين ما يعتزمه (الحكام) ، تحت قناع التمثيل (البرلماني) ، فقد كان الشعب يقف موقف المتفرج ، ويصفق لسقوط الحكام على امل ان الذين يلونهم سيقومون بأعمال افضل . لقد فقد كل امل بتحسين مصيره بنفسه . وهو لم يكن يشعر الا بالنفور من هذه التشكيلات البرلمانية . وعلى هذا النحو رسخت الفكرة عند السياسيين ان بإمكانهم ان يتصرفوا على هو اهم بشؤون المملكة . وان العراقيين ليسوا غير قطعان مطروحة للبيع والشراء ، وليست أهلاً الا للعلب او الذبح ، وان بالامكان بيع جلودها لصالح الاجانب او المنتفعين بالسلطة ، كل ذلك حتى اللحظة التي برهنت فيها الاحداث ان شعب العراق لن يطيق التعسف والظلم ، ولن يسكت بعد الآن

عن المطالبة بحقوقه ولو سكوياً مؤقتاً ، ما لم يواجه (النظام) هزات تشنجية عنيفة ... »

ومعلوم ان تقدم المطالبة : والنجاحات الاولى التي تحرز بالمفاوضة او بالثورة ، تفجر حدود الجسم المبهم للمقاومة ضد الاجنبي . وتبرز للضوء انقسامات قائمة على اعتبارات شخصية او عقائدية . وحتى ذلك الوقت كانت الروح الوطنية المناهضة كافية لتحريك كل شيء . ومنذ ذلك الحين تدخل في الحسبان التباينات العائدة للبيئة ، وللتكوين الفكري والثقافي وللعقيدة . وتاريخ حزب « الوفد » المصري الطويل ، يمثل من عام ١٩١٩ حتى عام ١٩٥٣ على الخط البياني الذي رسمه تجمع ثوري في بدايته ، ثم تجمع انهكته النزعات الداخلية اكثر مما انهكه الحكم الذي لم يستلمه ، في الواقع ، الا بالاشتراك مع احزاب اخرى ، وانتصاره الخادع في انتخابات ١٩٥٠ يسهم دون شك في اضاءة حسن التبصر وروح النقد عند زعمائه ، فتحول من تجمع كبير بشدة زخم الاندفاع الوطني الى مجرد طرف في اللعبة البرلمانية . فكان يرى في صفوفه اناس يحملون وصمة (الفساد او ضعف الشعور الوطني) او سبق لهم ان حاربوا الحركة في ايام جهادها البطولي . وقد ضاعف الملك هيمنته على السياسة الخارجية ، والجيش والمؤسسات الدينية . ولم يكن هناك شيء اكثر دلالة من روح المسيرة التي كان يبديها فريق الوفديين المتربعين في الحكم ، اذا قورنت بالمعارك العنيفة التي خاضها سعد زغلول ضد الملك حول اختيار رجال الديوان الملكي او حول منح الاوسمة عند ذلك حدثت هذه الظاهرة المقلقة ، اذ بدأت الطبقات الدنيا في الحزب تنفصل عن طبقاته العليا القائدية وشرعت حتى في مهاجمة هذه الاخيرة في الصحف او في المنشورات ، وهناك ظاهرة اخرى : وهي رفض وزير للهالية تقديم استقالته عندما طلب منه النحاس الاستقالة . فلم يعد

للحزب إذن ان يروج غير انتصارات في المناورات والتسويات . وقد اعتبر مشاركاً بالتكافل والتضامن مع القصر ، في اخطائه وغلوه . وكانت النهاية المعلومة .

وهل كان الامر يختلف فيما يتعلق بالتزاعات التي نشبت بين الاحزاب العراقية بعد الانقلاب الذي قام به عبد الكريم قاسم ؟ وهنا بدأ الامر باعلان سياسة النشء الجديد التبرؤ من قائد وطني متمرس ، هو رشيد عالي الكيلاني ، فالامور قد سارت منذ العهد الاستعماري . ويتعقد الموقف على قدر التنازلات التي تقبل بها السلطة الاجنبية المهيمنة .

والجيل الفتى يرفع الصوت داوياً ، معلناً عدم رضاه المتزايد ، واذا كان عدم النضج عند الجماهير يتطلب دائماً من قبل الزعماء اللجوء الى تقنيات محظوظة فان تربية البلاد قد تقدمت ، وهنا وهناك بدأت تظهر عناصر نخبة من الطراز الحديث . واخذت مساوئ النظام تتبدى بعنف متزايد لمشاعر انتليجنسيا (طبقة مثقفة) لا تتصف بالسذاجة وان كانت احياناً لا تخلو من التساهل والقدرة على غض النظر . وتتشابك هذه العوامل الداخلية مع تأثيرات خارجية لتستحدث تجمعات جديدة . فيدعو بعضها للعودة الى المثل العليا القديمة التي نادى بها الاسلام ، وذلك كرد فعل ضد الغرب ، بينما يهدف البعض الآخر الى التجرد من كل الاشياء العتيقة ويدعو الى تركيز السياسة على التحليل الموضوعي لمشا كل اصبحت من جوانب عديدة ، مشا كل اقتصادية واجتماعية .

ففي مصر وفي سوريا ، يزعم الاخوان المسلمون ضرورة الرجوع الى القيم الاسلامية بعد جعلها مقصورة على حالة من الصفاء لا تتركز دائماً على التاريخ ولكن لها فضيلة تحريك نخبة الجماهير وطابع الحركة المرتكز على التظاهر بالتقوى وعلى التوجه للجماهير الشعبية في آت واحد ومقاومتها للون

إبهاهت الذي يبدو عليه الاسلام الرسمي ، والثأر من الغرب المادي الذي يبدو عليها انها ستحققه ، واخيراً اصالتها التي لا يمكن الاستهانة بها . كل ذلك قد امن لها التفاف عواطف حماسية ملتتهبة لم تتأخر في الكثير من الحالات عن اللجوء الى ارتكاب القتل . على كل حال ، امتطاع عبد الناصر ان يقضي على الحركة في مصر . وقد ظهر اعضاء القيادة لحركة الاخوان في محاكمة سياسية كبيرة عام ١٩٥٤ . وما كانت المحاكمة في صالح الحركة . ان نداء سافونارول * لم يستنفد قدرته على الاجراء رغم ذلك في هذه البلدان ...

ومع ذلك فان التأخر الصناعي وقلة الكثافة في الجماهير العمالية لم يمنعا التقدم في المطالب الاجتماعية ، ان في مصر او في سوريا ، او لبنان او العراق ، وغداً بلا ريب في مناطق اخرى . ولكن الطابع الذي وسمت به الماركسية بفضل اختيار قائم على « عناصر الاقلية » كطريقة شبه وحيدة ، في الاصل على الاقل والتاريخ الطويل والقاسي من الحياة السرية ، قد ساعدا على احداث الجرأة والخطأ ، والعزيمة والميول اليسارية في آن واحد . ومن هنا كان التعقيد الجنوبي ومن بعض الجوانب الخيب للآمال ، في الحركات التي تنتمي الى النزعة لاحداث التغييرات الاجتماعية في هذه البلدان . وانه لتعقيد ملائم لتمرکز الفوضى وكل المناورات التي تهب من الداخل او من الخارج ، ولكنه يعكس دون ريب ، ضرورات قاهرة للتكيف مع مميزات البيئة .

* سافونارول راهب درمينيكي حاول ان يقيم في فلورنسا ، في اواخر القرن الخامس عشر دستوراً يرتكز من جانب ، على مبدأ نحد السطة من الارادة الالهية ، ومن جانب آخر ، على المبدأ الديمقراطي : فكانت النتيجة ان قدم للمحاكمة بتهمة الزندقة فحكم عليه بالموت حرقاً .

وعلى الرغم من أن حركات مماثلة هي مدينة، كما رأينا، بالكثير لارتباطاتها
وشائجها المحلية، فإن تأثيرات خارجية، متولدة من تعايش عميق مع الفكر
الاجنبي، هي المسؤولة عن قسم من هذه الدينامية، ومن هذا النوع من
الزواج، الفاعل في عناصر كثيرة التبانينات العميقة، قد ولدت الأحزاب
الشيوعية الشرقية التي أنكر يوماً عليها شاول مالك ارتباطها المحمى بالتكوين
الفكري الفرنسي، كما ينكر عليها آخرون تبعتها للاستراتيجية الروسية.
وهناك مظهر لا يستهان به: هو ارتباطها على الأقل في منطلقها الاساسي مع
ردود فعل الاقليات: الاقليات الكردية، والارمنية، والاسرائيلية، الخ..
فهل بوسع المنهجية الماركسية أن تعوض عن نقاط الضعف هذه؟ فان قوتها
تكمن في دفاعها عن الواقع. وان الضرورة المزدوجة لتحقيق التحرير
والبناء، وواحداهما يضمن ويكفل الآخر، لا يمكن أن تكون موضع نقاش في
البلدان العربية، ولكن هذه الضرورة لا يحافظ دائماً عليها بصورة مستمرة
وثابتة مع كل نتائجها، وان فضل زعماء مثل خالد بكداش وحظهم يكمنان
في أنهم كشفوا عن هذه الضرورة وعالجوها بروح موضوعية صارمة. وهذه
الروحية لموضوعية لا تعوزها القدرة على اقناع جميع الذين يتجردون في هذه
البلدان، لسبب أو لآخر من المواقف التقليدية: شبيهة فصت عرى وشائجها مع
الخليّة العشائرية أو العائليّة الكبيرة، وامرأة تلتف لممارسة حرّيتها،
وانتليجنسيا قليلة الرضى عن احوال بيئتها واقليات تشعر بالامارة، وأخيراً
عمال وفلاحون يلقون بثقلهم المتنامي الذي يداخلهم فيه وعيهم بذاتهم.

ومعلوم أن هذا الانفتاح على الوعي مرهون بالانعتاق الوطني، الذي لم

يتحقق على العموم ، الا على أيدي عناصر وفي ظروف قليلة الملاءمة مع الاشكال الاخرى للانعتاق : الانعتاق الاقتصادي والاجتماعي بصورة خاصة ، وأحياناً لم يم النصر السياسي الا بهذا الثمن . ومن هنا كانت فترة شهدت انهيار بعض اشكال القومية ، حالما تم بلوغ الاستقلال ، او انفصال هذه الاشكال عن أشكال أخرى أكثر تقدمية ، وأكثر ثورية ، وأكثر تعلقاً بالاصلاحيات الاساسية الجذرية . وبالطبع فان ظروف هذه الظاهرة وتوقيتها تختلف حسب البلدان ، ولكن في كل هذه البلدان جاءت أرقبجيء أو سوفنجيء برهة تتحول فيها دينامية النضال للانعتاق الوطني الى مطالب أكثر إلحاحاً ، أو على الأقل ، أقل اتجاهاً نحو الاكتفاء بانتصارات الماضي .

وفي هذا السياق ، الذي رفعته أزمة السويس الى درجة الحدة المخيفة يقتضي تقدير نشاط حزب مثل حزب « البعث » العربي * وهو حزب علماني وثوري ، تحركه شخصيتان ديناميتان - ان : علق ، والخوراني . وينتصر حزب البعث في انتخابات ١٩٥٤ على الرجعية المتدينة ويصطدم بعنف بالحزب القومي السوري ، الذي أسسه أنطوان سعادة عام ١٩٣٢ ، والذي يبدو عليه أنه قام ببعث تيار « الشعبوية » * القديم ، وما ان وصل « البعث » الى الحكم منذ الوحدة السورية - المصرية ، التي كانت من صنعه حتى بدا عليه انه استنفد فيه كل قواه (انتخابات ١٩٥٩)

فالتشكيلات التي تلعب على هذا النحو مصائرهما على وجه العالم العربي بأكمله ، تارة في توافق ، وتارة في تنافر مع قوى التطور الداخلية ، أو مع المشاحنات والمنافسات الخارجية تتصادم أحياناً فيما بينها . هكذا كان الصدام في عمان (تشرين اول ١٩٥٧) وفي لبنان (صيف ١٩٥٨) وفي الموصل وكر كوك

مؤخراً ، وفيما يخص لبنان أمكن إعادة التوازن القلق ، انما العميق الذي تركز عليه البلاد . وهنا أيضاً يمكن ملاحظة الشخصيات الاكثر طرافة : الطابع اللاتيني الحازم ، والمنفتح مع ذلك الذي يميز الشيخ بيار الجميل مؤسس حركة « الكتائب » . والفكرة العربية ذات الطابع المتصل بتولستوي وغاندي ، أو بالاحرى « التبار الاسيوي » الفكري التي يتسم بها الامير (?) الدرزي كمال جنبلاط ، كل ذلك يتلاقى في مناخ من البحث لا ينفي فيه العنف النزعة للتسامح . بينما لا تزال الملكية التيوقراطية (أي المرتكزة على فكرة تحدر السلطة من مصدر إلهي ،) أو ارتكازها على الشرع (الديني) تعيش مؤقتاً وانما بصورة لا تخلو من الرخاء والارباح ، على القطب المقابل لهذه المحاولات للبحث اللبنانية ، والسورية ، المصرية ، والعراقية .

وبالطبع لم يتحقق تحرير الشعوب هذا ، ولحسن حظها فقط بتحركات لا تخلو من الانتباه لعالم التعبير ، بله للرمز أكثر مما تنتمي للمنجزات المحسوسة ، حتى لا تفقد فعاليتها - على صعيد المناورة الدبلوماسية بوجه خاص ، فهذا المحسوس انه الشعب الذي يقدمه باخلاص ونزاهة وعزيمة تلفت النظر ، منذ الثورة السورية عام ١٩٢٥ ، والثورة المصرية عام ١٩٥٢ ، والثورة العراقية عام ١٩٥٨ .

انما الفضائل الاكثر فعالية لتحقيق التحرير ليست حتماً الفضائل الاكثر جدوى للبناء . ولقد سبق ان قلت ذلك ، فالمشكلة التي تطرح اليوم امام كل البلدان المتحررة حديثاً ، هي مشكلة العدالة الاجتماعية والبناء الاقتصادي ومسؤولياتها الدولية تلقي بها من جانب آخر ، وبصفة جماعية هذه المرة ، في نقاش التسويات والقطيعات ذاته الذي استنفد جهود زعمائها ، بصفتهم الفردية

ايام التبعية والمنافسة العالمية ، والتعقيدات المتزايدة للآلة وضرورة التجديد التي يحس بها الجميع ، والارتقاء المتأخر انما النهائي الى مملكة الكمية ، كل ذلك يجعل اللعبة متزايدة الصعوبة وفضائل التقنية - الاقتصادية ، والحكومية ، والتربوية - تشدد قبضتها الحائقة وتلوح ببريق وعودها ، بينما حدة الهوس الشعبي ، بدلا من أن تهدأ ، تزداد ضراوة على قدر المرات التي يؤججها ضغط الدول الكبرى وتهديد اسرائيل .

وحالما يكتب الاستقلال السياسي ، تتفجر ضرورات جديدة . وقبل كل شيء ضرورة البناء والتجهيز . وأكثر من ذلك ايضاً ضرورة عتق الانسان ، وتأمين المساواة ، وقد جند النضال لاجل التحرير قوى كان الكثير منها مرتبطاً بالماضي . وقد تغلبت أفكار تظل فكرة القومية العربية أشدها تضرماً بالحياة على الأقل على صعيد تأكيد الذات القومية - وانتصرت على القوة الغاشمة والضغط الاقتصادي وأحياناً على الملاحظة المجردة . وقد اقتضى تحقيق ذلك شن الحرب على الكثير من الاشياء ، التيارات الانعزالية والجدران التي تؤلف في كل مكان تقريباً ، الفوارق الذاتية ، واقتضى العمل لغلبة المثل الاعلى على الكثير من عناصر الحقيقة الواقعة ، ولغلبة الفكرة العامة على الاحداث المعينة .

واذا كان الاكراد والنوبيون ، والبربر وابناء البحر المتوسط ، والسودانيون وانفباط المتحدرين من عرق قديم قد أسهموا في صنع الحقيقة العربية المستقلة ، فقد كانت تحدوهم في هذا الامر غريزة لا تخطيء اذ ان القوى المعادية المتمتعة بالامتلاك الكامل لوسائل العصر الصناعي ، ومنها التحليل الايجابي ، قد تعلقت بأصغر الثغرات في المجموعة الاسلامية . وقد عرفت هذه القوى كيف تضع البدو ضد أهل الحضرة ، والريف ضد المدينة ، والطوائف ضد الدين القويم ، والجانب الاقتصادي ضد الجانب السياسي ، وتقريباً « الواقع » ضد « العدالة » . ومعلوم ان تطور الاحداث قد أظهر خطأ هذه القوى المعادية : فالمثاليون قد انتصروا على الواقعيين والطوائف لم تكن أبداً في نهاية المطاف ، غير انحرافات

والفوارق الذاتية غير ضروب من التفرقة .

انما - وهذه هي ربما النتيجة الاشد إبهاماً والمتخلفة من العهد الاستعماري .
تم هذه العمليات التحريرية في وقت يصبح فيه الاستقلال الكامل الناجز ضرباً
من اللعب اللفظي . وفي عالم التلاقي هذا ؛ تنزع الدول نحو التلاحم والتجمع .
والمصالح تستقطب حول روابط محورية كبيرة ، وبحشود ضخمة . وفي النفوس
نفسها تهدم حركات توحيد الثقافة واطارات الحياة ، كل مظاهر الطرافة .
فحركات الانعتاق كانت مشربة بمثالية حرونة متمردة على نواميس الاشياء . أما
الاستقلال فعلى العكس يخضع الشعب لضرورة الراهن المحسوس للامشاع ،
للوامع المحدد . وليس من احد يستطيع ان يكون أكيداً من ان الفضائل التي
تؤدي الى الانعتاق والتحرر لن تصبح انسياقاً مع حتمية ديالكنتية في أساس
اسباب القضاء على الاستقلال بعد ان يتم اكتسابه ، اذن يلزم العرب ان يغيروا
فضائلهم ، وان تعارض الازمات المرهقة ، أعني الحريات الجديدة مع الاسلوب
القديم ينفجر ويحتدم فوراً . ويستهل دخول الشعب في ميدان تنافس لم تعد
تحسبه منه جرائم الاخرين ، يستهل بالتخلي عن الرمز وبنوع من نبذ الروحانية ،
وتنطفئ وجوه قديمة من الخلاف مثل الخلاف الكلامي حول قضية الخلافة ،
وحجاب المرأة ، واستيفاء الفائدة على القروض ، وتعدد الزوجات . فالكيانات
الجديدة تشيح بوجهها دون تخرج عن كل ما تعتبره موضع القضية المحكمة (اي
صدر بشأنه حكم نهائي) وهي تعير التفاتاً كل يوم أقل ، الى ما للرموز
والآيات من فضل على انعتاقها ، وان كانت تتردد في التنبه لذلك ، بصفتها
لامية ، فان افراداً او مجموعات افراد يجروون بصفتهم المعارضة ، على الاقدام
على هذه الالتفاتة فبازاء قسوة الجحود يتقابل عمق الانبعاث والتجدد وكل ذلك
يأتي في موكب من الغضب والكآبة .

فان من المآسى الكبرى للكثير من هذه البلدان انها لم تحقق الا في منتصف القرن العشرين كيفما يهره طابع الفترة الرومانسية ، ودون ان تتوافق وتلاقى فيها مثلما تلاقى في بلدان مناطق أخرى ، القوى المنبعثة من اكتشاف العالم ، والابداع الصناعي والفوز بالحريات : عمليات توافق محظونة نعم بها الانسان الغربي !

فكان من نتيجة ذلك ، ان المناضل الشرقي في الفترة الحاضرة لم يبق مع مرور الزمن وتوالي القرن ، ومع اشتداد الضغط الاقتصادي بصورة لا تطاق ومع تزايد الحدة والمرارة في المعارك لم يبق هذا المناضل من النمط الذي عرفه الماضي . لقد عدل مسلكه وسيره ووجهه وحتى ذهنيته ، فان انتصارات الجيل السابق أصبحت تبدو له انتصارات مشوهة مسموخة . فتقطع اوصال سورية الكبرى والتبعية المالية التي تربط الهاشميين والسعديين (بالاجانب) ، وتغشي البؤس في مصر وتمركز اسرائيل ، والترابط المغربي ، وفي كل مكان الانقسام والتفسخ بين الاجيال ، والنزعات والاخلاق والطبقات ، وأزمة اوضاع التراتب كل ذلك يتكشف حالما ينتزع الانعتاق السياسي ، ويتسم بتشابكات خارجية وداخلية ، ويبث المرارة في النفوس ويثقل سير كل شيء وكل الناس ، ويؤجج ضرام الاهواء في النزاعات . وان تشاؤماً مأساوياً يتراوح في الكلمات والاشارات مع اندفاعات التبجح ، انه تقدير سليم لتغلف يعزى الى تنحية هذه البلدان طويلاً عن تراثها والى تجريدها الطويل المدى من خيراتها ! ويعكس الكثير من الكتب العربية هذا التشاؤم ، وهي تعبر عنه بصراحة ونزاهة كفيلتين باثارة دمه التي بؤدهم الا يعرفوا من هذا العالم غير مظاهر الفخفة الفارغة ، وكثرة التطويح بالايدي ، او الاقدام على الجريمة .

هذا التاموس المتمثل بالحالات الثلاث ، هذا السير في المراحل الثلاث لا يلاحظ

بالطبع بوضوح متساوٍ دائماً : اجماع في النضال لتحقيق المطالب القومية ، ثم
نغماس في المحاورات والنقاش وتوزع في البحث والتلمس منذ الحصول على
النجاحات الاولى ، وأخيراً تطور نحو اشكال هي في آن واحد اكثر تمشياً مع
مقتضيات البيئة وانفتاحاً على التيارات الكونية ، وفي بعض الحالات تنعدم
حلقة او حلقتان من هذا السير المتطور . فقدم الاوضاع والدهنيات في شبه
الجزيرة العربية ، والتقاليد المرتكزة على شدة سلطان الدولة وعلى هيكل قوامه
من المادة الفلاحية في مصر ، والطائفية في لبنان ، والعنف في العراق ، والالتفاف
حول البيوتات القديمة والعصبيات في سوريا مثلاً ، كل ذلك يغذي وجوهاً
اكيدة من وجوه التنوع والتباين . ومع ذلك ففي كل مكان تتكشف وجوه
تماثل وتناسب ووقيرات مشتركة بين مختلف البلدان العربية من جهة ، وبين
الجانب السياسي والجوانب الاخرى من تطورها . ان جسداً مقطوع الاوصال
ومهدوراً ينزع في تمزقه ، نحو استعادة الوحدة مع ذاته ، وان صح القول مع
الآخرين .

الفصل الثالث عشر

محاولات تجاوز

ان اجراء المصالحة مع الآخرين ليس امرا سهلاً ، وانه لا امر اقل سهولة
ايضاً السعي للمصالحة مع الذات ، ويعجب السواح الذين يذنبهم الانفعال أمام
كل غريب مستطرف ، والمتهكمون الساخرون من بين ابناة عصرنا الحاضر
والمحللون المتدهنون « بقوام المادة » و « بالرواسب » ، وكل الذين يربطهم
تبحرهم العلمي وحواسهم او عقلمهم بالماضي ليس بماضيهم أكيداً ، وانما بماضي
الآخرين ، كل هؤلاء يعجبون ان يوحى هذا الماضي امرب اليوم كل هذا
الغضب المزوج بكل هذه الامانة ، فالماضي بالنسبة العربي من عصرنا ، هو
ذلك الذي لا يزال يتكلم في اصوات الآباء الذين أحنتهم السنون ، وفي اصوات
ذكريات الطفولة . الماضي هو الاب المغلوب على امره والانا المهانة .

جيلان
فلنتصور شخصاً متديناً ، في حوالي الاربعين من
عمره ومن طبقة بورجوازية ، يعيش في اعوام ما
بين ١٩٢٠ الى ١٩٣٠ في دمشق او القاهرة او بغداد ، ان نبذه العام لاعمال

الغربيين ، ولطرق عيشتهم ، ولاخلاقهم ، وحتى لوجودهم يتكئف مع تدخلهم في شؤون دنياه بصورة اكثر مما يجب ان يعترف به . فالمجتمع المحلي الوطني يستقبلهم ويطوقهم ، انه يطبق هؤلاء الغربيين ولكنه يفرز ضدهم اجساماً مضادة لو صح القول . وان "رد" فعل معقداً يحاصر ويعطل قدر الامكان ، سير الدخيل . ورد الفعل هذا هو مزيج من كبرياء الشعور بالانتماء للجماعة او الفئة او الطائفة ، ومن التزمت الديني ، ومن الخوف من الجديد ، ومن الشعور المزدوج بالتفوق الروحي والتخلف المادي . وفي الواقع تترسخ عمليات توازن وتسويات . فالمؤمن يستخدم فيها نعومة ودهاء ورائيين . وعلى الرغم مما يمكن ان تحمله هذه التسويات من امانات ضمنية للقلب ، واحياناً للعقل ، فانها تكشف عن فعالية هي على قدر التغيرات التي تزلزل في هذه الفترة المشاهد الطبيعية والاقتصاد ، وحتى الاخلاق على كل حال ، فان فضائل الحياة الجديدة تفعل فعلها . وهي تلتطف بواسطة المبادلات الانسانية ، التي هي احياناً ذات قيمة بالنسبة للعصر ، لا اخلاقية علاقات العنف . وفوق ذلك فان الجيل القديم يعطي في كل مكان تقريباً من العالم العربي ، وفيما بين الحربين انماطاً سبق ان كانت في عصرها موضع نقاش ولكنها في الواقع حاسمة .

وقد خلفها في الحكم شبان اعوام ١٩٣٠ . وهذا لا يعني ان جيلاً متأخراً ايضاً لم يأت اليوم ليزعزع مواقع هؤلاء الاخيرين . ولكن لو اكتفينا بمواقفهم التي لا تزال مسيطرة حتى الآن ، نحن نقع على تضادٍ حادٍ مع مواقف ابناء الجيل القديم ، أكيد أن الميول الدينية القديمة تبقى قوية او ضعيفة على الرغم من نفسها المتزايد من الكلمات واحياناً من الضمائر . وبوسعها ان تعود للظهور بفعل جماهير غير مثقفة ، او عناصر متطرفة ، أو بفعل الزلزلة الانفعالية .

ولكن رفض الاجنبي تحول من رفض ديني خصب بالتساويات الى رفض وطني لا هوادة فيه ، انه يتجه نحو شؤون التاريخ ولكنه يبقى مصدوغاً بالمطلق .

وعلى الرغم من تطور الاطار واللباس ، واللغة ، وأساليب الحياة هذا التطور الذي يضع العربي شيئاً فشيئاً « على الصنف » الواحد مع الاخرين ، يظهر ان حياته العاطفية تتبع طريقاً معاكساً ، فهو لا يطرح فقط العهد الاستعماري ، وانما يتجاهل أو ينكر الاستمرار الذي يوصله بالعهد الحاضر ، انه يستشهد بندوقه « ومخلفاته » أي ندوب ومخلفات العهد الاستعماري (ولكنه يستشهد بمنجزاته . وبكل بساطة يبدو على القومية العربية انها تنصب نفسها ليس فقط أداة لمقاومة التسلط الاجنبي ، ولكن أيضاً ذريعة لرفض قيم الاجنبي ، بينما ينتقل التكيف مع هذا الاجنبي ، هذا التكيف الذي يتابع بصورة مكشوفة كشرط من شروط الحياة أو الموت ينتقل في الجيل الحاضر من التقليد الخارجي الى التمثل الداخلي ، ومن الحيلة التكتيكية الى الانضمام اللارادي . انما الذي يوقظ الاحقاد هو تدخل اسرائيل التي تبدو للكثيرين من العرب « كمرحلة قصوى » جديدة للامبريالية ، ومن امبريالية مطلقة خالية هذه المرة من كل مرمى تثقيفي أو حتى من العلاقات الانسانية ، وهذا الذي يقوم به أيضاً المسيطرون القدماء بعنادهم الصبور والمسعور أحياناً في عدم التخلي عن امتيازاتهم العتيقة ، أو بالتخلي عن اقل ما يمكن منها .

وهكذا تتغذى على جانبي البحر المتوسط حالات نفسية خبيثة ، فأوروبا ، وبالاخص فرنسا ترفض الاعتراف بحق العرب في أن يكون لديهم ما يمكن ان يكون أمانة لدروسها في انتفاضتهم الوطنية والاجتماعية ، وعلى انها المحرك المعجل لتاريخهم هي تظل بصورة مناقضة للمنطق الظاهر ، متعلقة بالماضي

على نحو يتلف ثروتها ومهابتها ، وفي الجانب الاخر هم (أي العرب) يجمعون في كراهيتهم للعهد الاستعماري ما يمكن ان يكون قد تضمنه من مفيد وغني بالوعود ، أو على الاقل من سببية ، ويتم تبادل أعمال العنف فيرد على تأميم القناة بالاعتداء على السويس ، ويردون على هذا الاعتداء بحرق كلية حلب الثانوية . هذا التسلسل الخفيف يثير المرارة والغضب ، وينتهي سياقاً مطرداً من الدسائس واعمال العنف والديبلوماسية السرية ، ومن الشائعات الاقتصادية أو من التمرد ضد الجاذب الاقتصادي ، وكل ذلك يؤخر عمليات اعادة نظر لاغنى عنها وينسف حظوظ نجاحها عند جميع الفرقاء .

في الظروف الحزينة التي عرفتها اوآخر عام ١٩٥٦ ، اعترف لي احد المثقفين المسلمين ، البيروتين وهو مشبع بالثقافة الغربية ، انه لدى سماعه الاخبار ألقى بقرف بكتاب لاحدى تراجمديات راسين ، اذ انه اعتبر هذا الشاعر بصورة لا تخلو من الشتيمة مرتبطاً بالتكافل والتضامن مع « جي موليه » . Guy mollet . وان عصرنا يعرف ويا للأسف ! في الجانبين حركات من هذا النوع ، وان من العدل ان نقول ان هذا المثقف قد ندم على اندفاعه . ولكن لا شيء يستطيع ، افضل من هذا المثل الممتاز ان يصور عمق النزاع والاضطراب التي يجعلها تهدد انبل وجوه التعاون .

وعلى الطرف الاقصى تندفع بعنف حركاتٌ حقد يستطيع اشتداد اوارها ، الذي يكمن خطره دائماً ، ان يحولها الى طلاق نهائي ، وفي ذلك مدعاة لاضرر الفريقين . فماضي التابع القديم لم يعد يبدو له ، والحالة هذه كمقدمة تاريخية ، وانما كاهانة لحقيقته ككائن . والفوارق الاقتصادية والتقنية والثقافية التي تفسره هي موضع انكار على الرغم من كون الاحساس بها مريراً حتى ان

التوسع الأوربي يبدو أنه كان ثمرة قرار جهنسي ، تأتي هبة التحرر السماوية كملحق له ، وتشارك هذه الاحكام السريعة والمجتزأة في نظرة كلها تركّز على اللون الاسود أو على اللون الابيض ، فهي بالتالي تسيء للتحليل ومثلما هي تتسلسل من بعض الوجوه ، من روائب لاهوتية (اي من اعتبارات علم الكلام) فان الدوافع التي تستقيها من عناد الانانيات الاوربية الذي نعلمه واقعاً أكيداً الى أقصى حد تستطيع ان تحمل على اعتبارها بمجموعها مصطبغة « بالغيرية » .

وفي الواقع ، فان هذه الحماسة في الرفض تطال الذات ايضاً وتشاؤم الشبيبة العربية ، الذي يحمل عليه أحياناً القيمون على الاخلاق هو عندها أحياناً كثيرة شرعية الاعتداد بالنفس الذي تضيفه الغيبية (الميتافيزياء) فان حالات السقوط والانهار (النفسين) هي عنيفة ومتجاوزة للحدود بمقدار ما كان زخم الانطلاق عنيفاً ومتجاوزاً للحدود . وتشتيط العزائم بتبع عن قرب الاندفاع والغلو في الاشارات والاقوال بتخلل دورة القيل والقال والياس الباعثة على الخراب والتهجم ضد الطرف الآخر يتحول الى شعور بعقدة الذنب لانه يلاقي حتماً مقاومة ليس فقط من قبل دهاء الجانب الآخر أو من قبل قوته ، وانما ايضاً مقاومة تكمن في طبيعة الاشياء وفي صعيد الشعوب العربية ، تغذي هذه الحركات المتناوبة المحاورات والمناقشات التي تزيد طبعاً حدتها عن الحد المعقول ، وهي تضيف على حملات الشتائم حرارة شبه دينية لانجدها في أي مكان على الدرجة نفسها . حملات معهومة ضد الصهيونية وضد الاستعمار ، ولكن ايضاً حملات من زعيم ضد زعيم ، ومن حزب ضد حزب ، ومن نظام ضد نظام . والوحدات القومية ، والوحدة العربية ، يعسر عليها ان تنمو في مثل هذا الجو ، الذي تبعده جذور أسبابه وطرقه في التعبير اكثر مما تبعده الوقائع عن نزعة انسانية وديموقراطية يدعي الجميع الانتباه اليها .

ولحسن الحظ ، فان ردود فعل من هذا النوع ليست عامة ولا دائمة . انها تكشف عن خط سير تاريخي لم يتم اجتيازه الا بصورة ناقصة . هذا أكيد ولكنني أود ان اتلقى الوعود بالأمل في هذا السير وبتفسيره ، وقد أخذت الطبقات المثقفة وعلى إثرها الطبقات المتوسطة تتجرّد من رد الفعل القديم المتمثل باجماع « الأمة » على الجهاد ضد المشركين (أو على اضرار الكراهية لهم) والغلو والتادي لم يعودا يخفيان على الحس السليم عند الرجل العامي ، ولا على خبرة رجل الدولة ، وان أدبا سياسياً كاملاً أصبح يدين هذه المبالغات والتطرف . وقد بدأت تتأكد عمليات اختيار أكثر نضجاً والمواقف اللاعقلانية بالنسبة للآخرين وبالنسبة للذات اخذت تفسح المجال للنقد التاريخي الذي مجال أسباب الخير والشر ، ويفصل عند الآخرين كما عند الذات ؛ العناصر المفيدة والعناصر السلبية ، وقد بدأت هذه الاتجاهات الجديدة تلقى تعبيرها منذ الحرب العربية - الاسرائيلية الاولى ، وتسهم ابحاث قسطنطين زريق وكتاباتة حول «النكبة»* منذ ذلك الحين ، في شق الطريق لهذه النظرة الايجابية التي يدعمها كتابه الذي ظهر حديثاً « التاريخ ونحن » . وهناك ما هو أكثر دلالة من هذه الاثار ، من هذه الناحية ، تلك هي المشاعر بالمسؤولية التي ترافق تحركاً فاعلاً لم يعد يقتصر فقط على مقاومة مجالات الابداع عند الاخرين ، وانما يريد لنفسه ان يكون على القدر نفسه من الاقدام على الانشاء ، ومن الابداع . فهذه المسؤوليات تحمل ما يمكن ان يصبح إعادة نظر و عملية انقاذ ، وهي تعملها بصورة تتفاوت في نفاذها وفي وضوحها حسب الانظمة والبلدان المعنية .

الى اي حد اصبحت اعادة نظر من هذا النوع متقدمة عند أولئك بالذات الذين كنا نتهمهم بسهولة بالكراهية المتأججة للاجنبي وبالشعور القومي المتطرف؟ ذلك ما سيتضح في الفقرة التالية .

عودة الى طرح

القضية

لقد بدأ يتضح للكثير من اذهان الشرقيين ان تحليلا سليما 'ملزم' بتحاشي الخلط بين الفئات . فمن حقيقة ان ظهور الكيانات العربية الحديثة قد تحقق كشيء مناهض للتبعية ، اي في حركة معاكسة لهذا الاستعمار الامبريالي الذي دمج بمثل هذه القوة ، التحرك الفاعل والكائن ذاته عند الامم الكبرى منذ قرن (٢) ، لا تستتبع ضرورة نكران كل ما تقدمه هذه العردة من عمليات اتصال واستمرار ، فان شعوراً وطنياً متألماً ، وحقداً عادلاً ، وتفجر غيظ الانسان المهان ، كل ذلك يعبر عن البعث القومي ويرسخه في القلوب . وعلى قوة هذه الظواهر ، وعلى التجنيد الذي تحدثه في الجماهير ضد السيطرة الاجنبية ، يتوقف نجاحها قبل كل شيء ، والرموز التي تتجسد فيها في آن واحد مشاعر الحنين لدى الجماعة القديمة وآمالها الفتية ، قد ساهمت في احداث الانعتاق اكثر مما أسهمت الاستعدادات المادية . وفي هذا ما يفسر كون تعميم مشروع ، ولكنه متسرع قد اذان دفعة واحدة من الحقبة السابقة ، روحها المحركة ، « الاستعمار » * المهول واشياء لم تكن جزءاً لا يتجزأ من وظائفه ، او حتى على فرض انها كانت منه ، كانت تخدم بصورة غير مباشرة انطلاق العرب اللاحق ، فهذه هي خاصة حال الثقافات الأوربية مهما بلغ من التشويه او من الأنانية في طريقة نشرها : فهذه الثقافات

(٢) هذا ما كانت يعبر عنه باندفاع متطرف ، ولكن بنفاذ في النظرة ، المقال الاول من مقالين صدرتا في جريدة « المجاهد » الناطقة بلسان جبهة التحرير الجزائرية . وقد اثار هذا المقال نقد جيل مارتينه Gilles Martinet في مجلة فرانس اوبسرفاتور الاسبوعية في العدد الثاني من كانون الثاني ١٩٥٨ .

أثبتت انها عنصر لا يمكن نبذه من عناصر التجديد ، وعمليا لا يسع أي استقلال ان يرجع الى الوراثة^(٣) في هذا المجال ، فهذا التقدير السليم ، الذي يمتنع عن استخدام عدوى الشيء الخاص بالذات أو الداخلي ، يمثل في هذه البلدان ادراك الحكم التاريخي ويساعد على التكوينات الذاتية الاولى .

وتتكاثف في احداث ذلك عمليات تطور داخلية وفي الواقع يتم الانعتاق ورغم اندفاعه الوطني كحدث معاكس لمرحلة مولية من الذات بقدر ما هو معاكس للآخرين . فالاستقلال لا يوصد الباب على عمليات الاتهام (والمناهضة وطرح القضايا) . انه يبدش عهداً جديداً من هذه العمليات . فلم تعد الكيانات القومية ، والحال هذه تفقه كمقولات معاكسة لعالم الحضارة الآلية ، وانما كأشياء مشاركة فيه ، هذه الكيانات تريد لنفسها ان تكون تأليفاً (سانتيز) بين هذا العالم وحقائقها الأصيلة الذاتية . فلقد بلغت الاستقلال وهي محدودة الظهر تحت تأثير « الآخر » الذي يستبد بها ويثقل عليها بجوره ، وعلى قدر ما كانت تعرف كيف تتكيف معه : بالمعدات ، وبالمظاهر الخارجية هذا الكيد . ولكن ايضا ، وبصورة تزداد عمقا ، بطرق العمل واكاد اقول أماليب الفكر .

وان الآفاق الباعثة على الاضطراب التي تفتحها ملاحظة من هذا النوع تقود ، طبعاً ، الامم الجديدة نحو عملية اعادة صهر لذاتها كثيرة التطلبات . وعلى الاقل ، فهي تقود الآداب والسياسة ، واكثر من ذلك هي تقود العواطف وطرق

(٣) اننا هنا امام معطى واقعي ؟ يقتضي الذين يشعرون بالهلع او يتظاهرون بالشعور بالهلع من برامج « التعريب » ان يتاملوه جيداً .

السلوك الى التقصي والبحث ، والاحتباس ، انها تقودها الى الراديكالية وعلى
ضعيد التشكلات السياسية ، رأينا انه يحدث تفجر الكتل القديمة ، واستبدال
الحزب الذي فاز بالاستقلال بصيغ اخرى متجهة نحو التحقيق الفعلي لهذا الاستقلال .
وبطريق موازية ، تتغير الدعائم الاجتماعية لهذه الامنية المتكاثفة ، الامر الذي
لا يتضمن إلا كل ما هو عادي . وبإمكاننا ان نرى في الانقسامات والمنافسات
التي تنشأ بين البلدان العربية ذاتها ، وفي داخل كل بلد بمفرده ، النتيجة الفعلية
لمجهود لا غنى عنه لبلوغ الدقة والصواب .

ويكمن جانب من هذه الوعود في التقدم في مفهوم الامة ، الذي هو
الموضوع المثير للانفعال في المعارك الاولى . وارتقاؤه من الميدان الشكلي الى
المجال المحسوس ، وانفتاحه على وجوه التضامن في العالم الفسيح : كل ذلك يشكل
مقاييس ودلائل على التنوع ، أعني أدلة على التقدم بين البلدان العربية . وليس من
باب الصدف ان يستحث المفرد « القومية » ، بمثل هذه القوة ، تحليلهم ، وان
يفغذي كتباً ومنازعات ، ومؤتمرات . وقد اصبحت القومية المغلقة لا تبدو في
عين البعض الا كنسخة مقابلة للاستعمار . فهذه القومية ، في وفئها للرموز التي
التي أعانتها ، طيلة جيل ، مثل رمز « اليأس الجميل » عند الشعراء ، والتي تهدد
بان تسيء اليها ، بعد الآن ، وفي اصطبغها بالغيرية والعاطفية ، وفي سعيها
المرهق للتقصير من المسافات التي تفصل بين الدول الكبرى المسؤولة عن المرحلة
الاستعمارية ، والتي يزيد لها تسارع التقنية لصالح الاخرين ، أقول ان هذه
القومية بوسعها ان تخشى الموت ، في مدى بضع سنوات ، اثر موت شريكها
الاستعماري . فهل هي لم تقض على هذا الاخير الانتخابي ، بدورها ، المكان
لمجيء الاخرين ؟

هذا هو الموقف الذي تعتمزم استفلاله كل الحركات التي تزعم ، في الشرق ،
انتهاها للاشتراكية والتي تمتد دائرة تنوعها ، الحصة بالترجيحات الغربية من
مذهب اشتراكية الجماعة المتعلقة بالماضي ، من نوع الاخوان المسلمين الى الماركسية
المتشبهة بالانحاد السوفياتي ، مرأ بأشكال فريدة في بابها ، مثل « البعث »*
السوري ، والحزب القومي السوري (?) او الحزب التقدمي الاشتراكي الذي
يقوده جنبلاط . صحيح أنه ، رغم كل عمليات التعديد التي تناوات الاطار
والاخلاق والروح ، والتي عملت عملها منذ نصف قرن ، يترتب على النظرات
الحديثة ان تحسب الحساب للتراث القديم ، بقدر ما يزال هذا القديم يسيطر ،
من وجوه عديدة ، على الجماهير : ويحتفظ في أعين الكثيرين بقدرته على منح
الضمانات . ومن هنا ، كانت اشياء كثيرة على جانب من الغرابة في المفهوم ،
وكثير من وجوه التنوع في التكتيك الذي تتبعه هذه الحركة او تلك . وفي
نهاية المطاف سوف يكون المستقبل ملك الحركة التي تظهر قدرتها على ان تترجم
هذه الشعوب لذاتها ، بصورة أقرب وان تعدتها للنضال باكثر مما يكون من
الفعالية . أعني الحركة التي تقدر على ان تحدد ، أفضل من الأخريات ، هذه
الشعوب ، يجعلها تندمج ، باكثر ما يكون من العمق ، مع العالم . والاحزاب
والحركات التي تفشل في تحقيق هذا الهدف المزدوج ، المتضمن اعادة ترميم الذات
وتمثل الآخرين ، في آن واحد ، سوف يكون مصيرها الانهيار . واختيار
المستقبل ، لا بصورة عملية لإدانة او عمل ميتافيزيقي (غيبي) وانما كعمل تنافسي
وخلق (٤) ، هو الذي يميز ، اليوم ، في الشرق ، في اعتقادنا ، عقيدة ، او اتجاهاً

(٤) كان علي ، بالطبع ان اذكر ، بين هذه الجهود التي تحاول التجاوز ، كتاب قسطنطين
زريق « نحن والتاريخ »* الذي ظهر حديثاً في بيروت . وقد ظهر في اللحظة المناسبة ، كما
يقولون ، ليحدث تقاطعاً مع بعض الآراء الواردة ، هنا ، ولكن بصورة متأخرة اكثر مما
يجب حتى يستطيع ان افرد للكتاب ولؤلؤه المكان الذي يستحقه في هذا الفصل .

او فكرة تعمل لانتصارات الغد .

طبعاً أي ثمن ، يلزم دفعه لاجتياز كل المراحل ، هذا الذي يشير اليه عنف الانفعالات التي تثيرها هذه المحاولات لاعادة طرح القضايا ، وحرارتها الذاتية في اندفاعها لتسف المواصفات . ولا يهم ان يثير هذه المناظرات والمشادات هذا الشخص او ذاك . أجل لا يهمنا ان يكون قبطني اصيب بعدوى المادية ، كسلامة موسى ، او شعبي من الكاظميين ، كالوردي ، او واحد من هيئة علماء الازهر ، كخالد محمد خالد (٥) ، هو الذي يثير الفضيحة حول افكار وبسايب تختلف وفقاً لحالة كل منهم ، وتباين كذلك كتباين حالات الكثيرين من المصلحين الشرقيين الآخرين ، الذين لا يعادل تباينهم إلا خراوتهم في عرض افكارهم . فالذي يعني ، هنا ، هو الكدمة (او الصدمة) التي تحدثها المحاوره . لانها تكشف عن حدة النزاع .

المفكرون الثوريون يشير الوردي (٦) ، في مقدمة

كتابه « وعاظ السلاطين »* الى هذه

العواطف . وفي نوع من التهذيب السامي ، وهو يخاطب زملاءه : « لقد أفدت كثيراً من اعتراضاتكم ، ولكنكم تضعون أنفسكم في فترة وأنا في فترة اخرى .

.....
٥) الذي لن تستوقلني ، هنا ، افكاره المتأثرة بافكار الكاتب السعودي الشيخ « القاسمي » ، الذي خلغ الجبة والعمامة ، والتي ظلت كثيرة الایجاز ، وبميدة عن ان تكون على قدر خراوتها .

٦) تهمننا من هذا المؤلف ، خاصة ، محاضرة ، القاها ، عام ١٩٥١ ، عن البيسيكولوجيا الجماعية للشعب العراقي : « شخصية الفرد العراقي »* ، والكتباين اللذان اثارا الفضيحة : « وعاظ السلاطين »* (١٩٥٤) و « اسطورة الادب الرفيع »* (١٩٥٧) وكلاهما صدرا في بغداد . ولنذكر له ايضاً كتاب « خوارق العقل البشري » المتصف بالطابع الفطري ، وقد صدر عام ١٩٥٩ ، وكتاب « مهزلة العقل البشري »* ١٩٥٥

اتم في واد وانا في واد ، انكم تستشهدون بالماضي ، عندما احاول أن افهم الحاضر ، ، فهل هو على حق ؟

انه ، الى حد ما ، يهاجم الافكار المتلقاة ، على طريقة فولتير في كتابه : « القاموس الفلسفي » انه يشارك علماء الاجتماع فكرتهم بان المدنية معينة هي كل لا يتجزأ وانه لا يمكننا ان نستعير منها تقنية او حركات دون ان نطال المجموع المتلقي بكامله . ومعلوم ان « ازدواجية » تصيب ، الى حد ما ، علوم الاجتماع العربية . وفي العراق ، ارض الالتحامات منذ عشرات القرون ، اكثر مما في أي بلد عربي آخر : ففي جانب ، تقوم قيم حضرية قديمة جداً ، وفي الجانب الاخر ، تقابلها قيم بدوية ترتكز على جمالية التنافس ، المتصفة بالتفاخر والجشع ، جمالية قوم « نهايين وهايين » . وهذا التنازع المستمر بين الاندفاعات ، ويكاد يكون بين المذاهب الاخلاقية ؛ يدفع بالعقيدة المنتصرة الى التمجيد الطوباوي ، والنفعي مع ذلك ، للفضيلة . فيستتبع ذلك : ان كل الناس يتربعون في دنيا التناقض . فهرون الرشيد كان يغرق في النحيب لدى استماعه لأحد الواعظين الصالحين ، وهو يغمى عليه من شدة البكاء ، ثم يعود الى لهوه بنهم أشد . ويروي ان ذئباً كان يستمع الى أحد الواعظين الذي كان ينصحه باحترام قطعان الغنم ، فبإطعمه الذئب بكل لطف : « اعذرني ، يا صاحبي ، ان تركتك لحظة . فأنا أرى في البعيد خروفاً يمر ، وليس في نيتي ان أدع فرصة افتراسه تفوتني . وسوف نعاود حديثنا بعد ذلك . فعلى كل درجات المجتمع الاسلامي ، وفي كل عهده ، كما في كل مستويات النفوس ، يتجلى هذا التضاد القاتل بين الموعظة والواقع .

ومن هناك كان توتر شديد في سبيل الخروج بمبادرات ثورية : وهذه

المبادرات تعود الى الماضي البعيد جدا : الى عبدالله بن سبا هذا الشخص الغريب الذي يجرى أباذر الغفاري على الثورة . والحلصة ان قريشاً كانت شبيهة بقلعة الباسيل . فحاول علي ان يقتلها ، علي ، صفى الرسول ، والذي أخذ ، منذ ذلك الوقت في تاريخ الاسلام « موقفاً طبقياً » ، وهذا الموقف جعل منه البطل الذي يدافع عن حقوق طبقة المستضعفين والمستذلين والمهانين . ويكسر الكتاب ، على الطريقة القديمة ، حشداً كبيراً من الوقائع المستعارة من التاريخ التقليدي ، ولكنه يتناولها بمعالجة كاوية فالنزاعات بين الشيعة والسنة ، بين التجديد والتقليد ، بين الصراحة والنفاق ليست إلا وجوهاً متعددة من نزاع واحد ، في نظر الوردي « لقد فشل علي في سياسته ، ولكنه نجح في مجال آخر ، هو مجال الثورة الاجتماعية . فبدونه ، كان الاسلام قد بقي دين السطو ، ولكان خان رسالة الرحمة التي حملها النبي الى الناس » . وهذا النقد لا يعف حتى عن القومية العربية ، « التي تحارب الاستعمار بسيفه ، فيما هي تفذي وترى في باطنها الاستعمار » ، وأعني بذلك تمجيد الفضائل البدوية . ولكن المغلوبين على أمرهم في عهد الامويين قد وجدوا في العلوم الدينية طريقة للتسامي بآلامهم ومصائبهم ووسيلة وأداة ضد الاستبداد . ومن هنا كانت هالة التعظيم الاسطورية التي احيط بها (الإمام) علي . ورغم الانحرافات والمبالغات والاشطاء ، يجد الاستمرار الثوري في علي بنابيعه ومرجعه ، في رأي كاتبنا ، هذا الاستمرار الثوري الذي يضع ، اليوم كما في البارحة ، في مقابل الدعوة للاخلاق التي يحتمى خلفها الذين يملكون ، ومقابل المذهب المرتكز على القيم التجارية (المذهب الماركسي) ، ومقابل الجشع ، يضع ديمقراطية بطولية بعيدة ، في الواقع ، ولكنها حاضرة في النفوس ، والتي هي وليدة هزائمها اكثر مما هي وليدة انتصاراتها ، والتي يصنعها شهداؤها اكثر مما يصنعها القادة .

وقد حيا هذه الاطروحة ، ما يقارب العشرين كتاباً جديلاً (٧). وغالبية هذه المؤلفات تصدر عن قوم مؤمنين اتباعيين . وبالنسبة اليهم ، تشكل الاخلاق كتلة متراصة لا يستطيع ان ينال منها هذا الشخص ار ذاك ، لانها من جوهر اُمِّي : « وأنت ، هل أنت أكثر حكمة من الله ؟ » وفوق ذلك ، فبأي وجه تحمل سلطة الشريعة مسؤولية فتن الزمن ومفاسده التي كانت تنكرها - وتندد بها ؟ والمحاكمة الكبرى الثانية التي احيل اليها الوردى تدور حول الاخلاقية الجنسية . فقد كان يرى فيها مصدر التحريمات الأكثر اغراباً في الخيال ، انطلاقاً من عمليات الكبح والاندفاع التي تنهك ، في رأيه ، المجتمع الاسلامي وتهدم حيوية الشبيبة . فكان يوصي بسفور المرأة ، والمخالطة الحرة بين الجنسين ، والرقص « والمغازلة » فيقولون له : « ولكن هذه الدعوة تعني محاولة مداواة الرذيلة برذيلة أشد . » وينادي احد معارضيه بالظفر ، ولكن بصورة اعتباطية ، مظهراً ان اللواط او السحاق لا علاقة لها مع التحريم الشرعي لاختلاط الجنسين ! والموضوع المستمر لهؤلاء الجهابذة الحكماء هو التلويح بشيخ التقليد للغرب المرعب ! « لقد كنت في بلاد الظلمات . فأتيت منها بافكار باطلة . وأنت تبغى فرضها على ابناء قومك لتفسد عقائدهم . » وقد استشهد احد المهاجرين بالرسول ، الذي تجلى له في المنام ، ليدمغ المارق من الدين . وقد تسامى النقاش في كراس صدر بعنوان « سفسطائية للبيع » (٨) . اذ ان الوردى ، في تحمسه لاعادة الاعتبار

(٧) انظر خاصة : محمد صالح القرزيني : « الموعظة الحسنة » ، وسهيل السيد : « حكم المسلمين » « ومهازل » ، ومرضى السكوي : « مع الدكتور الوردى » ، وجلال الحنفي : « رسالتان واطروحة » ، ومحمد الجبار : « اضغاث احلام » ، الخ ..

(٨) « سفسطائية للبيع » لعبد الرضى صادق (١٩٥٦) الذي شعر جيداً بالمدى الذي يذهب فيه الوردى ، في نقده للتقاليد ، في الاتجاه الماكس لهذه الافلاطونية ، المترجمة بالافلاطونية الجديدة ، وبصورة مناقضة للتنطق الظاهر ، بافكار ارسطو ، حيث وجدت الثقافة الاسلامية ، في اوائل نموها ، ميداناً للتبادل مع التقاليد الغربية . فاصبح من المنطقي ان نجد محاولة اعادة النظر التي يطمح اليها البعض الاغراءات للعودة الى ما دون ذلك : الى النظرة النسبية التي كان يدعو اليها السفسطائيون ، وربما ايضا الى ما دون ذلك بأكثر ، ونعني بذلك ، الى فكرة الصيرورة التي كان ينادي بها هرقليطس ، انظر هذا الكراس خاصة في الصفحات

والمكانة للفكرة النسبية ، يدافع عن مذهب فلاسفة « ايله Eleo » (الذين كانوا يضعون المطلق في الذات المفردة ، الابدية السرمدية والتي لا تعرف التبديل ولا التغيير ، ضد آراء افلاطون .) اما خصم الوردي ، فيضع مقابل هذا التفكير ، الذي يريد لنفسه ان يكون مرتبطاً بتبدل الاحداث ومرتكزاً على الواقع ، تفكيراً نظرياً يقينياً ، مرتكزاً على النصوص الحرفية وعلى المنطق الشكلي حيث لا يجد صعوبة في الفوز .

ويبدو ان كل هذا القدر من الحجاج والبراهين لم يكفِ لاقناع صاحبنا الداعي للاصلاح . فهو كذلك ، قد انطلق ، منذ ذلك الحين ، في حملة ضد « اسطورة الادب الرفيع » . فالقيم الجمالية في التقاليد العربية ، تتحدو ، مثل اخلاقيتها ، من طبيعة الاشياء ومن الوظيفة الاجتماعية ! مدح السلطان ، وتمجيد الحرة ، وغزل حسي ، شهواني ، وتأنق لفظي ، وكل ذلك لا يظهر فقط عند بلاغيي عصور الانحطاط ، ولكن ايضاً عند أكبر الشعراء الكلاسيكيين الذين يدعو الوردي الى استبعادهم دون تفريق . انه يريد ان تلتح دروب جديدة . ولكن اية دروب ؟

لا شك في انه يريد فناً اجتماعياً ، وجمالية مبنية على المعرفة الاجتماعية . وانها لبدعة مناقضة للمنطق الظاهر ، في جهاز فكري كالاسلام ، مصون الى ابعد ما يكون ، وحيث تقدم المادة والشكل من ذاتها قسماً من هذا النوع . ومهما كان الامر ، وعلى الرغم من ان الادب العراقي الفتى اصبح غنياً بمحاولات جسد قيمة ومن ان شاعراً كعبد الوهاب البياتي وقصصياً كعبد الملك نوري يستطيعان ان يستجيبا لنداء الوردي ، فاني كنت اكثر ميلاً لان اطلب من مصر امثلة اكثر تنوعاً وأكثر نضجاً في هذا الميدان .

والقاهرة لم تقدم يوماً محللين نثيين . وهذه بعض الاسطر استعيرها من واحد منهم : « ان ثورتنا في المرحلة الحاضرة ليست الا ثورة عسكرية ، وان الطفرة التي احدثتها لا تتناول الا الطبقات الحاكمة . فهي لم تغير بعد شيئاً من الاخلاق ، والعلوم والصناعات ، والمبادلات ، وهي لم تجعل بعد الغلبة للعقل على الهوى في نفوسنا . وشهواتنا القريبة والبعيدة تسد الطريق أمام حقائق التقدم ، وانا تجاوز انقساماتنا الطائفية ، وتشعبات ميولنا ، وانعزالنا في خضم المنافسات القوية التي تحيط بنا . . . » (٩) . ومعلوم ان هذه الاسطر لم ترد على ريشة احد الخصوم المنتقسين من جمال عبد الناصر . فهي تعود الى زمن بعيد ، الى ما قبل الحرب العالمية الاولى . انها صادرة عن شبلي الشميل (١٠) ، صاحب (الدراسات القيمة) في مجلة « المقتطف » ، وهذه المجلة قد هاجرت من بيروت الى القاهرة ، وعلى نقض مجلة « الهلال » ، التي كان يغلب عليها خاصة الاتجاه الادبي ، فهي كانت تعنى بالجوانب التقنية من الحياة العصرية .

وقد جمع الشميل في سنة ١٩١٠ ، مقالاته الرئيسية . وهي ينبعث منها حماس للتفكير العلمي والوضعي . وكان ذلك نوعاً من التعدي بالنسبة لذلك

(٩) شبلي الشميل : « اراء الدكتور شبلي الشميل » ، القاهرة ١٩١٢ ، « الرجحان » القاهرة ، (قبل الحرب الارلى) .

(١٠) الذي يعود الفضل في الكشف عنه لجمهور الغربي الى لوسيرف Lecerf في مجلة الدراسات الشرقية *Bullet. d'Etudes Orientales* « عام ١٩٣١ ص ١٥٣ وما يلي ويلزمنا ان نضيف الى اسم الشميل اسماء يعقوب صروف والدكتور نمر ، وغيرهم من مؤسسي ومجبي المقتطف »

العهد (١١) ! والمعارضون لافكاره لم يكونوا قليلين ، وبامكاننا ان نفهم ذلك فان قصيدته « الرجحان » كانت تمجد اندماج الانسان في الطبيعة الارضية ، وعبث كل محاولة لفصله عنها . وينهي القصيدة بصرخة تزخر بالتفاؤل والايان بعضهم العصور الحديثة : « قارنوا بين عصرنا والعصور الدينية ، لقد كانت اسوأ من عصرنا » . لقد كان موقفاً ثورياً ليس فقط بالنسبة لرجال الازهر ولكن حتى بالنسبة لأنصار الليبرالية البورجوازية ، وللداعين لخلق نموذج « للانسان الطيب » (او الانسان المهذب) الذي يظل مرتبطاً بالشرق ولكنه يتفتح للغرب ، والذي يجسده منذ تلك الأيام حتى يومنا هذا ، اناس مثل احمد زكي ، واطفي السيد ، وطه حسين ، وتوفيق الحكيم وكثيرون آخرون من اصدقائنا .

وفي ١٩١٢ ، ينشر الشميل كتابه « مستقبل العلم » تحت عنوان « آراء الدكتور الشميل » . وينبثق من هذا الأثر اتجاه عضواني على طريقة هربرت سبنسر . فالاديان ليست غير ظاهرات اجتماعية عرضة للملاحظة والنقد ككل الظاهرات الاجتماعية الاخرى وتندفع البلدان العربية في تيار تطور مذهل . ولا يزال هناك الكثير امامها قبل ان تنهي هذا التطور ، « لقد انتصرت « نهضتنا » * خاصة في مجال التجريد والخطابة ، والخيال وعندما نريد ان نقدر هذا التقدم في الميدان المحسوس ، يلزمنا ان نستعين بالميكروسكوب » . وهذا

(١١) ويزداد هذا التحدي بمقدار ما يحتفظ مفرد « الرجحان » * ذاته بحلاوة طعم التمسك بلغة الشرع ، وكلمة « الرجحان » تعني في الشرع عنصر القلبة « او الترجيح » الذي يؤدي الى ميل كفة الميزان في اتجاه فكرة او اخرى ، وانه لتعد من قبل الشميل ، في استعمال هذه الكلمة في اصطلاحها الوضعي الصرف .

التأخير هو أيضا يعزوه للاستعمار الادبي . وهو يشجب نوعا معيننا من الثقافة المتنوعة المعرفة ، والقائمة على الاستناد الدائم للماضي بصورة تتضمن التقديس لهذا الماضي ، وعلى التضلع بالتنقيب عن هذا الماضي . وهو ينكر هذا التيار ليفسح المجال امام العلوم المضبوطة . فهل هذا الذي يتكلم هكذا هو ملحد ؟ على كل حال بعد وفاته (١٩١٦) ، يشكو ابنه جبرائيل بولاد من « المسؤولية الهائلة التي كانت تضطلع بها تلك النفس » ، ويعرض نفسه فداء عنها ، وكفارة (١٢)

ويدل هذا الامر على عمق الحوار الذي لم يعرف احد في اوربا ، كيف يفقه في حينه . انه يلج ضمير ابناء الاقليات اولئك الذين اضطلعوا منذ ذلك الحين ، وقبل اخوانهم بكثير باعباء الشرق وهو ينسب عن وجود ارادة تاريخية سوف ينفخ فيها تأييد الاكثريات الاسلامة الدم وحرارة الحماس . ولكن كان بوسع هذه الارادة ان تحميننا من الترددي فيما لاسبيل للتكفير عنه ، لو قابلها تفهم أكبر من جانبنا . واذا كانت عملية انبعاث « اللغة » تمنح المسلمين والمسيحيين القاسم المشترك ، فان الاندفاع العقلاني الذي تميز به أمثال الشميل وصرثوف (وفرح) أنطون كان يوسع الغرض نفسه امام الحوار بين الشرق والغرب . وم من فرص اضعتها نحن وهم حينذاك اففي مصر نفسها ، انقضى وقت طويل قبل ان يعطي المصير النموذجي الذي عرضه الشميل ثماره ؛ وهو لم يعط حتى الآن كل ثماره .

(١٢) ل . ماسينيون ، « قديم : جبرائيل بولاد الشميل » ، في « حوليات ندوة الشبيبة الكاثوليكية » ، بيروت ١٩٢٨ - ١٩٢٩ ، التي لم تفتحها في ذلك الحين هذه التطورات التي كرمت لها « مجلة العالم الاسلامي » La Revue du Monde Musulman ، في حين انبهاها كثير القنى بالمصادر .

وقد نقل أحد المسهمين الفتيان في تحرير مجلة المقطف حينذاك - وهو قد مات من مدة وجيزة - لقد نقل هذه الرسالة المبكرة حتى وقتنا هذا ، وقد نقلها مع ابداء أسفه لان البادرة لم تجد الا القلائل من الانصار والاتباع ، وبالاختصار فانه يلزمنا الانتظار حتى ما بعد الحرب الثانية لينمو في الشرق السعي وراء الحقيقة المضبوطة . ولم يتم ذلك دون ان تقوت مصر ثورتها الرومانسية في اعوام ١٩١٠^(١٣) ولسوف اعود الى هذه الملاحظة الهامة .

وفي كانون الثاني من عام ١٩٥٧ ، يضيف سلامه موسى بمناسبة بلوغه السبعين من عمره ، فصلاً ختامياً لكتابه « تربية » * وهو أحد الكتب الاكثر اثارة للانفعال في الادب العربي الحديث ، وهو يوصي النشء الجديد بمذهب انساني علماني . واكثر من ذلك هو يقترح نموذجاً لهذا النشء حياته ذاتها التي لا شائبة فيها والتي بقيت ايجابية رغم وجوه الفشل المؤلمة ، وعيش شبه مغرور . ولنتصفح كذلك مجموعته « احاديث للشباب »^(١٤) ، ويتدفق من الكتاب فيض من الحصافة ومن النزاهة والفكر النير ، وبصورة مناقضة للمنطق الظاهر يرى الشباب أنفسهم موضع النقد من قبل الثائر المعجوز بسبب فقدانهم حبل الاتصال مع الماضي . وقد كانت تغيرات الانظمة السياسية والاطارات التي اجتازوها من العمق والجزرية بحيث لم يعودوا يعرفون كيف يتبينون الرابطة والصلة التاريخية او المنطقية في تتابعها ، ومعلوم ان بناء المستقبل يفترض نقداً موضوعياً للماضي . وفي هذا السبيل يلزم تعاون عالم الاجتماع والعالم النفسي ، وكذلك

(١٣) سلامه موسى في « تربية » الطبعة الثانية ١٩٥٧ ص ٤٤

(١٤) « احاديث للشباب » القاهرة ص ٥ و ٧ و ١٤ و ٥٤ و ٥٩

الفيلسوف الذي ينادي بأن الايمان الديني هو انتجار العقل . وكم من أشياء تستدعي الاصلاح ا هذه المغالاة في البسوخ أيام الاعراس وفي الجنائز ، وهذا الادعاء الاجوف المعرفة الذي يؤدي الى السعي وراء الشهادة بدلا من السعي وراء الثقافة والتكون الفكري الحقيقيين ؛ وجاذبية السينما الاميركية ؛ والخرافة القائمة على الانانية في التشدد حول بكاراة البنات ، والشذوذ الجنسي الذي يسببه الحرمان الخ ...

كل هذه الامراض ناتجة عن سوء تحديد في كلمات « قديم » و « جديد » انه النزاع الدائم بين « القديم » * « والجديد » * الذي يشغل الشرق منذ ثلاثة ارباع القرن . العلاج : يرى سلامه موسى انه يكمن في التحرر الكامل : السياسي والعاطفي والجنسي ، وفي ثقافة تنستق من سلطة الكهان الكبار لتذهب بكل حزم وجرأة نحو الجماهير ، وفي حق المرأة بالعمل . وفي نهاية المطاف ، في كل شيء ؛ وفي سبيل كل شيء ينحصر العلاج في « العودة الى المظهر الطبيعي » (او بالاحرى الى استعادة الجوهر الطبيعي) ، « فالعالم طيب في جوهره . وبوركت الحياة ! » هكذا يصرخ الرجل العجوز عنى فراش موته (١٥) وفي ذهنه ، هذا التحرر الكامل يستتبعه كنتيجة حتمية اضطلاع كامل كذلك بأعباء المسؤوليات .

انسانية الخطا
هذه هي الكلمة الكبرى : المسؤولية ،
التي يصلها طريق خفي في الضمائر الشرقية
بالعذاب الذي تفرضه النزاعات الكثيرة وشتى التغيرات ، ولا يهم ان تتخذ في

(١٥) انه يستشهد هنا ، بريمبو . انها دائما هذه النبرات العميقة المتناغمة مع العقلانية الشرقية وعملية اعادة المعنى واحياء مؤثر للحساسية الشعرية .

رسالة سلامه موسى مغزى اشتراكياً ، أو أن يدرجها الوردى في المطالبة بذهب شيعي اثني عشري ، بينما يركزها خالد محمد خالد في أغرب خليط من الوعظ الازهري ومادية الاحشاء . فالأساس الجوهرى في كل هذه المواقف يكمن في اقتراح المعادلة بين عدة عناصر : طفرة عدم رضى ؛ انعتاق ، ألم ، احتباس ، سعي ، ثورة ، ضمير ، مسؤولية وبالنسبة لنا لن يكون عجباً ان يحس شاعر في حياته أكثر من أي فرد آخر بهذه المحالقات الخفية وان يعلن عنها في أغانيه ، حتى ليصبح عسيراً على المؤرخ ان يأتي بعده ليكشف عنها دون ان يبدو ثقيل الاسلوب مليئاً بالنظرات التي تشوه الوقائع .

« المهاجرة » * هذا ما كانه جبران (١٦) قبل كل شيء في حياته كما في آثاره . انه يغادر على التوالي قريته الجبلية التي بقيت في عينيه الفردوس الضائع ، ثم بوسطن التي تدرج فيها على التعرف الى الغرب ، ثم من جديد لبنان حيث تعلم لغته الام ، أكثر مما استعادها . وبعد ان زود اللغة العربية بمشالية رومانسية على الطريقة الاوربية هو يترك اللغة العربية ليزود اللغة الانجليزية بما سوف يبدو فكراً مستلهماً من الشرق . انه يعبر اذن عن هذا النفاذ من خارج إلى سلطان الاسطورة ، واعني بذلك الاثراء ونزع الطبيعة الذاتية اللذين يحس بهما العرب احساسه بهما ، وهو يعبر عن ذلك السلطان بمقدار ما عاشه في نفسه . وهذا الضباب الذي تشير اليه أحياناً كثيرة جداً اشعاره وكلماته (١٧) ، انه يرمز إلى الامداء المبهمة او الى اللاوضوح في الصيرورة أكثر مما هو اشارة تعسسية إلى « الغطيطة » * التي تجلبب بالغموض وديان بلاده في صباح الخريف . فان نوعاً

(١٦) الذي أبدأنا عنه بصورة خاصة اطروحة انطوان غطاس كرم ، غير المنشورة .

(١٧) انظر المكشوف ، رقم ١٦٤ ص ٥

من الاستعداد للتعاطي الفني والحافل بالرغبات يتلقى هذه النفوس وهذه المجتمعات التي تحن للتحويل على نقيض الخطوط الفاصلة الهائلة التي ترسمها الاخلاق والحياة القائمة على التقاليد .

هذا هو اذن المذهب الرومانسي الذي يدعو اليه الكاتب المادي الطيب سلامه موسى في الوقت نفسه تقريباً ، الذي كان يدعو اليه جبران ، ولكن دون أن يعرفه ، ومنطلقاً من اتجاه فكري مختلف . ولكن سلامه موسى يتبنى قيام انسان عربي ذي ملامح فاوستية ، بينما يكتب جبران بأن يحس في وجوده ؛ وان يعبر في نشره الايقاعي بهذا الابهام الرومانسي القائم بين العتمة والاشراق : وانه لتجديد لم يسمع بمثله في شرق حافل بالظلال القائمة والاضواء العنيفة ، فينتج عن ذلك ان السلام سوف يهرب دائماً تقريباً من أمام رحالة من هذا النوع (جبران) وهو سوف ينعم به بمشقة اذ يجده في موسيقى معينة : تلك التي ينتظر المستمع منها أن تفتح له الطريق الى « السكينة » * انه يطلبها كذلك من الطبيعة التي يخترعها لشعبه ، « انك ذاتي ، أيتها الارض » (١٨) ، ولكنه اذا كان يناشد الارض ؛ فلأنه قد فقدتها ، انه يشبه في سعيه المهندل المصعوق بصورة مفاجئة ، ذلك الشخص الذي يبدو في أحد لوحاته المحفوظة في متحفه ببشرى : شاب يرقد منهو كماً بالقرب من حيوان خرافي (نصفه بقرة ونصفه امرأة) هو يحبه ، ولكن ربما لم يستطع الاستمتاع به ...

هذا القلق العربي الذي عرفته العصور الحديثة ، لا يلبث كما رأينا ان يلقي التبعة على الآخرين ، بل انه هنا في شكله الاكثر فجاجة ، ولكن عبر هذا الصعيد الذي يبدو فيه القاء التهم على الاستعمار نوعاً من الصدى لكراهية الذات

(١٨) جبران : « المجموعة الكاملة » الجزء الاول ص - ٥٥

يحدث تأرجح آخر بين عذاب التمزق النفسي والمرارة ، والشعور بالخطيئة ، هذا هو في اعتقادنا ، المعنى التاريخي لكتاب مدهش : « القرية الظالمة » * للدكتور كامل حسين^(١٩) . فالجذر ظ . ل . م يوجد في النصوص القرآنية . ودراسة الامر من جانب علم المشتقات تحمل على التفكير بنوع من «عدم الملاءمة» أو بشيء يقوم في غير موضعه : على عكس ما توجيه الكلمة الاغريقية « كوسموس Cosmos » (العالم الكون) ، ولكن أصلاً يتناول المفرد العربي أيضاً معنى اخلاقياً : الظلم الذي يؤذي صاحبه : إذ أن يكون الانسان ظالماً يعني في الحقيقة انه ناقص ، وقبيح ، اذن انه يتعذب^(٢٠)

والكتاب الذي بني حول هذه الكلمة ، هو عبارة عن مجموعة محاولات في شكل حوار تذكر رينات في أيام شيخوخته .^(٢١) وكامل حسين يجهد في ابراز قضية موت المسيح ، معطياً اياها تفسيراً مرتكزاً على نظرة متعددة الجوانب ، فينظر اليها من زاويتها الموسوية ومن زاويتها الرومانية ، ومن زاوية رواية الرسل . « لقد ارتكبت الجريمة من قبل رجال دين ، مشبعين

(١٩) انظر مقالا هاماً ل ب أنواتي P . Anwati في مجلة M . I . D . I . O في عددها رقم ٢ ص - ٧١ وما يلي . وقد استمرت منه بعض مقاطع مترجمة ، وانظر خطاب الاستقبال الذي القاه ابراهيم مذكور وجواب الدكتور كامل حسين في المجمع العلمي العربي (١٩٥٢) وانظر مقالات حسين هيكل وخاصة مقالات طه حسين حول الكتاب .

(٢٠) انظر مجلة M . I . D . E . O رقم ٤ ص - ٢٥٥

(٢١) وفي الواقع فان الدكتور كامل حسين قد تذوق رينات في جملة مفكرين آخرين قبل أن يتصل عن آثاره .

بمعنى الايمان والشريعة « (٢٢) ، اي درس هذا القائم على مذهب النسبية ! فقد يكون من البساطة البالغة اتهام الصدوقي المتعجرف ، او المنافقين ، او « المسيطرين » ، أو حتى بيلاطس نفسه . فقد كان لكل من هؤلاء حججه وأسبابه ، ولكن الجريمة قد ارتكبت مع كل ذلك . وقد اغرقت عتبات ، لم يستطع العلم تفسيرها ، الارض في السواد الحالك . فلماذا يرهق كل هؤلاء العقلاء ، كل هؤلاء « الملتزمين » ، كل هؤلاء « الشعارين بالمسؤولية » ، كما نقول اليوم ، أنفسهم ؟ لماذا هذا الاحساس بارتكاب جرم موضوعي ينعكس اثره على كل الناس ، عبر أخطائهم الذاتية ؟ في الاساس يستطيع المجوسي وحده ان يفهم ذلك ربما لأنه الوحيد من نوعه في الكتاب الذي لا يخضع لأي تصنيف اجتماعي أو وطني . انه قادم من الشرق : هذا كل ما سوف نعرفه عنه ، انه يعرف أن قتلة يسوع العاملين باسم الشريعة ، قد اعتدوا ، في ذلك اليوم على الضمير ، أي على الوجدان الاخلاقي وعلى الغائبة المثالية للعالم . ويكتب المؤلف معلقاً : « هذا المفهوم للضمير ينفصل بوضوح عن الادراك والعقل انه الشرع الذي يشعر الانسان بما هو شر وبما يلزمه ان يتجنب عمله ، ولكنه كذلك قمة كل الشرائع وذرورة ناموس بيولوجي كوني ، ... »

في قضية الدكتور كامل حسين نحن أنجد أنفسنا مام جراح كبير ، وعالم ضليع في العلوم المنضبطة . يلقي كتاب آخر من كتبه الضوء على الكتاب السابق ، انه كتاب « وحدة المعرفة » * انه يستهل بنوع من اعلان عقيدة تفاعلية . ان ثمة نظاماً يهيمن على الكائن وعلى العقل . فالمعرفة تلقي جسراً بين الواحد والآخر من هذين القطبين ، انها توحد ولكن بواسطة مستويات تقوم فوق بعضها البعض ، وتفصل بينها فراغات ، مستوى المادة ، ثم مستوى الحياة ،

ثم مستوى الحياة الحيوانية ، ثم مستوى الانسان . ويبرهن المؤلف علمياً على هذا التسلسل اللامتصل على صعيد علم المعرفة وعلى صعيد علم الكينونة في الوقت نفسه . كل دور أعلى هو بالنسبة للدور الأدنى « قدرة مهيمنة وقدر » وهذه « الفجوة » * التي تفصله عنه تنتج في آخر الامر عن شريعة أخرى تسيروالكائن . والمؤلف الذي لا يبدو صريحاً جداً حول هذه النقطة ، يسمي هذه الشريعة : شريعة « الكبح » * ، فكل نظام أعلى يتفصل من الأدنى بنوع من الوثبة ، وهذا الاسلوب يتأكد خاصة على مستوى الضمير الذي هو قبل كل شيء آخر ، كبح ؛ واحالة للعدم ان صح القول ، ولو جرؤنا على استعمال اصطلاح مريح ، فالصعود الذي يتم هكذا بقفزات دائمة وليس تدريجياً يتتابع حتى يصل الى هذا الشيء الذي يتجاوز الانسان والذي هو بالنسبة للانسان « قدرة مطلقة وقدر » ، وعلى العكس ، فالكائن ينعكس مع نفسه من دور الى دور ، حتى يبلغ دور المادة . وهو اذ ينحدر الى الدرك الاسفل من كل هذه الدرجات ، ربما يضعنا وجهاً لوجه مع عملية الخلق الاولى مع التكوين البدائي الذي تتحدث عنه العقيدة الدينية .. (٢٣)

وهكذا فان الدكتور كامل حسين يقترح علينا مذهباً انسانياً مبنياً على فكرة الخطأ ، ولكنه يميزه بشدة عن المسيحية . ففي المسيحية لا تزال تسيطر في رأيه الزلزلة النفسية التي أحس بها الرسل يوم هدرت العدالة . ومن هنا كان ميل المسيحية الى اعطاء أهمية أكبر للامتناع عن الخطيئة مما لعمل الخير ؛ وللخوف

(٢٣) « وحدة المعرفة » ص - ٢ و ١٠ (لزوم الكلية) و ٧٢ (الكبح) و ٧٧ وما يلي (مراتب الشرائع والمستويات)

من الظلم أكثر مما لحب العدالة ، وللخشية من الجحيم أكثر مما لحب السماء ،
ولتحريم الشر أكثر مما للحض على الخير . « أما في الاسلام فساند الامر
بالمعروف والنهي عن المنكر يسيران متساويين متعادلين . والاندفاع الايجابي
لا يعرفه شيء اللهم الا كونه محاطاً ، ومسيجاً بالتحريمات ، وحتى هذه
التحريمات والتعاليم الخاصة بالنهي فان عليها حسب علماء الدين الاكثر تشدداً ،
ان تزول أمام الضرورات ، وربما لان الضرورات - الاخلاقية والمادية -
تتصدر من الينبوع نفسه الذي يتصدر منه الاندفاع الايجابي (الامر بالمعروف)
ويتبين التأمل الاسلامي في أخلاقيته الذاتية ، وفقاً من الحياة الطبيعية يبدو
مبدأه موضع تضاد وتناف مع الطابع المساوي المسيحي . »

محاولة تفسير
أكد أن فكرة من هذا النوع تتجاوز
كل نقاش ديني ، فهي تعطي الشهادة الرائعة
على اعتراف الآخر ، وعلى اقتسام للمسؤوليات مع الآخر ، وحتى للمسؤوليات
الغيبية (الميتافيزيقية) . ولكن الاقتسام لا يعني الانضمام . ان السطور الغريبة
التي ذكرتها تقلب الكثير من الافكار المتلقاة عن الاسلام والمسيحية ، وربما
هي تؤكد التفسير الذي حاولت أنا نفسي رسمه وبناءه عنصراً عنصراً ، على
طول هذا الأثر .

فبأي انقلاب مناقض للنطق الظاهر ، استطاع هذا الدين المسيحي الذي يرى
الدكتور كامل حسين فيه رفضاً للعالم ، أن يحمل أبنائه واتباعه على النشاط
المجد ، والتوسع والانطلاق ، والصناعة ، بينما تحول الدين الاسلامي وهو

صديق الكائن الى الانغلاق على ذاته الداخلية؟ (٢٤) ان تاريخ القرن الاخير من حياة البحر المتوسط هذا التاريخ الذي اصاب المسلمين بأشد ما أصيبوا والى أبعد ما يكون ، يسمح دون شك بحل اللغز : وهكذا قادني التحليل السياسي في الفصل السابق الى اقتراح تعريف أود ان أعيدده الآن .

اذا كان التحريض الداخلي يدخل في الحساب ، في الاخلاقية المسيحية أكثر من التحريم والنهي فذلك ربما لان المعنى الذي يُبنى ، وفقه ، الطرازات للانسان اللذان يصور - تناوبهما تناوب الاسلام والمسيحية او تناوب الشرق والغرب ، لأن المعنى يختلف عند الواحد والآخر . فالغرب يشعر ازاء العالم بهذا الانكماش الاولي الذي يجد الدكتور كامل حسين أسبابه الرمزية في حادث صلب المسيح ، ولكن الغرب ، « بتميزه » هكذا عن العالم ، يبني نفسه انطلاقاً من هذا العالم . وضد هذا العالم . ان قاعدته الاخلاقية تريد لنفسها ان تنبع من داخل لانه يبني الشخص الانساني من الخارج الى الداخل (٢٥) . انه لا يفصل الموضوعية عن النزاهة . لقد اقام بين الداخل والخارج مبادلات شعرت الشعوب الكثيرة ، ايام تكوين الامبراطوريات بقسوتها الحسبة .

(٢٤) يقول جولدمان : ان «التنسك داخل العالم ، أو داخل المجتمع الديوي» الذي كان ينادي به مذهب كالفين LeCalvinisme يتعارض في نظر ماكس ويبير Max Weber مع « رفض كل حياة داخل المجتمع الديوي » الذي عرفناه لدى الجانسينيين (Les Jansénistes) ؛ ولكن هؤلاء الاخيرين يندمجون حسب المؤلف نفسه بصورة نشيطة مع مجتمع شيط . على كل حال فان كثيراً من الفوارق الدقيقة تمحي عندما يتم توضيح المقولة المتعاكسة (الانتياز الشرق - الغرب) في صورة حوار تاريخي قابل للتحديد .

(٢٥) لا يسعنا هنا تفصيل الآفاق التي تستطيع فكرة مماثلة ان تحملها لدراسة صفات مقارنة عند الشرقيين والغربيين ، وهي دراسة لم تشق دروبها بعد ، على حد علمنا .

والامر يختلف تماماً بالنسبة للاسلام التقليدي . ونكرو هنا مرة اخرى ان الشخصية في هذا الاسلام ، تتركز في الوقت نفسه على فكرة التسامي بالنسبة له (العلي القدير) وعلى نوع من الفيض بالنسبة للسلوك . انها تنضم للكون وتلتصق به ، انها هكذا بمنجى عن الكثير من التمزقات والعذابات ، وعن الكثير من المشاكل ؛ انها سعيدة ، معادة الملاءمة و « التوفيق » * والازمة لا تبدأ في نظرها الا بعد ارتكاب « الذنب » او « الخطأ » ، ولكن الخطأ ليس الخطيئة الاولى ، وهو ليس كذلك قتل إله . واذا كان « الله قد مات » (٢٦) ، كما يقول نيتشه ، او على الاقل اذا كان قد خاطر بالموت فذلك عند العرب ، لاسباب تختلف تماماً عما عندنا . فالخطأ بالنسبة لهم هو في الفشل الذي ينزله بنظامهم ظهور المدنية التقنية والامبريالية . وحينذاك يعقب انسان التسامي والانضمام للكون انسان الحرمان والانفصال ، أي انسان الاحتباس النفسي والقلق ، ولكن أيضاً انسان النقد والعمل والتحرك ، وفي نهاية المحنة ، انه يبلغ قلب الطبيعة والتاريخ ، بالضربة ذاتها ، ولكن من جانب آخر ، تفقد كينونته الكثير من طابعها الكلي .

« فالكبح » * « والكبت » * و « الكظم » * هي مفردات ثلاثة تنتمي الى الصورة نفسها . وأول هذه المفردات يعكس النظرية العلمية التي قدمها الدكتور كامل حسين . والمفردان الاخران يعكسان ظاهرات من البسيكولوجيا الاجتماعية عمتها الصحافة من زمن . وقد كان التحليل لمصدر كلمة تغشت في

(٢٦) انظر فقه هذه الكلمة عند هيدجر Heidegger في مجلة Arguments العدد ١٥ الفصل الثالث ١٩٥٩ .

الوقت الحاضر ، هي كلمة « قلق » (٢٧) (القلق العربي في العصور الحديثة)
يوحي بتحليل جدران ينفصل عنها محتواها ، او جسم صلب تحفر داخله
فراغات تجويفية ، ولنحتفظ ايضاً بالمفرد « فجوة » (٢٨) الذي يدل على هذه
الفراغات . ولو كان متاحاً لنا ان نتابع الصورة حتى النهاية ، لاشرنا الى هذا
الطابع الكلي الشامل للانسان في العالم الاسلامي التقليدي لانسان ما قبل
الغرب ، ما قبل الآلة وما قبل التحليل . « انه الكرة التي ستعاني بعد الآن ؛
كل فلذة منها الحنين ؛ والتي ستتجه نحوها بكل قوتها الحيوية ، مثلما أن الحبة
هي صيرورة دائمة ومحمولة دائماً على اجنحة الحنين نحو اللانهاية (٢٩) ، ونحن
نفهم ، والحالة هذه ان تسمى كل فلذة - انساناً كانت أو أمة أو طبقة -
لاتمام دورة تطورها باستعادة الوحدة في هذا العالم العربي الذي لا يزال يحن الى
حالة الفيض التي أضعها ، وان تسمى لذلك عبر التحليل والانقسام ، وبعد ان
تدفع لذلك ثمناً باهظاً من صنوف السير الاكثر تشبثاً .

هذه العودة للوجود الشامل

التوق للوجود الشامل

تستطيع ان تتخذ الكثير من

الاشكال ، مثلاً شكل اعادة حكم الاسلام الذي يقترحه عباس محمود العقاد (٣٠)

(٢٧) لسان العرب انظر موضع الكلمة .

(٢٨) « وحدة المعرفة » ص ٩٩ ، فالكلمة والصورة تذكر اننا أيضاً « بالكهف » ، كهف
افلاطون وكهف « أهل الكهف » (السبعة ليام) الذي أعطى عنه ل . ماسينيون ، كما نعلم ،
دراسة فقهية ذات طابع عالمي شامل .

(٢٩) « رمال وأشكال » ، بداية (بالانجليزية)

(٣٠) عباس محمود العقاد : الاسلام في القرن العشرين ١٩٥٤ ص ٢٢ و ٢٨

فيرى انه يعرض على المؤمنين نظاما لا « انقسام » * فيه ولا تقسيم اعمال ان صح القول ، فالشعب بمجموعه قد احتفظ بعقيدته : وقد يكون هناك اغراء كبير أمام السياسة باللجوء الى هذا الشكل من الاندماج المتصف بالامتياز : والخطر في مثل هذه النظرية - والاحزاب التي تنادي بها قد وقعت فيه ، فعلا - يكمن في التوهم بأن طريق العودة للماضي هو الطريق المؤدي الى الاصاله الخلقية والصحة الاجتماعية . فادارة الظهر للواقع لا يستطيع ان يقود الا للاشيء . ففي الشرق تتخذ المعاني متجسدا لها ، شيئا فشيئا ، وعلى الرمز ، كي يحتفظ بحيويته أن يشبع جوع الناس ويستجيب لتمنيات الأشياء ، فعليه تصيح الكثير من المواقف القديمة مرفوضة بصفتها وسائل للهرب والتمويه وتبرير الفشل والخطأ . وكما بالنسبة لكل الاديان ، اصبح عسيرا او مؤلما بالنسبة للاسلام ان ينعكس على مستقبل مادي مع احتفاظه بمصدره السهاوي وبمعناه المتسامي وهو لن يحقق ذلك الا بفضل « اجتهاد » جديد ، وبفضل « مجهود » خاص يقوم على الابتكار العقائدي مثما يقوم على الذهاب نحو الطابع العصري في الحقل الاجتماعي : بهذا المعنى ، عليه ان يستعيد ويتابع رسالة الشيخ محمد عبده .

اما التفاؤل العالمي الذي يبدية آخرون فيذهب في اتجاه معاكس ويعود اليه الفضل في وضع عملية التأليف (السانتيز) كمرحلة ختامية في عمليات تقدم طويلة النفس ، لا تتم في عكس تيار التاريخ المحسوس وانما في مجراه ، وبما ان هذا المجرى يميز ايضا تطور بقية العالم ، فان البلدان العربية بوسعها ان تستعيد على هذا النحو ، وفي آن واحد ، شخصيتها متحررة على التتابع من كل العوائق الخارجية والداخلية وتضامنا مع بقية الشعوب الانسانية . هذا هو الوعد المزدوج الذي تقدمه للعرب حركة اشتراكية يجد العالم البورجوازي صعوبة كبيرة في فهم قوتها وسلطان جاذبيتها . انه يعزو هذه القوة إما للنجاحات السوفياتية في « هذه المنطقة » واما الى مطالب نابعة من الاعماق ، اكيد ان هذه

الظواهرات تسهم كثيراً . ولكن توافقها لم يصبح أمراً راهناً حتى الآن في أي مكان . إنها تشكو ، كما نعلم من حالات عدم توافق زمني ليست دائماً تعود إلى طبيعة الأحداث الجارية ، إنها تشكو طبعاً من الفوضى والبلبلة والالتباس فكل إنسان تقريباً في الشرق يدعي الانتماء إلى الاشتراكية ، والحال أن الماركسية التي هي في آن واحد ، الشكل الأكثر اتصالاً بالتجربة والأكثر عقائدية تستمد في هذه البلدان النصيب الأكبر لقوتها من موقف قائم على الشمول الكلي أكثر مما تستمد من (فلسفة البؤس ، أو من عمليات تكتيكية بارعة ، إنها ، هنا ، رجاء بامتلاك الوجود الكلي أكثر مما هي طريقة للصراع ضد تخلي أو ضياع الذات الاجتماعية أو الوطنية) إنها رجاء في بلوغ وجود كلي يقع في نهاية مطاف التاريخ ، وليس في بدايته ولا فوقه ، وإن نجاحها في نهاية المطاف سيكون مرهوناً بقدرتها على إعادة تكوين إنسان شامل .

الفصل الرابع عشر

العرب والعالم ونحن

اذا كان الامر كذلك ، فان مشكلة الشرق العربي تنصهر في مشكلة الانسانية الحاضرة : الاحتفاظ بهويتها أو بالحري بهوياتها في حالة التحول الهائل وفي عملية التحويل الضخمة الى وحدات متشابهة التي يؤدي اليها التقدم التقني . وانطلاقاً من عالم بطيء ومتعدد الالوان ، هانحن جميعاً ، ننعرف نحو عالم يزداد سنة بعد سنة . تجدداً وتقريباً بين المستويات المختلفة . وان التنوعات الغنيّة في المكان التي كان يحدثها الانسان بين بلد وآخر ، وبين منطقة وأخرى ، تتحول الى تنوع في الزمان ، أي الى تحول مفاجيء في الذات . وهذا الامر يعني ، بالنسبة لكل وحدة أصيلة ، فقدانها ما يميزها عن الوحدات الاخرى ، اذن فقدانها ، من وجوه عديدة ، ماهي عليه بالذات ، وذلك مقابل حقها في أن تبقى ، فهل من اللازم أن يدفع هذا الثمن الغالي في سبيل البقاء على قيد الوجود ؟

أکید أنه تظل في كل مكان رواسب من « الاخطاء الدقيقة ، ومن التباين المدقیق بین الناس ، وهذا التباين لا يزال يتجلی في تنوع لا حد له في عمليات الاختیار وفي الحلول . وفي هذا الأثر الحاضر ، قد سمیت لتعمیق حالة وفترة معینتين من هذا التنوع . ولكن المشكلة تظل متشابهة ، سواء تعلق الأمر بالعرب أو بالفرنسیین ، وان محاوره حول الشخصية وحول الوجود الكونى ، وبالتالى حول التقدم المادى والقیم ، تحاول ايجاد تعريف لهذه المشكلة بالنسبة للعرب مثلما بالنسبة لنا ، وهنالك مثلما هنا . والمفكرون العرب يطرحونه على هذا النحو بكثير من الوعي ، وهم يفكرون بضرورة مواجهة الضرورات القتالة (أو القاهرة) ونداءات الحياة الحديثة بتنظیم علاقات فيما بينهم والآخرین من جهة ، و بین الشخص والبيئة من جهة أخرى ، والأكثرية منهم على الرغم من مهابات ماضٍ وعقيدة دينية أكثر تأثيراً عندهم مما عندنا لا يبحثون عن الحلول في العودة الى ما لا علم لي به من عصور ذهبية يُزعم انها سليمة من قوانين التطور التقنى . ويقود الايمان بالتقدم المادى ، وبفضائل السير قدماً للأمام ، الجهود المتحفزة ويذكي الحماس في نفحات الشجاعة ؛ هناك كما هنا . ولكن هنا تقف المقارنة ووجوه الشبه ، فاذا كانت المشكلة واحدة ، فان الصیغ والوتائر ، والامثال والمعاني تختلف (اختلافاً محسوساً)

ماهية الشرق العربى
لندع أنفسنا تنساق مرة أخرى
مع صورة هذا المشرق العربى ،
الذي تشده روابط الوفاء المعقودة من آلاف السنين والذي ينحل فجأة مندفعاً
نحو المستقبل . ان مسرحية « فاوست » في جزئها الثاني تضع نظرية أهل البحار

Les Neptuniens في مقابل نظرية أبناء النار Les Vulcaniens . ففي نظر أحد الفريقين يعمل الكائن بصورة تراكم . وفي رأي الفريق الآخر ، هو يعمل بصورة تفجور . ولا شك ان تلك المناظرة كانت تتضمن تقابل التقيضين في مقولة معاكسة (Antithése أنتيثيرز) هي موحية اكثر مما هي مرتكزة على حقيقة ، وهذا لا يمنع كون ان الثورة ذاتها عندنا ، اذا كانت ترتكز الى حتميات صبورة فانها تتفجر عندهم مثلما تتفجر النبوة . ومن هنا كان كل عدم التفاهم هذا بين العالمين . وعدم تفاهم على جميع المستويات ومن كل الانواع ، اذ ازه لا الحركات المحافظة ولا الحركات الهدامة تتطابق تماما في هذا المعسكر او الآخر . ومع ذلك فان لغة تخاطب واحدة ، وعقائد واحدة ، وطريقة سلوك واحدة واساليب واحدة في ارتداء الملابس وفي تناول الطعام ، وفي النضال والحب تنتشر اليوم رويداً رويداً على كل وجه الكرة الارضية . وهذا التمثل ، رغم سطحيته ، يفعل ايضا في اتجاه الأعماق . انه ينتهي بخلق الحقائق التي يحاكيها ويقلدها . فصنع النسيج والعمل التعديني وربما بعد قليل صنع الحركات ، كل ذلك يدين به الشرق في الدرجة الأولى ، لعملية تعريف ذاته التي يجهد في سبيل ايجادها ، وعلى الطريق نحو هذا الهدف تنعم مواقف الانتاج وتتسع في داخله ، فعلياً . وبعثنا الذي كان ينطلق عن حق ، من جرادة الاشياء المختلفة ، يتبين في نهاية السير طابعا مشتركا تحت الاشياء المتفاوتة . وينتهي بعثنا بملاحظة وحدة الانسان . ولكن الم تكن هذه أمنيته عند بداية الشوط ؟

وإذا كان التحليل يؤدي بنا الى انكماش وتقلص التضادات التي كانت تفصل بين واقعنا والواقع العربي ، القريب والعدو حتى تستحيل الى فوارق في الشكل والوتيرة ، فذلك لانه قد اتبع الدروس والعبر التي يملها الواقع المباشر ، اذ ان

الواقع المباشر يقول الحقيقة السليمة عندما يراد الاستماع اليه . فالشرق الذي يمكن احتضانه بنظرة بكل ما فيه : أناسه ومشاهدته واحداثه ، يبهرننا بقوة صورته ورغبائه ، وفي الوقت ذاته بجلاله كمنط عتيق ، وبهذا الجشع اللاديني الذي ينتقده ويلهبه ، على التوالي ، الاستشهاد بالقيم . والشرق يعاني من تعارض وينعم بتعالف ، بين ألقى ماضٍ مرتبط بالحق الالهي وكبوات الحاضر . (وهذا التعالف والتعارض هما خاصان به) او ايضاً ، على العكس ، بين ما يستطيع هذا الماضي ان يحتفظ به من قيود ، وزواجر ، وقوى التجدد الفتية والمستمدة من طبقات اجتماعية وعقلية لم تستنفذ بعد حتى الآن .

الشرق هو بلا شك أرض ابراهيم ، ، ولكن ابراهيم الذي يعاود الاخضرار . فهو يشبه قليلاً ما صورته لوحة لمانتينيا Mantegna حيث نرى أرومة عتيقة من شجرة ، تأكلتها السنون ، فنبتت فيها أغصان منضرة الخضرة ، فاذا هي وجوه ترتفع بالصراخ . انه لعنوان بؤس الشرق العربي وعظمته : ان يعرض هذه المتضادات متداخلة فيما بينها . وأكثر من ذلك : عدم الاكتفاء بتقديدها متشابكة وانما انتظار علاج لجميع أدواء الحاضر من تشابكها . ومن هنا كان هذا الانفعال الحار والزاهر بالرعشات وهذا السحر المؤثر ، ولكن ايضاً عدم التناسب بين القول والفعل ، بين ارادة الكينونة والحركة ، وبصورة عامة ، كان الخلاف ، الذي عمقه العهد الاستعماري ، بين العدالة والفعالية .

ضعف ، وعدم تناسق ، ان شئنا . ولكن ايضاً توسط . فالسهروردي ، وفي اثره هنري كوربان^(١) ، يعنيان « بالشرق الاوسط » - في معنى يختلف عما تعنيه الوزارات ، كما لا يخفى - ذلك الحيز من السكان الذي يطوف بين الإنساني والإلهي . وان تحليلاً أكثر بساطة ، ولكن ليس بعيداً ، الى هذا الحد ، في اتجاهه عن تحليلها ، يجد ان كل شيء هو عبارة عن توسط في البلدان العربية

(١) هـ . كوربان H. Corbin « التخيل الابداعي في صوفية ابن العربي » دار فلاماريون

رغم الفجوات التي حفرها ، عندهم ، بلوغ سير التاريخ ، مثلما حفرها عندنا . توسط لأنه ، في كل مكان ، وفي كل شيء ، تتصالب فيه القيم والاشياء ولأنه ، في كل لحظة ، يجري الالتجاء فيه من هذه الى تلك . الشرق هو المكان الذي لا ينفك فيه الشيء يستنجد بالفكرة ، والفكرة تستنجد بالشيء . انه موطن الشيء ، والفكرة للمجددين والمهانبين فيه ، على التوالي او في الوقت الواحد .

وما يمكن ان يكون صحيحاً تحت هذه الصور ، والى أي حد يسعها ان تميز ، تحت سياق من المشاهد الطبيعية ومن التصرفات ، بادرة تاريخية : هذا هو أحد المبادئ الاساسية التي كانت دراستنا تفترضها من اول الطريق . وهو سيكون احد الأفكار التي نختتمها به . فان احدى الحصاص الطريفة عند العرب تكمن ، دون شك ، في هذه القدرة على منح القيمة للواقع المباشر . وهناك ، في هذه الحالة ، دون شك ، أسباب اخرى غير الاسباب الخاصة بالظواهر المادية الخارجية . وحينئذهم الى الوجود الشامل هو المسؤول عن هذا الانتقال الدائم من الاشارة الى الجوهر ومن المثل الاعلى الى المحسوس . فالعرب يريدون الابقاء على الوحدة او اعادة تكوينها ، رغم كل التصنيفات وكل عمليات تقطيع الاوصال . ومن هنا كان ميلهم نحو الرمز ، وكان ان دراسة لسيرهم الاقتصادي ، من النوع الذي رسمت خطوطه الكبرى في الفصول الوسطى من هذا الكتاب ، قد لزمها ان تسجل العديد من التطابقات بين الوقائع الأكثر مادية والنفس التي تشهد عليها ولنحذر من ان نرى في هذه البادرة ، فقط ، ملامح من « مشاركة » تُعزى الى طابع عتيق معين ، وانما أيضاً وخاصة تعلق العبقريّة العربيّة ، او ما يلزم ان يدعى كذلك ، بامثال هذه المطابقات . انها هي نفسها هذه المطابقات ، اكثر مما هي تربيتها . فقرب التبادل بين المادي والروحاني ، وحرارته ، والتعاقب بين الحواس والمطلق ، كل ذلك يشكل ، دون شك ، ورغم تغيرات العصر ، أحد النسمات الثابتة الاكثر رسوخاً للشرق ويؤلف ، على كل حال ، الخاصة التي هي ، عن حق ، أعز ما يكون على قلب الشرق .

هذه الطاقة الوحدوية^(٢) ذات المحتوى الذي هو اكثر ازدحاماً بالحياة من المحتوى الذي تفرضه عليها السياسة والعلوم الدينية ، تكمل ، مع الثورة ضد الآخرين وضد الذات ، ومع الحماسة للعودة الى الطبيعة ، ملامح العرب في ايامنا هذه . وان كان صحيحاً انه ليس عندهم من فئة او حدث ، ولا من شخصية جماعية او فردية ، ولا من مستوى اجتماعي او ذهني ؛ لم يهره هذا الطابع المثلث ، او لا يجد ضوءه تحت هذه الزاوية البصرية المثلثة ، فلربما أجد لنفسي ، ايضاً ، الحق في تتبع هذه الدعوة للتأليف (السانتيز) ، ولإعادة تجميع الجوانب المتفرقة ، وللارتكاز على تحليلات جزئية في سبيل استنتاج نظرة على المستقبل . ولكن ، رغم كون الرغبة في التجميع وفي التنبؤ امرأ مشروعاً ، لا يعني ان اقوم بهذا العمل دون الخضوع لضرورة الاختيار المسبق بين نظريتين افتراضيتين ، احدهما تفاؤلية والثانية تشاؤمية . اذ ان للقلب ان يستعيد ، هنا ، حقوقه ، وان يعحيل ، وهو يروز النقيضين القصوين ، الى ان يصفهما بالخير او بالشر .

الفرضيتان
(النظوريتان الافتراضيتان)
 حسب الفرضية التشاؤمية ، يعيل العربي ، الذي هو ضحية المواضع

والحقد ، في آن واحد ، الى التغلي عن شخصيته الأصلية ، في محاولته للتكيف مع

٢) انها قدرة الجذر اللغوي (المادة اللغوية) الذي يعطي كلمات يمثل هذا الفنى بشحنة المعنى والالفعال مثل « الوحدة » * و « التوحيد » * و « الاتحاد » * ... ففي مؤتمر العلوم السياسية الذي انعقد في بيروت (من ٥ الى ٧ تشرين الثاني ١٩٥٩) يضع الدكتور سويلم العمري بصورة مريحة كلمة « وحدة » * في مقابل كلمة « اتحاد » . ويمكنني ، هنا ، ان احدث ، على غرار لويس جارديه Louis Gardet ، عن مذهب « السالي اسلامي » (النظر « الحاضرة الاسلامية » ، ١٩٥٤ ص ٢٧٣ - ٣٢٢) ، لو لم اكن أفضل ان ألج ، كما رأينا ، على صنف معين من السلوك العربي الذي أحس به وعبر عنه - بصورة متباينة ومتفاوتة - كتاب مثل لورنس ، ول . ماسينيون وبشر فارس . انظر ، مما كتب مؤخراً « الفروسية الاسلامية » لأد ، فور Ad. Faure ، مجلة البحر المتوسط ، ١٩٥٩ ، ص - ٤٥ وما يلي .

العالم الذي يندد به ويخضع له في آن واحد . وبفقدانه طبيعته الذاتية ، هو لن يكتسب ، بالمقابل ، مكاناً كبيراً تحت شمس الآخرين . وان ثمة خطراً في ان تؤدي رواسب تاريخه الوطني والاستعماري ، والعجز الهائل الذي خلقه له هذا التاريخ على الصعيد المادي والمعنوي ، الى نسف حظه بالنجاح ، حتى على صعيد الحياة العملية التي يعتزم الانخراط فيها اكثر فأكثر . وقد أخذ التمييز بين البلدان المتقدمة والبلدان المتخلفة النمو يتعدى قضية التفاوت في امتلاك الاشياء المنجزة . ولكن أصبح يتعدد بنسبة تزايد السكان . فبلد متخلف النمو ، هو بلد ينمو بسرعة أقل من البلدان الاخرى . وفي نهاية التطور ، سوف تزداد المسافة بين البلدان المتحررة حديثاً ، والبلدان التي كانت سابقاً مسيطرة^(٣) . والتباعد بين مستويات الامم والمناطق ، الذي سيكون اكثر فظاعة من التباعد الذي افاد منه الاستعمار ، الذي سعى اكثر الاحيان لتعميقه ، سوف يتسع بحيث لن يعود امامنا غير مستقبل قائم على تضادات مذهلة ، وتنافس لا كايح له بين الاقوياء للسيطرة على الفقراء .

مثل هذه المشاهد البصرية تبث المرارة والحدة يوماً بعد يوم في موقف البلدان التي كانت تابعة في القديم ، نحو المسيطرين القدماء . وقد بدأ الاتجاه يتجلى ، لدى الشعوب العربية ، كما لدى جميع شعوب « القوة الثالثة » ، لنبذ كل ما عند « الامم الكبيرة البيضاء » ، واطرح ليس سلطانها فحسب ، وانما ايضاً القيم (التي تباهي بها) . وهناك ميل (عند هذه الشعوب) للاكتفاء ، من علم هذه الامم ذاته ، بتلقي نواميسه فحسب ، وحتى بوصفات هذا العلم ومعداته

.....
(٣) هذا الذي يخشاه السير بانيكار K. M. Panikar في « مشاكل الدول الجديدة » ، ١٩٥٩ ، ص ١٢٩ وما يلي .

المادية اكثر من بوميسه . وهكذا ، فان الغرب الذي يقتصر دوره على تقديم المعدات والوصفات ، والذي يتحول ، بنوع من سخرية القدر وانقلاب الادوار ، الى مصدر «للمواد الاولى» بالنسبة لتابعيه القدماء ، هذا الغرب الذي ينتهي باليأس ، لا أقول من ان يصبح محبوباً ، وانما من ان يصبح يوماً موضع تفهم ، هذا الغرب قد يحمل على ان يطوي في عتات اثنائه مهددة قدرته على الاشعاع . انه قد يقصر نشاطه على تربية مواهبه التربوية القاتلة ، او على المساومة في سبيل الكسب المادي . من هو الذي لم يعد يرى ان نوعاً معيناً من « المعونة الفنية » (٤) الخصب بالكلمات الكبيرة ، وبالمرتبات العالية ، ولكن الفقير بالفعالية ، يولد نوعاً من الاستغلال ؟ أكيد ان التفاوت الحديث بين المستويات يتنزه عما كان ، في المرحلة السابقة ، يعبر عن الشعور اللاخلفي عند الاسياد . ولكن هذا التفاوت ينتصر بصورة رخيصة في مبادلات يزعم انها تعاقدية . فالمركتيلية (غلبة الروح التجارية) بين الامم (٥) ، حتى ولو كانت مصححة « بالمعونة » هي معرضة لخطر ان لا تحمل من الرضى للقلب ، او حتى من النتائج الايجابية ، اكثر مما حمل النظام الاقطاعي في العهد الاستعماري . فهي ، اذ تضع الفريقين في موقف الهادر والمهدور (المتغلي والمتغلى عنه) ، وموقف الخادع والمخدوع ، تؤدي في آن واحد الى سحق الواحد بواسطة الآخر والى كراهية بعضهما البعض ، وانحلال المنتصر الكريه .

(٤) لن نلحظ هنا ، غير نقد نوع من الاتجاه الفريسي في زمننا الحاضر . ولكن اية اشارة لن يبدر منا الى الكثير من الجهود القيمة التي تبذلها المؤسسات الدولية بجهود ، انا آخر من يفكر في التقليل من اهميتها .

(٥) بنوع غريب من نقل تجربة لما كان نمواً للمركتيلية بين الافراد ، والتي تسمى «الاقتصاد الحر» ، او الديموقراطية البورجوازية ، تيار ازدهر بعد اعلان حقوق الانسان (في الثورة الفرنسية) . لقد تم نقل هذه التجربة ، بعد انقضاء ما يقارب القرن عليها .

ولكن هل من اللازم رؤية الاشياء بمثل هذا السواد ؟ فان هذا الاحتمال ،
المبالغ فيه والمحمول الى أقصى نهاياته ، لا يخشى وقوعه الا اذا كانت حظوظ
الانسان (في الفعل) قد انحوت واندحرت امام ما لا أدري أي نوع من آلية
التفاعلات المادية المتسلسلة . ار ، بعبارة اخرى ، الا اذا كانت التحليل يتغلى
عن النزاهة ، واذا كان الفعل يتغلى عن الحصافة . وان كنت اناذي بالخطر ،
فلأنني ارجو ان أرى مواطني^٦ ينجون منه ، بانتصار العقل على الرعونة ، وسلامة
الرأي على الخطل ، وليس فقط بانتصار السباحة والسفاهة على البخل^(٦) . وعلى
العكس ، انا اعتقد ان تاريخ العرب محمول ، بفضل منطقته الذاتي ، الى نهايات
اكثر بهاء بالنسبة للآخرين وبالنسبة لهم على السواء . وان قلت بالنسبة للآخرين ،
فأنا اعني بالنسبة لهم .

أما في الفرضية التفاضلية ، فان قلمس العرب وسعيهم وبحثهم ، وحركة
سنافس سوف تتناقص يوماً عن يوم بصفتهم موضوعها وميدانها وانما سيزداد
يوماً عن يوم دورهم كلاعين فيها ، كل ذلك سيوحى لهم بحول تستجيب
لطبيعتهم العميقة ولا تتحدر من معطيات جاهزة . انهم سيرون ، كل يوم بصورة
افضل ، ان أي تاريخ لا يستطيع ان يمشي منقلباً على رأسه وان التقدم ، المعد
لأن يثير الانفعال عند طبقات من الواقع كل يوم أقل أرسقراطية ، يساوي
اكثر ، في نهاية المطاف ، من النجاحات القائمة على الهرب والتمويه . انهم يعلمون ،
علم اليقين ، ان الحرية لا تتوزع فحسب ، وانما ايضاً تستحق . واستحقاق الحرية ،
هو بناؤها . وهم يعلمون ان أية وصفة لا تساوي شيئاً ، ولكن القيمة تكمن
فقط في النواميس (التي تنبثق عنها الصفات) وان ما هو ارفع من النواميس

٦) ان لمحة هذا الكتاب تتناول مع صياغة اكثر وضوحاً ، ولكن يمكن رؤية ما أرمي
اليه (كانون الثاني ١٩٦٠)

هو القيم العلمية والخلقية التي تمنعها الضميمة . انهم بدأوا يحسون ، ويضطلعون بصورة كل يوم افضل ، انه سوف يلزمهم البحث عن حلولهم : وفي الدرجة الاولى بواسطة التحليل الاجتماعي ، ونقد الذات . اذ ان التغلبي عن الذات (هدر الذات) الأكثر خطراً هو فساد الجوهر والطبيعة ، وبالموازاة ، يتعمم عليهم ، بما لا يقل عن القوة عندنا ، تجاوز الذي مضى وانقضى .

وبعض البوادر والدلائل تشير ، تحت انواء السطح واضطرابات ، الى ان العملية قد بدأت . ولقد سبق لي ان قلتها : ان البحث عن الحرية ، وخاصة ممارستها ، يؤدي ، رغم كل الظواهر الخارجية ، الى الانضمام - وربما هو انضمام بالغ السهولة - الى نظام الفريق الآخر . وان تمسأ تدريباً بالمسؤوليات ، اذ ينقل ميدان المعركة ويعمقه ، ربما يرسل الفريقين المتنازعين في العهد الاستعماري الى متحف الاشياء القديمة حيث يرسيها ظهراً لظهر لينهض مكانهما بشيء جديد يشاد ويبني ضدما كليهما ، ويجمع في ذاته افضل ما كان يملكه كل منهما .

بالطبع ، سوف يكون المستقبل اكثر ابتداءً وتفاهة . ان خطوطه سترسم وفقاً للازمة ، والامكنة ، ووفقاً للشعوب والافراد ، ويقف على هذه المسافة او تلك من احد الطرفين المتناقضين او من الآخر ، دون ان ينطبق على واحد منها . ومع ذلك ، فان من حقي ان احرك هذا الحل المتناوب : بالضبط لانه لا واقعي ، الى حد كبير ، ولكنه يعطي التلاوين لتقديراتنا حول مستقبل العواطف العنيفة التي لا يملك المؤرخ لشؤون العرب لا الواجب ولا الحق في تحاشيها . وفوق ذلك ، فهل بوقوفي موقف البرودة العاطفية استطيع ان اصل الى تقديرات مختلفة بصورة محسوسة ؟

عندما قام مسيو دي ليسبس بحفر قناته ، في عهد الحديوي سعيد والحديوي

اسماعيل ، لم يخالجه أي قلق حول قضية الالوف من الفلاحين الذين صودروا (للمل بالسخرة في حفر الارض) والذين ماتوا بسبب مشروعه. وان لم أقع في مغالطة نفسي ، أستطيع القول ان الشركة الدولية لم تحتفظ من ذكراهم إلا بأقل القليل والفضائل التي لا ترحم والتي كانت تسود في ذلك العهد : جرأة المهندس ، واستخدام العلاقات القائمة على القوة في اتجاه واحد ، والقيادات المرتكزة على المال ، تقذف في هاوية العدم ، مدة تقارب القرن ، عذابات هؤلاء البشر ، الذين كانوا ، هم ايضاً ، مواطنين بالقوة (أي كان بإمكانهم ان يكونوا مواطنين بالفعل لو تهيأت لهم اسباب الحياة) . لقد أُلغيت قضية ١٩٥٦ الشركة المحترمة ، واستبدلت المؤسسة الرأسمالية الانجليزية - الفرنسية بمؤسسة وطنية ملحقة بالدولة (المصرية) وأدت الى نسف تمثال دي ليسبس . انها ترتكب ، اذن ، نفس المحاولة الاغتصابية التي ارتكبها القنصل الشهير ، انما بصورة اقل اراقة للدماء ، ولكن على نحو مماثل من الدلالة . انها تطرحه (دي ليسبس) هو ايضاً في بانتيون النسيان (اي في هيكل النسيان) ، مثلما طرح ، هو ذاته ، العمال . وهذا هو الحال في المرحلة التحررية التي تنسف وتبين بطولات المرحلة الاستعمارية مثلما عملت هذه الاخيرة بالنسبة لبطولات المرحلة التي سبقتها . ولكن التاريخ لا يقتصر فقط على العبادة التي تربط الناس به . ومثلما لم يستطع قدر الجماهير ، التي حفرت القنال ، ان ينطمس ، ايام كان مشروع قناة السويس ينتصر في أبهاء البورصات ، كذلك لن تزول تماماً آثار التوسع في المدنية الآلية والصناعية التي عملت على ازالة الفوارق بين اجزاء العالم ودشنت سيطرة الانسان على الطبيعة ، سيطرة نصف إلهية .

صحيح ان هذه المرحلة كانت بالنسبة للعرب مرحلة اذلال وامتهان ، الا

يفسر نبذهم لها ، اليوم ، بكل قواهم . فالانسان يبدل أبطاله لانه بحاجة لتجديد آياته ودلالاته . وهو ايضاً يحدد اخلاقيته . فهذه الاخلاقيات شديدة المدوى . و كراهية الفترة الاستعمارية تؤدي حتى الى الانتقاص من قيمة ظواهرها الخلاقة . وبعد اطراح فكرتها الاساسية ، التي كانت تنحصر في الاستغلال وتزع شخصية الشعوب ، اطراحاً مشروعاً ، تتبع ايضاً ، بصورة اقل مشروعية ، اداة الكثير من عناصرها التي لم تكن فقط مرهونة بالفكرة الرئيسية وانما ، احياناً ، عاكستها ، او « انقذتها » . وهذه الجريمة التي اقترفها توسع قوة على قوات اخرى ، هل هي من الاتساع بحيث تلوث كل الواقع الانساني الذي طالته ؟ ان هذا الامر قليل الاحتمال ، اذ ان حكماً من هذا النوع معناه المزج ، بصورة تعسفية ، بين ما يعود للتاريخ وما يعود للبيتا فيزياء ؛ اي المزج بين النسبي والمطلق . وعلى كل حال ، هنا تكمن احدى مشاكل عصرنا . وهي ، والحق يقال ، تخص العرب الذين لم يكونوا ابدأ مستعمرين ، بالمعنى الحقيقي ، اقل مما تخص شعوباً اخرى . ولكن على حلها يتوقف تطور علاقاتهم معنا ، من وجوه عديدة .

هل يستطيع الفريقان المتحاوران ، وهل يعرفان كيف يتجاوزان نفسيهما ؟ على كل واحد منهما ان يكبح في داخله الشبهات القديمة وسووات الغضب القديمة . ان علينا ان نقوم بانفسنا وبأسرع ما يمكن ، بتصفية مخلفات السيطرة القديمة ، على الاقل حتى يتاح للفريق الاخر ان يختار وان يقر بما كانت تتضمنه السيطرة القديمة من اشياء خالقة . ومن جهة اخرى ، فان على العرب ان ينزعوا « الصفة الاخلاقية » عن حكمهم ، فينظرون الى الاحداث والناس ، كل بمفرده ، ويعيدون الى المرحلة السابقة كرامتها كمرحلة تدخل في تاريخهم ذاته : مرحلة ما قبل التاريخ ، ان شئنا ، ولكن ليست كابوساً غيبياً

ميتافيزيقيا .

أية جهود يلزم في هذا السبيل ، وأية عملية لا توحم من إعادة النظر ، عندما مثلما عندنا ا ومع ذلك ، فان هذه الجهود ، يتحتم بذلها ، اذا كنا ، نحن وهم ، نريد ان نتفادى خطأين ميتين . بالنسبة لنا : ان نتابع النظر اليهم فلا نجد فيهم غير الفريسة المعروضة ابدأ للقنص ، او الضحية الجاحدة للجميل . وبالنسبة لهم : ان ينبذوا الغرب بمجرء ، اي ، بعبارة اخرى ، ان يدينوا الفعالية ، انسياقاً مع الحق على الظلم ، لاننا ارتكبنا الظلم باسم الفعالية .

تحويل سوء الحظ
الى امتياز
حاولت هذه الدراسة ان تقلص
الكثير من التضادات التي قلفت ابصارنا
في المقارنة بين الضفة الجنوبية والضفة الشمالية
للبحر المتوسط ، وبصورة اوسع ، بين وحدتين مبهتين ولكنها مثيرتان
للاحاديث مثل « الشرق » والغرب » (٨) . وقد حاولت ان ترى في هذه
التضادات تغيرات في الشكل وفي الوثيرة . ومع ذلك فهي قد اتبعت تعاليم هذه
المنطقة الاجالية من العالم بجزءها بعض الشيء بين العصور ، وباستبعادها التسلسل
الزمني . وقد كانت هناك اسباب لذلك . اذ ان الكثير من الأمكنة ومن
الاحظاظ في الشرق العربي تهرب من كل انتظام . واذا كان بحثي قد آمن
بقدرته على التمييز بين عمليات السير نحو الأمام ، وعمليات تراجي في هذا
الشرق ، فذلك على سبيل التبسط وبالقدر الذي كنت أقوم فيه بتغليب منطق
الانماط على تسلسلها الزمني (٩) .

(٨) انني اذكر بان « الغرب » الذي نتحدث عنه ، هنا . في اتصاله المباشر والمحدد مع
التاريخ الشرقي في القرن الاخير ، هو الغرب الذي يقوم على التقدم التقني ، والتوسع الصناعي ،
صيغة يقوم فيها الاتحاد السوفياتي بدور احد الابطال الاكثر دينامية .

(٩) ولكن أليست هذه هي المشكلة التي تخص كل مورخ ؟

انما لو وسعت أيضاً نظرتي ، لوجدت على قياس كل المدى العربي ، وعلى قدر هذا القرن ، أو أكاد ، هذا القرن الذي استهل « بالنهضة » ، عمليات توافق ومطابقة بين دراسة الانماط والتاريخ . وربما وجدت ما هو أفضل : ان لم تكن امكانية الاختيار بين الفرضية التفاضلية والفرضية التفاضلية حول المستقبل فعلى الاقل عناصر اقتراب ، وبذلك بالذات ، عناصر الاختيار بين الفرضية والأخرى .

عندما ينظر الى الشرق العربي من زاوية الرقعة الكبرى ، والمدى الزمني الرحب ، يبدو كما لو انه اجتاز شوطاً طويلاً على الطريق الذي يقود من الحرمان الكامل تقريباً الى عملية امتلاك ترداد ايجابية يوماً بعد يوم . لقد كانت صدمة الحضارة الآلية قاسية بالنسبة له لأنها أتته من الآخرين ولأنها لا تتسلسل من أي تحضير داخلي . وان حياة عصرية فرضت تقريباً عليه أكثر مما تلقاها بالاكتساب قد احدثت عنده مع ذلك ، الاضطرابات البنائة ذاتها التي احدثتها في كل مكان آخر ، ولكن مع آثار نفسية واجتماعية مختلفة جداً ، بل ومعاكسة . فبالنسبة اليه لم تكن الثورة الصناعية تنطبق مع السيطرة على الكرة الأرضية ولا مع التعميق الملازم للحساسية المتأججة الأهواء ، وللمس الجمالي والبحث عن الحريات .

بل على العكس ، ظل العرب طويلاً موضوع التوسع وليس صانعيه ، وضحاياه بدلاً من أن يكونوا المنتفعين به . هذا التوسع قد أحدث قطع علاقاتهم مع التاريخ والطبيعة . وفي الوقت الذي يخضعون فيه على هذا النحو ، وبصورة قاهرة ، لنمو الآخرين ، هم يتردون الى حالة أشد واسوأ من حالة التخلي والهدر : انهم مبتورون ، ومحجوبون ، ومنطوون على أنفسهم ، يعضفون

المرارة واليأس ؛ إنهم ممن يستعصي عليه العزاء ، ومفصومون عن أرواحهم على السواء . لقد أرسلت الثورة الفرنسية بونابرت الى مصر . وقد رافق غزوا الجزائر الحركة الرومانسية . وقد وجدت موجة الاستعمار الفيكتوري ، وبهجة توظيفات الاموال الكبرى والالات الضخمة جماليتها في أدب كيلنغ . وتجنح كل هذه الحيوية الشرق ، ويتجلى العهد الاستعماري فيه ، ان جرؤت على القول : بحركة رومانسية وبثورة واستعمار معكوسين . فالشرق يقبض في قرارة الموجة التي ترفع وتلمي الآخرين .

لقد انتظر الشرق فعاليته الثورية الذاتية ، مدة تتفاوت في طولها حسب البلدان ، والناس ، دون ان نستطيع القول انه أدرك النهايات في أية بقعة من بقاعه . ولكنه ككل انفخرط في المسيرة الطويلة التي تقود عبر مراحل مريرة ، من الوجود الشامل المفقود ، الى استعادة ملازمة للتاريخ والطبيعة . اكيد ان الملامح العتيقة البالية لا تزال باقية في كثير من ارجاء هذه البلدان ، وفي الكثير من مؤسساتها وبسيكولوجياتها الجماعية والفردية . ولكن لا يمكن نكران ان الطريقتي الذي تم اجتيازه هو كبير ، رغم انه اجتيز بصورة متفاوتة من قبل البعض والآخرين . والذي يبهز الانتباه هو التحول الطفري (المفاجيء) الذي بدأ على نطاق واسع في العلاقات المثلثة بين العرب والعالم والآخرين وانفسهم . انه يبهز اكثر مما يبهز الانتقال العام تقريبا ، من حالة التبعية الى حالة الاستقلال .

هذا الانسان الشرقي يعود لامتلاك الجوهر الأساسي في هذا العالم بواسطة التفتيت السياسي ، ولكن أيضاً بواسطة السيطرة على الطبيعة عن طريق

الانفعال والفعل على السواء ، والتي يقيمها بعد الآن ، على غرار الرومانسية الأوروبية . وهو المهدور والمحجوب ، يجهد لان يصبح ، بدوره ، أو لان يعود من جديد صانع ، أشياء وميلع ، وبعد قليل صانع آلات فالبناء الاقتصادي يبدو له ، ، والحال هذه ، كقاعدة كانت ثورته الوطنية تهملها بصورة انتهازية ولكن خطيرة . وبكلمة أخرى ، يلزمه أن يضع الثورة على قدميها .

وفي الوفاء بهذا الالتزام يقف حظه الكبير في العصر الحديث ، وما هو في وضع ممتاز بالنسبة لغالبيه القدماء ، بسبب أن الآلة هي بالنسبة اليه ، عودة للطبيعة ، وثاره من مهانات الزمن الماضي التي سببت له التبعية بسبب تأخره التقني . وبينما تطرح بالنسبة لنا المشاكل الانسانية للآلية الصناعية (١٠) ونخشى من قدرتنا ان تؤدي الى مسح طبيعتنا ، فان ولوج العالم الصناعي يقدم لهذا القادم المتأخر ، لهذا الابن العائد من غيبته الطويلة ، والهاب من الفعالية ، الوعود ليس فقط بارتفاع مستوى المعيشة وأولية الانسان على الاشياء ، وانما أيضاً بينابيع من الطراوة : الاكتشاف الادبي للطبيعة ، والاكتشاف العلمي للعالم والاكتشاف الاخلاقي للمرأة ، والاكتشاف الانساني النزعة للغرباء .

فبمقابل السلطات الجديدة تقوم مباحج سحرية جديدة . والعبقرية العربية

(١٠) ينتقل الفكر هنا الى آثار ج. فريدمان G. Fridman: التي يقف مقابلها وعلى نقيضها، مذهب « الانسانية التقنية » الذي يدعو اليه فيرالدي Véraldi وسيموندون Simondon الخ... هذا بالاضافة الى النزعة التفاولية العلمية في الماركسية .

القديمة ، بعد ان يتم ترميمها وتشبيدها من جديد بعد كسوفها الطويل لن تعود لأقامة تحريماتها وشعاراتها ، انها ستكون اذذاك قد نسفت اسوارها الذاتية وفي الوقت ذاته اسوار الآخرين ؛ اذ ان سرعة حركة اطلاقها آخرون من خارج قد تركت لهذه العبقرية شباهها النافذ الصبر ، وامتياز حنينها نحو المطلق الشامل ، مقابل حرمانها من حكمة السعي والتحصيل ، ومن نعمة النضج البطيء .

وبينما نرى في الكثير من البلدان « الاكثر تقدماً » و « الاكثر نضجاً » ، أن الآلة تقطع الاواصر بين الانسان والطبيعة ، وتسجنه في المشاهد القائمة المتصفة بالسهولة ، بعيداً عن خضرة شجرة الحياة ، يستطيع الانسان العربي أن يستعيد الطبيعة بواسطة الآلة ، وان يعود طبيعياً . وليس من شيء حتى الطابع المتسرع في تاريخه المعاصر ، الا ويعينه ويخدمه بعد ان سبب له العجز والارهاق: فهذا التاريخ لم يترك له الوقت ليضيق رسالته الوجدانية ، لقد قفز من فوق عصورنا البورجوازية (١١) . وهو سوف يحمل للعالم الحديث المنقسم ، والمنهوك ، والذي هو ضحية التحليل والمستمتع به ، رسالة الطراوة والنداوة ، بفضل سلوكه النازع الى الشمول الكلي .

فاذا تحققت هذه النظرات (التنبؤية) ، واذا لم تنتصر عنده ، مثلما عندنا ، قوى الحقد والضعينة ، عندئذ يكون العربي قد عقد معنا أواصر الرفقة الصالحة

(١١) فيكون اذن قد وفر على نفسه مشاحناتها المساوية .

وذلك بفضل التقدم المادي وبالرغم منه ، وبفضل الثورات الاخوية التي تندلع
في عصر الحديد وبالرغم منها ، ويكون قد ختم مع الآخرين ، والعالم ونفسه ،
صك التحالف الذي لم ينس طعمه . ليس تحالف ابراهيم « الخليل » * « خليل الله
وصديقه » وانما تحالف هرقليطس ، صديق الأشياء ، وأبينا المشترك .

ختام

فهرس المواد

الصفحة	الموضوع
٧	المقدمة
١٤	الفصل الأول - انقسام الانسان التقليدي
١٥	« القديم » * : « القديم » أو « العضوي »
١٨	الكلاسيكية الدمشقية
٢٦	البدوي الأبدى
٣٠	الهليني الجهني
٣٦	الفتنة الحديثة
٤٠	الفصل الثاني - عوامل متغيرة وعوامل لا تتغير
٤١	الحوار حول الشرق والغرب أيضاً
٤٤	الآية والموضوع

الصفحة	الموضوع
٥٠	الشرق الزماني
٥١	الشرق الاجمالي
٥٦	الشرق التاريخي
٥٩	الملامح العربية الاصلية والقاسم المشترك الدولي
٦٥	الفصل الثالث - الاقتراب من الجانب الاقتصادي
٦٨	الاخلاق والاقتصاد
٧٣	المخاطرة
٧٧	الشيء
٨٥	العدد
٩٣	نظرة اجمالية
٩٦	الفصل الرابع - الجانب المالي : داء الدلالة
٩٨	صعوبات وتهديدات
١٠١	لجوء الى المجهول الشرقي
١٠٥	تكوين رأسمال عربي
١١١	الأزدهار المصرفي
١١٥	الأخلاق والاشياء
١٢٠	الاستعياء أمام الذات
١٢٢	الفصل الخامس - بلوغ التقنية أو بعث الشيء
١٢٤	كلمات وأناس

الصفحة	الموضوع
١٣٠	معدات ومشاهد
١٣٥	نحو حضارة الشيء الصناعي
١٣٩	ثلاثة فحوص للضمير
١٤٨	الفصل السادس - ترددات حول المنشأة
١٤٩	تطبيقات شرقية للنظرية
١٥٣	الملامح التاريخية للمنشأة في مصر
١٥٧	النظام والحياة
١٥٩	البراعة البنائية
١٦٣	مؤسسة بنك مصر وزميلاتها
١٧٢	الفصل السابع - امامة العصر الحديث
١٧٤	دراسة غمطية للنظام الموجه في الشرق
١٨١	الاقدام المصري الناشط
١٨٧	جولة حول حركة التصنيع الشرقية .
١٩٥	من نظام الاصلاح الاصولي الى الطفرة نحو التقدم
٢٠٠	الفصل الثامن - الصعود نحو الأسس
٢٠٣	المصنع العزيز على القلب
٢٠٦	ارتقاء الطبقات
٢١٢	النظام التعاوني في مصر
٢١٩	ولادة الكومونات العسيرة
٢٢٦	المخطاط الطبقات الريفية واعادة تكوينها

الصفحة	الموضوع
٢٣٣	الفصل التاسع - حجب المرأة
٢٣٤	الذكورة
٢٣٩	أمهات وبنات
٢٤٤	الانطلاقة النسائية في العراق
٢٤٨	الحركة النسائية في مصر
٢٥١	ثورة القلب والجسد
٢٥٧	المرأة العربية والتاريخ
٢٦١	الفصل العاشر - مقامات الكلمة
٢٦٢	الرواد
٢٦٨	اكتشاف الطبيعة
٢٧٠	اعادة الاعتبار للفن الشعبي
٢٧٣	اختراع المسرح
٢٧٨	من الكلمة الى لغة التخاطب
٢٨٠	الاتصال بالجمهور
٢٨٤	الواقعية والرمزية
٢٩٠	الجوانب الدينية واللا دينية من اللغة
٢٩٤	الفصل الحادي عشر - الزخرف العربي ، والموسيقى واستخدام التاريخ
٢٩٧	عداوة الفن العربي للتصوير
٣٠٤	الشعور الموسيقي التقليدي

الصفحة	الموضوع
٣٠٨	الحوار بين الشرق والغرب أيضاً وأيضاً
٣١٧	المراحل الكبرى للموسيقى المصرية
٣٢٢	الاتجاهات الجديدة للموسيقى
٣٢٧	المحاولات والتقنيات التشكيلية
٣٣٥	الموسيقى والفعل
٣٣٩	الفصل الثاني عشر - القيم السياسية
٣٤٠	السياسة العربية والتقدم الاجتماعي
٣٤٧	التشكلات الضيقة
٣٥٨	التشكلات الواسعة
٣٦٥	حضور الآخرين
٣٧٠	الحالات الثلاث للحركة الوطنية
٣٨٢	الفصل الثالث عشر - محاولات تجاوز
٣٨٨	جيلان : عودة الى طرح القضايا
٣٩٢	مفكرون ثوريون
٤٠١	انسانية الخطأ
٤٠٧	محاولة تفسير
٤١٠	التوق للوجود الشامل

٤١٣	الفصل الرابع عشر - العرب والعالم ونحن
٤١٤	ماهية الشرق العربي
٤١٨	الفرضيات
٤٢٥	تحويل سوء الحظ الى امتياز